جامعة المنصورة
كلية الآداب
قسم التاريخ



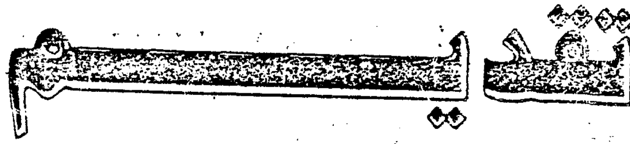
تاريخ الخلافة العباسية

١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ
٧٥٠ ـ ١٢٥٨ م

دكتور
حسين عبد الرحيم عليوة
أستاذ التاريخ والآثار الإسلامية

١٩٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم



المعالم الرئيسية لتاريخ الدولة العباسية

عمرت الخلافة العباسية فترة تزيد على خمسة قرون ، إذ قامت سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠م) عقب سقوط الخلافة الأموية وسقطت على أيدى المغول سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) عندما دخلوا بغداد وقتلوا الخليفة العباسى المتعصم بالله وتولوا سلطة الحكم .

وتميزت الدولة الإسلامية فى ظل الخلافة العباسية بعدة خصائص ومعالم يمكن إجمالها على النحو التالى :-

أولا : اتساع نطاق الدعوة الإسلامية وانتشارها وبخاصة فى الأقاليم الشرقية كايران والتركستان والسند ، بالإضافة لانتشارها فى بلدان المغرب الأفريقى والأندلسى ، ويمكن القول أنه إذا كان عهد الدولة العربية قد شهد نشاطا كبيرا فى حركة التوسع والفتوحات [illegible] العباسية شهد إنتشار اللغة العربية ، والدين الإسلامى ورسوخ مبادئه بين شعوب البلدان المفتوحة كما شهد نضج النظم المختلفة ، ووضوح مظاهر الحضارة الإسلامية .

ثانيا : انتشار ظاهرة الاستعراب ، وتعنى دخول شعوب غيرعربية فى حوزة الدولة ، واتخاذها اللغة العربية لغة قومية ،فقد ضمت الدولة الإسلامية فى العصر العباسى شعوبا غير عربية ، وحد الإسلام بينها وبين الشعوب العربية ، وقد ميزت ظاهرة الاستعراب عهد الدولة العباسية عن عهد الدولة العربية

الذى يضم عصر النبوة والخلفاء الراشدين والخلافة الأموية وذلك لغلبة العنصر العربى على الدولة العربية ، وغلبة العناصر غير العربية على الدولة العباسية .

ثالثا : اعتماد الخلفاء العباسيين على عناصر غير عربية كالعنصر الفارسى فى مرحلة الدعوة وعند قيام الدولة ، ثم على العنصر التركى فيما بعد وحتى سقوط الخلافة ، وقد أسهمت هذه العناصر بدور كبير فى إقامة دعائم الدولة وترسيخ نظمها ، ونشر علومها وآدابها وفنونها ، وإن كانت تطلعاتها السياسية ، وقوة نفوذها ، قد أدت إلى ضعف سلطان الخلافة فى كثير من الأحيان ، وبالتالى ضعف الدولة نفسها .

رابعا : قيام نهضة علمية وأدبية وفنية كبيرة خلال العصر العباسى ، وتمثل هذا فى ظهور كثير من العلوم والمعارف والآداب والفنون وتطورها ، كماشهد العصر نفسه اهتماما ملحوظا بحركة الترجمة بنقل معارف الأقدمين وعلومهم وترجمتهم إلى اللغة العربية .

كما تميز العصر العباسى بزيادة النشاط الاقتصادى فى مجالاته المختلفة من زراعة وصناعة وتجارة ونقل وبريد وغيرها ، ويعود هذا النشاط إلى عدة أسباب من أهمها إباحة تملك الأراضى ، والتخفيف من الضرائب المفروضة ، واستقرار أهل الريف ،بعد أن كانت الهجرة من الريف إلى الحضر على أشدها قبل ذلك العصر، بسبب الكساد الذى كان شائعا بالريف ، كما كان لزيادة التبادل التجارى فيما بين

بلدان الدولة والبلدان الأجنبية كالصين والهند شرقا ، وأوربا غربافضلا عن اتساع حدود الدولة ، وتنوع خيرات بلدانها ، والعلاقات الطيبة التى سادت بين الدولة العباسية والدول الأوربية .

خامسا : ظهور حركات الاستقلال الذاتى بقيام الدويلات المستقلة شرقا وغربا مع اعترافها بالولاء والطاعة للخلافة العباسية ، وموافقة الخلافة على قيامها ، فقد أدت هذه الظاهرة وانتشارها فى القرن الثالث الهجرى إلى صبغ الحكم بصبغة اتحادية فيما بين البلدان التابعة للخلافة العباسية ، فى حين كان شكل الحكم يتخذ طابعا مركزيا فى عهد الدولة العربية قبلها ، وتجدر الإشارة إلى أن ظاهرة الدويلات المستقلة ـ التى قامت على أكتاف أسرات معينة تتولى الحكم لعدة سنوات هنا أو هناك ـ لم تكن وليدة ضعف الخلافة فى هذا الوقت بالذات (قرن ٣هـ / ٩م) كما أنها لم تؤد إلى إضعاف الدولة أو الخلافة ، بل على العكس من ذلك .

أدى قيام هذه الدويلات المستقلة فى ذلك الوقت بالذات إلى توفر استقرار سياسى ملحوظ ، وازدهار اقتصادى ملموس فى البلدان التى قام بها هذا النظام ، بالمقارنة بينها وبين البلدان التى لم يقم بها هذا النظام ، حيث كان حكامها يتسابقون ويتنافسون فى إثبات جدارتهم بالحكم ، بتوفير مزيد من الإستقرار والإزدهار للبلدان التى يتولون حكمها ، مع احتفاظهم فى الوقت نفسه بالتبعية للخلافة العباسية من خلال عدة أشعرة وشارات ونظم ظلوا متمسكين بها لإعلان ولائهم للخلافة العباسية ، أو عدم استقلالهم أو استغنائهم عنها .. ولما كانت الخلافة العباسية قد عمرت أكثر من

سة قرون فقد اصطلح المؤرخون المحدثون على تقسيم عهدها إلى عصرين : أول وثان ، أو إلى أربعة عصور بحسب توافر خصائص معينة سياسية واقتصادية واجتماعية تميز كل عصر عن غيره .

ومن الواجب ألا تقتصر دراسة الدولة الإسلامية خلال العصر العباسي على التاريخ السياسي والعسكري فقط ، وإنما تمتد لدراسة الجوانب الحضارية المختلفة ، من نظم سياسية وإدارية ومالية وقضائية وحربية . ومظاهر حضارية متنوعة ، من علوم وآداب وفنون ، واقتصاد ونقل وانشاء مدن ، وغير ذلك من المظاهر ، وترجع أهمية هذه الدراسات الحضارية إلى أن ذلك العصر شهد نضج الشخصية الإسلامية بعدما ابتعدت عن المؤثرات التي صاغت مرحلة النشأة الأولى

العصر العباسى الأول

١٣٢ - ٢٣٢ هـ

٧٥٠ - ٨٤٧ م

قيام الدولة العباسية

نهاية الدولة الأموية :

يمكن اعتبار عهد الخليفة الأموى الأخير مروان بن محمد (١٢٧ -١٣٢ هـ / ٧٤٥ - ٧٥٠ م) بداية النهاية للدولة الأمويـة ، فقد تضـافرت عـدة أسـباب وظـروف كانت وراء سقوط الدولة الأموية ، من اهمها انقسام البيت الأموى على نفسه نتيجة التنافس بين أبنائه على الحكم ، وتولية العهد لأكثر من واحد ، فلم يكد الأمر يتم لولى العهد الأول حتى يسارع بإقصاء ولى العهد الثانى ، وجعل وراثة العهد فى أبنائه هو مما كان يؤلب أتباع الثانى على الأول فيظهر الشقاق والانقسام بين الإثنين ، وقد تكرر هذا فى عهد كل من مروان بن الحكم ، وعبد الملك بن مروان ، والوليد بن عبد الملك .

كما كان لتفشى روح العصبية القبلية فى أقاليم الدولة أثره فى إضعافها ، ومن المعروف أن هذه الروح كانت قد خمدت تماما فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، حيث استقطبت الدعوة الإسلامية إهتمام الجميع وجهدهم ، ثم جاءت حركة الفتوحات الإسلامية لنشر دين الله فى عهد الخلفاء الراشدين لتستحوذ على قوة الجميع ونشاطهم ، ولكن ما لبثت نيران العصبية القبلية أن اشتعلت من جديد بين عرب الشمال وعرب الجنوب فى العصر الأموى ، وزاد من اشتعالها تحيز بعض الخلفاء الأمويين مرة إلى قبائل الشمال وأخرى إلى قبائل الجنوب ، فضلا عن سياستهم العنيفة التى اتبعوها فى البطش بأعدائهم ومخالفيهم ، بقتل زعماء القبائل وشيوخها ، الأمر الذى ضاعف من نيران حرب القبائل مع بعضها ، وبالتالى

استنفذت هذه النيران وتلك الحروب الكثير من اهتمام الخلفاء ، وأموال الدولة وجيوشها وعتادها ، كما أثر أيضا على مكانة البيت الأموى الحاكم نفسه ، وعلى سبيل المثال عندما انحاز يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ) إلى المضريين – أى الشماليين - ضد اليمنيين – أي الجنوبيين – وانتهى النزاع القبلى بمقتل يزيد بن المهلب بن أبى صفرة وكثير من أهل بيته اليمنيين ، ثارت القبائل اليمنية ثورة عارمة ضد البيت الأموى ، كما يرى المؤرخون أن مقتل خالد بن عبد الله القسرى والى العراق وزعيم القبائل اليمنية فى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك كان من أقوى الأسباب التى أدت إلى سقوط الأمويين ، فقد أثار مقتله اليمنيين الذين لم ينسوا بعد مقتل المهلب من قبله فثاروا ضد الأمويين فى دمشق – عقر دار الخلافة – وفى فلسطين ونادوا بخلع الخليفة الأخير مروان بن محمد .

وأغلب الظن أن ابتعاد مروان بن محمد فى أخريات أيامه ، واتخاذه أقليم الجزيرة - فى أعالى بلاد العراق والشام - مقرا للحكم بدلا من دمشق - يرجع إلى كثرة اليمنية وثوراتهم فى حين كان القيسية من العرب الشماليين يمثلون الأغلبية والسند له بأقليم الجزيرة .

ويضاف إلى الأسباب السابقة كثرة المناوئين للأمويين ، فقد عارضهم أهل المدينة المنورة لانتمائهم إلى اليمنية ، واعتبروا الأمويين مغتصبين للحكم ، كما كان الشيعة يعادون الأمويين منذ بداية حكمهم لما هو معروف من معارضة شيعة على بن أبى طالب للأمويين فى الوصول إلى الخلافة ، وجاء مقتل الحسين بن على فى كربلاء سنة ٦١ هـ (٦٨١ م) موجدا لصفوف الشيعة ، وعاملا إضافيا لعوامل أخرى سابقة وراء خروج الشيعة وثوراتهم المتكررة ضد الأمويين ، منذ قيام دولتهم وحتى

نهايتها ، وهو الأمر الذى أدى إلى ضعف الخلافة وضياع هيبتها ، ومايقال عن الشيعة ينطبق أيضا على الخوارج الذين أدت ثوراتهم العديدة ، وتصدى الأمويين لها إلى بذل الكثير من الوقت والجهد والمال والسلاح من جانب الخلفاء الأمويين وقد أدت سياسة الخلفاء العنيفة مع معارضيهم إلى خلق حالة من التذمر والضيق ضد الأمويين ، مما شجع وهيأ الفرصة للدعاة العباسيين للحط من شأن الأمويين ونشر الدعوة للعباسيين .

كما كان لانغماس بعض الخلفاء فى حياة اللهو والدعة ، وانصرافهم عن مواجهة أعباء الحكم أثرهما فى ضعف الخلافة وضياع هيبتها ، ومن أمثلة هؤلاء يزيد بن معاوية ، ويزيد بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد ، ومما يذكر أيضا أن انقسام المسلمين فى أواخر عهد الأمويين إلى عرب وموالى أدى بدوره إلى ضعف الدولة الأموية ونجاح العباسيين فى دعوتهم ، وفى إقامة دولتهم فيما بعد ، فقد كان الموالى — وهو المسلمون من غير العرب - يحقدون على الأمويين لشعورهم بأنهم حرموهم من كثير من الحقوق التى يتمتع بها العرب ، وقد نجح الدعاة العباسيون فى استغلال هذا الشعور فى نشر دعوتهم بينهم ، وضمهم إليهم ، والاعتماد عليهم فى الاطاحة بالأمويين ، ثم فى تدعيم أركان دولتهم الوليدة .

وقد صور المؤرخ " المسعودى " فى كتابه " مروج الذهب ومعادن الجوهر " الأحوال التى ساعدت على زوال ملك بنى أمية فى عبارة واضحة قال فيها " سئل بعض شيوخ بنى أمية ومحصليها (أى العارفين بتاريخ الدولة وأخبارها) عقب زوال الملك عنهم إلى بنى العباس : ما كان سبب زوال ملككم ؟ قال : إنا شغلنا بلذاتنا عن

نفقد ماكان نفقده بلزمنا ، فظلمنا رعيتنا ، فيئسوا من إصلاحنا ، وتمنوا الراحة منا ، وتحومل على أهل خراجنا فتخلوا عنا ، وخربت ضياعنا ، فخلت بيوت أموالنا ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم (أى مصالحهم) على منافعنا ، وأمضوا أمورا أخفوا علمها عنا ، وتأخر عطاء جندنا (أى رواتبهم) فزالت طاعتهم لنا ، وا... أعادينا ، فتظاهروا معهم على حربنا ، وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أ... وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا ".

العباسيون والدعوة العباسية :

العباسيون

ينتسب العباسيون إلى العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف عم الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويعد ابنه عبد الله من أشهر مفسرى القرآن الكريم، ومن أهم رواة الحديث النبوى الشريف ، وقد آلت إلى ابنه على بن عبد الله ابن العباس إمامة الدعوة العباسية - عندما تنازل عنها أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفيه بن على بن أبى طالب زعيم الشيعة الكيسانية وإمامها ، ويقال إن اختياره إماما للشيعة تم فى مؤتمر عقد بالحجاز فى أواخر العهد الأموى بين زعماء البيت الهاشمى من علويين وعباسيين .

وقد تم التنازل بعدما دس السم له بالقرب من الحميمة بإيعاز من الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك ، لخشيته منه على ملكه لما لمسه فيه من علم وبلاغة وذكاء حاد ، ولما هو معروف من تطلع العلويين للخلافة لقناعتهم باغتصاب معاوية بن أبى سفيان لها من على بن أبى طالب ، وكان الدافع لهذا التنازل عدم وجود ذرية لأبى هاشم ، وبالتالى ورث بنو العباس جميع خطط الدعوة السرية عن العلويين .

ازدادت دعوة العلويين بأحقيتهم فى الخلافة بعد مقتل الحسين بن على فى كربلاء ، وتكررت ثوراتهم ضد الخلفاء الأمويين فى كثير من بلدان الدولة بما فيها الشام - عقر دار الخلافة الأموية ، غير أن حق الإمامه لدى العلويين كان قد تحول منهم - كما ذكرنا إلى أبناء عمومتهم العباسيين عندما تنازل أبو هاشم بن محمد بن الحنفية - زعيم وإمام الشيعة - عن حقه فى الإ[illegible] إلى محمد بن على بن عبد الله بن

بالعباس ـ عندما شعر بدنو أجله سنة ٩٨ هـ (٧١٧ م) فأبلغه في مكان يقال له الحميمة ـ في أرض الشراة بين بلاد الشام والحجاز ـ بأسرار الدعوة التى ينشرها الهاشميون للرضا من آل محمد ، أو الرضا لآل البيت،كما كشف له أسماء الدعاة بالكوفة .

ويدل هذا التنازل العلوى للعباسيين عن حقهم فى الإمامة على الود والصفاء اللذين كانا بينهما كأبناء عمومة وحد بينهما عداؤهما للأمويين ، كما ساعد على ذلك أن الفرع العباسى من آل البيت كان فى ذلك الوقت [أواخر القرن الأول الهجرى] أكثر نشاطا وكفاية فى السياسة ، وأكثر حماسا للوصول إلى النفوذ والسلطان من أبناء عمومتهم العلويين ، وربما يرجع هذا التنازل أيضا إلى عدم توافر من يصلح من العلويين لانتقال الإمامة إليه ، ولكن تجدر الإشارة إلى أن هذا التنازل لم يكن تنازلا جماعيا من جميع العلويين للعباسيين ، بدليل أن فريقا منهم ظل متماسكا بإمامته للعلويين وأخذ يناصب العباسيين العداء ويطالب بحقه فى الإمامة والزعامة والخلافة بعد قيام الدولة العباسية .

واستمر محمد بن على العباسى فى اتباع السياسة الحذرة فى نشر الدعوة، فأحاطها بالسرية الكاملة حتى لايبطش به وبأتباعه الأمويون ، وطلب الدعاة أن تظل الدعوة للرضا من آل محمد أو آل البيت دون تسمية الإمام المدعو له ، وذلك كسبا للعلويين إلى جانب الدعوة ، وحرصا على استقطاب أكبر عدد ممكن من جمهور المسلمين إلى جانب الدعوة .

وقد اختارت الدعوة العباسية مناطق خراسان والكوفة لنشر مبادئها ، وذلك لما هو معروف من كثرة المتشيعين هناك لآل البيت ، فضلا عن تعاطف الفرس بالذات

للدعوة ، لأنهم لمسوا فى نظرية الإمامه التى يطبقها العلويون مايذكرهم بنظرية الحق الملكى المقدس ، التى كانت شائعة عندهم ومتبعه فى عهد الأكاسرة ، كما كان لتذمر الموالى من الفرس ضد الأمويين ، أثره فى سرعة انتشار الدعوة بينهم ومساندتهم لها. ، وتم توجيه الدعاة إلى الأقاليم الأخرى حيث كانوا يتخفون فى زى النجار ، أو وراء ستار أداء فريضة الحج بمكة المكرمة وزيارة المدينة المنورة بالحجاز .

وفى سنة ١٢٥ هـ (٧٤٢ م) توفى الإمام محمد بن على العباسى فآلت الإمامة من بعده إلى ابنه ابراهيم ، وفى عهده دخلت الدعوة مرحلة العلانية التى بدأت سنة ١٢٧ هـ (٧٤٤ م) ويرجع الفضل فى هذا التحول إلى جهود الداعية الفارسى أبى مسلم الخراسانى الذى كان قد اتصل بابراهيم الإمام ، وأخذ على عاتقه نشر الدعوة بإقليم خراسان حتى تم له تقويض سلطان الأمويين بها ، وقد ولد ونشأ أبو مسلم الخراسانى فى أصفهان ، وانتقل من خراسان إلى الكوفة حيث انضم إلى الدعاة العباسيين عن طريق الداعية بكير بن ماهان ، وتدرج فى الدعوة حتى اتصل بابراهيم الإمام وفوض إليه أمر الدعوة فى خراسان سنة ١٢٨ هـ (٧٤٥م) ، واستغل أبو مسلم الصراع القبلى القائم هناك بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، واستطاع ضرب كل فريق بالأخر والانتصار على العرب جميعا هناك . وأدى إنتصار أبى مسلم على هذا النحو إلى لجوء نصر بن سيار والى الأمويين على خراسان إلى الخليفة مروان بن محمد ، لاطلاعه على قوة أبى مسلم وخطورة الدعوة للعباسين بخراسان ، وضعف الجند الأموى أمامها ، وربما كانت ثورة الحارث بن سريح سنة ١٢٨هـ (٧٤٥م) .من أهم الثورات التى شهدتها خراسان ،وكانت تضم الموالى فى خراسان وبلاد ما وراء النهر ، وقد تجددت ثورات الموالى هناك بعد موت الحارث بعام واحد

وتزعمها أبو مسلم الخراساني ، وانتهت بسقوط دولة الأمويين سنة ١٣٢هـ (٧٥٠م)
وإذا عدنا إلى تطور الدعوة نجد أنها ظلت سرا لا يعلمه إلا الدعاة ومعاونيهم حتى وقع في يد الخليفة الأموى الأخير مروان بن محمد خطاب مرسل من ابراهيم الامام إلى داعيته بخراسان أبى مسلم الخراساني ، فتم القبض على ابراهيم الامام وسجنه في حران ، حيث قتل هناك وعهد ابراهيم بالإمامة من بعده إلى أخيه عبد الله فانتقلت الامامة ـ أى زعامة الدعوة ـ إلى أخيه وولى عهده أبى العباس عبد الله بن محمد الذى لقب فيما بعد بالسفاح وهو أول خلفاء الدولة العباسية بعد قيامها .

كما أوصاه أخوه بالتوجه إلى الكوفة ، وهناك كان أبو سلمة الخلال يتولى أمر الدعوة بعد مقتل ابراهيم الامام ، وفى عهده بلغ العداء بين دعاة العباسيين والأمويين مداه عندما حلت الهزيمة بالأمويين وقائدهم يزيد بن عمر بن هبيرة خارج الكوفة ونجح أبو سلمة الخلال فى دخول الكوفة على رأس جنده فى أوائل سنة ١٣٢هـ (٧٥٠م) ومن الجدير بالذكر أن الامام أبو العباس عبد الله وأخاه أبا جعفر كانا قد دخلا الكوفة من قبل متخفين من عيون الأمويين ، وذلك فى شهر صفر من السنة نفسها ، ونزلا مع أهليهما على أبى سلمة الخلال الذى كان يلقب فى ذلك الوقت بوزير آل محمد ، فأنزلهم بدار الوليد بن سعد مولى بنى هاشم فى مكان يعرف باسم " بنى داود" ، وأخفى أمرهم قرابة أربعين يوما حتى لا يتسرب خبر اقامتهما بالكوفة إلى رجال الامويين .

وفى نفس الوقت كان أبو مسلم الخراسانى قد وجه جيوشه إلى العراق بقيادة قحطبة بن شبيب الطائى ، وانتصرت على الجيش الأموى بقيادة حوثرة بن سهيل الباهلى ويزيد بن عمر بن هبيرة حاكم الكوفة الأموى ، وتقهقر الجيش الأموى إلى

جلولاء إلى الشرق من الفرات وتعقبه الجيش العباسى بقيادة قحطبة وانتصر عليهم فى ليلة التاسع من المحرم سنة ١٣٢هـ ، وهرب يزيد بن هبيرة إلى مدينة واسط ، ولحق به بعد قليل حوثرة الباهلى كما قتل فى أثناء المعركة القائد قحطبة بن شبيب ، فتولى قيادة الجيش العباسى ابنه الحسن بن قحطبه وعندما دخل الجيش العباسى الكوفة بايع قادته أبا سلمة الخلال أميرا عليها ، وأصبحت الكوفة ملتقى لجيوش الدعوة العباسية المنتصرة ، والقادمة من خراسان ،بالاضافة إلى كونها المقر الذى يقيم به الامام أبو العباس وأخوه أبو جعفر وأهليهما .

ومع هذه الانتصارات تمت مبايعة أبى العباس بالخلافة من الجند والقادة الخراسانية فى ٣ ربيع الأول سنة ١٣٢هـ بالكوفة ، كما تمت له البيعة فى خراسان وإيران ،وتم فى أواخر السنة نفسها رفع الأعلام السوداء – شعار العباسيين على حصون دمشق – حاضرة الدولة الأموية . ويلاحظ مرور ثلاثة أشهر بين دخول الجيوش الخراسانية الكوفة فى المحرم سنة ١٣٢هـ ومبايعة أبى العباسى بالخلافة بها ، ويفسر هذا التأخير فى المبايعة بأحد سببين :

أولهما :أن الخراسانية لم يكونوا متحمسين لمبايعة أبى العباس ، لميلهم إلى مبايعة أخيه أبى جعفر ..

وثانيهما:يتعلق بما ورد فى بعض الروايات التاريخية من أن أبا سلمة الخلال كان يرغب فى مبايعة أحد العلويين بالخلافة ، حيث تذكر بعض الروايات أن بنى ا لعباس أخذوا على أبى سلمة الخلال بعض التصرفات العدائية ضدهم ، كحرصه على اخفائهم عن عيون الناس أكثر من شهر ، وتقتيره عليهم فى الأموال ،ومكاتبته ثلاثة من كبار العلويين للقدوم إلى الكوفة ليتولى أحدهم

الامامة والخلافة ، ظنا من أبى سلمة أن الدعوة للرضا من آل محمد تعنى امامة العلوين ، وكان من نتيجة هذه التصرفات أن أساء الامام العباس استقبال أبى سلمة الخلال بعد مبايعته بالخلافة ، وعندما اعتذر أبو سلمة عن هذه التصرفات تظاهر الامام بقبول اعتذاره ،إلاأنه كان يضمر له أمرا آخر ، وقرر تأجيل الخلاص منه لما بعد استقرار قيام الدولة ، حيث أنه أوكل أمره بعد ذلك إلى أبى مسلم الخراسانى ، وأوعز إليه بالتخلص منه ، وتم ذلك بالفعل على أيدى رجال أبى مسلم ، فتم قتله ودفنه فى هاشمية الكوفة فى رجب سنة ١٣٢هـ .

وكانت جيوش العباسيين والخراسانية قد توجهت من خراسان إلى العراق ، واستولت على مدنه الكبيرة ، ووقعت معركة نهر الزاب فى جمادى الآخرة سنة ١٣٢هـ بقيادة عبد الله بن علىّ عم الخليفة بين تلك الجيوش والجيش الأموى بقيادة الخليفة مروان بن محمد ، فانهزم الأخير وتقهقرت قواته وهو معها إلى نهر الزاب الأصغر ومنه إلى الموصل ، ثم فر هاربا إلى فلسطين والاردن وعبدالله بن على يتتبعه ويلاحقه بالهزائم ثم هرب إلى مصر وجيوش العباسيين تتعقبه بقيادة صالح بن على العباسى حتى تم قتله عند بلدة أبو صير من أعمال الفيوم فى السابع والعشرين من ذى الحجة سنة ١٣٢هـ وبمقتله سقطت دولة الأمويين فى المشرق ، وقامت دولة العباسيين التى عمرت فى الحكم أكثر من خمسة قرون (١٣٢ـ ٦٥٦هـ/٧٥٠ـ ١٢٥٨م) وكما قلنا من قبل اصطلح المؤرخون على تقسيم هذه الفترة الطويلة إلى أربعة عصور متميزة ، يمثل أولها العصر الذهبى للدولة العباسية ، حيث حكم الدولة خلاله تسعة من الخلفاء العظام انتهجوا سياسة واحدة قوية حققت استقرارا للدولة الجديدة ، ونهضة عمرانية وفنية كبيرة ، وازدهارا علميا ولغويا وأدبيا مشهودا ، ليس فى حاضرة الدولة وحدها ولكن فى سائر أقاليمها العديدة .

جدول بأسماء خلفاء

العصر العباسي الأول

(١) أبو العباس السفاح	١٣٢ ـ ١٣٦هـ
(٢) أبو جعفر المنصور	١٣٦ ـ ١٥٨ هـ
(٣)محمد المهدى	١٥٨ ـ ١٦٩ هـ
(٤) موسى الهادى	١٦٩ ـ ١٧٠ هـ
(٥)هارون الرشيد	١٧٠ ـ ١٩٣ هـ
(٦) محمد الأمين	١٩٣ ـ ١٩٨ هـ
(٧)عبد الله المأمون	١٩٨ ـ ٢١٨ هـ
(٨)محمد المعتصم	٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ
(٩)هارون الواثق	٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ

خلفاء العصر العباسي الأول

(1) أبو العباس السفاح ١٣٢ ـ ١٣٦ هـ/ ٧٥٠ – ٧٥٥ م

ولد أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بالحميمة سنة ١٠٤هـ ، وتولى الخلافة سنة ١٣٢ هـ كأول خليفة من بني العباس ، ولم يطل به الحكم أكثر من خمس سنوات تقريبا ، واتصف عهده بتصفية لبعض المشاكل المترتبة على زوال دولة الأمويين وقيام دولة العباسيين ، وأهمها محاولته التخلص من بقايا البيت الأموي ، وتبعا لذلك وقعت عدة مذابح ذهب ضحيتها كثير من الأمويين ، مما اضطر البعض منهم كعبد الرحمن بن معاوية الأموي الذي فر إلى الأندلس وكون دولة له إلى الهرب بعيدا عن بطش السفاح هناك سنة ١٣٨ هـ ، ولم يكتف السفاح بالبطش بالأحياء من الأمويين وإنما أمر رجاله بنبش قبور الأموات من خلفائهم والتمثيل ببقايا جثثهم فيما عدا قبر الخليفة عمر بن عبد العزيز لاعتراف السفاح بفضله وجليل أعماله كما اتسمت تصرفات الخليفة السفاح بالغدر ، حيث أنه بدأ يغدر ويبطش ببعض الشخصيات التي عاونت العباسيين في مرحلة الدعوة وعند قيام الدولة ، وكان وزيره أبا سلمة الخلال أول من تخلص منهم السفاح ، ويعود حنقه عليه إلى ما سبق ذكره من اتهام العباسيين لأبي سلمة بأنه كان يتطلع إلى تحويل الخلافة إلى العلويين ، ولما كان السفاح حريصا على عدم اغضاب الفرس عليه ، فإنه ترك أمر التخلص من أبي سلمة الخلال إلى أبي مسلم الخراساني الذي لاقت الفكرة قبولا عنده لأنه كان يرى في أبي سلمة الخلال شخصية منافسة له ، وإن كان الاثنان ينتميان إلى الفرس وبالفعل تم قتل أبي سلمة على يد بعض رجال أبي مسلم ودفن بالكوفة .

غير أن هذا الحادث جعل أبا مسلم الخراسانى يتفهم نوايا العباسيين ، فحرص على التمكين لنفسه بخراسان فتخلص من شخصية فارسية كبيرة أخرى - هى شخصية سليمان بن كثير لضيقه بنصائحه وتدخله فقتله .

وقد أدت هذه السياسة إلى بداية كراهية العرب للعباسيين والفرس ، فقامت عدة ثورات مضادة فى كثير من البلدان كانت أشدها ثورة " أبى الورد " بالشام ، ولكن الخليفة السفاح قضى عليها جميعا بما عرف عنه من شدة وبطش مع المخالفين له ولسياسته .

ولم يسلم أبو مسلم الخراسانى نفسه من غدر السفاح ومكره ، فلم يقبل السفاح طلب أبى مسلم أن يتوجه للحج سنة ١٣٦ هـ لأن هذا يعنى أن يكون أبو مسلم على رأس إمارة الحج ، فما كان من السفاح إلا أن طلب من أخيه أبى جعفر أن يكون على رأس الحاج فى هذا العام ، وتدلنا هذه الحادثة على أن العباسيين كانوا مع اعترافهم بالفضل للشخصيات الفارسية التى ساعدتهم كانوا حريصين كل الحرص على إمامتهم وزعامتهم للمسلمين .

وبالإضافة إلى الأعمال السياسية ارتبط عهد السفاح ببعض الأعمال الأخرى كاهتمامه بطريق الحاج وتأمينه فيما بين الكوفة ومكة المكرمة باعتباره الطريق الموصل بين عاصمة الدولة الجديدة والعالم الإسلامى ، فتم تقسيم الطريق إلى أميال ، واقامة استراحة عند نهاية كل ميل لتأمين الطريق من جهة ، وتوفير الراحة للمسافرين من جهة أخرى .

- كما يذكر للخليفة السفاح اتخاذه الأنبار عاصمة له بدلا من الكوفة التى كانت تزدحم بالشيعة العلويين الذين لم يرق لهم استئثار العباسيين من دونهم بالخلافة وحنقهم عليهم (والأنبار مدينة فارسية قديمة تقع على الضفة اليسرى لنهر الفرات شمال شرقى العراق ٦٨ كم شمال موقع بغداد) وبنى بالأنبار قصرا كبيرا عرف بقصر الهاشمية ، كما أنه دفن بها بعد وفاته فى ١٣ ذى الحجة سنة ١٣٦هـ .

ويعود إلى الخليفة السفاح ابتكار نظام الوزارة حيث لم يعرف بهذا الاسم فى العهد الأموى ، وكان أبو سلمة الخلال أول وزير يتولاه ولذلك عرف بوزير آل محمد كما ابتدع السفاح تقليدا جديدا بإلزامه الخطباء بإلقاء الخطبة وهم وقوف وكانوا يلقونها وهم جلوس .

ويؤخذ على الخليفة السفاح أمران أولهما سياسته العنيفةوبطشه بالمعارضين له ، مما جر عليه وعلى الدولة الوليدة عداء عناصر عربية وغير عربية كثيرة ، والثانى توصيته بالعهد من بعده لاثنين هما أخوه أبو جعفر ثم لابن عمه عيسى بن موسى من بعده ، وذلك لما سببته هذه السياسة من مشاكل كادت تعصف بالبيت العباسى نفسه ، نتيجة انقسامه حين يعدل ولى العهد الأول عن تولية العهد لولى العهد الثانى وجعل الخلافة فى أولاده هو .

(٣) أبو جعفر المنصور ١٣٦ ـ ١٥٨ هـ /٧٥٤ - ٧٧٥ م

ولد أبو جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بالحميمة سنة ١٠١ هـ من أم ولد يقال لها سلامة وهو أكبر من أخيه السفاح وانتقل مع أخيه أبو العباس منها إلى الكوفة ، وكان عضدا قويا لأخيه بعد قيام الدولة ، فقد استغله السفاح فى التخلص من أبى سلمة الخلال عندما أرسله إلى خراسان للتشاور مع أبى مسلم الخراسانى فى ذلك ، كما استعان به فى قتال ابن هبيرة قائدالخليفة الأموى الأخير مروان بن محمد ، كما عينه السفاح سنة ١٣٢هـ واليا على اقليم الجزيرة وأرمينية وأذربيجان (الأقاليم الشرقية للدولة العباسية) وفى سنة ١٣٦هـ ولاه السفاح إمرة الحج ، وقبل وفاته كان قد عهد إليه بولاية العهد كما ذكرنا من قبل .

وتولى المنصور الخلافة فى ١٣ ذى الحجة سنة ١٣٦هـ ، ٧٥٤م ويعتبره كثير من المؤرخين المؤسس الحقيقى للدولة العباسية لقصر عهد أخيه من قبله ، وطول فترة حكمه هو ، وتمتعه بالصفات اللازمة للحاكم الصالح الراعى لشئون رعيته كما كان معروفا بفصاحته ، وتفقهه فى الدين ، كما كان يشرف على كل صغيرة وكبيرة ، وكان جادا لا يعرف الهزل حريصا على المال لدرجة أنه اتهم بالبخل ، وان كان حرصه على أموال الدولة مكنه من حسن تدبير شئونها ، والمحاسبة الدقيقة لعمالها ، والقيام بأعمال ضخمة يأتى فى مقدمتها انشاؤه مدينة بغداد لتكون عاصمة جديدة للدولة العباسية .

ويقال فى هذا الصدد أن المنصور خلف فى خزائن الدولة بعد وفاته ستمائة ألف ألف درهم ، وأربعة عشر ألف ألف دينار ، بعد كل ما أنفق على مدينة بغداد

وغيرها من أعماله الكبرى ، وقد نعم بهذا الازدهار الاقتصادي الخلفاء الذين خلفوه في الحكم حتى عهد هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ) .

من جهة أخرى ورث المنصور عن أخيه السفاح مهمة مواجهة المشاكل التي نشأت بنشأة الدولة الجديدة ، وأهمها مواجهةالمناوئين للعباسيين الحكم وهم :

عمه عبد الله بن علي وخروجه عليه ومطالبته بالخلافة ، حيث كان لعمه الفضل في الانتصار على قوات الأمويين بموقعة الزاب بالعراق ومطاردته لقوات مروان بن محمد في بلاد الشام ، كما كان له الفضل في ضم بلدان الشمال الأفريقي ومصر والشام للدولة العباسية .

وكان الخليفة السفاح في أخريات خلافته قد أرسله على رأس جيش لقتال الروم البيزنطيين ، غير أن وفاة السفاح دون توصيته بالعهد له من بعده جعلت عمه عبد الله بن علي يعدل عن قتال الروم ويعود إلى أعالي الفرات ويتخذ من مدينة نصيبين معسكرا لقواته ، وينادي لنفسه بالخلافة ، اعتمادا على وعد السفاح له عندما وجهه لقتال مروان بن محمد ، إذ قال " من أنتدبه لقتاله فهو ولي عهدي ، وانتدب لذلك عمه ، ثم عاد وتنكر لوعده وأوصى بالعهد من بعده لأخيه أبي جعفر ثم لابن عمه عيسى بن موسى .. ولم يجد المنصور خيرا من أبي مسلم الخراساني للتصدي لخروج عمه فكلفه بذلك ، وهو بهذا الاختيار يضرب الاثنين ببعضهما ، حيث كان قد تغير على أبي مسلم وأضمر التخلص منه لأسباب سيأتي ذكرها عند الحديث عن علاقة المنصور بأبي مسلم ولما كان

جيش عبد الله بن على يتكون من جند خراسانيه وجند شاميه ، فقد حرص أبو مسلم الخراسانى على الاستفادة من الجند الخراسانية ونجح فى استمالتهم إليه كما نجح - بعد مؤامرة دبرها - فى تفريق الجند الشامية وخروجهم على طاعة عبد الله بن على ، مما اضطر الأخير إلى ترك مركزه الحصين فى نصيبين وعندما دارت المعركة بين الفريقين هزم عبد الله بن على فى جمادى الآخرة سنة ١٣٧هـ وهرب إلى البصرة لاجئا إلى أخيه سليمان بن على الذى كان يتولى إمرتها ، وحصل له على الأمان من الخليفة المنصور ، غير أنه عندما قدم إليه سنة ١٣٩ هـ أمر بحبسه فى دارمتهالكه ظل حبيسها حتى أنها انهارت عليه ومات عبد الله بن على تحت أنقاضها سنة ١٤٩هـ(٧٦٧ م) وفى رواية أخرى سنة ١٤٧هـ (٧٦٥م) وبهذا تم للمنصور التخلف نهائيا من عمه .

(٣) أبو مسلم الخراسانى :

كان أبو مسلم من أهم الشخصيات الفارسية التى عاونت العباسيين فى مرحلة الدعوة وبعد قيام الدولة ، وقد زاد نفوذه لدرجة أن كلا من الخليفة السفاح والخليفة المنصور فكر فى التخلص منه قبل أن يستفحل خطره ، ومات السفاح دون أن يحقق هذا الهدف ، ولكن المنصور نجح فى التخلص من أبى مسلم الخراسانى ، وكان المنصور قد أحصى على أبى مسلم عدة أخطاء وتصرفات ، منها أن المنصور عندما أرسل إليه رسلا يحصون غنائم جيشه بعد انتصاره على عمه عبد الله بن على قال أبو مسلم قولته الشهيرة " أمين على الدماء خائن فى الأموال ؟؟! ويقصد بهذا أن المنصور

ائتمنه على القيام بمهمة الخلاص من عمه وجنده ، ولكنه لم يأتمنه على ما تركه عمه من أموال وغنائم ، فأرسل من يحصيها ويسجلها عليه !!

كما لاحظ المنصور قبل ذلك على أبى مسلم تقدمه عليه فى موكب الحج فى عهد السفاح (سنة ١٣٦هـ) وحرصه على إحراج المنصور بكثرة عطاياه للناس مما أظهر المنصور بمظهر لا يليق به كولى للعهد وأمير للحج .

كما أنه لم يبادر بمبايعة المنصور بالخلافة عند وصول الأخبار إليهما بوفاة السفاح وهما فى طريق العودة من الحج .

كما أحصى عليه المنصور عدم اكتراثه بأوامره وتوجيهاته إليه اعتقادا منه أنه السيد الآمر فى بلاد المشرق ، وعندما أصدر المنصور أمره بتعيين أبى مسلم الخراسانى على الشام لتجريده من موطن قوته وإبعاده عن عصبيته من الفرس رفض أبو مسلم تنفيذ الأمر ، مما أظهره بمظهر العاصى لأوامر الخليفة ، وهو ما قصده المنصور بالفعل ، واتجه أبو مسلم إلى خراسان ، وتبودلت الرسائل فيما بينه وبين المنصور لنصحه وردعه دون جدوى ، وعندما نجح المنصور فى استمالة نائب أبى مسلم إلى جانبه ، أذعن أبو مسلم للمنصور وعدل عن التوجه إلى خراسان ، وسار إلى المدائن للقاء المنصور وإزالة الجفوة بينهما ، وقد أمر المنصور بحسن استقباله وعندما دخل عليه رحب به وطلب منه القدوم إليه فى اليوم التالى حيث كان المنصور قد أعد الخطة لقتله ، وعندما دخل على المنصور قام بمعاقبته وتوبيخه على ما صدر منه ، وأبو مسلم يحاول الدفاع عن نفسه ويذكر الخليفة بما قدمه للدعوة ، والدولة ، ولكن المنصور لم يسمع له ، ثم ضرب بيديه فخرج نفر من رجاله من خلف

المتون و[illegible] على أبى مسلم بسيوفهم وبرغم ذلك تم التخلص منه سنة ١٣٧هـ (٧٥٥م) ويمثل ذلك انتصارا لأبى جعفر المنصور بانقضاضه على قوة أبى مسلم ونفوذه ..

ولما كان المنصور يخشى الأثر السياسى لقتل أبى مسلم وبخاصة من جانب الفرس فإنه اعتلى المنبر وخطب فى الناس شارحا لهم دوافعه للتخلص من أبى مسلم مبينا ما اقترفه من أخطاء فى حق الخلافة والناس ، وفى الوقت نفسه ضاعف المنصور من عطاياه للفرس ، غير أن هذه الترضية لم تؤد دورها ، فقد ثار الفرس ضده ، وتمثل هذا بشكل واضح فى ظهور عدة فرق ونحل فارسيه دينيه اتخذت الدين ستارا لها ، أخفت به نواياها السياسية فى النيل من الخلافة والخلفاء ، بل والنيل من العقيدة الإسلامية ذاتها ، وكان ظهورها كلها وليد تخلص المنصور من أبى مسلم ، وظلت هذه الفرق تعارض الخلافة العباسية وتقلقها معظم سنوات حكمها ، واستمدت هذه الفرق أفكارها ودعاواها من المعتقدات الفارسية القديمة وتولى زعامتها أتباع لأبى مسلم قالوا بعدم موته ، وأنه غائب وسيعود ومن أهمهم سنباذ ، واسحق ، واستاذ سيس ، وقد حارب المنصور حركة سنباذ وهزمه بعد سبعين يوما من الحروب فى مناطق نيسابور وقومس والرى بخراسان سنة ١٣٧هـ وقال اسحق بغيبة أبى مسلم ورجعته ، وأنه من سلالة زرادشت مؤسس مذهب الثانوية الفارسى القديم ، وأن أبا مسلم سيعود ليعيد ديانة زرادشت ...

أما أستاذ سيس فنادى بديانة مزدك الفارسية القديمة ، وادعى النبوة ، وأسقط الحدود الإسلامية وأباح الحرمات ونشر دعوته فى سجستان بفارس حوالى سنة ١٥٠هـ (٧٦٧م) .

كما ظهرت فرقة الراوندية نسبة إلى مقرها فى راوند بالقرب من أصفهان بايران ، واتخذت من تأليه أبى جعفر المنصور وسيلة لمحاربته والقضاء عليه ، والحط من شأن الدين الإسلامى بإدخال الأفكار الهدامة ودعاوى الكفر والإلحاد إليه وقبض المنصور على كثير من أتباع الراوندية وسجنهم وكاد المنصور أن يهلك فى احدى مواجهاته لهم سنة ١٤١هـ .. .

كما ظهرت فرقة الخرمية وقالت بإمامة أبى مسلم الخراسانى ، وبانتقال الإمامة منه إلى ابنته فاطمة ثم إلى ابنها فيروز ، واستمر نشاط هذه الفرقة حتى عهد الخليفتين المهدى والهادى وتزعمها " بابك الخرمى " ولهذا تنسب إلى اسمه .. وعلى الرغم من الجهود التى بذلها المنصور للقضاء على هذه الفرق وأصحابها إلا أنه لم يستطع خلال عهده الطويل القضاء عليها ، فاستمر نشاطها إلى ما بعد عهده بفترة طويلة .

(٣) العلويـــون :

لم يغب عن بال الخليفة المنصور موقف العلويين من العباسيين ، ذلك أن العلويين كانوا طوال العصر الأموى يناصبون الأمويين العداء لأنهم اعتبروهم مغتصبين للحكم منهم منذ قضية التحكيم بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ، كما زاد من عدائهم للأمويين مقتل الحسين بن على بكربلاء سنة ٦١هـ ، وفى أثناء الدعوة للرضا من آل البيت فى الثلاثين سنة الأخيرة من عهد الدولة الأموية ، انشغل العلويون بأمورهم الخاصة وبتجارتهم فى حين كان الفرع العباسى – من آل البيت – أكثر نشاطا وحركة ، كما أن العلويين لم يكونوا يدركون أن العباسيين يدعون لأنفسهم

، أو أنهم سيستأثرون بالخلافة من دونهم ، وعندما قامت الدولة العباسية واتضح الأمر للعلويين لجأوا إلى أسلوب التفاهم مع أبناء عمومتهم فعتبوا عليهم انفرادهم بالحكم ، وقابل العباسيون الأول ذلك بسياسة المهادنة والملاينة وبذل الأموال لعلها ترضى أبناء العم ! فقد أرسل العلويون إلى الخليفة السفاح عبد الله بن الحسن والد محمد النفس الزكية يعبث عليه فأرضاه الخليفة بإجزال العطاء له ، ولكن بوصول المنصور إلى الحكم بدأ يتعقب أخبار العلويين وزعمائهم وبصفة خاصة محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية ، وأخيه إبراهيم ، وقد عرفا بالعلم والورع وتمتعا بحب الناس والعلويين لهما والتفافهم حولهما .

وكان الإثنان قد رفضا مبايعة المنصور بالخلافة ، وتبعهما فى هذا أنصارهما مما جعل المنصور يجد فى البحث عنهما وتعقب أخبارهما ،وكلف ولاة الأمر فى الحجاز بمهمة مراقبتهما ، وعندما ذهب المنصور إلى الحج سنة ١٤٤هـ رفض محمد النفس الزكية مقابلته فأمر المنصور بالقبض عليه وعلى أتباعه بالمدينة المنورة ، وإرسالهم إلى الكوفة ـ عاصمة الدولة حتى ذلك الوقت ـ فما كان من محمد إلا أن خرج من مخبئه وكشف عن سرية دعوته ،وأعلن الثورة ،على الخليفة ونادى بنفسه خليفه فى آخر جمادى الأولى سنة ١٤٥هـ ، ودعم مركزه صدور فتوى من الإمام مالك ـ إمام المدينة المنورة ـ فى صالح العلويين وحقهم فى الخلافة ، فبدأ المنصور يتخذ أسلوبا للحط من شأن العلويين والطعن فيما يطالبون به وكشف استكاناتهم وضعفهم ، وتعددت رسائل التجريح والسب بين الطرفين ، ثم تطور الأمر إلى الحرب المسلحة ، فاتخذ محمد النفس الزكية المدينة مركزا له مع ما يمثله هذا من عيب حربى لأنها مدينة مكشوفة يسهل حصارها وإخماد أية ثورة بها ، وفى الوقت نفسه اتفق

محمد مع أخيه ابراهيم على الثورة بالكوفة اعتماداً على كثافة الشيعة فيها، غير أنه لم ينجح في ذلك فاتجه منها إلى البصرة ، واستغل فتوى أصدرها الامام أبو حنيفة في صالحه وصالح العلويين ، فلاقت دعوتة نجاحا هناك في الأهواز وفارس وغيرهما .

أما المنصور فأرسل جيشا بقيادة ولي عهده عيسى بن موسى لاخماد ثورة محمد النفس الزكية ، كما لجأ إلى الحيلة لتفريق أتباعه من حوله ، ونجحت الحيلة ، ولم يصمد جيش محمد النفس الزكية أمام الجيش العباسي عندما حاصر المدينة ، فتفرق جنده ، وخرج بعضهم عليه وانضم إلى جيش عيسى بن موسى ، وعندما خرج محمد النفس الزكية من المدينة إلى مكة تبعته جيوش العباسيين وحاصرت مكة وانتهى الأمر بهزيمة النفس الزكية وقتله في ١٤رمضان سنة ١٤٥ هـ (٧٦٥م) ، وأدى مقتله إلى إضعاف ثورة أخيه ابراهيم بالبصرة وما حولها ، وعندما توجهت جيوش العباسيين بقيادة عيسى بن موسى – عقب انتصارها على النفس الزكية في مكة – والتقت بجيش ابراهيم عند " باخمر " – فيما بين البصرة وواسط بالعراق انتصرت جيوش العباسيين ، وهزم ابراهيم ومن معه وقتل في المعركة وعرف بشهيد أو قتيل باخمرا ، وبهذا الانتصار تخلص المنصور من أكبر زعيمين شيعيين كانا يمثلان خطرا على خلافته .

(٤) عيسى بن موسى

على الرغم من أن الخليفة السفاح كان قد أوصى بولاية العهد من بعده لأخيه أبي جعفر ثم لابن عمه عيسى بن موسى من بعده ، وعلى الرغم من المهام الكبيرة التي قام بها عيسى بن موسى دعما للمنصور وبخاصة حربه لمحمد النفس الزكية بالحجاز وأخيه ابراهيم بالعراق ، وانتصاره عليهما – على الرغم من كل ذلك تنكر المنصور لعيسى بن موسى وقرر الخلاص منه كولي للعهد وكان تكليفه له بحرب

العلويين محمد النفس الزكية وأخيه ابراهيم لا يخلو من دهاء يحقق الهدف المنشود ، فإن انتصر تحقق النصر على العلويين الخارجين ، وإن هزم أو قتل تحقق الخلاص منه ، وعندما تحقق النصر وعاد عيسى بن موسى فاتحه المنصور فى أمر تركه ولاية العهد ليعهد بها إلى ابنه هو (محمد) - الذى سيلقب بعد بالمهدى ، وعندما رفض عيسى بن موسى بدأ المنصور يضايقه في مجالسه بعد ما كان يقربه ، ثم بدأ يضغط عليه وعيسى يرفض ، ويقال أنه دس السم له فمرض ولم يمت ثم أفاق منه ، ويقال أنه رضخ في النهاية تحت ضغط ملاحقة المنصور ومضايقته له ، فأعلن عزل نفسه من ولاية العهد وبايع محمد بن المنصور سنة ١٤٧هـ ، ويقال أن المنصور اشترى منه هذا التنازل بمبلغ كبير ليجعل الخلافة فى ذريته .

وهكذا رأينا كثرة المشاكل والمناوئين للمنصور وكيف أنه بذكائه ودهائه استطاع التغلب على كل ما صادفه منها ومنهم ، وفى الوقت نفسه لم تشغله هذه المشاكل على كثرتها عن تدبير شئون الدولة ورعايتها وتأسيس عدد كبير من الدواوين ، ودعم جيش الدولة وأسطولها ، كما قام بتوسيع المسجد الحرام بمكة سنة ١٣٩هـ / ٧٥٦م .ولعل انشاءه مدينة بغداد لتكون عاصمة للدولة العباسية وكذا احاطته البصرة والكوفة بسور سنة ١٥٥هـ /٨٨٢ م خير دليل على مدى نجاح المنصور فى إدارته الدولة العباسية الناشئة وبالتالى أن يوصف بأنه المؤسس الحقيقى لها .

إنشاء مدينة بغداد

حرص الخليفة المنصور على إنشاء مدينة جديدة تكون عاصمة للدولة العباسية ، فأرسل رجاله وخبراءه يبحثون ويدققون فى اختيار أصلح المواقع للمدينة الجديدة ، وكان اختيارهم الذى وافقهم عليه المنصور لموضع قريب من مدينة " بارما " جنوبى الموصل حيث أقام المنصور بالموقع يوماً وليلة فأعجبه فاتخذ قراره بإقامة المدينة الجديدة عنده حيث تكثر المياه التى تحملها انهار وجداول صغيرة تأخذ ماءها من دجلة والفرات ، فضلاً عن توسط الموقع وسهولة الوصول اليه والخروج منه ، وأطلق على المدينة الجديدة إسم بغداد - وهو لفظ فارسى مكون من مقطعين : بغ بمعنى البستان ، وداد بمعنى الله ، أى أنها تعنى بستان الله ، أو عطية الله ، كما عرفت بغداد بمدينة السلام أو دار السلام ، أو مدينة الإسلام بالمدينة المدورة لأن المنصور إختار لها تخطيطا مستديرا يبلغ قطره ٢٧١ مترا ، وكان يحيط بها سوران بينهما فاصل يبلغ عرضه ستون ذراعا ، وإلى خارج السورين حفر خندق عريض إمعانا فى تحصين المدينة الجديدة وتأمينها ، وكان للمدينة أربعة أبواب يتخذ كل منها اسما بحسب الجهة التى يواجهها ، فكان هناك باب خراسان فى الشمال الشرقى ، وباب الشام فى الشمال الغربى ، وباب البصرة فى الجنوب الشرقى ، وباب الكوفة فى الجنوب الغربى ، وذكر الخطيب البغدادى (متوفى ٤٦٣هـ) فى كتابه الشهير "بغداد مدينة السلام" الذى يقع فى أربعة أجزاء كبيرة - أن المسافة بين كل بابين بلغت أربعة آلاف ذراع ، وذكر اليعقوبى فى كتابه البلدان أن عدد العمال الذين شاركوا فى بناء بغداد مائة ألف عامل وأنه اشترك فى تصميمها خمسة من المهندسين ، وأربعة من الملاحظين كان الامام

أبو حنيفة النعمان أحدهم ، حيث كان يقوم بحساب الطوب المستخدم فى البناء بعد المداميك أى صفوف الطوب بواسطة مسطرة مدرجة .

وكان يتوسط المدينة الجديدة المدورة قصر الخلافة وعرف بقصر الذهب ، وإلى جانبه المسجد الجامع ، ودار الحرس ، ومنازل أبناء الخليفة ، والقائمين على خدمتهم ، وكذا قصور الأمراء وكبار رجال الدولة ، ودواوين الخلافة ، وبيوت الأهالى ، وأسواق المدينة العديدة ومتنزهاتها ومرافقها الأخرى ، كما ضمت بغداد عدداً من القصور الأخرى كقصر القبة الخضراء الذى كان مخصصا لإقامة الشعراء الوافدين على بغداد من مختلف الدول ، لاستضافتهم به حتى يحين مثولهم بين يدى الخليفة العباسى ، وكذا قصر الخلد الذى بنى على شاطئ دجلة الغربى خارج بغداد كان يتميز بهوائه الطيب ومناظره الخلابة .

وبلغت تكاليف بناء بغداد فى عهد المنصور كما أفادنا بها ياقوت الحموى" ١٨ ألف ألف دينار" أى ما يساوى تسعة ملايين جنيه ، وكان المنصور يبغى من بنائها مدينة فخمة أن يباهى بها الحواضر الكبيرة المعاصرة وبخاصة القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية . وقد بلغ عدد سكانها بعد تمام بنائها أكثر من مليونين ...

وبالإضافة إلى بغداد بنى المنصور إلى الشرق منها مدينة الرصافة التى عرفت أيضا برصافة بغداد ،أو بغداد الشرقية نسبةإلى وقوعها فى الجهة الشرقية من نهر دجلة ، فى مواجهة مدينة بغداد ، وكانت الرصافة محاطة بسور وخندق أيضا لتحصينها ، وكانت تضم الميادين والقصور والمساجد والمتنزهات والبيوت ، ويبلغ اتساعها درجة تقرب من اتساع بغداد ، وقد وصفها اليعقوبى بأنها تضم أكثر من أربعة

آلاف من الدروب ، وألف وخمسمائة من المساجد ، وخمسة آلاف من الحمامات ، وغير ذلك من الأعداد والأوصاف .

وبالإضافة إلى بغداد والرصافة أمر المنصور ببناء مدينة الكرخ سنة ١٥٧هـ إلى الجنوب من مدينة بغداد لتكون مدينة للعمال والصنائع والحرف وذلك لما لاحظه المنصور من تصاعد الأدخنة والأتربة فى بغداد وتأثيرهما فى اسوداد جدران المبانى بها ، فنقلت أسواق الصناعات المختلفة من بغداد إلى الكرخ ، ووضع تخطيط مناسب لها بحيث لا تؤذى نفاياتها سكان المدينة ومرافقها ، وخصص لكل حرفة سوقا ، وللمدينة مسجدا جامعا وغيره من المرافق اللازمة .

ونعود إلى بغداد التى ظلت عاصمة للخلافة العباسية على مدى خمسة قرون أو تزيد ــ لنقول أنها لم تكن بناء فحسب وإنما كانت بمؤسساتها ومدارسها ومساجدها قبلة لطلاب العلم وأساتذته فى شتى فروع العلوم والمعارف يأتون إليها من بلدان الدولة ومن خارجها ، كما قامت بها حركة الترجمة من اللغات اللاتينية والفارسية إلى اللغة العربية ، فنقل حنين بن اسحق بعض كتب أبقراط وجالينوس فى الطب ، وفيها نقل ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة ، وفيها ترجم كتاب اقليدس فى الهندسة وغيرها.

وفى بغداد ازدهرت فنون العمارة الإسلامية وزخارفها ، وقامت وتطورت صناعات الخزف والفخار والنسيج والسجاد والزجاج والخشب والصناعات المعدنية بأنواعها ، وتقتنى متاحف الآثار العالمية العديد من التحف الأثرية المصنوعة من هذه المواد من آنية وأدوات ومعدات وآثاث وأسلحة وقطع نقود ذهبية (دنانير)

وفضية(دراهم) ومؤلفات مخطوطة ومغلفة بجلود دقيقة الصنع تشهد كلها بتطور الصناعات الفنية المختلفة ، وبتفوق الصناع المسلمين فى الحرف المختلفة وروحهم الزخرفية ، ومقدرتهم على التشكيل والزخرفة.

العلاقات الخارجية :

تم فى عهد المنصور فتح طبرستان سنة ١٤١هـ وجزيرة قبرص سنة ١٤٦ هـ .وفى عهد المنصور أيضا تمكن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان من الهرب إلى بلاد الأندلس حيث أسس سنة ١٣٨هـ هناك إمارة أموية بعيدا عن الخلافة العباسية وقبضتها ، وبطبيعة الحال كانت العلاقة بينه وبينها عدائية فهو خارج على طاعتها ، وبعد فترة من الزمن ستتحول الإمارة الى خلافة أموية بما يمثل ظاهرة جديدة فى عالم الإسلام ونعنى بها قيام خلافتين إسلاميتين سنيتين ومتعاديتين فى الوقت نفسه .

أما دولة الروم البيزنطية فكانت العلاقة بها عدائية أيضا ، فهى تمثل العدو التقليدى للعالم الإسلامى ، وقد تكرر إرسال الجيوش الإسلامية لحدودها وبلدانها صيفاً وشتاء فيما يعرف بالصوائف والشواتى ومن أمثلتها ما حدث بعد غزو الروم سنة ١٣٨هـ لملطية إذ رد المنصور على ذلك بإرساله جيشا بقيادة عمه صالح بن على وأخوه العباس ، وظلت الطوائف تتوالى حتى سنة ١٥٥هـ وعندها طلب إمبراطور الروم الصلح مع المسلمين فى مقابل جزية يدفعها لهم سنويا .

وفاة المنصور: وفى سنة ١٥٨هـ (٧٧٥م) توفى المنصور خارج الكوفة حيث كان متوجها لأداء الحج ولكن المرض فاجأه ولازمه حتى وفاته فأخذ وزيره الربيع ابن يونس البيعة لولد المنصور الذى لقب بالمهدى .

(٣) المهدى ١٥٨ - ١٦٩هـ (٧٧٥ - ٧٨٥م)

ولد محمد بن عبد الله المنصور بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بالحميمة سنة ١٢٦هـ (٧٤٥م) قبل ترك ابيه المنصور لها ، وكان فى العاشرة من عمره عندما تولى أبيه المنصور الخلافة ، وقد تعهده أبوه المنصور بالرعاية والإهتمام بتثقيفه وتدريبه وتعليمه فكان المهدى محباً للشعر والأدب فضلاً عن تفقهه فى الدين ، وفى سنة ١٤٧هـ نجح المنصور فى انتزاع ولاية العهد له من عيسى بن موسى ، وحرص والده على إسناد المهام الكبيرة إلى ابنه محمد فولاه قيادة الجيوش فى بلاد المشرق حيث قاد جيشا إلى خراسان لإخماد ثورة عبد الرحمن الأزدى واليها ، ثم ولاه أمور المشرق كله ، حيث اتخذ من مدينة "مرو" مقرا له وقام بجهده فى القضاء على فتنة أستانسيس بخراسان ، كما تولى إمرة الحج سنة ١٥٣هـ ، وعقب وفاة والده سنة ١٥٨هـ تولى محمد الخلافة وتلقب بالمهدى ، وقد نعم المهدى بما خلفه والده من أموال فى بيت المال مما جعل عهده يتسم بالرخاء الإقتصادى فضلاً عن الاستقرار السياسى الذى حققه له والده بتغلبه على معظم المشاكل التى اعترضت سنوات حكمه .

وقد اعتمد المهدى على العناصر الفارسية بدرجة ملحوظة فى توليتهم الوظائف الرئيسية ، وبدأ المهدى حكمه بالعفو عن المسجونين من أبناء عمومته العلويين وغيرهم ، وأجزل العطاء لهم واكتفى بمراقبتهم فى محال إقامتهم وإهتم بالمرضى وجلس بنفسه للنظر فى المظالم ، واهتم بأحوال الدولة وبالبريد وبناء المساكن والاستراحات على الطرق الرئيسة لراحة المسافرين عليها ، كما اهتم بعمارة المسجد النبوى وتوسيع مساحته ، وإليه يعود بدء تجديد كسوة الكعبة كل عام ، وكلها أعمال تدل على استقرار الأحوال السياسية والرخاء الاقتصادى فى عهده ، كما شهدت المدن التى أنشأها أبوه ازدهارا ونهضة كبيرين فى عهده .

ومع هذا لم يخل عهد المهدى من التصدى لبعض المشاكل التى أثارها بعض المناوئين من الأمويين والعلويين وبعض . . . والنحل الفارسية التى ظهرت فى عهد أبيه فى أعقاب تخلصه من أبى مسلم الخراسانى .

فقد ثار فى عهده من بقايا البيت الأموى عبد الله بن مراون بن محمد بالشام سنة ١٦١ هـ (٧٧٨م) وعبد السلام بن هشام اليشكرى باقليم الجزيرة فى العام التالى ، ونجح المهدى فى التغلب على الثائرين ، كما خرج عليه بالموصل ثائر من تميم يقال له ياسين ، كما ثار عرب الحوف بالقرب من بلبيس فى مصر سنة ١٥٨ هـ وتمكن المهدى من اخماد هذه الثورات جميعا .

وتعتبر ثورة فرقة المقنعية بخراسان سنة ١٦١ هـ أخطر ماواجه المهدى من ثورات ، وتنسب هذه الفرقة إلى زعيمها المقنع الذى لبس قناعا من ذهب ليخفى به قبح خلقته فعرف أتباعه بالمقنعية ، ونادت فرقته بإسقاط الصلاة والزكاة والصوم والحج وإباحة الأموال والنساء ، كما نادى بتعاليم الديانة المزدكية - الفارسية القديمة - وانضم إليه أهل بخارى وسمرقند وبعض الترك المقيمين حول بحر قزوين ، واعتصم المقنع بقلعة حصينه فى منطقة يقال لها " كش " ، وقد وجه المهدى إليه جيشا بقيادة معاذ بن مسلم حاصره وضيق الخناق على اتباعه فطلب أكثرهم الأمان ، واضطر المقنع فى نهاية الأمر إلى حرق نفسه داخل قلعته بمن فيها من أتباعه ١٦٩ هـ بعد أن أقنعهم بأنه سيحرق نفسه ليصعد إلى السماء .

ولكن هذه النهاية لم تضع حدا لتعاليمه وآرائه التى انتشرت فى بلاد ماوراء النهر وفى التركستان وإلى مابعد عهد المهدى .

كما نشطت فى عهد المهدى حركة الزندقة وزاد عدد الزنادقة كنتيجة للرخاء الاقتصادى والاجتماعى فى المجتمع والميل إلى تقليد الفرس فى المأكل والملبس والعادات ومجالس اللهو والشراب والغناء ، ويعود ظهور الزندقة إلى أواخر العصر الأموى بالشام تأثرا بالحضارة البيزنطية هناك ، وقد حارب المهدى الزنادقة ، وضيق عليهم الخناق ، وبلغ من اهتمامه بمحاربة الزندقة أنه خصص أحد دواوين الدولة لمواجهتها ، وعرفت بديوان الزنادقة ، وكان المهدى لايتردد فى قتل كل من تحوم حوله الشبهات بالزندقة أو الميل إليها .

ومن جهة أخرى كلف المهدى طائفة من العلماء ورجال الدين بمواجهة الزنادقة بالحجج والبراهين التى تدحض دعواهم الهدامه، وقد شهد عهده تأليف عدة كتب للرد على آراء الزنادقة ، ويرى بعض العلماء والمؤرخين أن ظهور علم الكلام يرجع إلى عهد المهدى كنتيجة لحملة الرد على الزنادقة ..

<u>وفى مجال العلاقات الخارجية</u> تشير الروايات التاريخية إلى رغبة المهدى فى محاربة إمارة الأمويين بالأندلس لاسترجاع الأندلس إلى حوزة الدولة العباسية ، ولكنه لم ينجح فى هذه المحاولة .

أما عن علاقته بالروم فقد شهد عهده توجيه عدد من الصوائف ضد الدولة البيزنطية ، وتولى ابنه هارون (الرشيد فيما بعد) قيادة صائفتين منها سنة ١٦٣ هـ ، سنة ١٦٥ هـ وتقدم بقواته فى آسيا الصغرى حتى بحر مرمرة مما اضطر الدولة البيزنطية إلى طلب الصلح وعقد هدنة مع العباسيين لمدة ثلاث سنوات فى مقابل دفع جزية سنوية كبيرة للخليفة العباسى ، كما تعهدت الإمبراطورة البيزنطية إيرين بتسليم أسرى المسلمين ، وبإقامة الأسواق لجيوش المسلمين وتوفير الأدلاء والمرشدين

لإرشاد المسلمين فى طريق عودتهم إلى بلادهم ، وكان نجاح هارون بن المهدى فى هذه الصوائف دافعا لوالده لتلقيبه بالرشيد ، وأخذ البيعه له بولاية العهد بعد أخيه الأكبر موسى الذى سيلقب بالهادى عند وصوله للخلافة .

ويرتبط بعهد الخليفة المهدى أيضا استئنافه إرسال الحملات لفتح بلاد الهند ، فقد أرسل حملة بحرية وبرية سنة ١٥٩ هـ (٧٧٦ م) إلى الهند بقيادة عبد الملك بن شهاب المسمعى توغلت فى الهند حتى بلغت مدينة "باريد" ثم عادت إلى بغداد ..

وقد توفى الخليفة المهدى سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥م) بعد أن أوصى بولاية العهد كما ذكرنا من بعده لابنه الأكبر موسى ثم من بعده لابنه الأصغر هارون .

(٤) الهادى : ١٦٩ ــ ١٧٠ هـ / ٧٨٥ - ٧٨٦ م

هو موسى بن محمد المهدى بن جعفر المنصور ، وأمه الخيزران أم ولد يمانية ، أعتقها المهدى وتزوجها بعد أن ولدت له ولديه موسى وهارون ، ولد موسى سنة ١٤٤ هـ ، وأوصى له والده بالعهد وهو فى السادسة عشرة من عمره، وعندما توفى أبوه كان بصحبته ابنه هارون فأخذ البيعة لأخيه موسى الذى تلقب بالهادى ولم يعمر طويلا فى الحكم إذ تولى الخلافة فى ٢٢ من المحرم سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) ، وتوفى فى ١٣ ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) أى بعد شهرين تقريبا من بداية خلافته وتميز عهده القصير بمواصلة الاهتمام بالمشاكل التى ورثها عن أبيه المهدى وبخاصة مواجهة الزنادقة والخوارج والعلويين بالقوة والبطش ، فقد تصدى لثورة قام بها الحسين بن على بن الحسين بن الحسن بن على الذى ثار بالمدينة المنورة سنة

١٦٩ هـ / ٧٨٥ م ضد تضييق الوالى العباسى على شباب العلويين بالمدينة ، واتجه الثائر العلوى إلى مكة المكرمة للتحصن بها ، حيث أعلن نفسه خليفة هناك ، فأرسل إليه الخليفة الهادى جيشا بقيادة محمد بن سليمان بن على تمكن من إخماد الثورة عند وادى فخ حيث حدثت معركة كبيرة سقط فيها كثير من العلويين مع زعيمهم ، وبلغ من كثرة القتلى أن بعض المؤرخين يشبهها بمعركة كربلاء التى استشهد فيها الحسين بن على سنة ٦١ هـ .

وقد فر من المعركة أخوان علويان كبيران هما أدريس بن عبد الله ، ويحيى بن عبد الله ، وهما أخوان لمحمد النفس الزكية ، حيث اتجه أدريس إلى المغرب الأقصى والتف حوله البربر وتمكن من تأسيس أول دولة علوية عرفت بدولة الأدارسة سنة ١٧٢هـ ، واتجه يحيي إلي بلاد الديلم والتف حوله هناك الفرس والخرسانية ، وسيكون للاثنين شأن ملحوظ في عهد هارون الرشيد .

ومما يذكر عن الهادى أنه حاول إقصاء أخيه هارون من ولاية العهد وجعلها في ابنه جعفر ، ولكن قصر عهده لم يمكنه من تنفيذ ذلك ، فضلا عن معارضة المحيطين به لذلك ، لتعصبهم لهارون وحرصهم علي أن تكون الخلافة له بعد أخيه الهادى ، كما أنه لاحظ تدخل امه الخيزران في الحكم ومحاولتها بسط نفوذها جريا علي عادتها في عهد أبيه المهدى فرفض تدخلها وحال دون بسط نفوذها مما سبب كراهيتها له حتي أن المبالغين من المؤرخين يشيرون باصبع الاتهام إلي الخيزران في وفاة ابنها الهادى المبكرة ، لأنها كانت من أشد المعارضين للهادى في رغبته اقصاء أخيه هارون من ولاية العهد وجعلها في ابنه جعفر ، ويمكن القول أن عهد الهادى كان

عهد تلك غير مستقر بسبب قصره ، وكثرة المشاكل والمنازعين له . ويقول ابن طباطبا في كتابه الفخرى في الآداب السلطانيه أن "الليلة التي مات فيها الهادى تولى فيها خلافة هارون الرشيد ، وولد فيها خليفة آخر هو " المأمون " .

(٥) هارون الرشيد ١٧٠-١٩٣ هـ / ٧٨٦ -٨٠٩ م

ولد هارون بن محمد المهدى بمدينه الرى في ٢٧ ذى الحجة سنه ١٤٥هـ ، وأمه الخيزران وهو أخ للخليفة موسي الهادى ، وإذا قلنا أن المنصور كان المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ، فان الرشيد كان أشهر خلفائها ، اذ يرتبط اسمه بالعديد من الأحداث و العلاقات و المظاهر الحضارية المتميزة ، وكان هارون محل اهتمام أبيه المهدى فولاه صائفتي سنه ١٦٣هـ وسنه ١٦٥هـ ضد دولة الروم ، كما ولاه شئون بلاد المغرب سنه ١٦٤هـ .

وقد آلت اليه الخلافة وعمره خمسا وعشرون سنه في ليلة وفاة أخيه الهادى في ١٣ ربيع الأول سنه ١٧٠هـ .

وقد وصف المؤرخ السيوطي أيام الرشيد بأنها "أيام خير كأنها في حسنها أعراس" ، حيث ازدهرت في عهده بغداد في شتي مجالات الحضارة ، وإلي عهده تنسب ليالي ألف ليلة وليلة بما تمثلة من حياة اجتماعية متميزة كما يرتبط اسمه بعلاقات الصداقة مع شارلمان ملك الفرنجة وتبادل الهدايا بينهما .....

وعلي الرغم مما ساد عصره من استقرار سياسي ورخاء اقتصادى ، وازدهار حضارى ، فان عصره شهد عددا كبيرا من المشاكل نذكرها علي النحو التالي :

(١) **ثورة الوليد بن طريف الشاري الشيباني** سنه ١٧٨-١٧٩هـ ضد الرشيد واتهامه له بالجور والظلم ، وانتشرت ثورته في نصيبين بالعراق ، وفي أرمينيه وأذربيجان وإقليم الجزيرة ، وقد ساندة في ثورته بعض الخوارج ، وانتصر بقواته عدة مرات علي جيش الرشيد ، حتي تمكن الجيش العباسي بقيادة يزيد بن مزيد الشيباني من هزيمته وقتله .

(٢) **ثورات البربر في الشمال الافريقي** :ضد الخلافة العباسية في الفترة من ١٧٨-١٨١هـ وتمكن الجيش العباسي بقيادة هرثمة بن أعين من هزيمتهم .

(٣) **قيام دولة الأدارسة العلوية في المغرب الاقصي** سنة ١٧٢هـ في اعقاب فرار ادريس أخو النفس الزكيه بعد موقعة فخ سنه ١٧٠هـ وتهديدها لأقاليم الدولة العباسية في الشمال الافريقى ، مما جعل هارون الرشيد يولي إبراهيم بن الأغلب ولاية افريقيا (تونس الحالية) سنه ١٨٤هـ ، وتوافق الخلافة علي استمرار الحكم فيها لأبناء أسرته من بعده ، لتكون سدا في وجه تقدم الأدارسة العلويين شرقا ، ولتأديب البربر واخماد ثوراتهم المتكررة هناك ،واتخذت دولة الأغالبة القيروان عاصمة لها وظلت قائمة حتي قضي عليها الفاطميون سنه ٢٩٦هـ .

(٤) **فرار يحيي بن عبد الله** – أخو ادريس والنفس الزكيه بعد معركة فخ إلي بلاد الديلم جنوبي بحر قزوين حيث التف حوله كثير من الأتباع من الفرس والخراسانيين من العلويين ، فسارع الرشيد إلي محاربته لأهمية استقرار بلاد المشرق وطاعتها للخلافة ، فأرسل بجيش كبير بقيادة الفضل بن يحيي البرمكي ، غضب الرشيد الذى قبض علي يحيي وأمنه ثم اعتقلة ، وأطلق

سراحه فيما بعد أخوه الفضل بن يحيي البرمكي وهو الأمر الذى يعد أحد أسباب غضب الرشيد علي البرامكة وتنكيله بهم فيماعرف باسم نكبة البرامكة .

(٥) صراع العصبية القبلية بين عرب الشمال وعرب الجنوب ببلادالشام سنة ١٧٦هـ ولم يتحمس الرشيد لإخماد هذا الصراع الذى تحول إلى حروب فقد كان يرى فيه ما يضعف القبائل المتصارعة هناك ، بما يقضى على نفوذها وقوتها خاصة وأنه لم يكن مطمئنا إلى ولاء هذه القبائل للبيت العباسى ، ولكنه فى آخر الأمر عين موسى بن يحيى البرمكى واليا على الشام فنجح فى تهدئة القبائل وعقد المصالحة فيما بينها ، وعندما تجددت الصراعات مرة أخرى أرسل الرشيد سنة ١٨٠ هـ جعفر بن يحيى البرمكى لإخمادها .

(٦) فتنة خراسان فى عهد واليها على بن عيسى بن ماهان ، حيث ثار ضده أهل خراسان لظلمه وجمعه أموالا كثيرة منهم فاستغاثوا بالرشيد ، فخرج إلى مرو وهناك التقى به على بن عيسى وقدم هداياه إلى الرشيد وأعلن ولاءه فرضى الرشيد عنه .
ثم حدثت فتنة أخرى تورط فيها على بن عيسى ، وتتلخص فى أن شخصا يدعى رافع بن ليث وهو حفيد لنصر بن سيار آخر والى أموى بخراسان قد تزوج من سيدة متزوجة من زوج يقيم ببغداد بينما تقيم هى بسمرقند ، فاستغل رافع بن ليث هذا الوضع وتمكن من قلبها ، واضطرها إلى الارتداد عن الإسلام حتى يتمكن من الزواج بها وبلغ الرشيد خبر هذه الحادثة فأمر واليه على سمرقند سليمان بن حميد بأن يفرق بينهما وبمعاقبة رافع بن ليث غير أنه هرب من حبسه ولجأ إلى مرو ، وتمكن

من الانتصار بمساعدة أتباعه على جيشس عيسى بن على بن عيسى ، وأن يستولى على مرو عاصمة خراسان ، كما تصادف ظهور كنز كبير كان قد خبأه والى خراسان على بن عيسى ، فتأكد الرشيد من جمعه الأموال بدون وجه حق فأرسل الرشيد جيشا بقيادة هرثمة بن أعين لقتاله وللقبض على رافع بن ليث ونجح الجيش فى القبض على على بن عيسى وإرساله وأولاده وأمواله إلى بغداد إلا أن هرثمة لم يستطع القضاء على ثورة رافع وأتباعه سنة ١٨٩ هـ وظلت مشتعلة إلى مابعد خلافة الرشيد ، ولم تنته إلا فى عهد الخليفة المأمون .

(٧) البرامكة :

تنتسب أسرة البرامكة إلى جدها " برمك " الذى كان يعمل بخدمة بيت النار فى مدينة بلخ ويدين بالمجوسية عند فتح المسلمين بلاد فارس ، وقد أسلم ابنه خالد ، وتقرب إلى العباسيين بعد قيام دولتهم حيث كان أحد قواد أبى مسلم الخراسانى ، ونجح فى الوصول إلى منصب الوزارة فى خلافة كل من السفاح وأبى جعفر المنصور ، كما عهد المنصور إلى ابنه يحيى بن خالد بولاية اذربيجان سنة ١٥٨ هـ وفى خلافة المهدى أرضعت زوجة يحيى بن خالد البرمكى هارون الرشيد مع ابنها الفضل بن يحيى ، فأصبح الرشيد والفضل أخوين فى الرضاعة ، وفى سنة ١٦٤هـ عين المهدى ابنه هارون على الجزء الغربى من الدولة وكان يحيى بن خالد يتولى الإشراف الفعلى على ادارة هذا الجزء من الدولة وله النفوذ الكبير هناك ، وفى عهد خلافة الهادى لعب يحيى دورا كبيرا فى عدم تنازل هارون عن ولاية العهد لجعفر بن الهادى .

ولهذا ارتبط الرشيد بيحيى وأبنائه . وكان من الطبيعى أن يوليهم الرشيد بعد وصوله لكرسى الخلافة أهم مناصب الدولة ، فأصبح لهم النفوذ الأكبر فى الدولة ، فتولى يحيى تدبير أمور الرشيد الخاصة والعامة ، كما ولاه الرشيد وزارة التفويض ، وخاتم الدولة العباسية وكان لا يرجع إلى الرشيد فى أى أمر اعتمادا على هذا التفويض وساعده أبناؤه الأربعه فى تدبير شئون الدولة فكان أكبر أبنائه ـ الفضل ـ ينوب عن والده ، كما عهد إليه الرشيد بالإشراف على تربية ابنه محمد (الخليفة الأمين فيما بعد) كما بعثه لقتال يحيى العلوى ببلاد الديلم سنة ١٧٦هـ ، ثم ولاه سنة ١٧٨هـ شئون خراسان والمشرق.

أما أخوه جعفر فكان أحب أبناء يحيى إلى الرشيد لفصاحته ، وعهد إليه الرشيد بإدارة قصره ،كما نقل إليه من أبيه مسئولية خاتم الدولة ، وفى سنة ١٧٦هـ ولاه إمرة مصر ، غير أنه آثر البقاء إلى جانب الرشيد فى دار الخلافة وأناب عنه فى حكمها عمر بن مهران ، وفى سنة ١٨٠هـ أرسله الرشيد لإخماد صراعات العصبية القبلية ببلاد الشام كما ذكرنا من قبل ، كما عهد إليه الرشيد بالإشراف على تربية ابنه عبد الله (الخليفة المأمون فيما بعد) وكان لعلاقة جعفر بالرشيد الأثر الأكبر فى اقناع الرشيد بالتوصية بتولية العهد لابنه عبد الله (المأمون) بعد أخيه الأصغر محمد (الأمين)

وكان موسى ـ ثالث أبناء يحيى البرمكى معروفا بشجاعته وقد عهد إليه الرشيد بحمله إلى بلاد الشام سنة ١٧٦هـ لإخماد صراعات العصبية القبلية قبل الحملة المماثلة التى كلف بها الرشيد أخاه جعفر سنة ١٨٠هـ .

أما الابن الرابع ـ محمد بن يحيى البرمكى فلم يكن له دور أونشاط يذكر بعكس أخوته الثلاثة ...

وعلى الرغم من مكانة أسرة البرامكة ونفوذها فى الحكم وتدبير شئون الدولة، وموافقة الخليفة الرشيد على ذلك وتشجيعه لهم ، فإن هذا لم يمنعه من الغدر والتنكيل بهم فيما يعرف فى كتب التاريخ بنكبة البرامكة ،وقد بدأت النكبة ببداية تغيير الرشيد عليهم ، وتدبيره الأمر للتخلص منهم ، بعدما ضاق ذرعا بهم وبنفوذهم الذى طغى على نفوذه ، وتدخلهم فى كل شئون الحكم والقصر ـ بل وفى أمور الرشيد الخاصة ، وفى سنة ١٨٦هـ وفى طريق عودته من اداء الحج وكان معه ولداه الأمين والمأمون ، ويحيى البرمكى وولداه الفضل وجعفر ، وعند الأنبار ـ وفى المحرم سنة ١٨٧هـ فاجأ الرشيد البرامكة بضربته ، فأمر الحاجب مسرور بقطع رقبة جعفرالبرمكى وتعليق جثته على أسوار بغداد ، كما أمر بالقبض على جميع أفراد أسرة البرامكة ومصادرة أملاكهم وأموالهم ، فضلا عن طردهم من قصورهم وفصلهم من أعمالهم ووظائفهم .

وقد أفاضت المصادر التاريخية فى ذكر الأسباب التى دفعت الرشيد إلى الغدر بالبرامكة والتخلص منهم على هذا النحو غير المنتظر .

ويأتى فى مقدمة أسباب نكبة البرامكة وأهمها ما بلغه نفوذ البرامكة وسلطانهم ، حتى أنه طغى على نفوذ الرشيد وسلطانه ، والمعروف أن الرشيد كان خليفة قويا وحكيما ، وعندما رأى البرامكة يسحبون كل سلطاته تدخل واطاح بهم انتصارا للطابع الاستبدادى لخلفاء الدولة العباسية فى ذلك الوقت المبكر من تاريخها ، وتشير المصادر التاريخية إلى عدة أحداث تثبت مبلغ ما وصله نفوذ البرامكة وتسلطهم فى أمور الدولة العباسية دون الرجوع إلى الخليفة ، ويكفى أن نذكر من هذه الأحداث تزويج جعفر البرمكى ابنة الرشيد لعبد الملك بن صالح دون الرجوع إلى والدها الرشيد ، كما أدى ازدياد نفوذ البرامكة إلى حقد العناصر العربية عليهم ، والمعروف أن العباسيين عرب

قبل كل شئ ويتسم بزعامة العنصر العربي وهيبته، وكانت تتزعم هذا العنصر السيدة زبيدة زوجة الرشيد ، وكانت هى والوزير الربيع بن يونس على رأس المطالبين بتوصية الرشيد بولاية العهد لابنها محمد ـ الذى سيلقب بالأمين فيما بعد ـ على الرغم من أنه أصغر سنا من أخيه عبد الله ، وقد تم هذا بالفعل سنة ١٧٥هـ .

ومن جهة أخرى تمثل نفوذ العنصر الفارسى بعامة ونفوذ البرامكة خاصة فى نجاحهم فى إقناع الرشيد سنة ١٨٢هـ بالتوصية بولاية العهد من بعد الأمين لابنه عبد الله (الذى سيلقب بالمأمون فيما بعد) وكأن العنصر الفارسى أراد ضمان أن تؤول الخلافة إلى عبد الله باعتبارهم أخوال له حيث كانت والدته أم ولد خراسانية الأصل ،

وتختلف المصادر التاريخية حول سبب آخر وراء نكبة البرامكة يتعلق بغضب الرشيد عليهم عندما علم أن جعفر البرمكى قد تزوج بالفعل من العباسة أخت الرشيد ، وكان الاتفاق أن يكون الزواج صوريا حتى يتيح لكل من جعفر والعباسة مشاركة الرشيد فى مجالسه الخاصة ، ومهما يكن من أمر صدق هذا السبب أو كذبه فان الذى يهمنا هو دلالته على مكانة جعفر من الرشيد وحظوته لديه حتى أن الرشيد لم يكن يطيق فراقه .

كما تذكر الروايات التاريخية أسبابا أخرى كالقول بغيرة السيدة زبيدة زوجة الرشيد من علاقته القوية مع البرامكة وبخاصة جعفر، الذى كان يفضله الرشيد عن أخيه الفضل ـ أخو الرشيد فى الرضاعة ولهذا إستغلت حب الرشيد لها وأوعزت إليه بضرورة قتل جعفر والتمثيل بجثته بتعليقها على أسوار بغداد ، وتشريد أفراد أسرته ،

كما كان لإطلاق سراح يحيى العلوى من سجنه بواسطة جعفر البرمكى الذى كان يحيى مسجونا بمنزله ، حيث أثار هذا العمل ثائرة الرشيد ضد جعفر ، بل أن الأمر بلغ إلى حد اتهام البرامكة بالتشيع للعلويين ، وهى تهمة ليست بعيدة عن الفرس

المعروفين بتعاطفهم مع العلويين ، وسنرى فيما بعد وخلال خلافة المأمون كيف ضغط بنو سهل - وهم أسرة فارسية كان لها نفوذها ومكانتها فى عهد المأمون وبخاصة بعد انتصاره على أخيه الأمين وإقامته فى مرو كيف ضغطوا على المأمون حتى أوصى بولاية العهد من بعده لعلى الرضا وهو علوى معروف .

كما يقال فى أسباب نكبة الرشيد بهم أنهم كانوا باقين على دينهم المجوسى القديم الذى كان يقدس النار ويقيم المعابد لها ، ويقال أنهم أوحوا إلى الرشيد بإقامة مجمرة مشتعلة بالكعبة الشريفة ، كما اتهم البرامكة بالزندقة واستدل القائلون بهذا الاتهام بمجالس الشراب واللهو والغناء التى كانت تزدحم بها قصورهم .

وتبقى الإشارة إلى أن الرشيد لم يكن الخليفة الوحيد الذى تنكر لرجاله ومساعديه من الفرس وغيرهم ، فقد تخلص السفاح من قبل من وزيره أبى سلمة الخلال (وزير آل محمد) وتخلص المنصور من وزيره أبى أيوب المورياني كما تخلص من أبى مسلم الخراسانى وغيره من الشخصيات الهامة فى عصره ، وتخلص المهدى من وزيريه أبى عبد الله معاوية بن يسار ، ويعقوب بن داود ، وقد ترتب على نكبة الرشيد بالبرامكة أن نظر الناس إليه كناكر للفضل والجميل اللذين قدمهما البرامكة إليه ، ومما يذكر أن الرشيد استوزر بعد نكبته بالبرامكة وزيره الفضل بن الربيع وهو من زعماء العنصر العربى .

وبالاضافة إلى المشاكل التى واجهها الرشيد فإن عهده اتسم بازدهار الحضارة بمظاهرها المختلفة العلمية والأدبية والمعمارية والفنية ، وبالرخاء الاقتصادى الكبير الذى ضاعف منه انتقال طريق التجارة عبر العراق والخليج العربى بدلا من بحر

القلزم (البحر الأحمر) ويقال أنه كان يفكر فى الوقت نفسه فى وصل بحر القلزم ببحر الروم (البحر المتوسط) ، كما شهد عهده زراعة ما يزيد عن عشرة ملايين فدان بالعراق وحده (تبلغ المساحة المتزرعة فى العراق الآن ثلاثة ملايين فدان) فضلا عن انتظام جباية الخراج فى عهده وسرعة البريد وتأمينه ونهضة الصناعة وقيامها على أكتاف عدد كبير من الصناع انتظمتهم نقابات لهم ، ويقال أن الرشيد خلف وراءه تركة تزيد عن ثمانية وأربعين مليونا من الدنانير نعم بها أبناؤه الخلفاء من بعده.

أما عن العلاقات الخارجية للدولة العباسية فى عهده ، فاهم مظاهرها صداقته القوية لمملكة الفرنجة وتبادل الهدايا والسفارات مع ملكها شارلمان فيما بين سنتى ١٨٢ ، ١٨٦هـ (٧٩٧ - ٨٠١ م) ، وقد أفاض المؤرخ اينهارت فى كتابه عن حياة شارلمان فى وصف مظاهر الصداقة بينه وبين الرشيد.

وشهد عصر الرشيد توجيه عدد كبير من الصوائف ضد الدولة البيزنطية، وكانت تنتهى غالبا بعقد الصلح والهدن فى مقابل دفع الروم جزية كبيرة للعباسيين ، وذلك بسبب الاضطرابات السياسية التى كانت تعانى منها دولة الروم البيزنطية فى عهد الرشيد ، كما تم فى عهد الرشيد الاتفاق مع البيزنطيين على فداء الأسرى أى شراؤهم بالمال ، كما أدت كثرة الصوائف إلى اهتمام الرشيد بالثغور (الموانىء) وكانت تعرف أيضا بالعواصم وجعل لها ولاية - أى امارة خاصة ترعى شئونها وتحافظ على تحصينها وتزويدها ، بما تحتاج إليه من مؤن وعتاد ،واتخذ طرسوس عاصمة لإمارة الثغور كما شجع الرشيد على اقامة الأربطة (جمع رباط) وعلى اقامة الناس بها لتكون نقاط حدود متقدمة لرصد حركة العدو فى وقت مبكر ، مما يهيىء الفرصة لملاقاة العدو فى وقت مناسب وباستعداد تام ...

وقد توفى هارون الرشيد فى مدينة طوس فى الثالث من جمادى الآخرة سنة ١٩٣هـ أثناء توجهه لاخماد ثورة رافع بن الليث بخراسان وكان ابنه الأمين ولى عهده ينوب عنه فى بغداد ، أما المأمون ــ ولى عهده الثانى ــ فكان قد سبقه إلى مرو بخراسان ، وقد قضى الرشيد فى الحكم ثلاثا وعشرين سنة وشهرين ونصف وتوفى عن ثمان وأربعين سنة ..

(٦) الأمين ١٩٣ ـ ١٩٨ هـ / ٨٠٨ – ٨١٣ م

ولد محمد بن هارون الرشيد سنة ١٧٠هـ وكانت أمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور وهو لهذا يعد الخليفة العباسى الوحيد الهاشمى أبا وأما ، وقد آلت إليه ولاية العهد سنة ١٧٥هـ ، وفى السنة نفسها أضاف الرشيد إلى الأمين ولاية الشام والعراق ، وعند وفاة أبيه بطوس سنة ١٩٣هـ تمت البيعة له بالخلافة ، وتلقب بالأمين وبقى بها حتى قتل فى ٢٥ من المحرم سنة ١٩٨هـ (٥ سبتمبر سنة ٨١٣ م) أى أن مدة خلافته لم تطل أكثر من ثلاث سنوات وثمانية أشهر ، قضاها كلها تقريبا فى نزاعه الشهير مع أخيه ، وولى عهده عبد الله الذى سيلقب فيما بعد بالمأمون .

ويعود سبب النزاع إلى رغبة الأمين فى إقصاء أخيه المأمون عن ولاية العهد والتوصية بها لابنه هو موسى ثم للمأمون من بعده ، وهو ما يخالف وصية الرشيد التى نصت على ولاية العهد للأمين أولا ثم للمأمون ثانيا وللمؤتمن ثالثا وبشرط موافقة المأمون على ذلك فى حينه .

وقد أدت هذه الرغبة إلى نشوب نزاع كبير بين الأخوين ،بلغ إلى حد الحرب المسلحة بينهما ، وسقوط الخليفة الأمين شهيدا لهذا النزاع غير المسبوق في التاريخ الإسلامي . ويرى كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين أن النزاع بين الأخوين كان في حقيقته صراعا بين العنصرين العربي والفارسي في ذلك الوقت ، حيث وقفت العناصر العربية خلف الأمين بزعامة أمه السيدة زبيدة ووزيره الفضل بن الربيع ، في حين وقف الفرس خلف المأمون بزعامة أسرة بني سهل الفارسية بزعامة عميدها في ذلك الوقت الفضل بن سهل الذي تولى الوزارة له فيما بعد .

وتعود أولى حلقات النزاع إلى ما بعد وفاة الرشيد مباشرة سنة ١٩٣هـ حيث استحوذ الأمين بمساعدة وزيره الفضل بن الربيع على الجيش والمعدات والأموال التي كانت مع الرشيد في حملته على خراسان والتي لم يقدر لها أن تتم بسبب وفاة الرشيد في طوس كما ذكرنا ، فقد أوصى الرشيد بها جميعا للمأمون دعما له في حكم خراسان ، ولم تفلح مطالبة المأمون بها كما لم تنجح دعوته لأخيه صالح أن يتوسط لدى أخيهما الأمين لتنفيذ وصية أبيهم الرشيد فيما يتعلق بالجيش والأموال ، وعندئذ تنبه المأمون ووزيره الفضل بن سهل إلى نوايا الأمين ، فبدأ الإثنان ومن خلفهما الخراسانية في الاستعداد واعداد الخطط التي تفشل نوايا الأمين ، في حين انصرف الأمين إلى حياة اللهو والترف ، تاركا شئون الخلافة للفضل بن الربيع .

ثم كانت الحلقة الثانية من النزاع عندما أوعز الفضل بن الربيع إلى الخليفة الأمين بعزل أخيه المأمون من ولاية العهد وجعلها في ابنه هو موسى ثم للمأمون فالمؤتمن ، فطالب الأمين أخاه المأمون بالتنازل ، ولكن المأمون رفض التنازل عن ولاية العهد مما زاد من حدة الصراع بين الأخوين أو الفريقين ، فما كان من الأمين إلا أن خلع أخاه المأمون من ولاية العهد وذلك بإحضار المواثيق المعلقة بالكعبة منذ

عهد الرشيد وتمزيقها ، وأعلن البيعة لابنه موسى ، فرد المأمون بحذف اسم الأمين من الخطبة على منابر خراسان بما يعنى سحب مبايعته له بالخلافة .

ولم يعد أمام الاثنين إلا الحرب ، فأخذ كل فريق يعد جيوشه ، ويحصن حدوده ، وتولى القائد الخراساني الأصل طاهر بن الحسين قيادة جيش المأمون في حين تولى قيادة جيش الأمين على بن عيسى بن ماهان الذى كان واليا على خراسان فى عهد الرشيد ، والتقى الجيشان قريبا من مدينة الرى وانتصر جيش المأمون وقتل على بن عيسى ، وانضم عدد كبير من جيشه إلى جيش المأمون وكتب طاهربن الحسين إلى المأمون قائلا " اكتب إليك ورأس على بن عيسى فى حجرى وخاتمه فى اصبعى وجنوده تحت امرتى " ، فما كان من الفضل بن سهل بعد تلاوته الرسالة على المأمون إلا مبايعته بالخلافة ومناداته بأمير المؤمنين وأنعم المأمون على وزيره الفضل بن سهل بلقب ذى الرئاستين - أى رئاسة السيف ورئاسة القلم ، وتكررت بعد ذلك هزائم جيوش الأمين أمام جيوش المأمون في همذان ، وحلوان بإيران .

ثم كانت الحلقة الأخيرة من النزاع عندما كلف المأمون قائده الفارسى هرثمة ابن أعين بمشاركة طاهر بن الحسين فى قيادة جيوشه للتقدم نحو بغداد مقر الخلافة ، وتصادف قيام ثورة بالشام تزعمها أحد الأمويين الخارجين ونادى بنفسه خليفة وهو على بن عبد الله خالد بن يزيد بن معاوية المعروف بالسفيانى واحتل دمشق ، ولم ينجح الجيش الذى أرسله الأمين بقيادة الحسن بن على بن عيسى بن ماهان الخراسانى الأصل فى إخماد الثورة ، لانقسامه على نفسه ، فالجند الشامية به انضموا إلى الشاميين ، بينما عاد الجند الخراسانية إلى بغداد ثائرين على قائدهم وعلى الأمين،

وأعلنوا خلعه من الخلافة سنة ١٩٦هـ ، ومبايعتهم للمأمون ، غير أن العناصر الموالية للأمين نادت به خليفة مما يشير إلى ولائهم له وإعادته للخلافة ، فقام بإرسال جيش آخر لإخماد ثورة الشام ، وفى الوقت نفسه تقدمت جيوش المأمون فاستولت على اقليم الأهواز ، فالبحرين وعمان ، ثم بلدان العراق الأوسط ودخلت واسط ثم الكوفة والبصرة حيث بايع ولاتها المأمون ، وبينما توجه جيش طاهر بن الحسين نحو بغداد من ناحية المدائن ، كان جيش هرثمة يتقدم نحو بغداد من الشمال ، واستمر حصار بغداد عدة أشهر مما أدى إلى خراب خزائن الأمين من الأموال فأمر بإعادة صهر الآنية الذهبية والفضية التى كان يضمها قصره ليضرب منها العملة لدفع أعطيات الجند ، كما أطلق الأمين سراح المسجونين للدفاع عن بغداد مما أثار قلق أهل بغداد وفزعهم ، وأمام هذه الظروف القاسية أعلن الأمين استعداده لتسليم نفسه لهرثمة ، وتسليم شارات الخلافة - وهى القضيب والبردة والخاتم إلى طاهر بن الحسين ، ولكن جند طاهر انقضوا على السفينة التى كانت تحمل الخليفة الأمين فى نهر دجلة وقتلوه فى أوائل المحرم سنة ١٩٨هـ .

وقد غضب المأمون لهذه النهاية المفجعة التى حلت بأخيه الخليفة ، وأمر بعقاب الذين تسببوا فيها ، وتبنى أبناء أخيه وزوجهم من بناته فيما بعد ، ويجمع المؤرخون على القول بأن هارون الرشيد هو المسئول الأول عن حدوث هذا النزاع بتوصيته بولاية العهد لثلاثة من أبنائه ، كما يفسر المؤرخون الصراع بأنه ليس صراعا بين أخوين بقدر ما كان استمرارا للصراع الدائر بين العرب والفرس ليس فقط فى عهد الخلافة العباسية ، ولكن منذ عهد الخلافة الأموية ، ويضاف إلى ذلك أن الأمين نفسه لم يكن خليفة جادا أو حكيما دائما شغلته حياته الخاصة المرفهة عن

مسئولية الخلافة ، وترك تدبير أمورها لوزيره الفضل بن الربيع الذى كانت تحكمه روح الحقد والكراهية للفرس عامة والخراسانية والمأمون خاصة ، وها هو المؤرخ ابن الأثير يصف الأمين فى عبارة موجزة يقول فيها :

" لم نجد للأمين من سيرته ما نستحسنه فنذكره " .

(٧) المأمون ١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٣ - ٨٣٣ م

هو عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدى وأمه " أم ولد " فارسية تدعى " مراجل " ، ولد سنة ١٧٠هـ فى نفس اليوم الذى تولى فيه أبوه الخلافة، وأوصى له أبوه بولاية العهد سنة ١٨٢ هـ بعد أخيه الأمين ، وترك له حرية اقرار أخيهما الثالث المؤتمن فى ولاية العهد من بعده ، وقد تولى المأمون الخلافة فى ١٥ من المحرم سنة ١٩٨هـ بعد مقتل أخيه الأمين .

ويمكن التعرف على أحوال الدولة العباسية فى عهده من خلال تقسيم تاريخه إلى فترتين : الأولى قضاها فى مرو وامتدت من توليته الخلافة سنة ١٩٨هـ حتى انتقاله إلى بغداد سنة ٢٠٤ هـ ، والثانية قضاها فى بغداد حتى وفاته سنة ٢١٨ هـ .

وامتلأت الفترة الأولى بالمشاكل والاضطرابات التى ترتبت على هزيمة العنصر العربى ، ومقتل الخليفة الأمين ، وزيادة النفوذ الفارسى ممثلا فى أسرة بنى سهل وزعيمها الوزير الفضل بن سهل ، الذى كان المحرك الأكبر للمأمون فى حربه ضد أخيه الأمين ، وقد أدت كثرة الاضطرابات فى تلك الفترة إلى تأخير انتقال المأمون إلى بغداد ـ عاصمة الدولة ـ وبقائه بخراسان ، ليكون قريبا من مواطن

الاضطرابات ، فقد حرص الفضل بن سهل على أن تكون مقاليد الأمور والدولة فى يديه ويدى أفراد أسرته ، فحرم القائدين المنتصرين طاهر بن الحسين، وهرثمة بن أعين من مكافأة انتصارهما ، فقد نجح الفضل بن سهل فى استصدار أمر من المأمون بتعيين طاهر بن الحسين ، واليا على الجزاء الغربى من الدولة لإبعاده عن العراق التى ولى عليها الحسن بن سهل أخو الفضل كما أقنع الخليفة المأمون بتكليف طاهر بن الحسين بالتوجه لاخماد ثورة قام بها نصر بن شيث فى حلب ، وساعده فيها العلويون المقيمون بشمالى الشام والعراق ، كرد فعل على هزيمة العنصر العربى فى النزاع بين الأمين والمأمون ، وكما أدرك طاهر الهدف من وراء إبعاده تقاعس عن محاربة نصر بن شيث ، وعندما عاد المأمون من مرو إلى بغداد استدعى طاهر وأرضاه وعينه فى السنة التالية (٢٠٥ هـ) واليا على بلدان المشرق ، وكلف ابنه عبد الله بن طاهر بمحاربة نصر بن شيث وتمكن بعد خمس سنوات من هزيمته وأسره وحمله إلى بغداد سنة ٢١٠هـ .

ولم ينس طاهر بن الحسين فعلة المأمون الأولى معه ، فأغفل ذكر اسم المأمون فى الخطبة ، كما تقول الروايات التاريخية بأنه فكر فى الانفصال بولايته عن الدولة ، وكان رد المأمون على ذلك أنه تخلص منه بطريقته الخاصة حيث توفى طاهر بن الحسين فجأة بمرو سنة ٢٠٧هـ ، وحتى لا يثير المأمون الشكوك فيه عين طلحة بن طاهر بن الحسين واليا بولاية أبيه بخراسان ، وتوارث الطاهريون الحكم بها حتى سنة ٢٥٩هـ ، ويرى بعض المؤرخين أن الدولة الطاهرية بخراسان كانت أول دولة - أو دويلة يقيمها الفرس للاستقلال عن الخلافة العباسية وإن كانوا احتفظوا بالولاء للخلافة وارتبطوا بعلاقات وطيدة مع الخلفاء العباسيين .

أما هرثمة بن أعين - فقد أصدر الخليفة المأمون أمره بعودته إلى خراسان، واستعان به فيما بعد فى التصدى لثورات العلويين ضد المأمون فى كل من البصرة والكوفة والحجاز واليمن ، ففى الكوفة خرج محمد بن إبراهيم بن إسماعيل العلوى وهو من أبناء الحسن بن على ، وكان يدعو له أبو السرايا منصور الشيبانى ، ونجحت الثورة فى انتزاع الكوفة وطرد واليها العباسى كما ضرب أبو السرايا دراهم خاصة به فى الكوفة نقش عليها الآية الكريمة " إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص " وفشل الجيش الذى وجهه الحسن بن سهل والى العراق فى إخماد الثورة ، بل إنها تجددت فكلف المأمون هرثمة بن أعين بالتصدى للثورة ، ونجح هرثمة فى الانتصار على أبى السرايا والقبض عليه واستعادة الكوفة ، وامتدت ثورة أبى السرايا العلوية إلى الحجاز مما اضطر الوالى العباسى إلى مغادرة مكة ، فعهد الثوار العلويون بالإمارة إلى العلوى محمد بن جعفر الصادق وبايعوه بالخلافة لما كان يشتهر به من تقوى وورع وحكمة ، فما كان من المأمون إلا أن كلف قائده هرثمة بن أعين بالتوجه إلى الحجاز ، حيث انتصر على الثورة العلوية بها .

وفى اليمن خرج العلوى إبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق ضد الخلافة، فوجه المأمون إليه سنة ٢٠٣ هـ محمد بن إبراهيم الزيادى الذى نجح فى إخماد الثورة هناك ، واحتفظ لنفسه بالحكم فى ولاية اليمن منذ ذلك التاريخ وحتى سنة ٢٤٥هـ كما أسس بها مدينة زبيد واتخذها عاصمة لدولته وقد ورث أبناؤه وأفراد الأسرة الزيدية حكم اليمن - كدويلة مستقلة تتبع اسميا الخلافة العباسية وتدين لها بالولاء والطاعة حتى سنة ٥٥٣ هـ وهى أول دولة مستقلة تقوم باليمن .

كما شهدت الفترة الأولى من حكم المأمون التى قضاها بمرو فى خراسان قيام الزط بثورتهم ضد الخلافة العباسية (والاسم معرب عن جت ويعرفون أيضا بالنورة)

ويعود أصل الزط إلى الهند ، وقد استقروا حول الخليج الفارسى وسيطروا عليها أثناء النزاع بين الأمين والمأمون ولم يستطع الحسن بن سهل والى العراق القضاء على ثورتهم هناك ،ولم ينجح الخليفه المأمون أيضا فى القضاء عليهم حتى انتهاء خلافته سنه ٢١٨هـ ،غير أن الخليفه المعتصم تمكن من هزيمتهم فى السنه الأولى من الخلافه سنه ٢١٩ هـ و أتفق معهم على ترك منطقتهم بعد أن أمنهم على حياتهم ورحيلهم ، فعبرو العراق و آسيا الصغرى إلى أوربا ، وقد عرف هؤلاء هناك باسم الغجر بعد ذلك ..

وقد شهدت الفترة الأولى من حكم المأمون أيضا اضطراب الأحوال بالعراق بسبب زيادة نفوذ بنى سهل ممثلا فى وزير الخلافة الفضل بن سهل وأخيه الحسن بن سهل وإلى العراق ، حيث سادت حاله من التذمر والضيق بين العرب عامة وبنى هاشم علويين وعباسيين خاصة من تسلط بنى سهل وسوء معاملتهم فما كان من القائد هرثمة ابن أعين إلا التوجه إلى مرو لاطلاع المأمون على حقائق الأمور التى يخفيها عنه وزيره الفضل بن سهل ،وعند خروج هرثمة من قصر الخليفه أنقض عليه رجال الفضل وقتلوه ، وأخفى الفضل خبر قتله عن المأمون ، وقد ثار رجال الجيش على مقتل هرثمة فاتفقوا مع بعض العباسيين الغاضبين على اختيار المنصور بن المهدى ونادوا به أميرا على العراق مما أحرج الحسن بن سهل وأصابه بالعجز عن مباشرة الحكم فى العراق ، وأدرك المأمون الخطر المحيط بالخلافة فأسرع بترك خراسان والعودة إلى بغداد ليكون قريبا من أحداثها المضطربة . وزاد الموقف تعقيدا ذلك القرار الخطير

الذى اتخذه المأمون قبل مغادرته خراسان عندما أوصى فى ٢رمضان سنة ٢٠١ هـ بولاية العهد من بعده لعلى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، ولقبه بعلى الرضا ـــ أى الذى رضى عنه آل محمد كما زوجه سنة ٢٠٢ هـ ابنته أم حبيب وترك المأمون لبس السواد شعار العباسيين واتخذ اللون الأخضر شعار العلويين بل ونقش اسم على الرضا إلى جانب اسمه على العملة ، وقابل العباسيون هذا القرار الخطير بالثورة وقرروا الخلاص من المأمون نفسه ، وبايعوا ابراهيم ابن الخليفة المهدى بالخلافة فى أول المحرم سنة ٢٠٢هـ وبقى خليفة ببغداد قرابة العامين.

وأمام هذه الاضطرابات عجز الحسن بن سهل عن مباشرة حكمه للعراق ، اضطر المأمون إلى العودة إلى بغداد ، وأثناء الطريق وعند مدينة سرخس تخلص المأمون من وزيره الفضل بن سهل ، وكلف المأمون ولى عهده ـــ على الرضا ـ باسترضاء الخراسانيين استغلالا لحبهم لعلى الرضا ورضاهم عن توليه العهد بالخلافة بعد المأمون ، وفى اثناء الطريق أيضا إلى بغداد ـــ وعند مدينة طوس توفى على الرضا فجأة ودفن هناك وبنى له المأمون مشهدا كبيرا يؤمه الشيعه بالزيارة حتى الأن ويعرف بين المزارات الشيعية بالمشهد القدسى ، ويشير أصبع الاتهام الشيعى إلى المأمون فى التخلص من على الرضا ، بينما يدافع العباسيون عن المأمون ، ويدفعون عنه هذه التهمة مدللين على ذلك باختيار المأمون له دون أبناء البيت العباسى لولاية العهد من بعده ، وبعد مماته بناته المشهد العظيم لدفنه به فى طوس ، وقد أكد المأمون ذلك بحسن معاملته للعلويين بعد ذلك ، حتى أنه عين أحدهم واليا على الحجاز ، وظل على هذه السياسة حتى قامت ثورة باليمن سنة ٢٠٧هـ بزعامة العلوى عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله ، ضد الخلافة العباسية ، وعلى الرغم من اخماد المأمون لها وتخلصه من زعيمها بالقتل بعد تأمينه واحضاره إلى بغداد فان المأمون تراجع عن

سياسة التسامح مع العلويين ، ومنعهم من الدخول عليه بعد ما كان يقربهم منه ، وخلع اللون الأخضر شعارهم ، وعاد إلى لبس اللون الأسود شعار العباسيين .

وتعليقا على قضية ولاية العهد التى فجرها المأمون بتوليته أحد العلويين وليا لعهده ، تفسر كتب التاريخ ذلك بأحد سببين أولهما اقتناع المأمون بأن على الرضا كان أحق أهل البيت ـ علويهم وعباسييهم ـ بولاية العهد ، والثانى يفسرها باستجابة المأمون لضغوط الفرس والخراسانية عليه ـ لميولهم العلوية المعروفة ، واستثمارا لدورهم فى نصرة المأمون على الأمين ووصوله إلى الخلافة بمساعدتهم.

أما الشق الثانى من القضية وهو تخلص المأمون بسرعة من على الرضا فربما يرجع إلى إدراك المأمون لخطورة خروج الخلافة من البيت العباسى إلى البيت العلوى ، وإن كانت بعض الآراء تقول أن سبب الخلاص من على الرضا هو ضيق المأمون بكثرة نصحه له وتدخله فى شئون الحكم .

ومهما يكن من أمر فقد تميزت الفترة الأخيرة من خلافة المأمون التى قضاها ببغداد باستئثاره بالحكم والنفوذ ، ومباشرته الإشراف على شئون الدولة ، وخاصة بعد تخلصه من وزيره الفضل بن سهل ، أما أخوه الحسن بن سهل فعلى الرغم من زواج المأمون من ابنته بوران سنة ٢١٠ هـ فإنه تخلص منه بالسم البطىء حتى وافاه أجله وعين بعده أحمد بن خالد وزيرا له .

ومن جهة أخرى قضى المأمون على مؤامرة بعض العباسيين عليه ، ومبايعتهم لابراهيم بن المهدى بالخلافة فى بغداد وتلقيبه بالمبارك ، وذلك اعتراضا منهم على تولية على الرضا ولاية العهد ، كما قضى بنفسه على ثورة أهل مصر التى نشطت أثناء نزاعه مع أخيه ، واستمرت بعد وصول المأمون إلى الخلافة، وفشلت جيوشه بقيادة عبد الله بن طاهر بن الحسين سنة ٢١٦ هـ وكذا جيوش القائد الأفشين فى القضاء عليها ، مما اضطر المأمون للحضور بنفسه إلى مصر فى المحرم سنة ٢١٧ هـ ، وصحب معه بطريرك أنطاكيه ، وقام بعزل والى مصر الذى اشتكى أقباط مصر من قسوته ، وعندما رفض أقباط مصر التفاوض مع المأمون حاربهم وقضى على مقاومتهم ودخل كثير منهم فى الإسلام ، ومع نهاية القرن الثالث الهجرى أصبحت غالبية المصريين تدين بالإسلام ...

كما واجه المأمون ثورة فرقة الخرمية ضده فى مناطق أذربيجان وأرمينيه وشمالى فارس والشام وهى إحدى الفرق الفارسية التى اتخذت الدين ستارا أخفت من ورائه أهدافها السياسية ضد الخلافة العباسية ، وقد تزعم الخرمية بابك الخرمى سنة ٢٠١ هـ وضاعف من خطورة هذه الثورة وزيادتها مساعدة الأرمن والبيزنطيين لها ضد الخلافة العباسية ، غير أن المأمون لم يتمكن من القضاء على ثورة الخرمية ، واستمرت حتى خلافة المعتصم حيث نجح فى القضاء عليها سنة ٢٣١ هـ .

وبالنسبة للعلاقات الخارجية فى عهد المأمون ، عاد التوتر إلى العلاقة بينه وبين الدولة البيزنطية وخاصة بعد مساندتها لثورة الخرمية ضده ، وقد قابل المأمون ذلك بتشجيعه ثورة توماس الصقلبى فى آسيا الصغرى ضد الامبراطور البيزنطى كما

سعى المأمون إلى فتح القسطنطينية سنة ٢١٨ هـ ولكن وفاته فى السنة نفسها حالت دون تحقيق هذا الهدف .

وبعيدا عن المشاكل والصعوبات التى واجهت المأمون فإن عهده تميز بقيام نهضة علمية وأدبية وفكرية كبيرة ، تمثلت فى نشاط بيت الحكمة ببغداد ، وتعيين مشرف له عرف بصاحب بيت الحكمة ، حيث كان البيت الذى أسسه الرشيد من قبل بمثابة مركز اشعاع تعليمى وثقافى كبير ، يقصده العلماء والأدباء والشيوخ والنساخون والكتاب وطلاب العلم ، كما تميز عهد المأمون بكثرة المجالس والمناظرات العلمية والأدبية والجدلية ، وكان المأمون يشارك فيها ، فقد كان هو نفسه أديبا عالما وشاعرا ومتكلما وذا ثقافة فارسية واسعة كما شهد عهده نشاط حركة الترجمة وبخاصة من اللغة اليونانية القديمة واللغة الفارسية وكثرة المتكلمين ، ويعود إلى عهده ظهور قضية القول بخلق القرآن الكريم التى تبناها علماء المعتزلة والتى ستنتشر بشكل ملحوظ فى عهد خلفائه من بعده .

وكان من نتائج انتشار الإسلام وعلومه فى عهد المأمون أن زاد انتشار اللغة العربية ، فهى لغة القرآن الكريم ، ولغة الحكام ، ولغة الدواوين ، ولغة الحضارة الإسلامية التى بدأت تعم سائر البلدان التى دخلها الإسلام بعد مرور أكثر من قرنين على ظهوره ، كما أدت معرفة المسلمين لصناعة الورق منذ عهد الرشيد وانتشارها فى عهد المأمون إلى زيادة انتشار اللغة العربية والكتابة العربية [الخط العربى] فقد عرفت سمرقند صناعة الورق أولا وانتقل منها إلى بغداد ثم إلى سائر البلدان الإسلامية .

وقد توفى المأمون شمالى مدينة طرسوس فى ١٩ رجب سنة ٢١٨ هـ عن عمر يناهز الثامنة والأربعين ، وكان قد عهد بالخلافة من بعده لأخيه أبى اسحق بن الرشيد الذى سيلقب فيما بعد بالمعتصم .

(٨) **المعتصم** ٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ - ٨٤٢ م

ولد أبو اسحق محمد بن هارون الرشيد سنة ١٧٨ هـ وأمه أم ولد تركية تسمى " ماردة " وقد أوصى له أخوه المأمون بالخلافة قبل وفاته من دون ابنه هو العباس الذى كان يتمتع بشهرة واسعة بين الجند ، ومع هذا كان العباسى ابن المأمون من أوائل المبايعين لعمه بالخلافة احتراما لوصية أبيه ، وكان المعتصم يلى بلاد الشام ومصر فى عهد أخيه المأمون ، واتصف بالشجاعة والفروسية ، وقد بويع له بالخلافة ولقب بالمعتصم بالله فى ١٩ رجب سنة ٢١٨ هـ ، وظل بالخلافة حتى وفاته فى ١٨ ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ بمدينة سامرا التى أنشأها ، فكأنه قضى بالخلافة ثمانية أعوام وثمانية أشهر وثمانية أيام ، ولهذا يلقبه المؤرخ الفقيه ابن طباطبا " بالمثمن " فى كتابه الفخرى فى الآداب السلطانية ، وذلك لأحد عشر سببا : " فهو الثامن من ولد العباس ، والثامن من خلفائهم ، ولتوليه الخلافة فى الثامنة عشرة ، ولامتداد خلافته ثمانية أعوام ، وثمانية أشهر ، وثمانية أيام ، ومولده فى شهر شعبان ـ الثامن من شهور العام الهجرى ، ووفاته فى الثمانية والأربعين من عمره وانجابه ثمانية ذكور ، وثمانى بنات ، وغزوه ثمانى غزوات ، وتركه وراءه ثمانية ألف ألف درهم " وأول مايذكر عنه أنه استكثر من العناصر التركية ، واعتمد عليها ، وأهمل الاعتماد على

كل من العرب والفرس ، لما شاب العلاقة بينهما من عداء وحقد وحروب في المرحلة السابقة على عهده ، وبخاصة أثناء النزاع بين الأمين والمأمون .

ويقال أن عدد جنده من الأتراك قفز من أربعة آلاف قبل انتقاله إلى سامرا إلى بضعة عشر ألفا فى أواخر عهده ، ومن جهة أخرى واجه المأمون الكثير من المشاكل كثورات العلويين ، والزط ، والخرمية ، وثورات العرب بالشام ، والأكراد بالموصل .

وفيما يتعلق بالعلويين فإن ثوراتهم لم تنته بوفاة على الرضا ، وزواج ابنه محمد الجواد من ابنة الخليفة المأمون أم الفضل ، فقد توفى محمد الجواد فجأة سنة ٢١٩ هـ عقب وفاة المأمون ، وتشير بعض الروايات التاريخية إلى اتهام المعتصم بالخلاص منه - كما تخلص أخوه المأمون من قبل من على الرضا ، وأغلب الظن أن الدافع لذلك مايمثله محمد الجواد من خطر على الخلافة إذ أنه بزواجه من ابنة المأمون يعتبر وريثا شرعيا لكل من العلويين والعباسيين معا مما يحتمل معه انتقال الخلافة إليه .

كما خرج على المعتصم بخراسان محمد بن القاسم وهو حفيد للحسين بن على، ونادى لنفسه باعتباره الرضا من آل محمد ، وقد حاربه المعتصم بجيش تولى قيادته عبد الله بن طاهر بن الحسين ونجح فى هزيمته والقبض عليه وإرساله أسيرا إلى المعتصم سنة ٢٢٠ هـ ، غير أنه تمكن من الهرب والاختفاء، ولذلك يقول أتباعه بغيبته ورجوعه ويتخذون من الكوفة وطبرستان وأقاليم جبال الديلم مقرا لهم .

من جهة أخرى واصل المعتصم تصديه للزط ، وانتصر عليهم قائده العربى عجيف بن عنبسة .

كما تصدى المعتصم لفرقة الخرمية وتمكن قائده التركى الأفشين من هزيمتهم ، ولكنه بابك الخرمى زعيم الخرمية نجح فى الهرب واللجوء إلى الامبراطور البيزنطى الذى استغل خروجه وهروبه إليه فى مهاجمة منطقة الثغور وبخاصة مدينة " بطرة مسقط رأس الخليفة المعتصم سنة ٢٢٣ هـ فما كان من الخليفة إلا أن جهز جيشا كبيرا تولى قيادته بنفسه وهاجم به آسيا الصغرى - مقر حكم الدولة البيزنطية ـ عازما على دخول عاصمتها القسطنطينية ، وعند مروره بمدينة عمورية ـ مسقط رأس الإمبراطور البيزنطى حدثت المعركة الشهيرة فى ٦ رمضان سنة ٢٢٣ هـ ، حيث انتصر المعتصم انتصارا ساحقا خلده الشاعر العباسى أبو تمام فى قصيدته المشهورة التى يفتتحها بالبيت المعروف :

السيف أصدق أنباء من الكتب ∴ فى حده الحد بين الجد واللعب .

ولم يكمل المعتصم زحفه إلى القسطنطنية بسبب كشفه مؤامرة ضده دبرها العباس ابن أخيه المأمون مع العناصر العربية والقائد عجيف بن عنبسه بسبب الحقد على العناصر التركية المشاركة فى الجيش عندما خص المعتصم أفرادها بغنائم معركة عمورية وميزهم عن العناصر العربية ، فقبض على المتآمرين وقضى عليهم بالقتل والسجن وكانت هذه المؤامرة سببا قويا لاسقاط المعتصم العرب والفرس من ديوان العطايا أى منع مرتباتهم ، وهو الإجراء الذى أدى إلى زيادة نفوذ الاتراك حيث اسند إليهم المناصب الهامة فى الدولة ، كما أدى فى الوقت نفسه إلى زيادة حنق العرب والفرس وحقدهم ، وبلغ من زيادة نفوذ الأتراك أن قائده الأفشين تآمر على الخليفة

المعتصم لشعوره بالزهو والفخار بعد انتصاراته على أقباط مصر ، وعلى ثورة بابك الخرمي ، وعلى شجاعته ودوره في معركة عمورية ، فكان يطمع في الاستقلال ببلاد ماوراء النهر ، فدبر مؤامرة للوقيعة بين عبد الله بن طاهر والى خراسان ، والمازيار والى طبرستان استغلالا للعلاقة السيئة بين الإثنين فحرض المازيار ضد عبد الله بن طاهر ، وعندما قبض الأخير على الأول أفشى المازيار سر خروجه وتحريض الأفشين له ، وانتهى الأمر بقتله وقتل الأفشين نفسه سنة ٢٢٤ هـ .

كما ثار الأكراد بالموصل فى عهد المعتصم بزعامة جعفر الكردى فأرسل جيشا لاخماد ثورتهم بقيادة ايتاخ القائد التركى سنة ٢٢٧ هـ .

ويرتبط اسم الخليفة المعتصم بإنشاء مدينة سامرا الذى بدأ سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) لتكون حاضرة أى عاصمة للدولة العباسية بعدما ضاقت بغداد وازدحمت بالعناصر التركية التى استكثر منها المعتصم ، وبدأت المشاكل تدب بين أفرادها وبين العناصر الفارسية والعربية التى تكتظ بها بغداد منذ انشائها فى عهد المنصور سنة ١٤٥ هـ ، وتقع سامرا - أو " سرمن رأى " - كما كانت تعرف عند بنائها لأنها كانت تسر كل من يراها بفخامتها وبهاء مبانيها وزخارفها - تقع شرقى نهر دجله على بعد ستين ميلا إلى الشمال من بغداد (حوالى ١٥٠ كم) وكانت مقسمة إلى عدة قطائع - أى أجزاء - أو أحياء - حيث كانت كل قطيعة مخصصة لفرقة من الجند التركى ، كما ضمت المدينة الجديدة قطائع للصناع والتجار وغيرهم ، وقد عمرت سامرا واتخذت عاصمة للخلافة العباسية منذ تمام إنشائها فى عهد المعتصم، وحتى سنة ٢٨٩ هـ (٩٠٢ م) فى آخر عهد الخليفة المعتضد حيث أصابها الدمار فصارت تسوء لمن

يراها ، ومن هنا جاء اسمها في بعض الكتب ـ بعد دمارها " ساء من رأى " ولكن التسمية الشائعة لها سامرا .

ومما يذكر عن المعتصم أنه صار على نهج أخيه المأمون فى مساندة المعتزلة فى القول بخلق القرآن الكريم ، وهى الظاهرة التى تعرف فى كتب التاريخ "بمحنة القول بخلق القرآن الكريم " وزاد المعتصم على المأمون شدته فى الأخذ بالمخالفين له فى الرأى فى هذه القضية وكان معظمهم من علماء المسلمين ومتكلميهم من أمثال الإمام أحمد بن حنبل الذى أمر المعتصم بحبسه وضربه لعدم إذعانه بالقول بخلق القرآن ، فقد كان المعتصم من أشد الخلفاء بطشا وقوة ، حيث غلبت صفاته الحربية ، وإن كانت كتب التاريخ تصفه بالشجاعة والبساطة والصراحة ، ومن جهة أخرى لم يكن محباً للعلم بعكس أخيه المأمون ولذلك تأثرت حركة العلوم والترجمة فى عهده لعدم حماسه لها وقد أصيب المعتصم فى أخريات أيامه بالمرض ، وتوفى فى التاسع عشر من ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ عن عمر يناهز الثامنة والأربعين عاما.

وكان قد أوصى بولاية العهد من بعده لابنه هارون ولم يجعل معه شريكاً فى الولاية حتى لا يتكرر ما حدث بين أخويه الأمين والمأمون من قبل .

(٩) الواثق ٢٢٧ _ ٢٣٢ هـ / ٨٤٢ – ٨٤٧ م

ولد أبو جعفر هارون بن المعتصم الرشيد سنة ١٨٦هـ من أم ولد رومية يقال لها قراطيس ، وتولى الخلافة فى الثامن من ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ وتلقب بالواثق بالله ومكث بها ست سنوات تقريبا حتى وفاته فى ذى الحجة سنة ٢٣٢هـ وعرف عنه رجاحة العقل وحسن التقدير ، وان كان قد تشدد مع المخالفين للرأى القائل بخلق القرآن الكريم كوالده وعمه المأمون ، كما واصل الاعتماد على العناصر التركية بشكل رئيسى ، حتى أنه استخلف القائد التركى اشناس فى السلطة عند غيابه ، كما تمتع ولاة الأقاليم فى عهده بنفوذ كبير ، فكان عبد الله بن طاهر يدير شئون أقاليم المشرق ، فى حين كان أشناس يدير بلدان المغرب بواسطة نواب عنه لأنه فضل الإقامة بسامرا العاصمة .

وقد شهد عهده القصير بعض المشاكل والثورات ، فقد ثارت القبائل القيسية عليه بدمشق فى أوائل خلافته ، وتمكن الجيش الذى أرسله الواثق بقيادة رجاء بن أيوب من الانتصار على الثوار فى مرج راهط .

كما خرج فى عهده بنو سليم وبعض قبائل البدو فى الحجاز وتكررت اعتداءاتهم على جيرانهم بالمدينة المنورة ؛ وقد انتصر عليهم جيش الواثق بقيادة بغا الكبير سنة ٢٣٠هـ . وقد عانى الواثق من تعصبه للقول بخلق القرآن الكريم ، وذلك لكثرة الساخطين عليه بسببها ، وتزعم أحمد بن نصر الساخطين على الواثق ، ودبروا مؤامرة لعزله ، ولكنها فشلت ، وقتل أحمد بن نصر . ومن جهة أخرى تبوأ المناصرون للقول بخلق القرآن الكريم منزلة كبيرة فى عهد الواثق ، فكان منهم نفوذهم

عليه وكلمتهم مسموعة عنده ، ومن أبرز هؤلاء أحمد بن أبى داود المعتزلى ، ومحمد بن عبد الملك الزيات وزير الخليفة الواثق .

وفى عهد الوثق عادت مجاس المناظرات فى قصـره إلى ما كانت عليه فى عهد عمه المأمون ، وساعد على ذلك علم الواثق وأدبه وقرضه للشعر ، حتى أن بعض المؤرخين يصفه بالمأمون الصغير ، وفى عهده نشطت حركة التأليف والترجمة ، ومن أهم الكتب التى يعود تأليفها إلى عهده كتاب المسائل الطبيعية الذى ألفه حنين ابن اسحق بناء على تكليف الواثق له ، لبيان الفرق بين الغذاء والدواء ، وقد عاصر الواثق كل من الشاعر أبى تمام ، والكندى فيلسوف العرب ، واليعقوبى والبلاذرى والدينورى وهم من كبار المؤرخين ، وآخر ما يذكر للواثق أنه لم يعهد بالخلافة من بعده لولده ، وعندما سئل عن سبب ذلك ، قال كلمته المشهورة " لا أتحمل أمركم حياً وميتاً " .

وتوفى الواثق فى ٢٤ من ذى الحجة سنة ٢٣٢هـ بعد حكم دام ست سنوات تقريبا .

العصر العباسى الثانى

(عصر الأتراك)

(٢٣٢ـــ ٣٣٤هـ / ٨٤٧ ـــ ٩٤٦م)

يختلف العصر العباسى الثانى عن العصر الأول اختلافا كبيرا ؛ فبينما تميز العصر الأول بتولى الخلفاء الأقوياء الذين طغت شخصيتهم على شخصيات غيرهم فى الدولة ، ضعفت شخصية الخلفاء فى العصر الثانى وسلب نفوذهم الوزراء والأمراء من الترك ، وبينما اعتمد خلفاء العصر الأول على العناصر الفارسية ، زاد فى العصر الثانى اعتماد الخلفاء على العناصر التركية ، وقد رأينا فى أحداث العصر الأول كيف إنتصرت الروح العربية لدى الخلفاء العباسيين عندما بطشوا بالشخصيات الفارسية التى سحبت منهم السلطان والنفوذ من أمثال أبى سلمة الخلال وأبى مسلم الخراسانى فى عهد أبى جعفر المنصور ،وأسرة البرامكة فى عهد هارون الرشيد ، وأسرة بنى سهل فى عهد المأمون .

ولكن فى العصر الثانى سنرى كيف أصبح الخلفاء ألعوبة فى أيدى الترك من وزرائهم وأمرائهم وأمراء الأمراء منهم ،بل أن بعض الخلفاء تعرض لما هو أكثر من ذلك، فقد استبد الأتراك بالخلفاء ، فهم الذين عينوا الخليفة المستعين ، وعزلوا المقتدر ، وقتلوا كلا من المتوكل والمهتدى والمقتدر والراضى ، وسملوا عيون القاهر والمستكفى ، وسجنوا المتقى . وقد ساعد على زيادة نفوذ الترك ضعف كثير من الخلفاء العباسيين ، وانغماس بعضهم فى حياة اللهو والترف بعيدا عن مسئوليات الخلافة ومشاغلها ..

كما شهد العصر العباسى الثانى تنازع بعض أبناء البيت العباسى فيما بينهم كالخلاف الذى نشب بين الخليفة المعتمد وأخيه الموفق ، وحجر الثانى على الأول ، حتى أنه أجبره على التوصية بولاية العهد لابنه هو وليس لابن الخليفة المعتمد القائم فى الحكم .

كما أدى ظهور منصب أمير الأمراء ـ كنتيجة لزيادة النفوذ التركى ، وتطلع الأمراء الأتراك لما هو أكثر وأعلى من الامارة ـ أدى إلى ضعف سلطة الوزراء واضمحلالها ـ بل أن الوزارة توقفت تماما لمدة تسع سنوات من ٢٤٧ ـ ٢٥٦هـ بعد مقتل الخليفة المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان ..

كما شهد العصر العباسى الثانى استمرار اتخاذ سامرا عاصمة للدولة العباسية حتى نهاية الخليفة المعتضد سنة ٢٨٩هـ وعندها عادت الخلافة إلى بغداد وظلت بها حتى سقوطها سنو ٦٥٦هـ .

ويعد قيام الدويلات المستقلة فى شرق الدولة وغربها على السواء أهم ظاهرة ميزت العصر العباسى الثانى ، والقرن الثالث الهجرى (٩م) بالتحديد ، وعلى الرغم من أن نظام الحكم فيها كلها ـ فيما عدا الدويلات المعادية للعباسيين ـ كان يدين بالولاء والطاعة للخلافة العباسية ، ويحرص على الحصول على موافقة الخليفة على القيام بالحكم أو توريثه للأبناء بعد مؤسسى هذه الدول ، الا انها كانت تمثل ظاهرة جديدة غير مسبوقة فى التاريخ الاسلامى ، وتتمثل فى قيام أسرات حاكمة ، يمتد حكمها بقدر نجاحها فى الحكم واحتفاظها بعلاقات متينة مع الخلافة ، بعكس الحال فى عصر الولاة عندما كان الخلفاء يعينون الولاة ويعزلونهم دون توريث للحكم بين أبنائهم .

ونذكر فيما يلى : أهم الدويلات المستقلة التى ظهرت خلال العصر العباسى الثانى وربما ظهر بعضها خلال العصر الأول كما يتبين من تاريخ ظهور كل منها :

- ❖ الأموية بالأندلس (معادية للعباسيين) ١٣٨- ١٩٧هـ
- ❖ الأدارسة بالمغرب الأقصى (معادية للعباسيين) ١٧٢- ٣١١هـ
- ❖ الأغالبة بافريقية (تونس) موالية للعباسيين ١٨٤- ٢٩٦هـ
- ❖ الطاهرية بخراسان (موالية) ٢٠٥- ٢٥٩هـ
- ❖ الزيدية بطبرستان (موالية) ٢٥٠- ٣٥٥هـ
- ❖ الصفارية بخراسان (موالية) ٢٥٤- ٢٩٠هـ
- ❖ الطولونية بمصر والشام (موالية) ٢٥٤- ٢٩٢هـ
- ❖ السامانية فيما وراء النهر (موالية) ٢٦٦- ٣٨٩هـ
- ❖ دولة بنى حمدان بالموصل وحلب (موالية) ٢٩٣- ٤٠٦هـ •
- ❖ الإخشيدية بمصر والشام (موالية) ٣٢٣- ٣٥٨هـ
- ❖ الغزنوية فى غزنة (موالية) ٣٦٦- ٥٧٩هـ
- ❖ الدولة الفاطمية بالمغرب ثم فى مصر (معادية للعباسيين) ٢٩٧- ٥٦٧هـ

ونخصص فصلا فى آخر هذه المذكرة لدراسة بعض هذه الدويلات على سبيل المثال ...

كما شهد العصر العباسى الثانى حدثا خطيرا آخر تمثل فى نجاح الفاطميين فى إقامة دولة شيعية لهم بالمغرب سنة ٢٩٧هـ ، أثناء خلافة المقتدر العباسى ، مما هدد كيان الدولة العباسية فيما بعد عندما امتد نفوذ الفاطميين ليشمل بلدان الشمال الافريقى كلها مصر والشام والجزيرة العربية ، وكلها بلدان كانت تتبع الخلافة العباسية .

ونتعرف فيما يلى على خلفاء العصر الثانى وعلى أهم أحداثه التاريخية وملامحه السياسية والحضارية .

جدول خلفاء العصر العباسى الثانى وسنوات حكم كل منهم

❖ المتوكل	٢٣٢هـ / ٨٤٧م
❖ المنتصر	٢٤٧هـ / ٨٦١م
❖ المستعين	٢٤٨هـ / ٨٦٢م
❖ المعتز	٢٥٢هـ / ٨٦٦م
❖ المهتدى	٢٥٥هـ / ٨٦٩م
❖ المعتمد	٢٥٦هـ / ٨٧٠م
❖ المعتضد	٢٧٩هـ / ٨٩٢م
❖ المكتفى	٢٨٩هـ / ٩٠٢م
❖ المقتدر	٢٩٥هـ / ٩٠٨م
❖ القاهر	٣٢٠هـ / ٩٣٢م
❖ الراضى	٣٢٢هـ / ٩٣٤م
❖ المتقي	٣٢٩هـ / ٩٤٠م
❖ المستكفى	٣٣٣هـ / ٩٤٤م

المتوكل على الله ٢٣٢ـ ٢٤٧هـ /٨٤٧ - ٨٦١ م

ولد جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بن الرشيد ببلدة "فم الصلح" على نهر دجلة بالقرب من مدينة واسط ، من أم ولد خوارزميه يقال لها شجاع فى شوال سنة ٢٠٦هـ ، وبويع بالخلافة فى يوم وفاة أخيه الخليفة الواثق فى ٢٤ذى الحجة سنة ٢٣٢هـ دون أن يعهد الخليفة الواثق بها له أو لغيره ، كما أن الأمراء والقواد الأتراك فضلوه على ابن للواثق يقال له محمد لصغر سنه وعدم رضاهم عنه ، وظل المتوكل بالخلافة حتى قتل فى الرابع من شوال سنة ٢٤٧هـ وعمره واحد وأربعون عاما .

وقد وزر له محمد بن عبد المالك الزيات الذى كان وزيرا لأخيه المعتصم من قبل ، وقد تخلص منه المتوكل سريعا بمصادرة أمواله وحبسه ثم قتله، لعدم رضاه عنه حيث كان ابن الزيات غير ميال لتولية المتوكل ، وانما كان من المتحمسين لتولية محمد بن الواثق .

واستوزر المتوكل من بعده أبا الوزير أحمد بن خالد ، ثم محمد الفضل الجرجرائى (نسبة إلى اقليم جرجرايا من أعمال النهروان الأسفل بين واسط وبغداد شرقا) وكان أديبا شاعرا عالما بالغناء مشتهرا به كما يقول ابن طباطبا فى كتابه الفخرى فى الأداب السلطانية ، وبقى بالوزارة حتى ضاق به المتوكل فعزله منها سنة ٢٣٦هـ واستوزر من بعده يحيى بن خاقان الذى بقى وزيرا له حتى قتل الأثنان على يد الترك .

ومما يذكر عن المتوكل بغضه وكرهه لعلى بن أبى طالب وأسرته ، حتى أنه أمر بهدم مقام الحسين بن على بكربلاء وحوله إلى أرض مزروعة وانعكس بغضه للعلوين على معاملاته مع رجالاتهم فكان لا يقربهم بل نكل بهم وحبسهم .

ومن جهه أخرى شعر المتوكل بازدياد نفوذ الترك فأراد أن يقلص نفوذهم ، فبدأ بزعيمهم الكبير ايتاخ الذى كان يتولى شئونا عديدة فى الدولة كالجيش والبريد والحجابة ودار الخلافة وغيرهما ، فأوقع به حتى تمكن من سجنه ببغداد حتى وفاته بها سنة ٢٣٥هـ .

وبلغ ضيق المتوكل بالأتراك أنه فكر فى ترك سامرا المزدحمة بهم ، وخرج بالفعل إلى الشام ينوى نقل العاصمة إلى دمشق ، ولكن العناصر التركية استطاعت إعادته إلى سامرا بالعراق لخوفها من استعانته بالعناصر العربية المتوافرة بالشام مما يؤثر على نفوذ الترك وسلطانهم ، وإن كانت بعض الروايات التاريخية تقول أن المتوكل لم يعجبه مناخ الشام لبرودته وكثرة هبوب رياحه ، فعدل عن الفكرة ...

وقد نجح المتوكل فى القضاء على بعض الخارجين عليه بأذربيجان وأرمينية .

أما عن علاقته بدولة الروم فكانت كالمعتاد عدائية ففى سنة ٢٣٨ هـ أغار الروم على دمياط بمصر وكانت حاميتها متغيبة عنها بالفسطاط فعاثوا فيها فسادا ونهبا ، ثم عادوا أدراجهم إلى بلادهم ، كما نهب الروم عدة قرى ومدن بالقرب من آمد سنة ٢٤٢ هـ ، وقد رد المتوكل على الروم بإرسال صائفة فتحت مدينة صملة ببلاد الروم سنة ٢٤٤ هـ.

أما عن الحياة العلمية والفكرية في عهده فيلاحظ أنه لم يشارك فى المشاكل الجدلية التى كانت شائعة قبل خلافته ، بل أنه أبطل القول بخلق القرآن الكريم ، داعيا إلى إحياء السنه وإن كان يؤخذ عليه مصادرته للكتاب ومعاقبتهم ، كما نفر من استخدام أهل الذمة فى دواوين الدولة ، وأصدر أمرا سنة ٢٣٥ هـ بأن يلبسوا زيا خاصا يميزهم .

وكان المتوكل قد عهد بالولاية ٢٣٥ هـ لأولاده الثلاثة من بعده كما فعل جده هارون الرشيد ، وهم محمد " المنتصر " ومحمد " المعتز " وإبراهيم " المؤيد " وقسم البلاد بينهم فخص الأكبر محمد " المنتصر " بأفريقية والمغرب وأجزاء كبيرة من بلدان المشرق ومصر ، وجعل لإبنه الثانى محمد " المعتز " خراسان وطبرستان والرى وأرمينية وأذربيجان وفارس ، وأضاف إليه سنة ٢٤٠ هـ خزائن بيت المال فى جميع البلدان ، والإشراف على دور ضرب العملة .

أما إبنه الثالث إبراهيم " المؤيد " فجعله على جند دمشق وحمص والأردن وفلسطين . ولم يكن الترك من حول المتوكل مخلصين تماما له ، بل كانوا متخوفين من غدره بهم كما فعل مع قائدهم الكبير ايتاخ ، فقتلوه قبل أن يقتلهم ، حيث دبروا مؤامرة لقتله بالإشتراك مع ابنة " المنتصر بالله " راح ضحيتها الخليفة المتوكل ووزيره فى الرابع من شوال سنة ٢٤٧ هـ وتعتبر هذه المؤامرة ونتيجتها الحادثة الأولى من نوعها فى تاريخ الدولة العباسية ، وتدلنا على مدى النفوذ الذى بلغه الأتراك فى ذلك العصر حتى أنهم أهدروا دم الخليفة نفسه ، وسنرى فيما بعد تكرارا لهذه الحادثة مع أكثر من خليفة من خلفاء العباسيين اللاحقين .

المنتصر بالله ٢٤٧ – ٢٤٨ هـ/٨٦١ – ٨٦٢ م

هو محمد بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد ، ولد سنة ٢٢٢ هـ من أم ولد رومية اسمها حبشية ، وكان فى الثالثة عشرة من عمره عندما عهد أبوه إليه بولاية العهد سنة ٢٣٥ هـ ، وقد بايعه الأمراء والقواد الأتراك بالخلافة عقب قتلهم لأبيه فى ٤ شوال سنة ٢٤٧ هـ ولقب بالمنتصر بالله ، ولم تطل خلافته أكثر من ستة أشهر حيث توفى فى الخامس من ربيع الآخر سنة ٢٤٨ هـ وله من العمر ست وعشرون سنة .

وقد شهدت خلافته ـ على قصرها زيادة نفوذ الأتراك وقوتهم بعد تجرؤهم على الخلافة وقتلهم الخليفة حتى أنهم أرغموا الخليفة المنتصر على عزل أخويه من ولاية العهد التى كان قد أوصى بها لهم أبوهم المتوكل ، وقد اعترف الخليفة المنتصر لأخويه بضغط الترك عليه بعد تنازلهما عن ولاية العهد .

وتشير المصادر التاريخية إلى أن المنتصر أمضى فترة خلافته القصيرة مكتئبا مريضا ، وكأنه نادم على فعلته ومؤامرته مع الأتراك على أبيه ، كما تشير إلى بعض كلمات صدرت منه تفيد رغبته فى الانتقام من الأتراك ، ولكنه لضعفه وقوتهم لم يستطع القيام بشئ سوى التسليم لهم بالنفوذ والسلطة ، حتى كانت وفاته التى قيلت فى تفسيرها عدة أسباب هل بسبب ذبحه فى حلقه ، أو بمرض خبيث فى معدته ، أو بسم دسه له طبيبه بايعاز من القواد الأتراك أنفسهم .

ومما يذكر له كثرة معروفه وخيره وانصافه للرعية وإحسانه إلى العلويين وتعويضهم عما لحق بهم من مكروه وأذى فى عهد أبيه ، ويؤثر عنه قوله فى هذا المجال ... أن لذة العفو أعذب من لذة التشفى ، وأقبح أفعال المقتدر الانتقام .

المستعين بالله ٢٤٨ - ٢٥٢ هـ / ٨٦٢ - ٨٦٦ م

هو أحمد بن محمد بن المعتصم بن الرشيد ، ولد سنة ٢٢٠ هـ من أم ولد صقلية يقال لها مخارق ، وقد بويع بالخلافة فى اليوم الذى توفى فيه المنتصر بن المتوكل أى فى الخامس من ربيع الآخر سنة ٢٤٨ هـ ولقب بالمستعين بالله وظل بالخلافة حتى خلعه منها فى الرابع من المحرم سنة ٢٥٢ هـ أى بعد ثلاث سنوات وتسعة أشهر تقريبا .

وقد اتفق رأى الأمراء والقواد الأتراك على توليته وعدم تولية أحد من أبناء المتوكل خشية أن يفتك بهم ثأرا لدم أبيه ،أو لدس السم لأخيه ، ويعتبر المستعين أول خليفة عباسى يتولى الخلافة دون أن يكون ابنا لخليفة ، كما أنه تولاها بعد ابن عمه .

ومن الطبيعى ألا تكون للخليفة الذى عينه الأتراك كلمة مسموعة فكما اختاروا الخليفة كان إختيارهم للوزير أحمد بن الخطيب الذى كان وزيرا للمعتصم ، ولما غضبوا عليه عينوا أتامش وزيرا للمستعين ، وهو أحد كبار القادة الترك وكان نفوذه كبيرا فى الدولة ، واتخذ معاونيه من الترك من دون وصيف وبغا ـ القائدين التركيين الكبيرين ، فتآمروا عليه حتى تم قتله ولم يشفع له المستعين ، واستوزر من بعده أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزيد الذى كان أبوه وزيرا للمأمون وقد اتخذ سياسة تهدف إلى ضبط حسابات الدولة لم تعجب القواد الأتراك وبخاصة بغا الصغير فغضبوا عليه فهرب إلى بغداد فى شعبان سنة ٢٤٩ هـ ، فاختار المستعين محمد بن الفضل الجرجرائى وزير المتوكل من قبل وعينه كاتبا وليس وزيرا .

وقد انقسم قادة الأتراك إلى فريقين عندما شعروا بعزم المستعين القضاء عليهم ، وتزعم وصيف وبغا أحد الفريقين وطلبا من الخليفة التوجه إلى بغداد وصحباه إليها فى أوائل المحرم سنة ٢٥٢ هـ بينما طلب الفريق الآخر منه العودة إلى سامرا ، ولما رفض طلبهم قاموا بعزله وتعيين ابن عمه المعتز بن المتوكل الخلافة فأصبحت بغداد فى جانب المستعين ، وسامرا فى جانب المعتز فقامت الحرب بين الإثنين لعدة أشهر مما كان له أثره السيئ على أحوال الدولة ، فارتفعت الأسعار وزاد البلاء ، ولم يكتف القادة الأتراك بعزل المستعين من الخلافة ، وإنما نفوه إلى واسط وعهدوا إلى أحد رجالهم ـ أحمد بن طولون بمصاحبته إليها فأحسن ابن طولون معاملته ، ورفض قتله عندما طلبوا منه ذلك للخلاص منه نهائيا ، فأرسل الأتراك سعيد الخادم ـ أحد حجاب القصر إلى واسط فقتل المستعين .

ويتبين لنا من هذه النهاية التى انتهى إليها الخليفة المستعين إلى أى مدى كان النفوذ التركى قويا ومؤثرا ، وإلى أى مدى كان المستعين ضعيفا أمامهم ، وقد وصفه أحد الشعراء ببيتين من الشعر تحرص كتب التاريخ على ذكرهما لدلالتهما على ما آلت إليه الخلافة فى أيدى الأتراك ـ ويقول البيتان فى وصف المستعين :

خليفة فى قفص .... بين وصيف وبغا

يقول ما قالا له .... كما تقول الببغا

المعتز ٢٥٢ –٢٥٥ هـ/ ٨٦٦ – ٨٦٩ م

هو أبو عبد الله المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد ولد سنة ٢٣١ هـ من أم يقال لها "قبيحة " وكان أبوه المتوكل قد عهد إليه بولاية العهد بعد أخيه المنتصر ، ولكن المنتصر اضطره وأخاه المؤيد إلى التنازل وخلع نفسيهما من ولاية العهد ، كما حبسهما المنتصر ، وظلا في السجن حتى حدوث الفتنة بين قواد الأتراك في عهد المستعين ، والتي انتهت بعزل المستعين ومبايعة المعتز في الرابع من المحرم سنة ٢٥٢ هـ ، وظل خليفة لمدة ثلاث سنوات ونصف تقريبا اذ تم خلعه في أواخر رجب سنة ٢٥٥ هـ .

وفي أوائل عهده بالخلافة حاول المعتز التخلص من القائدين التركيين وصيف وبغا لمساعدتهما المستعين من قبل ولكنه لم يستطع أمام ضغوط العناصر التركية القوية في دار الخلافة فعفا عنهما وردهما إلى ما كانا عليه من جاه ووظائف .

وقد شهد عهده بداية النزاع بين طائفة المغاربة والأتراك ، وكان الخليفة المعتصم قد جلب من المغاربة جندا كثيرين ، وعندما رأوا ما يتمتع به الأتراك من نفوذ وسلطان في عهد الخليفة المعتز ثاروا عليهم واشتبكوا معهم في معارك بسامرا ولكن الأتراك غلبوهم في نهاية الأمر ، ولم يتدخل المعتز في هذا النزاع بين الجند المغاربة والجند الأتراك وبسبب وشايات الأتراك وضغوطهم خلع المعتز أخاه المؤيد من ولاية العهد وحبسه ثم قتله ، كما حبس أخاه الثاني أبا أحمد وضيق عليه ، ثم نفاه إلى واسط فالبصرة ثم رده إلى بغداد .

وكما فعل الأتراك بالمستعين فعلوا بالمعتز ، فعندما طالبوه وأمه – قبيحة – بأموال يحتاجونها لعطاء الجند ، ورفض الاثنان دفع الأموال أتفقوا على خلعه ، ودخلوا عليه داره واعتدوا عليه بالضرب بالدبابيس حتى خلع نفسه من الخلافة ، ثم حبسوه حتى مات عطشا ، بينما هربت أمه قبيحة وأخت له من سرداب أسفل دارها ، وظلت مختفية بعد موت المعتز خوفا على حياتها وعلى أموالها الطائلة التي رفضت دفع جزء منها ، فكان البديل دفع حياة ابنها المعتز وحريتها .

المهتدي ٢٥٥ – ٢٥٦هـ / ٨٦٩ – ٨٧٠ م

ولد محمد المهتدى (المهتدى بالله) ابن هارون الواثق بن المعتصم سنة ٢١٨ هـ من أم ولد رومية تسمى " قرب " وبويع بالخلافة بعد خلع المعتز نفسه منها فى أواخر رجب سنة ٢٥٥ هـ ، ومكث بها أحد عشر شهرا وعدة أيام أى أقل من عام واحد عندما تم خلعه فى منتصف رجب سنة ٢٥٦ هـ وعرف الخليفة المهتدى بصلاحه وتدينه وعدله حيث كان يجلس بنفسه للنظر فى المظالم تحت قبة بناها عرفت بقبة المظالم وقد استغل الجند الأتراك عدالة الخليفه الجديد فشكوا إليه سوء حالهم وتأخر أرزاقهم مع تميز قادتهم وغناهم وطالبوه بأن تعود رسومهم وأعطياتهم كما كانت عليه ، وأن تبطل اقطاعات القواعد ، وأن ترد جميع الأموال إلى أمير المؤمنين الخليفة ، واستجاب المهتدى لمطالبهم ولكنه لم يستطع استغلال المواقف (تغير الجند الأتراك على قادتهم على هذا النحو غير المسبوق) لصالحه وصالح الدولة لضعفه أمام القادة الأتراك ، وانتهى الأمر به إلى خلع الأتراك له وقبضهم عليه

، واهانتهم له ، وظل على هذا النحو حتى وفاته في منتصف رجب ــ تقريبا ــ من سنة ٢٥٦ .

وقد شهدت بداية خلافته ثورة العامة عليه فأرضاهم بالأموال ، كما ثار عليه العلوى الحسن بن زيد بطبرستان ، وفي عهده بدأت ثورة الزنج ضد الخلافة ، واستمرت أربع عشرة سنة (٢٥٥ـ ٢٧٠هـ) مما كلف الخلافة العباسية الكثير من الجهد والمال والسلاح ، كما ثار في عهده أحمد بن عيسى بن الشيخ بالشام فكلف المهتدى أحمد بن طولون ــ والى مصر بالتصدى له .

ولم يكن المهتدى أحسن حالا من سابقيه من خلفاء ذلك العصر ، فقد كان ألعوبة في يد الترك الذين تأمروا عليه وخلعوه في آخر الأمر وعذبوه حتى مات في رجب سنة ٢٥٦ هـ كما ذكرنا . ويجمع المؤرخون على أنه كان خليفة صالحا وأنه كان يتشبه بعمر بن عبد العزيز حتى أنه قال " انى استحى أن يكون في بنى أمية مثله ولا يكون في بنى العباسى " .

المعتمد ٢٥٦ـ ٢٧٩ هـ / ٨٧٠ ـ ٨٩٢ م

هو أحمد بن المتوكل بن المعتصم ، ولد سنة ٢٣١هـ من أم ولد كوفية يقال لها " فتيان " وآلت إليه الخلافة دون عهد سابق فى منتصف رجب سنة ٢٥٦هـ ولقب بالمعتمد على الله ، ومكث بها حتى وفاته فى ١٩ رجب سنة ٢٧٩هـ أى إنه عمر بالخلافة ثلاثا وعشرين سنة ، وأهم ما انفرد به عهده تغلب أخيه أبى أحمد طلحة بن المتوكل عليه ، وكان الخليفة المهتدى قد نفاه فى عهده إلى مكة ، فاستدعاه المعتمد ولقبه بالموفق ، وأوصى له بولاية العهد من بعد ابنه هو جعفر بن المعتمد الذى لقب بالمفوض إلى الله ، وولاه المعتمد أمرة الجيش والولايات فى صفر سنة ٢٥٧هـ ، وفى ربيع الأول سنة ٢٥٨هـ ولاه امرة مصر وقنسرين والعواصم (أى ولاية الثغور) فكانت بيده على هذا النحو مقاليد الأمور كلها ، ويصف ابن طباطبا ذلك الموقف فى كتابه الفخرى فى الأداب السلطانية بقوله " كان المعتمد مستضعفا وكان أخوه الموفق طلحة هو الغالب على أموره ، وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع ، كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين فى الخلافة ، للمعتمد الخطبة والسكة والتسمى بإمرة المؤمنين ، ولأخيه طلحه الأمر والنهى وقود العساكر ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء ، وكان المعتمد مشغولا عن ذلك كله بلذاته "

وقد حاول المعتمد ترك العاصمة لضيقه من حجر أخيه عليه فشكا لابن طولون حاكم مصر فرحب باستقباله بمصر ، وبالفعل خرج المعتمد من سامرا ووصل إلى الرقة فى طريقه إلى مصر ولكن عامل الموصل كشف أمره وأعاده إلى سامرا .

وظل نفوذ الأتراك فى عهد المعتمد على أشده ، حتى أنه ولى موسى بن بغا القائد التركى الكبير إمرة البلدان الغربية من الدولة مع ابنه وولى عهده المفوض إلى

الله ، وكان يكلفه بالمهام الخطيرة كقتال الزنج سنة ٢٥٩هـ ، والتصدى للخارجين على الدولة ، وظل على هذا الوضع حتى وفاته سنة ٢٦٤هـ .

وقد شهدت خلافة المعتمد عدة أحداث كان من أهمها :

ثورة الزنج ، والزنج طائفة من عبيد افريقية أثاروا قلق الخلافة العباسية على مدى أربعة عشر عاما فى المنطقة الممتدة من بين البصرة وواسط بالعراق - عقر دار الخلافة نفسها - وانضمت إليهم جماعات أخرى من العبيد الهاربين من القرى والمدن المجاورة ، وكانوا جميعا يعانون من الفقر والحاجة مما دفعهم إلى الثورة والإغارة على ديار الخلافة العباسية ، وأدعى زعيمهم " على بن محمد " أنه من نسل الحسين بن على ، وأنه يعلم الغيب ، بل وبلغ به الأمر إلى ادعاء النبوة ، وأخذ يروج لمبادىء ودعاوى الخوارج لكسبهم ، ولقيت دعوته ترحيبا بين أهالى هجر والبحرين والعراق ، كما أقام عاما ببغداد ، واتجه إلى البصرة فالتف حوله الرقيق بها ، واتخذ زعيم الزنج من مدينة " المختارة " التى بناها مقرا لدعوته ، ولما اشتكى الأهالى من الضرر الذى أصابهم من اعتداءات الزنج عليهم وعلى أموالهم وتجارتهم وجه إليهم الخليفة المهتدى جيشا كما وجه الخليفة المعتمد من بعده جيشا بقيادة القائد التركى " جعلان " لمحاربة الزنج فى البصرة ، فانتصر عليه الزنج ، واستولوا على مدينة الأبلة بالقرب من الخليج الفارسى وعلى شط العرب والأهواز ، كما استولوا على البصرة سنة ٢٥٧هـ وخربوها ، ثم دخلوا واسط ، ولما زاد خطرهم كلف الخليفة المعتمد أخاه الموفق لمواجهتهم ، فهزمهم عند واسط سنة ٢٦٧هـ ، ونجح فى اجلائهم عن الأهواز ، وحاصر مقرهم فى المختارة واستولى على الجزء الغربى منها ، فطلب كثير من أتباع الزنج الأمان ، وأنضم بعضهم إلى جيش الموفق وفى النهاية

سقطت المختارة ، وقتل زعيم الزنج فـي ٢ صفر سنة ٢٧٠ هـ فاستراح النـاس مـن فسادهم .

ومن الجدير بالذكر أن تصدى الموفق للزنج صاحبه توتر فـي العلاقـة بينـه وبين أحمد بن طولون والى مصر فى ذلك الوقت بسبب مغالاته فى طلب الأموال من مصر لمواجهة خطر الزنج ، وتهديده للأراضى التـى كـان يحكمهـا أحمد بـن طـولـون ببلاد الشام ، بموافقة الخليفة العباسى ، وكـاد الخليفـة المعتمـد يخـرج مـن سـامرا إلـى مصر - خلال انشغال أخيـه الموفـق بحـرب الزنـج - ليهـرب مـن حجـر أخيـه الموفـق عليـــه ، وكـان ابـن طـولـون قـد شـجع الخليفـة علـى ذلـك ، غيـر أن عـامل الموصـل والجزيرة اسحق بن كنداجيق تنبه إلى تخفى الخليفة المعتمد فأعادوه إلـى سـامرا سـنة ٢٦٩هـ .

وفي سنة ٢٧٨هـ توفـى الموفـق أخـو الخليفـة المعتمـد ، وآلت إلـى ابنـه أبـو العباس ولاية العهد بعد المفوض إلى اللـه بـن المعتمـد ولقـب بـالمعتضد باللـه ، وسـار على نهج ابيه حيث تحولت إليه سلطات أبيه الموفق مما أضعف الخليفة المعتمد فـأعلن خلعه ابنه المفوض بن المعتمد من ولاية العهد ، وبايع بهـا أبـا العبـاس المعتضد باللـه ولم يلبث المعتمد أن توفى فجأة بعد عدة أشهر فى رجب سنة ٢٧٩هـ .

المعتضد بالله ٢٧٩ـ ٢٨٩هـ / ٨٩٢ ـ ٩٠٢م

هو أبو العباس أحمد بن أبى أحمد الموفق طلحة بن المتوكل بن المعتصم، وآلت إليه الخلافة بعد وفاة المعتمد فى العشرين من رجب سنة ٢٧٩هـ ولقب بالمعتضد بالله ومكث بها تسع سنوات وتسعة أشهر تقريبا حيث توفى فى أواخر ربيع الآخر من سنة ٢٨٩هـ .

وفى بداية خلافته أغار على بنى شيبان بأرض الجزيرة وقتل منهم الكثيرين ، فأعلن الباقون له الولاء والطاعة ، وكانوا من أكثر العناصر العربية التى ثارت فى وجه الحكم العباسى بسبب قرار اسقاط العرب من ديوان العطايا وبسبب زيادة النفوذ التركي وغلبته على حساب العناصر العربية أيضا . كما هاجم المعتضد قلعة ماردين سنة ٢٨١هـ وكانت مقرا للحمدانيين ، وفتحها وفر منها حمدان بن حمدون جد الأسرة الحمدانية ، فنقل جند الخليفة ما تضمه القلعة ، ثم قاموا بهدمها ، وقبض على زعيم الحمدانيين بعد ذلك وحبسه ، وعندما أراد المعتضد التصدى لثائر آخر ظهر بالجزيرة اسمه هارون الشارى استخدم الحسين بن حمدان فى قتاله ونجح ابن حمدان فيما لم ينجح فيه غيره من القواد من قبل ، وهزم هارون الشارى وأسره ، وكافأة المعتضد بفك أسر والده زعيم الحمدانيين مما يعد بداية لظهور الأسرة الحمدانية باقليم الجزيرة وشمالى الشام فيما بعد .

وفى المشرق خرج عمرو بن الليث الصفار ـــ أحد زعماء أسرة الصفاريين واستولى على كثير من بلاد فارس ، وظهر فى عهده نصر بن أحمد السامانى مؤسس الدولة السامانية فى بلاد ما وراء النهر ، كما ظهر فى المغرب أبو عبد الله الشيعى

الذى دعا للفاطميين ببلاد المغرب ، كما ظهرت فرقة القرامطة بزعامة حمدان قرمط بالكوفة ، وأبى سعيد الجنابى فى البحرين ، من جهة أخرى توثقت العلاقة الحميمة بين المعتضد وخمارويه وريث حكم أحمد بن طولون بمصر والشام ، وتوجت بزواج الخليفة المعتضد من قطر الندى ابنة خمارويه .

ويذكر للمعتضد ظهور عدد كبير من الكتاب والمفكرين والشعراء فى عهده ، كالبحترى واللغوى الشهير المبرد ، ومن المؤرخين ابن قتيبة والبلاذرى والدينورى ، وابن الفقيه الهمذانى الجغرافى .

ومما يذكر للمعتضد أنه الخليفة الأول الذى ترك سامرا منذ اتخاذها العاصمة وعاد إلى العاصمة الأولى بغداد فخربت سامرا وأصبحت تسئ من يراها.

المكتفى ٢٨٩ـ ٢٩٥هـ / ٩٠٢ ـ ٩٠٨م

ولد على بن المعتضد سنة ٢٣٦هـ من ام ولد تركية اسمها جيجك ، وبويع بالخلافة بعد وفاة ابيه المعتضد فى ربيع الآخر سنة ٢٨٩هـ الذى كان قد عهد إليه بها ولقب بالمكتفى ومكث بالخلافة ست سنوات ونصف تقريبا حيث توفى فى ١٢ ذى القعدة سنة ٢٩٥هـ .

وشهد عهده ظهور النزاع بين ذوى النفوذ من رجال الدولة ، كالنزاع بين بدر غلام المعتضد وقائد جيشه بفارس مع وزير المكتفى القاسم عبيد الله ، كما كاتبه أهل الشام يشكون إليه من سياسة ذى الشامة ضدهم ، فخرج المكتفى على رأس جيوشه ، ونزل الرقة وسير وسير لذى الشامة جيشا بقودة محمد بن سليمان الكاتب ، فالتقى أولا بجند القرامطة وهزمهم وفرقهم ، ثم التقى برجال ذى الشامة وهزمهم وقتله وطهر بلاد الشام من القرامطة .

غير أن القرامطة أغاروا سنة ٢٩٤ هـ على قوافل الحج العائدة من مكة إلى بلدان المشرق ونهبوها ، فأرسلت الخلافة جيشا قاتلهم وقتل منهم الكثير ومنهم زعيمهم زكرويه.

ومن جهة أخرى شهد عهد المكتفى زوال دولتين من الدويلات المستقلة ذاتيا مع طاعتها للخلافة العباسية وهما الدولة الطولونية بمصر سنة ٢٩٢ هـ على يد جيش الخلافة بقيادة محمد بن سليمان الكاتب ودولة الأغالبة بأفريقية (تونس الحالية) على يدى أبى عبد الله الشيعى داعية الفاطميين بالمغرب .

أما دولة الروم فكانت علاقة المكتفى بها حسنة فى أول عهده ، ثم تبدلت عندما هاجمت مدينة الحدث وأحرقتها فتوجه جيش عباسى من طرسوس وفتح انطاكية سنة ٢٩١ هـ وهى من الثغور الرومية الهامة ، وقتل فيها أكثر من خمسة ألاف من الروم وتم أسر مثلهم ، كما تم غزو المسلمين لسلندوا وفتحها .

المقتدر بالله ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ/٩٠٨ - ٩٣٢ م

ولد جعفر بن المعتضد وأخو المكتفى سنة ٢٨٢ هـ من أم ولد يقال لها " شغب " وآلت إليه الخلافة بعد وفاة أخيه المكتفى فى ١٢ ذى القعدة سنة ٢٩٥ هـ وتلقب بالمقتدر بالله ،وكان عمره وقتها ثلاث عشرة سنة ومكث بالخلافة خمسة وعشرين عاما تقريبا حتى مقتله فى آواخر شوال سنة ٩٣٢ هـ وقد شهدت بداية خلافته مؤامرة الوزير العباس بن الحسن لخلع المقتدر وتولية عبد الله بن المعتز الخلافة ، ولكن أنصاره استمروا فى سياستهم العدائية ضد المقتدر فهرب فى ٢٠ ربيع الأول سنة ٢٩٦ هـ ، فبايع القواد والقضاة والأعيان ابن المعتز بالخلافة ولقبوه بالمرتضى بالله ، غير أن أتباع المقتدر وعلى رأسهم مؤنس الخادم ، ومؤنس الخازن ، عزموا على محاربة ابن المعتز (المرتضى بالله) ، واضطروه إلى الهرب مع رجاله ووزيره محمد بن داود ، وأدت هذه الأحداث إلى وقوع الإضطرابات ببغداد ، والنهب والقتل ، وانتهى الأمر بانتصار المقتدر وعودته إلى الخلافة وحبس ابن المعتز حتى وفاته كما قتل وزيره ابن داود واستقرت الخلافة للمقتدر بالله ، فاستوزر أبا الحسن على بن محمد بن الفرات الذى نجح فى اعادة الهدوء إلى بغداد ومع هذا لم يعمر طويلا فى الوزارة ، وعين على بن عيسى وزيرا سنة ٣٠١ هـ وكان عاقلا متدينا عارفا

بالأعمال خبيرا بتصريف الأمور ، غير مبذر فى مال الدولة ، ولما كان المقتدر صغير السن فقد غلبت على الدولة ارادة أمه " السيدة " وأمرها ، وبلغ من نفوذها أنها عينت قهرمانتها " ثومال " صاحبة للمظالم حيث كانت تجلس كالرجال للنظر فى المظالم ، وكان لتدخل " السيدة " وغيرها من نساء القصر أثره فى اضعاف الدولة واستهتار الناس بالخلافة ، وزيادة الخارجين عليها ، فقد خرج على الخليفة المقتدر مؤنس الخادم سنة ٣١٧ هـ ، كما ثار عليه نفر من رجال قصره وأخرجوه من داره ، ونادوا بخلعه للمرة الثانية وبايعوا ابنه محمدا بالخلافة ولقبوه بالقاهر بالله .

إلا أن المقتدر أعيد إلى الخلافة مرة ثانية بمساعدة بعض العسكر والقادة اذ حملوا المقتدر على أعناقهم إلى قصر الخلافة ، فهدأت الأحوال بعودته ، وباع ما فى خزائنه من جواهر ليدفع للجند والقادة أرزاقهم بعد أن ضاعفها لهم مكافأة لهم لاعادته مرة ثانية إلى الخلافة .

وبعد عام واحد من عودة المقتدر إلى الخلافة للمرة الثانية خرج عليه مرة أخرى مؤنس الخادم وانتهى الأمر بقتل المقتدرفى أواخر شوال سنة ٣٢٠ هـ وتركت جثته مكشوفة عدة أيام حتى دفن بالمكان الذى قتل فيه .

وقد وصف المؤرخون عهد المقتدر بأنه كان عهدا تعسا سيئا ، أدى إلى إضعاف الخلافة والدولة ، فضاعت بعض ممتلكاتها اذ خرجت أفريقية من قبضتها ، وأوشكت مصر أن تضيع أيضا ، كما استباح الروم حدود الدولة العباسية لاطمئنانهم إلى ضعف المدافعين عنها ، كما يصفون الخليفة نفسه بأنه كان ألعوبة فى يد القادة الأتراك وفى يد بعض النساء وعلى رأسهم والدته " السيدة "...

أما القرامطة فقد استمر نشاطهم وعدوانهم على أملاك الدولة العباسية فى عهد المقتدر ، وذلك أنه بعد مقتل زعيمهم أبى سعيد الحسن بن بهرام الجنابى بالبحرين سنة ٣٠١ هـ تولى زعامتهم ابنه أبو طاهر سليمان الجنابى ، الذى هاجم البصرة عدة مرات بهدف امتلاكها ، وكان هجومه على البصرة سنة ٣١١ هـ أعنف من أية مرة أخرى حيث دخلها ومعه ألف وسبعمائة من رجاله أقاموا بها سبعة عشر يوما نهبوا فيها خيراتها ، كما تكرر عدوان القرامطة على قوافل الحجاج ، وقد استجاب أبو طاهر لنداء الخليفة المقتدر باعادة ما نهبه ، من الحجاج ، وطالب الخليفة بمنحه البصرة والأهواز ، ولما رفض الخليفة طلبه ظل يهاجم الخلافة وحدودها ، وانتصر على كل الجيوش التى وجهها الخليفة إليه .

ودخل القرامطة الكوفة أكثر من مرة ، وفى سنة ٣١٥ هـ دخلوا الكوفة ونهبوا خيراتها واعتدوا على أهلها وانتصروا على جيش الخلافة الذى كان يقوده يوسف بن أبى الساج ، كما تمكن القرامطة من دخول مدينة الأنبار ، فارتعدت بغداد لأخبار تقدمهم وعدوانهم ونهبهم كل ما يقع تحت أيديهم ، ثم بدأ القرامطة فى تهديد مناطق الجزيرة ، والعودة ثانية إلى الكوفة ، وفى سنة ٣١٧ هـ ارتكب القرامطة بزعامة أبو طاهر عملا اجراميا كبيرا وغير مسبوق ، وهو العدوان على مكة المكرمة ، وحجاجها فى يوم التروية ، حيث زاد القتل والقتلى بالمسجد الحرام وبئر زمزم ، ثم كانت الطامة الكبرى بنزع القرامطة للحجر الأسود من مكانه وارساله إلى " هجر " عقر دار القرامطة ومركز تجمعهم وقيادتهم ، كما خلعوا كسوة الكعبة واقتسمها رجالهم ، وبلغ من فظائع القرامطة بالمسجد الحرام أن المهدى عبيد الله العلوى ــ وجه اللوم الشديد والتهديد لأبى طاهر أن لم يعد ما نهبه من مكة ، فأعاد القرامطة الحجر الأسود ، أما كسوة الكعبة والأموال المنهوبة فلم يكن هناك سبيل لإعادتها لتقسيمها بين رجالهم .

وبالإضافة إلى خطر القرامطة الذى لم تستطع الخلافة العباسية التصدى له فى عهد المقتدر ، شهد عهده تلقب عبد الرحمن الناصر حاكم الأندلس الأموى بلقب أمير المؤمنين كإشارة إلى تحول الإمارة هناك إلى خلافة أموية بأقصى الغرب الإسلامى .

كما شهد عهد المقتدر اتساع أملاك الدولة العلوية الفاطمية بالمغرب حيث حيث ضمت دولة الأدارسة العلوية بالمغرب الأقصى وكانت قد قامت هناك منذ سنة ١٧٢ هـ ، ودولة الأغالبة السنية التابعة للخلافة العباسية بولاية أفريقية والتى يعود تاريخ قيامها إلى عهد هارون الرشيد وبالتحديد سنة ١٨٤ هـ .

أما دولة الروم فزادت اعتداءاتها على أملاك الدولة العباسية استغلالا لضعفها ، ففى سنة ٣٠٣ هـ أغارت على الثغور الجزرية وحصن منصور وأصاب أهلها ضرر كبير ، وفى سنة ٣١٤ هـ دخلت جيوش الروم ملطية وخربتها ونهبتها ، وأقامت بها ستة عشر يوما فهرب كثير من أهلها إلى بغداد .

وفى سنة ٣١٥ هـ خرجت سرية عباسية من طرسوس لمهاجمة بلاد الروم ولكنها منيت بالفشل وتم أسر أربعمائة رجل من قوتها ، وفى سنة ٣١٩ هـ غزت جيوش المقتدر بلاد الروم ووصلت إلى عمورية وأنقرة تحت قيادة أمير الثغور القائد " ثمل " الذى أعاد بانتصاره هيبة الخلافة العباسية أمام دولة الروم وعوض بعضا من خسائر المسلمين السابقة .

القاهر ٣٢٠ـ ٣٢٢هـ / ٩٣٢ـ ٩٣٤م

هو أبو منصور محمد بن المعتضد بن الموفق طلحة بن المتوكل وأخوه المكتفى ـ ولد سنة ٢٨٦هـ من أم ولد بربرية يقال لها " قتول" وبويع بالخلافة يوم مقتل

المقتدرفى ٢٨ شوال سنة ٣٢٠ هـ ومكث بالخلافة سنة ونصف فقط حيث خلع منها فى ٥ جمادى الأولى سنة ٣٢٢ هـ .

وقد بدأ القاهر خلافتة بإيذاء أبناء الخليفة المقتدر وأمه ، واستولى على ما اعترفت به من أموال ، ثم نكل بخصومه من القادة والأمراء والوزراء لإتفاقهم فيما بينهم على خلعه ،" فأخذهم قبل أن يأخذوه " !!!

كما غدر القاهر بطريف السبكرى أحد قواد مؤنس الخادم وكان من كبار مساعدى القاهر . وقد لعب الوزير ابن مقلة دورا كبيرا فى تأليب بعض القواد والأمراء من جماعة الساجية والحجرية ضد القاهر ، فاتفقوا على خلعه ، وهاجموه فى داره وقبضوا عليه وحبسوه ثم سملوا عينيه، وأنهوا بذلك خلافته التى كانت كما ذكر أحد المؤرخين " جامعة للمعايب والقبائح " حيث ظل القاهر محبوسا حتى وفاته فى شهر جمادى الأولى سنة ٣٣٩هـ فى عهد الخليفة الطائع لله (٣٣٤ـ ٣٦٣هـ) وكان له من العمر ثلاث وخمسون سنة .

الراضى ٣٢٢ـ ٣٢٩هـ / ٩٣٤ـ ٩٤٠م

ولد أبو العباس أحمد بن المقتدر سنة ٢٩٧هـ من أم ولد اسمها "ظلوم" وآلت إليه الخلافة بعد خلع الخليفة القاهر فى جمادى الأولى سنة ٣٢٢هـ ومكث بها ست سنوات وعشرة أشهر حيث توفى فى منتصف ربيع الأول سنة ٣٢٩هـ ، وفى أوائل عهده كان النفوذ الأكبر لوزيره ابن مقلة ولحاجبه محمد بن ياقوت ، وسرعان ما وشى

ابن مقلة بابن ياقوت فحبسه الراضى مع أخيه المظفر بن ياقوت ، ومات محمد بن ياقوت فى الحبس بينما اطلق سراح المظفر ، فتآمر على ابن مقله حتى صودر بموافقة الخليفة الراضى .

وكان ابن رائق والى البصرة قد زاد نفوذه وقطع ما كان يرسل من أموال من البصرة إلى الخلافة كما تغلب فى الوقت نفسه ابن بويه على فارس ، وأمام سوء الأحوال المالية اضطر الخليفة الراضى إلى مكاتبة محمد ابن رائق ، وعرض عليه الولاية ببغداد ، فوافق ابن رائق ، فأنعم عليه الراضى بلقب أمير الأمراء وولاه الخراج فى جميع البلاد والإشراف على الدواوين ، كما أمر الراضى بأن يخطب له على جميع المنابر ، وتبعا لهذا التطور الخطير بطلت الوزارة ، حيث كان ابن رائق ينظر هو وكاتبه فى كل الأمور ، وصارت الأموال تحمل إليه وإلى كل من تولى الوظيفة الرفيعة من بعده ، فيتصرفون فيها حسب رغباتهم ، ويعطون منها للخلفاء ما يشاءون ، وأصبح لأمير الأمراء الأمر كله وتعيين الأمراء والولاة على الأقاليم وعزلهم ولم يعد للخليفة سلطان أو حكم إلى جانبه ، وأدى هذا بدوره إلى تنافس كبار الأمراء والموظفين لتولى امره الأمراء ببغداد ، والخلافة عاجزة أمام نزاعهم عن التدخل أو الحد من سلطان أمير الأمراء .

ولم يلبث نفوذ ابن رائق أن ضعف سنة ٣٣٦هـ بسبب محاربة أبو عبد الله البريدى صاحب الأهواز له ، كما خرج عليه أحد قواده ويعرف بإسم "بجكم" تمكن من دخول بغداد ، حيث آلت إليه إمرة الأمراء ، فظل يدبر جميع شئون الدولة لمدة عامين (٣٢٧ـ ٣٢٩هـ) وهما العامان الآخيران من خلافة الراضى ـــ الذى توفى فى ليلة النصف من ربيع الأول سنة ٣٢٩هـ وله من العمر احدى وثلاثون سنة ونصف . وقد

وصف المؤرخ ابن الأثير الدولة العباسية فى عهد الخليفة الراضى فى عبارة جامعة قال فيها :

" ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها ، والحكم فى جميعها لابن رائق ، ليس للخليفة حكم ، وأما باقى الأطراف : فكانت البصرة فى يد ابن رائق ، وخوزستان ، فى يد البريدى ، وفارس فى يد عماد الدولة بن بوية ، وكرمان فى يد أبى على محمد ابن الياس ، والرى وأصبهان والجبل فى يد ركن الدولة بن بوية ، ويد وشمكير أخى مرداويج يتنازعان عليها ، والموصل وديار بكر ومضرورييعة فى يد بنى حمدان ، ومصر والشام فى يد محمد بن طغج الأخشيد ، والمغرب وأفريقية فى يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الأموى ، وخراسان وما وراء النهر فى يد نصر بن أحمد الساماني ،وطبرستان وجرجان فى يد الديلم ، والبحرين واليمامة فى يد أبى طاهر القرمطى"

ومن الجدير بالذكر أيضا أن عالم الاسلام فى ذلك الوقت كانت تحكمه ثلاث خلافات : العباسية فى العراق ، والفاطمية فى بلاد المغرب ، التى دانت كلها لحكم الفاطميين العلوى قبل انتقالهم إلى مصر بعد ذلك بقليل (سنة ٣٥٨هـ) والخلافة الثالثة بالأندلس وهى أموية حيث تحولت الامارة الأموية بها إلى خلافة وأصبح عبد الرحمن الثالث الأموى (٣٠٠ــ٣٥٠هـ) يتخذ لقب أمير المؤمنين ــ وهو لقب الخلفاء .

المتقى لله ٣٢٩ـ ٣٣٣ هـ / ٩٤٠ـ ٩٤٤م

هو ابراهيم المتقى لله بن المعتمد أبى أحمد الموفق طلحة بن المتوكل أمه أم ولد يقال لها " خلوب " آلت إليه الخلافة فى ٢٠ ربيع الأول سنة ٣٢٩ هـ ، وظل بها حوالى خمس سنوات اذ تم خلعه منها فى ٢٠ صفر سنة ٣٣٣ هـ .

وتدلنا كيفية اختياره على مدى نفوذ القادة الأتراك في ذلك العصر (العباسي الثاني) وأنه كانت لهم الكلمة العليا ، ذلك أنه لما توفي الخليفة الراضي كان أمير الأمراء " بجكم " في مدينة واسط فأرسل خطابا مع وزيره أبي عبد الله الكوفي يأمره فيه بالاجتماع مع وزير الراضي أبي القاسم سليمان بن الحسن والوزراء السابقين وأصحاب الدواوين والعلويين والقضاة العباسيين للتشاور في اختيار الخليفة الجديد ، فاتفق رأيهم علي ابراهيم بن المقتدر فبايعوه ، ولقب بالمتقي لله ، ثم أرسل هداياه إلي امير الأمراء بجكم بمدينه واسط ، اعترافا منه له بالفضل ، فهو ووزيره صاحبا التدبير كله ، وليس للخليفة أو وزيره شيء ، غير أن بجكم راح ضحية نزاع البريدى معه علي امرة الأمراء، اذ قتل بجكم فتولي البريدى امرة الأمراء ببغداد في ١٢ رمضان سنه ٣٢٩هـ ، واختلف الاتراك والديالمة عليه فغادر بغداد بعد أربع وعشرين يوما فقط ، فتولي أمرة الأمراء كورتكن الديلمي ، ولما تأذى أهل بغداد منه أرسل الخليفة المتقي يطلب ابن رائق من الشام ليتسلم من جديد امرة الأمراء ، وحاربه كورتكن ، وانتصر عليه ابن رائق ودخل بغداد في ٢١ ذي الحجة سنه ٣٢٩هـ ولقبه الخليفة بأمير الأمراء ، غير أن البريدى أعاد الكرة علي بغداد فاستولي عليها وهرب منها الخليفة المتقي وابنه وأمير الأمراء ابن رائق إلي الموصل ، وفعل رجال البريدى ببغداد وأهلها مالا تفعله الأعداء ، وعندما استنجد الخليفة بناصر الدولة بن حمدان تخلص من ابن رائق بقتله لرغبته في أن يكون هو أمير الأمراء ، وبالفعل منحها اياه المتقي في أول شعبان سنه ٣٣٠هـ ، وعندما دخل بغداد هرب منها البريدى ، ومكث ناصر الدولة بن حمدان بامره الأمراء ثلاثة عشرا شهرا قضي معظمها في نزاع مع البريدى ثم تركها واتجه إلي الموصل فتولاها من بعده توزون التركي وهو من اكبر

قواد الديلم ودخل في حرب مع الحمدانيين الذين استعان بهم ولجأ إليهم الخليفة المتقي ، حتي تم الصلح بين الطرفين.

ومما يذكر للخليفة المتقي أنه فكر في اللجوء إلي مصر هربا مما يلاقيه الخليفة من عنت الترك والنزاع حول إمرة الأمراء فاستنجد بمحمد بن طغج الاخشيدى حاكم مصر سنه ٣٣٢هـ وطلب منه الحضور إليه في الرقة حيث فاتحة في أمر العوده معه إلي مصر ، ورحب الأخشيد بذلك كما فعل ابن طولون من قبل مع الخليفة المعتمد إلا أن المتقي خضع أخيرا لتوزون الذى تعهد بحمايته وفضل أن يظل في حاضرة دولته علي الإقامة بمصر وعندما رغب الخليفة في العودة من نصيبين الي بغداد أمنه توزون وحلف له ، غير أنه بعد عودة الخليفة سمل توزون عيني الخليفة وخلعه من الخلافة في ٢٠ صفر سنه ٣٣٣هـ ، وظل المتقي لله حبيسا في سجنه خمسا وعشرين سنة حتي مات في شعبان سنه ٣٥٧ هـ .

المستكفي بالله ٣٣٣ هـ - ٣٣٤ هـ /٩٤٤م - ٩٤٥ م

هو أبو القاسم عبد الله بن المكتفى بن المعتضد بايعه أمير الأمراء توزون التركى بالخلافة بعد قبضه على المتقى وحبسه فى ٢٠ صفر سنة ٣٣٣ هـ وتلقب بالمستكفى بالله ، ويعتبر آخر خلفاء العصر العباسى الثانى ، وكان كسابقيه من خلفاء ذلك العصر ألعوبة فى أيدى الأتراك ، بل أن توزون عين أحد غلمانه ليكون رقيبا عليه بالقصر ، وعندما توفى توزون فى أول سنة ٣٣٤ هـ خلفه أبو جعفر بن شيرزاد فى إمرة الأمراء ، ومكث بها ثلاثة أشهر فقط فرض فيها الكثير من الضرائب مما اضطر التجار إلى الهرب من بغداد وكان نفوذ بنى بويه قد غلب فى ذلك الوقت

بالعراق ، وعندما دخل أحمد بن بويه بغداد إختفى ابن شيرازاد ، فخلع الخليفة المستكفى بالله على أحمد ابن بوية صاحب العراق ولقبه " معز الدولة " ولقب أخاه عليا صاحب بلاد فارس " عماد الدولة " وأخاهما الحسن صاحب الرى والجبل " ركن الدولة " ونقش أسماءهم وألقابهم على العملة ، ولما زاد نفوذ معز الدولة أحمد بن بويه فى بغداد ، حجز على المستكفى ، وخصص له مصروفا يوميا ، واستولى على الخلافة ، بعد أن خلع المستكفى وسمل عينيه ، وانتهت خلافته فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ هـ بعد حكم دام سنة واحدة وأربعة أشهر . وبنهاية خلافة المستكفى ينتهى عهد أمرة الأمراء الذى استمر حوالى عشر سنوات (٣٢٤ ـ ٣٣٤ هـ) ليبدأ عصر متميز ـ هو العصر العباسى الثالث المعروف بعصر بنى بويه .

العصر العباسى الثالث

عصر نفوذ بنى بويه

٣٣٤ ـــ ٤٤٧ هـ

٩٤٦ ـــ ١٠٥٥ م

جدول بأسماء الخلفاء العباسيين فى عهد بنى بويه

(١)	المطيــــع لله	٣٣٤ - ٣٦٣ هـ
(٢)	الطائــــع لله	٣٦٣ - ٣٨١ هـ
(٣)	القـــادر بالله	٣٨١ - ٤٢٢ هـ
(٤)	القائم بأمر الله	٤٢٢ - ٤٦٧ هـ

(انتهى عهد بنى بويه سنة ٤٤٧ هـ)

أهم الأحداث فى عهود خلفاء العصر العباسى الثالث (٣٣٤ - ٤٦٧هـ)

١- الخليفة المطيع لله (٣٣٤ - ٣٦٣هـ)

تولى الفضل بن المقتدر الخلافة وتلقب بالمطيع لله بعد خلع ابن عمه الخليفة المستكفى من الخلافة فى الثانى عشر من جمادى الآخرة سنة ٣٣٤هـ، ومكث بالخلافة فترة طويلة قاربت على الثلاثين عاما، ومع هذا لم يكن أحسن حالا من سابقيه من الخلفاء من حيث استبداد آل بويه وغلبة نفوذهم على نفوذه، ففى عهده فرض معز الدولة سلطان البويهيين بالعراق الضرائب الباهظة على الأهالى، وبالغ فى إقطاع أهله وقواده الأراضى والقرى مما أثار حقد الديلم على غلمانه الأتراك، وزداد الأمر سوءا حدوث غلاء ببغداد دفع الناس إلى أكل الميتة والكلاب مما أدى الى حدوث أوبئة وأمراض عديدة راح ضحيتها أعداد كبيرة من الناس ويرجع بعض المؤرخين سوء الأحوال على هذا النحو إلى نظام الاقطاع الذى أصاب الفلاحين بالإحباط وعدم الحماس لزراعة الأرض وإصلاحها.

كما شهد عهد الخليفة المطيع كثرة النزاع بين عنصرى الأجناد وهما الديلم والترك، مما أدى فى معظم الأوقات إلى توقف حركة التجارة أو ضعفها على الأقل، وكادت هذه المنازعات أن تؤدى إلى خلع الديلم لمعز الدولة سنة ٣٣٥هـ لما رأوه من تميز الأتراك عليهم وانحياز معز الدولة إلى صفهم، وكان لنصر معز الدولة عليهم أثره فى مضاعفة الإنحياز ضدهم وزيادة الإقطاعات للأتراك، كما شهد عهد المطيع انحياز آل بويه إلى المذهب الشيعى مما أثار أهل بغداد والعراق ضدهم لاتباعهم المذهب السنى وتعصبهم له.

كما شهد عهد المطيع النزاع بين الحمدانيين بالموصل والبويهيين بالعراق والذى انتهى بالاتفاق بينهما على الصلح.

أما الثغور الإسلامية فكانت تابعة فى عهده للحمدانيين وكانوا يقومون بحمايتها والدفاع عنها ، وقد حدثت عدة معارك بينهم وبين الروم ففى سنة ٣٣٧هـ حارب سيف الدولة الحمدانى دولة الروم فانهزم أمامهم وأخذو منه مرعش وطرسوس ، ولكنه انتصر عليهم فى السنة التالية، ولكن الروم عاودوا الهجوم عليه أثناء عودته وانتصروا عليه وقتلوا الكثير من جنده ، وفى سنة ٣٤٣هـ انتصر سيف الدولة على الروم وقتل منهم الكثير ، ولكن فى سنة ٣٥١هـ استولى الروم على عين زربة أحصن مدن الثغور وقتلوا الكثير من أهلها ، كما دخلوا مدينة حلب حاضرة الدولة الحمدانية وسبى الكثير من نسائها وقتل الكثير منهم أيضا ، وتكرر دخول ملك الروم بلاد الشام سنة ٣٥٨هـ ولم يتعرض له أحد ، حيث دخل طرابلس بعد حرقه لها ، ثم دخل حمص فنهبها وسبى من فيها ، وفعل نفس الشىء مع مدن الساحل الشامى ، وفى سنة ٣٥٩هـ ملك الروم مدينة انطاكية أكبر مدن الثغور الشامية ، ثم غزى حلب فخرج منها غلام سيف الدولة الحمدانى ، وفى سنة ٣٦١هـ أغار الروم على الرها وما حولها من أقاليم ودخلوا نصيبين وديار بكر وخربوهما فسار جمع من أهلها إلى بغداد للاستنجاد بالخليفة المطيع الذى رفض دفع مبلغ كبير من المال لبختيار بن معز الدولة لتجهيز العدة للقاء الروم مبررا ذلك على حد قوله بأنه "يلزم من البلاد فى يده وليس لى إلا الخطبة فإن شئتم أن أعتزل فعلت " وهذا يبين لنا مدى مرارة ماكان يشعر به الخليفة وإدراكه أنه لاسلطان له .

وبالتالى فلا مبرر لتحمله بدفع أموال للصرف على شئون الدولة ، وبنهاية خلافة المطيع كان الروم قد استولوا على جميع الثغور الإسلامية الكبرى بالشام ، وكانت لهم الكلمة النافذه على المسلمين بالجزيرة والشام ، فى الوقت الذى كان النزاع محتدما بين بنى بوية والحمدانيين ومن جهة اخرى شهدت نهاية خلافته

دخول الفاطميين مصر وتأسيسهم مدينة القاهرة لتكون عاصمة للخلافة الفاطمية التى ملكت دولة متسعة تشمل الشمال الإفريقى كله ومصر فى عهد المعز لدين الله .

الخليفة الطائع لله (٣٦٣ ـ ٣٨١هـ)

اشتد المرض بالخليفة المطيع فاعتزل الخلافة فى منتصف ذى القعدة سنة ٣٦٣هـ ، فتولى الخلافة من بعده ابنه ابو الفضل عبد الكريم وتلقب بالطائع لله وبقى بها حتى خلعه فى ٢١ رجب سنة ٣٨١هـ فتكون خلافته حوالى ثمانية عشر عاما ، عاصره من سلاطين بنى بويه خمسة هم عز الدولة بختيار بن معز الدولة حتى سنة ٣٦٧هـ ، وعضد الدولة فناخسرو حتى سنة ٣٧٢هـ وصمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان بن عضد الدولة حتى سنة ٣٧٦هـ ، وشرف الدولة أبو الفوارس سيرزيل بن عضد الدولة حتى سنة ٣٧٩ هـ ، وبهاء الدولة أبو نصر فيروز بن عضد الدولة .

كما كان يعاصره فى دولة الفاطميين الخليفة المعز لدين الله حتى سنة ٣٦٥هـ وابنه الخليفة العزيز بالله من بعده ، وفى الأندلس الحكم بن عبد الرحمن الناصر ، وهشام بن الحكم ، وباليمن آل زياد وبصنعاء آل يعفر ، وفى حلب الحمدانيون ، وفى دياربكر بدأت الدولة المروانية الكردية التى قامت بعد انتهاء حكم الحمدانيين هناك ، وفى خراسان الدولة السامانية بها وبجرجان الدولة الزيادية ، وبمدينه غزله الدولة السبكتكينية التى حلت محل الدولة السامانية بها ، وبنوبويه متغلبون على بلاد فارس والعراق والآهواز والرى والجبال .

وشهد عهد الخليفة الطائع حدوث فتنة كبيرة ببغداد بين الشيعة والسنة بسبب وضوح تشيع بنى بويه حيث أحرقت مدينة الكرخ مركز الشيعة الكبير ، كما خرجت فى عهده عن يده الموصل لتغلب الأكراد عليها بزعامة شجاع باذ بن

دوستك وزاد فى عهد الخليفة الطائع النزاع بين أمراء بنى بويه ومحاربتهم بعضهم بعض سعيا وراء سلطان أكبر وأقاليم أوسع تحت حكمهم .

وفى سنة ٣٨١هـ قبض بها الدولة على الطائع لله طمعا فى أمواله بعدما قلت أمواله ، وثورة الجند عليه ، ثم تم خلعه بعد ذلك .

الخليفة القادر بالله (٣٨١ ـ ٤٢٢هـ)

تولى أبو العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر بن المعتضد الخلافة بعد عزله الطائع لله، وتلقب بالقادر بالله وكانت بداية خلافتة فى ١٢ رمضان سنة ٣٨١هـ ، ومكث بها إحدى وأربعين سنة حتى وفاته في أخر ذى الحجة ٤٢٢هـ أى أنه مكث بالخلافة مدة طويلة بلغت إحدى وأربعين سنة وقرابة الثلاثة أشهر ، وهو ثالث خليفة عباسى يتولى الخلافة دون أن يكون أبيه خليفة ، وشهد عهده ظهور الدولة النجاحية بزبيد بعد زوال الدولة الزيادية بها وظهور الدولة العقيلية بالموصل التى حكمها العقيليون بمشاركة البويهيين حتى أسقطها السلاجقة سنة ٤٨٩ هـ كما ظهرت فى ديار بكر دولة الأكراد من آل مروان وبقيت حتى أسقطها السلاجقة فى التاريخ نفسة أيضا وفى المشرق كانت الدولة السامانية ببلاد ما وراء النهر على وشك الإنهيار ، فقامت بمدينة غزنة ـ التى كانت تابعة لها ـ دويلة صغيرة عرفت بالدولة السبكنكينية (٣٦٦ ـ ٥٨٢هـ) وظلت قائمة أكثر من قرنين حتى أسقطتها الدولة الغورية ولم يكن للخليفة القادر أى سلطان أو نفوذ حتى وفاته فى ذى الحجه سنة ٤٢٢هـ وهو فى السادسة والستين من عمره .

الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢ ـ ٤٦٧هـ)

تولى ابو جعفر عبد الله الخلافة بعد وفاة أبية القادر وتلقب بالقائم بـأمر اللـه فى ذى الحجة سنة ٤٢٢هـ ومكث بها أربع وأربعين سنة كاملة ، ومـن أهـم أحـداث عصره ثورة الجند ببغداد على جلال الدولة بن بهاء الدولة للمطالبة برواتبهم بعدما تعذر عليه دفعها من خزانه الدولة ، وكان الخليفة القـائم بـأمر اللـه يتدخـل للوسـاطة بين الفريقين حتى وفاة جلال الدولة سنة ٤٣٥هـ .

وتولى من بعده ملك بن بويه ابن أخيـه ابـو كاليجـار المرزبـانى الـذى لقبـه الخليفة القائم بـأمر اللـه بلقب محيـى الديـن ، واستمر فـى عهـده النـزاع بيـن الديلـم والأتراك حتى وفاته سنة ٤٤٠هـ فتولى من بعده ابنه أبو نصر خسرو فيروز الـذى طلب من الخليفة أن يكون لقبه "الملـك الرحيـم" وعلـى الرغـم مـن معارضـة الخليفـة لذلك حتى لا يتشبة بألقاب الخالق سبحانه وتعالى أصر ابو نصـر خسـرو علـى ذلـك حتى حصل على اللقب المذكور ، وكانت نهايتـه ونهايـه دولـة بـن بويـه علـى أيـدى السلاجقة عندما نفاه طغرلبك من بغداد إلى قلعة السيرجان .

واشتهر الخليفة القائم بأمر الله بالتقوى والورع والعلـم والعـدل ، وقـد تكـرر هروبه من بغداد ثلاث مـرات عندمـا كـان النـزاع يحتـدم بيـن أمـراء الديلـم وأمـراء الأتراك .

بنو بوية وعلاقتهم بالخلافة العباسية وتاريخ الدولة فى عهدهم :

يعود ظهور بنى بويه إلى أوائل القرن الرابع الهجرى ، واختلفت الروايات التاريخية حول تحديد أصلهم ، فمن قائل بنسبتهم إلى " بهرام جور " أحد ملوك الساسان ، أو إلى كبير وزرائه " مهر نرسى " وتنسبه رواية أخرى إلى " بنى ضبة "من العرب . وكان جدهم أبو شجاع بويه يعيش فقيرا ببلاد الديلم ـــ التى تقع فى الجنوب الغربى من بحر قزوين ، وقد فتحها العرب فى عهد عمر بن الخطاب ، كما دخل الإسلام بلادهم علي يد الحسن بن على الزيدى الملقب بالأطروش الذى مكث بينهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام على المذهب الشيعى ومن هنا جاء القول بتشيعهم أو على الأقل بتعاطفهم مع العلويين .

وكان لشجاع بن بويه ثلاثة أبناء على والحسن وأحمد والتحق الثلاثة بالجند وسرعان ما ارتقى على والحسن إلى مرتبة الأمراء فى جيش " ما كان بن كالى " أحد قادة ورجال السامانيين ، ثم انتقلوا إلى خدمة مرداويج بن زيار الديلمى بعد انتصاره على ما كان بن كالى وتأسيسه الدولة الزيارية التى ضمت بلاد جرجان وطبرستان وقزوين وقم وزنجان والكرج إلى سنة ٣٢٠ هـ ، وعلى الرغم من ترحيب مرداويج بهم فى أول الأمر انقلب عليهم خشية من ازدياد نفوذهم ، وأبقى على بن بويه على الكرج فآل إليه حكمها ، ثم غضب عليه مرداويج وأخرجه منها ، فتردد على بن بويه بين فارس وأصبهان وبعض مدن الأهواز ثم دخل شيراز سنة ٣٢٢ هـ وبعد وفاة مرداويج تمكن على بن بويه من الإستيلاء على بلاد فارس ، وتصالح مع البريدى أمير الأمراء بدار الخلافة ، وحصل من الخليفة الراضى على اعترافه بحكمه لفارس .

أما أخوه الحسن فلم يكن أقل حظا وحركة من أخيه فخضعت له أصبهان والرى وهمذان وبقية بلاد العراق العجمية (أى القريبة من فارس) .

وتمكن الأخ الثالث أحمد من ولاية كرمان ثم استولى على الأهواز ، وعندما توجه إلى بغداد بناء على استنجاد الخليفة العباسى المتقى به فى نزاعه مع توزون أمير الأمراء ، هزمه توزون قبل وصوله إليها وبلغ من زيادة نفوذ بنى بويه وتلاشى سلطة الخلفاء أن معظم المصادر والمراجع التاريخية تؤرخ لعصرهم من خلال سلاطينهم وأمرائهم وليس من خلال الخلفاء العباسيين وها نحن نشسر على المنهج نفسه فى التعرف على أهم أحداث ذلك العصر.

ففى عهد الخليفة المستكفى (٣٣٣ - ٣٣٤ هـ) حظى أبناء شجاع بن بويه الثلاثة برضاه حيث احتفى بهم الخليفة وأنعم على أحمد بلقب معز الدولة ولقب أخاه عليا بعماد الدولة ، وأخاه الحسن بركن الدولة كما ذكرنا ، وأمر بنقش أسمائهم وألقابهم على السكة العباسية إلى جانب اسم الخليفة المستكفى الذى تلقب بإمام الحق. ومنذ ذلك التاريخ أصبح لبنى بويه الكلمة العليا والنافذة فى دار الخلافة وخارجها ، ولم يكونوا أحسن حالا من العناصر التركية التى صاغت سياسة الخلفاء العباسيين فيما اصطلح على تسميته بالعصر العباسى الثانى ، أو عصر نفوذ الأتراك ، فقد أهان بنو بويه الخلفاء وتسلطوا عليهم ، فقد فكر معز الدولة فى إسقاط العباسيين من الخلافة وإقامة العلويين محلهم ، ولكنه استمع إلى ناصحيه بأن هذا يجعله تابعا لسلطان العلويين القوى ويفقده تبعية العباسيين الضعفاء له ولأخوته ، فعدل عن فكرته ، كما أن معز الدولة قبض على الخليفة المستكفى وسمل عينيه وحبسه ، وحدد راتبا يوميا

للخليفة المطيع ما ابدى أن قطعه عنه ، بل أن معز الدولة عين ابنه بختيار أميرا للأمراء سنة ٣٤٤ هـ وأدت سياسة البويهيين تجاه الخلافة وتعاطفهم مع العلويين إلى قيام الفتن وثورة الجند بالعراق مما أصاب بغداد وغيرها فى عهدهم بالإضطراب ولم يقتصر نفوذ بنى بويه على حاضرة الخلافة أو العراق وإنما امتد إلى أقاليم الدولة العباسية ، فقد حارب معز الدولة دولة الحمدانيين فى الموصل سنة ٣٣٤ هـ واستمرت الحرب أربعة أشهر وانتهت باستقرار معز الدولة ببغداد وناصر الدولة الحمدانى فى عكبرة . كما نجح معز الدولة فى انتزاع البصرة من أبى القاسم البريدى حتى تخلص له العراق .

وقد حكم معز الدولة أحمد بن بويه العراق اثنتين وعشرين سنة من ٣٣٤ إلى ٣٥٦ هـ كان فيها السلطان المطلق ولم يكن للخليفة العباسى إلا ذكر اسمه بالخطبة قبل اسم معز الدولة ، كما كانت علاقته متينة بأخويه عماد الدولة على فى فارس ، وركن الدولة حسن فى الرى وهمذان ، وتوفى معز الدولة ببغداد فى شهر ربيع الآخر سنة ٣٥٦ هـ عن ثلاثة وخمسين عاما ن فخلفه ابنه أبو منصور بختيار وتلقب بعز الدولة وكان أبوه قد عهد إليه بالسلطنة من بعده ، ويدلنا هذا على مظهر آخر من مظاهر زيادة نفوذ بنى بويه ، غير أن بختيار لم يلتزم بوصايا أبيه إليه فانغمس فى حياة اللهو والترف وطمع فى اقطاعات وثروة رجاله، ومن أكبرهم سبكتكين ، كما أنه تجرأ وعزل الخليفة العباسى المطيع ، وولى الطائع الخلافة من بعده ، فاضطربت أمور الدولة وكثرت الفتن فاستنجد بختيار بابن عمه عضد الدولة فى فارس ، وبالحمدانيين لمساعدته فى الحرب بينه وبين سبكتيكن والخليفة الطائع الذى ولاه أخيرا . غير أن عضد الدولة نجح فى إيقاع الفتنة بين بختيار وجنده ليمهد الطريق لنفسه

للوصول إلى بغداد ، فقام الجند بعزل سيدهم وقائدهم بختيار ، ودخل عضد الدوله بغداد سنة ٣٦٤ هـ وقبض على أبن عمه بختيار ، ثم عينه نائبا عنه بالعراق على السمع والطاعة لعضد الدولة .

ثم تجددت الحرب بينهما سنة ٣٦٦ هـ والتقى الجيش قرب تكريت وانتصر عضد الدولة على بختيار وأسره وقتله ويقول المؤرخ ابن العميد فى كتابه تاريخ المسلمين فى حوادث سنة ٣٦٨ هـ أن عضد الدولة استولى على الموصل وديار ربيعة وميفارقين وآمد وديار بكر وديار مصر ، وأن الخليفة الطائع أمر بأن يخطب للملك عضد الدولة ببغداد فى خطبة الجمعة ، وأن يضرب على باب عضد الدولة ببغداد بالدبادب فى أوقات الصلوات الخمس ، ويتضح من هذة العبارة أن عضد الدولة أصبح يلقب بالملك - وهو من الألقاب الأصول التى كان التلقب بها قاصرا على رأس الدولة - خليفة أو سلطان أو ملك - بل أنه خطب له أحيانا بلقب ملك الملوك شاهنشاه الأعظم ، ويترجم هذا عن سعة ملكه وزيادة نفوذه ، فقد كان يدين له بالولاء والطاعة كل أمراء بنى بويه .

وقد توفى عضد الدولة فى الثامن من شوال سنة ٣٧٢ هـ وعمره ثمانية وأربعون عاما تقريبا ، بعد حكم دام خمس سنوات ونصف .

وخلف أبو كاليجار المرزبان أباه عضد الدولة ، حيث بايعه الأمراء ولقبوه صمصام الدولة ، أما الخليفه الطائع فأنعم عليه بلقب شمس الملة ، وولاه امور الدولة كلها وقد طاردت أطماع البويهين صمصام الدولة إذ حدث نزاع بينه وبين أخيه شرف الدولة صاحب أصباهن والرى وشيراز ، الذى طمع فى بسط نفوذه على العراق أيضا

، وترددت العلاقة بينهما سلما وحربا حتى انتصر فى النهاية شرف الدولة ، وقبض على صمصام واعتقله باحدى قلاع فارس ، وكان حكمه للعراق قد امتد قرابة أربعة أعوام .

ولم يكن للخلافة دور فى هذا النزاع بين سلاطين البويهين سوى التهنئة لشرف الدولة كما خلع عليه الخليفه الطائع بلقب (شاهنشاه) أى ملك الملوك . ولم يعمر فى الحكم إكثر من سنتين وثمانية أشهر فمات فى جمادى الآخرة سنة ٣٧٩هـ ، وكان قد عهد بالحكم إلى أخيه ابى نصر ، وباركت الخلافة ذلك وأنعم الخليفة الطائع عليه بلقب بهاء الدولة وضياء الملة وكان له من الدهاء ما مكنه من تثبيت أقدامه .

كما أنه ضرب الترك بالديلم عندما أنضم إلى الترك فى نزاعهم مع الديلم ، فأضعف بذلك نفوذ الديلم كما انتصرت جيوشه على جيش فخر الدولة صاحب الرى وهمذان واصبهان الذى طمع فى الاستيلاء على العراق ، وفى عهده تمكن صمصام الدولة الذى كان قد إعتقله سنة ٣٧٦ هـ شرف الدولة بقلعة فى فارس تمكن من الهرب وانتصر بجيشه على جيش بهاء الدولة عند شيراز سنة ٣٨٠ هـ ثم تم الصلح بينهما على أن يكون لصمصام الدولة فارس وأرجان ، ولبهاء الدولة خوزستان والعراق ، ثم تجدد النزاع بينهما وأنتهى أيضا بالصلح ، من جهة أخرى ساءت العلاقة بين بهاء الدولة والخليفه العباسى الطائع الذى قبض عليه بهاء الدولة وخلعه من الخلافة ، وبايع القادر بالله سنة ٣٨١هـ وكان الطائع قد أمض فى الخلافة سبع عشرة سنة وثمانية شهور (من ٣٦٣ ــ ٣٨١هـ) وأغلب الروايات تفسر هذا الخلع بسبب طمع بهاء الدولة فى أموال الخلافة ...

وقد استبد بهاء الدولة بالسلطة فى عهد القادر بالله ، وتزوج الخليفة الجديد من سكينة ابنة بهاء الدولة سنة ٣٨٣ هـ وأنعم عليه الخليفة بهذه المناسبة بلقبى " قوام الدين صفى أمير المؤمنين " .

وتمكن بهاء الدولة من التخلص من ابناء بختيار والاستيلاء على فارس سنة ٣٧٩هـ .

وفى سنة ٤٠١هـ حدث عارض خطير إذ خطب قرواش بن المقلد أمير بنى عقيل وصاحب الموصل والأنبار والمدائن والكوخه باسم الخليفه الفاطمى الحاكم بأمر الله ، وتمكن بهاء الدولة من إعادة الخطبة للخليفة العباسى بالرغم مما تردد عنه فى المصادر التاريخية من تعصبه للمذهب الشيعى وفى جمادى الآخرة من سنة ٤٠٣ هـ توفى بهاء الدولة بعد حكم دام أربعا وعشرين سنة (٣٧٩ ـ ٤٠٣هـ) ، وخلفه فى سلطنة البويهيين بالعراق ابنه سلطان الدولة أبو شجاع بناء على عهد أبيه إليه بذلك وامتد حكم سلطان الدولة حوالى تسع سنوات (٤٠٣ ـ ٤١١ هـ) .

ويدأ بانتصاره على أطماع أخيه قوام الدولة أبى الفوارس ثم واجه أطماع أخيه الآخر مشرف الدولة ونشبت الحرب بينهما وانتهت بانتصار مشرف الدولة على أخيه سلطان الدولة الذى هرب إلى أرجان ، ثم تجدد النزاع بينهما وانتهى الامر بالصلح سنة ٤١٣هـ والاتفاق على أن يكون العراق لمشرف الدولة ، وفارس وكرمان لسلطان الدولة ، وبعد عامين من الاتفاق توفى سلطان الدولة سنة ٤١٥هـ لينفرد مشرف الدولة بالأمر ، وتميز عهده بزيادة غلبة الأتراك لضعف نفوذ سلاطين بنى بويه وتوليهم السلطنة وهم أطفال صغار .

وبعد وفاة مشرف الدولة تولى أخوه أبو طاهر جلال الدولة الحكم ، ومكث به فترة طويلة من ٤١٦ ـ إلى ٣٤٥ هـ ، وشهد عهده استمرار زيادة النفوذ التركى حتى أن الاتراك كانوا يتدخلون فى تولية سلاطين بنى بويه وعزلهم ، اما الخليفة فكان لاحول له ولا قوة مع القوتين : الأتراك وبنى بويه وقد ثار الأتراك اكثر من مرة فى عهد جلال الدولة ، كما خرج عليه أبو كاليجار بن سلطان الدولة واستولى على البصرة وواسط ، ولكن جلال الدولة غلبه واسترد المدينتين .

وفى شهر ذى الحجة من سنة ٤٢٢هـ توفى الخليفة القادر بالله بعد واحد وأربعين علما فى الخلافة ، وخلفه فيها ابنه القائم بأمر الله ، بناء على توصية أبيه له بالخلافة من بعده ، وقد عمر كوالده فترة طويلة فى الخلافة امتدت أربعا وأربعين سنة أمضاها مسلوب الارادة أمام سلاطين بنى بوية .

وقد شهد عهد جلال الدولة عددا من المصاعب بسبب كثره النزاع بين الامراء والقواد البويهيين ، وبسبب شغب الجند وثورتهم عليه أحيانا ، كما أن العلاقة بينه وبين الخليفه القائم بأمر الله لم تكن وطيدة بسبب ضيق الخليفة منه لكثرة تدخله فى شئونه الخاصة .

وتوفى جلال الدولة فى شعبان سنة ٤٣٥ هـ بعد أن حكم سبع عشرة سنة ببغداد ، وكان قد أوصى لابنه الأكبر أبى منصور فيروز بالسلطنة من بعده ، وتلقب بالملك العزيز ، وكان منصرفا عن شئون الدولة بملذاته ودراسته للتاريخ والأدب والنحو ونظم القصائد ، وخلفه أبو كاليجار الذى دخل بغداد بعد وفاة أبى منصور فيروز ، واعترف له أمراء العراق بالسيادة ، واستولى على همذان وطرد نائب

طغرلبك السلجوقى منه ، وأمر ببناء سور محيط بمدنية شيراز سنة ٤٣٦ هـ خوفا من اتساع نفوذ أسرة السلاجقة الذين زاد خطرهم فى السنوات الأولى من حكمه ، وسنرى فيما بعد أنهم سيرثون الحكم من البويهيين ويقومون بالدور نفسه خلف ستار الخلافه العباسية الضعيفة ، (تم عقد صلح بين أبى كاليجار وطغرلبك وتأكد بمصاهرة مزدوجة بين الطرفين ، فتأجل استيلاء السلاجقة على بغداد بعض الوقت .

كما شهد عهد أبى كاليجار تقاربا ملحوظا ومتعمدا من بنى بويه للفاطمين ، وذلك لإثارة مخاوف العباسيين وتحذيرهم من التقارب أو التحالف مع السلاجقة ضد البويهيين .

وقد توفى أبو كاليجار فى جمادى الأولى سنة ٤٤٠هـ بعد حكم البغداد دام أكثر من أربع سنوات ، سبقتها خمس وعشرون سنة كان فيها حاكما على فارس والأهواز ، وخلفه فى السلطنة ابنه أبو نصر خسرو فيرز الذى كان نائبا عنه بالعراق ، وتلقب بالملك الرحيم ،وكان له أخوة كثيرون وقد خرج بعضهم عليه أحيانا مما أضعف مركزه وحكمه وحكم بنى بوية بصفة عامة ، ذلك أن الملك الرحيم استعدى السلاجقة على اخوته ، مما مهد السبيل لهم لتحقيق أملهم الكبير فى دخول بغداد ، كما كان لثورة أبى الحارث البساسيرى ـ قائد بنى بوية التركى الأصل ـ أثر سيىء أدى إلى جانب أسباب أخرى إلى سقوط دولة بنى بوية ، حيث كان الملك الرحيم آخر ملوكهم ، وخلفه فى حكم العراق والدولة كلها زعيم السلاجقة وكبيرهم فى ذلك الوقت " طغرلبك " الذى دخل بغداد وأسس حكما له ولأسرته امتد لأكثر من قرنين ...

وهكذا تبين لنا من عرض تاريخ سلاطين بنى بويه وعلاقتهم بالخلافة العباسية أن فروعهم حكمت فى العراق والأهواز وكرمان وفارس والرى وهمذان

واصبهان وأنهم عاصروا خلافة كل من المستكفى ، والمطيع ، والطائع ، والقادر ، والقائم ، وأنهم بلغوا من القوة والنفوذ ما سلب نفوذ الخلفاء وقوتهم ، ويكفى ما رأيناه من حوادث الاعتداء على الخلفاء وعزلهم وحبسهم وقتلهم ، فضلا عن تحكم البويهيين فى توليه بعض الخلفاء وعزلهم ، ومع هذا نجح البويهيون فى الاحتفاظ بهيبة الخلافة مظهريا فقط فحافظوا على شاراتها وعلاماتها من خطبة وسكة وطرارز وتقدمه للخليفة واحترام شكلى له فى المناسبات المختلفة ، باعتبار الخليفة الرئيسى الأعلى لجماعة المسلمين فكان يستقبل السفراء ويلبس بردة النبى عليه الصلاة والسلام ويضع أمامه فى مجلسه مصحف عثمان كعلامة لسلطته الدينية .

كما اعتز بعض سلاطين بنى بويه بمصاهرة الخلافة العباسية فقد تزوج الخليفة القادرسنة ٣٨٣هـ من سكينة ابنة بهاء الدولة ، وتزوجت أخت الملك الرحيم من الخليفة القائم بأمر الله .

كما كان من مظاهر قوة البويهيين وتباهيهم بنفوذهم اتخاذهم لقب أمير الأمراء الذى اقتصر اتخاذه على حكام العراق منهم وكذا ، تلقبهم بالألقاب المضافة إلى الدولة كعضد الدولة ، وبهاء الدولة ، وغيرها كرمز على موقعهم من الدولة وحمايتهم لها ، كما أن تلقب بعضهم بلقب الملك ، أو شاهنشاه ـ أى ملك الملوك يدل على مدى زعامتهم ورئاستهم باتخاذهم الألقاب الخاصة برأس الدولة ورئيسها .

ويضاف إلى مظاهر قوتهم ونفوذهم نفس أسمائهم وألقابهم على السكة ، وذكرها فى خطبة الجمعة والعيدين كالخلفاء تماما ، كما أن توليتهم عهد السلطنة لأبنائهم أو أخوتهم من بعدهم دليل على الاستئثار بالسلطة ، والرغبة فى عدم خروجها من صلبهم .

وكان لتشيعهم أثره فى سلوك كثير من سلاطينهم ، كما أدى فى الوقت نفسه إلى زيادة نفوذ العلويين وزيادة الصراع بينهم وبين أهل السنة ، وليس أدل على هذا من حادث الخطبة باسم الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله سنة ٤٠١هـ - فى عهد الخليفة العباسى القادر بالله والسلطان بهاء الدولة البويهى .

ويرى بعض المؤرخين أن تعصب البويهيين للمذهب الشيعى أدى من جهة أخرى إلى الحفاظ على الدولة العباسية ومذهبها السنى ، ذلك أن وجود بنى بويه المتشيعين فى السلطة وحفاظهم عليها أدى فى الوقت نفسه إلى الإبقاء على هذه الخلافة التى كانوا يحكمون باسمها (د. حسن الباشا - دراسات فى تاريخ الدولة العباسية - ص ٩٨) كما رأينا كيف انتهج بنو بويه سياسة متوازنة بين هويتهم الديليمة ، واشتراك الأتراك معهم فى الحكم والقيادة وتكوين الجيش وان أدى هذا فى بعض الأحيان إلى نشوب الصراع بين الطائفتين (الديلم والترك) وقد دفع الصراع بينهما إلى صراع بين أفراد الأسرة البويهية نفسها بسبب انحياز طائفة من الإثنتين إلى أحدهم فى حين تنضم الطائفة الأخرى إلى زعيم آخر كما حدث فى النزاع بين بهاء الدولة وأبناء بختيار ، إذ انضم الديلم إلى أبناء بختيار ، فى حين انحاز الأتراك إلى بهاء الدولة .

كما يعود إلى عصر بنى بويه ظهور نظام الأقطاع الاسلامى عندما أقطع معز الدولة قواده ورجاله الأراضى والقرى كأرزاق لهم عوضا عن المرتبات ، وقدر لهذا النظام أن يتطور وينضج فى العصر السلجوقى فيما بعد لينتقل إلى كثير من الدول الإسلامية كدولتى الأيوبيين والمماليك بمصر .

وقد شهد عصر بنـى بويـه كمـا ذكرنـا قيـام ثـلاث خلافـات فـى عـالم الإسـلام العباسـية فـى العـراق ، والأمويـة بـالأندلس والفاطميـة بـالمغرب ومصـر ، وكـان مـن الطبيعى أن تعادى الخلافة العباسية الخلافتين الآخريين ...

كما ناصبت بعض الدويلات المستقلة والتابعة فى الوقت نفسه للخلافة العباسية ـ ناصبت العداء لدولة بنى بويه كأسـرة بنـى كاكويـه فـى كردستان (٢٩٨ ـ ٤٤٣هـ) وأسرة الغزنويين فى غزنـه (٣٥١ ـ ٥٨٢هـ) وأخيرا أسـرة السـلاجقة الذيـن بسطوا سلطانهم فى غرب أسيا وقدر لهم أن يقضوا على حكم بنى بويه فى بغداد ويرثوهم فى التغلب على سلطان الخلافة العباسية كما سنرى فى دراستنا للعصر العباسى الرابع ..

وعلى الرغم مما شاب عصر بنى بويه ـ أو العصر العباسى الثالث من مشاكل وفتن واضطرابات ، وسلب لسلطان الخلفاء ـ ازدهـرت الحيـاة الثقافيـة خلالـه ، حيث كان بعض خلفائـه وسـلاطينه يمارسـون الأدب والتـأليف فهـا هـو الخليفـة القـادر باللـه يصنف كتابا فى الأصول ، كما يذكر للملك الرحيـم البويهـى دراسـته لـلأدب والتـاريخ والنحو ونظم الشعر ، كما كان عضد الدولة راعيا للأدب والأدبـاء فـى عصـره ، كمـا يذكر له اقامته لعدد من البيمارستانات لخدمة المرضى ، وقد برز فى هذا العصر عـدد كبير من مشاهير علماء الإسلام مثل أبى بكـر الصولـى ، والزجـاجى النحـوى ، ومـن المؤرخين الدينورى والمسـعودى والطـبرى ومـن الشـعراء المتنبى ومـن الأدبـاء أبـو الفرج الأصفهانى صاحب كتاب الأغانى ، وبديع الزمـان صـاحب المقامـات والشـريف الرضى ، ومن علماء الخط والخطاطين ابـن مقلـة الـذى غلبت شـهرته كخطـاط علـى عمله كوزير لعدد من الخلفاء وكذا عـرف ابـن البـواب صـاحب أشـهر مـدارس الخـط العربى وتهذيبه وتحسينه .

العصر العباسي الرابع

عصر نفوذ السلاجقة

٤٤٧ - ٦٥٦ هـ

١٠٥٥ هـ ١٢٥٨ م

جدول بأسماء الخلفاء العباسين
فى عهد السلاجقة

١ـ القائم بأمر الله	٤٢٢ ـ ٤٦٧ هـ
	قضى الخليفه الفترة من ٤٥٠ هـ إلى ٤٥١ هـ بالمنفى
٢ ـ المقتدى بأمر الله	٤٦٧ ـ ٤٨٧ هـ
٢ـ المستظر بالله	٤٨٧ ـ ٥١٢ هـ
٣ـ المسترشد بالله	٥١٢ ـ ٥٢٩ هـ
٤ـ الراشد بالله	٥٢٩ ـ ٥٣٠ هـ
٥ـ المقتفى لأمر الله	٥٣٠ ـ ٥٥٥ هـ
٧ـ المستنجد بالله	٥٥٥ ـ ٥٦٦ هـ
٨ـ المستضىء بالله	٥٦٦ ـ ٥٧٥ هـ
٩ـ الناصر لدين الله	٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ
١٠ ـ الظاهر بأمر الله	٦٢٢ ـ ٦٢٣ هـ
١١ ـ المستنصر بالله	٦٢٣ ـ ٦٤٠ هـ
١٢ ـ المستعصم بالله	٦٤٠ ـ ٦٥٦ هـ

أهم الأحداث في عهود خلفاء العصر العباسي الرابع(٤٦٧ - ٦٥٦هـ)

الخليفة المقتدى بأمر الله : (٤٦٧ - ٤٨٧هـ)

تولى أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة أبي العباس محمد بن القائم الخلافة بعد وفاة جده الخليفة القائم بأمر الله في شعبان سنة ٤٦٧هـ وكان جده قد أوصى له بولاية العهد لوفاة ابنه الذخيرة في حياته ، وبقي الحفيد بالخلافة قرابة العشرين عاما وتلقب بالمقتدى بأمر الله .

ويصفه كتب التاريخ بانه من خيرة بني العباس لتقواه وصلاحه وحرصه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولذلك اتسمت أيامه بالازدهار والاستقرار وقد عاصره من سلاطين السلاجقة ملكشاه الذي كان سلطانا عادلا صائب الفكر والتدبير ، فالتقى الإثنان الخليفة العباسي ، والسلطان السلجوقي على الصلاح والإصلاح فدانت لهما ارجاء الدولة بالولاء والطاعة والاحترام ، كما كان وزيرهما الشهير نظام الملك لايقل عنهما صلاحا وإصلاحا وعلما وفكرا وتدبيرا ، ويرتبط باسمه إنشاء المدارس النظامية في سائر البلدان وكان يجل العلماء ويستقدمهم للتدريس بمدارسه وكان ينظر في الأوقاف والمصالح ويرتب عليها الأمناء ويشدد في أمرها حتى أن كتب التاريخ تصفه بأنه كان غرة في جبين آل سلجوق ، وارتبط عهده بأسماء كبار علماء الإسلام في عهده كالإمام الغزالي الذي كان قرينا له في المولد بمدينة طوس ، ومع هذا التميز لنظام الملك انتهت حياته بالقتل سنة ٤٨٥هـ بسبب الحقد والغيرة من نجاحه وشهرته ، وتبعه بشهر السلطان ملكشاه وبموتهما انطوت صفحة هامة من صفحات التاريخ العباسي عامة والسلجوقي خاصة .

وكانت الدولة العباسية قد شهدت في عهد ملكشاه ووزيره نظام الملك اتساعا امتد من حدود الصين شرقا إلى ساحل الشام على بحر الروم غربا ، ومن أقاصي آسيا الصغرى شمالا إلى بلاد اليمن جنوبا ، وتمتعت خلال عهدهما بالأمن والسكون والعدل والعمران والاهتمام بالزراعة والصناعة وتشجيع التجارة وتعبيد الطرق وتأمينها وقد توفي الخليفة المقتدى في منتصف المحرم سنة ٤٨٧هـ فتولى ابنه من بعده الخلافة .

الخليفة المستظهر بالله (٤٨٧ ـ ٥١٢هـ)

تولى أبو العباس أحمد بن المقتدى بأمر الله وتلقب بالمستظهر بالله وظل بالخلافة أربعا وعشرين سنة حتى وفاته فى ربيع الآخر سنة ٥١٢هـ وهو فى الحادية والأربعين من عمره ، وفى عهده امتد حكم السلاجقة بفروعهم العديدة إلى معظم أقليم الدولة العباسية ، وقد تميز الخليفة المستظهر بالله بصفات الحاكم الصالح كريم الأخلاق وصانع الخير ، كما كان شاعرا رقيقا ، وخطاطا بارعا .

وشهد عهد المستظهر بالله عدة أحداث كبيرة فقد ظهر الباطنية فى المشرق وحاولوا نشر مذهبهم الشيعى الإسماعيلى فى أرجاء الدولة ، كما تكررت إغارات الصليبيين على بلاد الشام فى شكل حملات صليبية .

الخليفة المسترشد بالله (٥١٢ ـ ٥٢٩هـ)

هو أبو منصور الفضل بن المستظهر بالله ـ تولى الخلافة بعد وفاه أبيه فى منتصف ربيع الآخر سنه ٥١٢هـ وتلقب بالمسترشد بالله ، ومكث بالخلافة سبعة عشر عاما ـ حتى مقتله فى ١٧ ذى القعدة سنة ٥٢٩هـ ، وكان يعاصره السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه على العراق والسلطان سنجر بن ملكشاه على خراسان وماوراء النهر ، وكان يعد كبيرا للسلاجقة فى ذلك الوقت .

وشهد عهد المسترشد قيام أكثر من نزاع بين أبناء البيت السلجوقى ـ الحاكم الفعلى ـ للدولة العباسية ، وربما ساعد هذا النزاع الخليفة المسترشد على استرجاع بعض النشاط والنفوذ ، فقد خرج على رأس جيوش الخلافة لحرب المخالفين له وللدولة مثل دبيس بن صدقة ملك الحلة ، وأدى انفراد الخليفة بالأمر فى بعض الأحيان إلى حدوث توتر فى علاقته بالسلطان السلجوقى مسعود بن محمد بن ملكشاه ، وكان من نتائجها قطع الخطبة لمسعود من منابر بغداد ، وتجهيز جيش لحرب مسعود ، غير أن كثيرا من جنده انحاز عند لقاء الجيش إلى جيش مسعود

فانتصر على جيش الخلافة مما سبب حزنا كبيرا لأهالى بغداد ، كما تم تحديد إقامة الخليفة فى خيمة يحرسها جند مسعود ، حتى عقد الصلح بين الخليفة والسلطان مسعود السلجوقى مع تعهد الخليفة بدفع مبلغ كبير له سنويا ، ثم مالبث أن داهمه بعض الباطنية فى خيمته فقتلوه ومثلوا بجثته على باب مدينة مراغة بصعيد مصر .

الخليفة الراشد بالله (٥٣٠هـ)

تولى أبو جعفر المنصور بن المسترشد بالله الخلافة بعد وفاه أبيه فى ذى القعده سنه ٥١٢هـ ولم يكن أسعد حظا من أبيه مع السلطان السلجوقى مسعود ، فضلا عن أنه حاول الثأر لأبيه بالاتفاق مع داود بن السلطان محمود أخى مسعود ضد عمه ، فما كان من مسعود إلا الحضور إلى بغداد ومحاصرتها ، فتفرق حلفاء الخليفة من حوله وتركوا بغداد ، كما تركها الخليفة الراشد نفسة وخرج مع عماد الدين زنكى أمير الموصل ، فدخل مسعود بغداد منتصرا وجمع القضاة والشهود والفقهاء وتشاوروا فى أمر الخليفة الراشد واستقر رأيهم على خلعه ولم يمض على توليته سوى أحد عشر شهرا وأحد عشر يوما فقط .

الخليفة المتقى لأمر الله (٥٣٠ ـ ٥٥٥هـ)

هو أبو عبد الله الحسين بن المستظهر ، اختاره السلطان مسعود ليكون خليفة بعد عزل الراشد بالله ، وبويع فى ذى الحجة سنة ٥٣٠هـ وتلقب بالمقتفى لأمر الله ، ومكث بالخلافة حتى وفاته فى ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ بعد حكم دام أربعا وعشرين سنة وعدة شهور ، وصاهره السلطان مسعود بتزويجه أخته حتى يضمن عدم تغير الخليفة عليه ، وقد تعرض السلطان مسعود لكثير من الثورات ضده فى عهد الخليفة المقتفى حتى توفى سنة ٥٤٧هـ ، ويقول المؤرخون أن بموت

مسعود بدأ نجم السلاجقة فى الأفول ، وكان قد عهد بالسلطنة من بعده لابن أخيه ملكشاه ابن السلطان محمود ، أما الخليفة المقتفى فانه لما بلغه نبأ وفاة السلطان مسعود صادر أمواله وداره ودور أصحاب السلطان ببغداد ، وأرسل جنوده للاستيلاء على بعض البلدان العراقية ، ويعتبر الخليفة العباسى الأول الذى استبد بأمر العراق من دون السلاجقة .

وقد شهد عهد الخليفة المقتفى لأمر الله بدايه ظهور الأتابكيات حيث اقتسم ملك السلاجقة ودولتهم أمراء أوصياء (أتابكة) وحكم كل منهم مدينة أو منطقة نسبت إليه ، وكان معظم حكامها من الترك الذين عهد إليهم السلاجقة ببعض الأعمال والتكليفات وعندما يحرزون نجاحا فيما كلفوا به كانوا يطلقون على الواحد منهم لقب " أتابك " وتعنى فى اللغة التركية الوصى أو المربى ، ووصل بعض هؤلاء الأتابكة إلى درجة الملك والسلطان فى بعض الأقاليم الإسلامية ، بل وورثوا ملكهم وسلطانهم لأبنائهم من بعدهم مما أدى إلى ظهور أسرات أتابكية حاكمة عرف عصرها باسمها .

من جهة أخرى ظهرت دولة الأراتقة ، أو الدولة الأرتقية نسبة إلى أرتق ابن أكسب التركمانى أحد مماليك السلطان ملكشاه السلجوقى وكان معين الدولة سقمان بن أرتق هو أول من أسس هذه الأسرة الحاكمه عندما استولى على حصن كيفا سنة ٤٩٥ هـ ثم ضم إليه ماردين وفى سنة ٦٠٢هـ انقسمت هذه الدويلة الصغيرة إلى مملكتين قامت إحداهما بحصن كيفا والثانية بماردين ، واستمرت الأولى إلى سنة ٦٢٠هـ عندما أسقطها الأيوبيون ، وبقيت الثانية حتى سنة ٨١١هـ وأسقطها قرَه قيونلى .

وكانت أتابكية دمشق من أشهر الأتابكيات التى قامت ببلاد الشام و أول ملوكها سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين الذى كان مملوكا للملك تتش بن ألب

أرسلان أول ملوك السلاجقة بسوريا ، وكان حاكما عادلا وسار سيرا حسنا فى حكمه وورث الحكم لأبناء أسرته من بعده لمده اثنتين وخمسين عاما وكانت نهايته على يد الزنكيين سنة ٥٤٩هـ.

أما أتابكية الموصل فتنسب إلى مؤسسها عماد الدين زنكى بن أقسنقر الذى كان مملوكا للسلطان السلجوقى ملكشاه بن ألب أرسلان ، وبدأت دولة الزنكيين بالموصل سنة ٥٢١هـ بتولية من السلطان السلجوقى محمود وقامت الدولة الزنكية بدور بطولى هام ضد الصليبيين بالشام ، وظلت دولة الزنكيين قائمة حتى أسقطها الغزو المغولى للعراق والشام فى منتصف القرن السادس الهجرى (١٢م) .

وقد تعددت الأتابكيات فى سنجار والجزيرة واربل وأذربيجان وفارس ، ولورستان وأرمينية .

كما قامت الدولة الغورية على أنقاض الدولة السبكتكينية وتتخذ هذه الدولة اسمها من المكان الذى قامت به وهو إقليم الغور الجبلى فيما بين هراة وغزنة ، وتعاقب على حكمهما عدد كبير من الملوك امتد حكمهم على معظم بلاد خراسان وبلاد الهند ، واستمر حكم الدولة الغورية فيما بين سنتى ٥٤٣هـ و٦١٢هـ .

وقد شهد عهد الخليفة المقتفى لأمر الله وصول الحملة الصليبية الثانية ردا على ما استخلصه نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى من أقاليم ومدن من الصليبيين بالشام .

الخليفة المستنجد بالله (٥٥٥ - ٥٦٦هـ)

تولى أبو المظفر يوسف بن المقتفى لأمر الله الخلافة بعد وفاة أبية وتلقب بالمستنجد بالله ومكث بها إحدى عشرة سنة حتى وفاته فى ربيع الآخر سنة٥٦٦هـ ، وقد ارتبط اسمه وتاريخه بجليل الأعمال وكريم الأخلاق ومحاولاته لإصلاح الفساد

وتتبع أهله وحبسهم ، كما قام بحل الإقطاعات وأعادها إلى الخراج ، كما تميز عهده باستبداده بأمور العراق من دون سلطان السلاجقة بها " أرسلان شاه بن محمد ابن ملكشاه " ، وهو بهذا يكون قد ورث أباه في الاستبداد بأمر العراق .

الخليفة المستضيء بالله (٥٦٦ - ٥٧٥هـ)

تولى أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٥٦٦هـ وتلقب بالمستضيء بالله ومكث بها قرابة عقد من الزمان حتى وفاته في ذي القعده سنة ٥٧٥هـ ، وقد شهد عهده سقوط دولة الفاطميين وخلافتهم بمصر وقيام الدولة الأيوبية سنة ٥٦٧ هـ كما شهد عهده وفاة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بعد أن بلغ حكمه مصر والشام والحرمين الشريفين واليمن لدوره البطولي في مقاومة الصليبيين وكان الخليفة المستضيء بالله من أكثر الخلفاء العباسيين عدلا وصلاحا وتصفه كتب التاريخ بأنه عاش حميدا ومات سعيدا .

الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ)

تولى الخلافة أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بعد وفاة أبيه الخليفة المستضيء بالله ، ومكث بالخلافة ستة وأربعين عاما وأحد عشر شهرا ، ويعد بهذا أطول خلفاء بني العباس عهدا بالخلافة ، ولم يتفوق عليه بزيادة سنوات الخلافة إلا الخليفة الفاطمي المستنصر بالله الذى بلغت سنوات حكمه ستين عاما (٤٢٧ هـ - ٤٨٧هـ) .

وكان يعاصره بالأندلس وشمال أفريقيا دولة الموحدين ، والدولة المرينية بمراكش التي قامت سنة ٥٩١هـ ، وفي مصر والشام واليمن دولة الأيوبيين ، وبالموصل وسنجار والجزيرة بقايا دولة الأتابكة ، وفي قونية بآسيا الصغرى

سلاجقة الروم ، وببلاد الجبل والعراق السلطان طغريل الثاني آخر سلاجقة العراق ، وفى خوارزم وخراسان دولة خوارزمشاه ، وبالغور وبلاد الأفغان الدولة الغورية .

ومن أهم الأحداث التى شهدها عهد الناصر العباسى زوال ملك السلاجقة بالعراق سنة ٥٩٠هـ وقيام دولة خوارزمشاه التى بسطت حكمها على ما كان يحكمه سلاجقة العراق وأدى هذا الاتساع إلى طمع خوارزمشاة فى الخطبة باسمه على منابر بغداد ، ولكن الناصر رفض ذلك فاشتد العداء بينهما وأسقط خوارزمشاه اسم الخليفة الناصر من الخطبة فى البلاد التى خضعت لحكمه ، وكان لسوء العلاقة بين الإثنين مبررا قويا لدى بعض المؤرخين لاتهام الخليفة الناصر بمكاتبة المغول للقدوم إلى العراق لينشغل بهم خوارزمشاه عن عدائه للخليفة .

والتتر – أو المغول – شعب كبير من الشعوب التركية ، كانوا على وئام وصفاء حتى اختلف أبناء ملوكهم فانقسموا إلى فريقين المغل ويحكمهم الملك ايلخان، وسونج خان ملك التتر ، وتمخض القتال بينهما عن انتصار التتر على المغول فصارت السيادة لهم حتى تمكن المغول بعد حين من استرجاع قوتهم ونفوذهم ونجح زعيمهم جنكيزخان (ولد سنة ٥٤٩هـ) من جمع شمل المغول فزادت أعدادهم فدخل فى حروب عديدة مع القبائل التركية وانتصر عليهم جميعا فاتسعت مملكته واتخذ مدينة قراقورم عاصمة لها ، ولم يكن للمغول دين أو قانون ينظم حياتهم ومعاملاتهم .

وقد خرج جنكيزخان على رأس جيوشه الجرارة وعبر نهر سيحون حتى بلغ مدينة بخارى فدخلها لتخلى جندها الخوارزمية عن الدفاع عنها وذلك فى أوائل ذى الحجة سنة ٦١٦هـ فصادر أموال تجارها وأهلها وطردهم منها ، ثم عاث جنده بالمدينة نهبا وسلبا وقتلا فأصابها الخراب والدمار ، ثم توجه المغول الى سمرقند ،

ولم يكن حظها أحسن من بخارى فقد استباحها المغول وخربوها فى المحرم سنة ٦١٧هـ ، ولم يفلح جند خوارزمشاه فى التصدى لهم ، ثم وجه جنكيزخان عشرين ألفا من أشداء جنوده للبحث عن خوارزمشاه ، فما كان منه إلا الرحيل من موقعه فقصد نيسابور ومنها إلى مازندران والمغول يتعقبونه ، حتى بلغ قلعة فى بحر طبرستان وعندها يئس المغول من اللحاق به فعادوا عنه وانقطعت أخباره من ذلك الوقت .

وسار المغول الى الرى فملكوها ثم قصدوا همذان فطلب صاحبها الأمان فأمنوه ، ثم دخلوا قزوين عنوة وقتلوا من أهلها أربعين ألفا ، ثم وصلوا إلى تبريز بإقليم أذربيجان فصالحهم حاكمها ، ثم توجهوا الى بلاد الكرك فهزموا أهلها ثم استولوا على مدينة مراغة سنة ٦١٨هـ ونهبوها ، وحرقوها ، ثم قصدوا إربل ثم ساروا إلى دربند شروان فاستولوا على مدينة شماخى عنوة ، ثم اتجهوا شمالا فقتلوا الآلاف من أهلها من القفجاق ، فتفرقوا فى البلدان هربا من المغول ، ووصلت مجموعات منهم إلى مصر اشترى منها الصالح نجم الدين أيوب آخر سلاطين الأيوبيين مماليكه البحرية واستكثر منهم ، ثم اتجه المغول الى بلاد الروس فتحالف أهلها مع فلول القفجاق ولكن الجيوش المغولية هزمتهم وفرقتهم ونهبت بلادهم . أما جنكيزخان فكان قد أقام بسمرقند ، وسير جيشا بقيادة أحد أبنائه لغزو خراسان ، فعبرت الحملة النهر وقصدت مدينة بلخ فطلب أهلها الأمان ، وتسلمها المغول سنة ٦١٧ هـ ، ثم أخذوا فى الانتشار وبسط النفوذ على معظم البلاد الفارسية ، وأصبحت دولة جنكيزخان تمتد شرقا حتى الصين وغربا بلاد الروس والعراق ، وجنوبا بلاد الهند ، وشمالا البحر الشمالى ، وقام جنكيزخان بتقسيم دولته االواسعة إلى أربعة أقسام بين أبنائه الأربعة وهم جوجى ، وجغطاى ، وأوكتاى وتولى ،

ومات جنكيزخان تسنة سنة ٦٢٤ هـ فتولى أبناؤه حكم دولته الواسعة حسب التقسيم الذى وضعه أبوهم من قبل .

أما الخليفة العباسى الناصر ، فكان لاهيا بحياته الخاصة ورحلات صيده عما يحدث إلى الشرق من دولته ومايهددها من خطر داهم ، مما أدى إلى تفرق أهل العراق وفساد أحوالها ، وأمضى السنوات الثلاث الأخيرة من خلافته وعمره عاطلا عن الحركة بسبب ضعف بصره ، حيث ذهبت إحدى عينيه وضعفت الأخرى عن الابصار ، ثم ما لبث أن أصابه المرض فمات سنة ٦٢٢ هـ .

الخليفة الظاهر بأمر الله (٦٢٢ - ٦٢٣ هـ)

تولى أبو نصر محمد بن الناصر الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٢٢ هـ وتلقب بالظاهر بأمر الله ولم يمكث بالخلافة سوى تسعة أشهر ونصف الشهر ، وكان عادلا محسنا حتى أن المؤرخين يقولون بأنه لم يتول الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله ، وذلك لإعادته الأموال المصادرة إلى أصحابها ، وإطلاقه المكوس فى البلاد كلها ، واعادته الخراج إلى ما كان عليه قبل الزيادة التى قررها أبوه ، كما أخرج المسجونين من سجنهم ، ورد إليهم ما أخذ منهم .

الخليفة المستنصر بالله (٦٢٣ - ٦٤٠ هـ)

تولى أبو جعفر المنصور بن الظاهر الخلافة بعد وفاة أبيه فى منتصف رجب سنة ٦٢٣ هـ وتلقب بالمستنصر بالله وبقى بها قرابة سبعة عشر عاما حتى وفاته سنة ٦٤٠ هـ وكان من الخلفاء العادلين المحسنين إلى الناس ، واقتدى بأبيه فى فعل الخير واشاعته بين الناس حتى أنه جعل المنادين ينادون " لمن كان له

حاجة أو مظلمة أن يتقدم بها لتقضى حاجته وتكشف مظلمته " وزاد عن أبيه حبه للإنشاء وحرصه على التعمير فارتبط اسمه بكثير من الإنشاءات كالقناطر والخانات والربط ودور الضيافة ، وإليه تنسب أشهر مدارس بغداد التى أنشأها وهى المدرسة المستنصرية ـ على شط نهر دجلة الشرقى قريبا من دار الخلافة وكانت قبلة للعلماء والطلاب من شتى أرجاء الدولة العباسية .

وقد شهد عهد الخليفة المستنصر وفاة ملك المغول جنكيزخان سنة ٦٢٤ هـ وتولى ابنه " تولى خان " الملك من بعده ، فقام بتوسعات وإغارات جديدة ضم بها أذربيجان إلى ملكه ، بعد قضائه على حكم جلال الدين منكبرتى ومقتله فى منتصف شوال سنة ٦٢٨ هـ ، وبهذا أصبح المغول يملكون كل البلاد الواقعة إلى شرق العراق ، وهى مساحة كبيرة كان معظمها بيد حكام مسلمين ولكنهم جميعا لم يستطيعوا فرادى أو جماعات التصدى لخطر المغول فالتهم دولهم أو دويلاتهم واحدة بعد الأخرى ، وأصبح الدور على العراق وحاكمه خليفة المسلمين وفى العاشر من جماد الآخر سنة ٦٤٠ هـ توفى الخليفة المستنصر بالله ، وقد أكرمه الله فلم يشهد النهاية الأليمة التى شهدها ابنه من بعده المستعصم بالله آخر خلفاء العباسيين .

الخليفة المستعصم بالله (٦٤٠ ـ ٦٥٦ هـ)

هو أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بن الظاهر بن الناصر بن المستضئ بن المستنجد بن المقتفى بن المستظهر بن المقتدى بن محمد الذخيرة بن القائم بن القادر بن اسحق بن المقتدر بن المعتضد بن طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى بن المنصور ، وهو بهذا يجمع بين سبعة عشر خليفة بين آبائه وأجداده .

وبويع بالخلافة فى العاشر من جمادى الآخرة سنة ٦٤٠ هـ بعد وفاة أبيه المستنصر بالله ، وتلقب بالمستعصم بالله ، وظل بالخلافة حتى داهمه الغزو

المغولى ، وقتله المغول بزعامة هولاكو فى العشرين من المحرم سنة ٦٥٦ هـ (٢٧ يناير سنة ١٢٥٨ م) .

وكان هولاكو قد ورث أباه " تولى خان " فى حكم خراسان وما يليها غربا من أراضى يفتحها المغول ، واهتم هولاكو باستمرار الغزو بغية الوصول إلى بغداد حاضرة الدولة التى بسط المغول سلطانهم على معظم أراضيها ، وكانت بغداد تعانى فى ذلك الوقت من كثرة النزاع بين الشيعة والسنة حتى أن السنة هاجموا الكرخ مركز تجمع الشيعة واعتدوا عليهم بالقتل والسلب والنهب بتحريض من ابن الخليفة المستعصم ، كما يقال أن وزير الخليفة ابن العلقمى كاتب هولاكو يحرضه على غزو بغداد وضرب الخلافة ، الأمر الذى يدل على المدى الذى بلغته الخلافة وحاضرتها من سوء الحال والاضطراب والضعف ، وزادت هذه الأحوال من عزم هولاكو على غزو بغداد ، فسارت جيوشه الجرارة إلى بغداد فى منتصف المحرم سنة ٦٥٦ هـ وحاصرت بغداد ، ولم يكن أمام الخليفة من دفاع قوى يدفع به هذا الطوفان المغولي الهادر والمحاصر لبغداد سوى غلق أبواب الأسوار ، وبعد عشرة أيام من حصار بغداد تمكن المغول من الاسوار وفتحوها ودخلوا بغداد واستباحها المغول قتلا ونهبا وسلبا وحرقا وتدميرا وتخريبا ، أما الخليفة فخرج للقاء هولاكو وقدم إليه الهدايا والجواهر الثمينة ففرقها هولاكو على قادة جنده وعند مغادرته بغداد صحب معه الخليفة المستعصم وأسرته فى الرابع عشر من صفر سنة ٦٥٦ هـ وعند باب كلواذى أحد أبواب أسوار بغداد قتل هولاكو الخليفة العباسى المستعصم بالله وبعض أبنائه وحاشيته ، وبمقتله تسقط دولة العباسيين وخلافتهم التى عمرت خمسة قرون وربع القرن (١٣٢ ـــ ٦٥٦ هـ) ، وأصبحت بغداد بخرابها وقتل كثير من أهلها أثرا بعد عين ، واستبقى المغول بها جماعات من الشيعة والنصارى وبعض الأقوام المصاحبين لهولاكو فأصبحت بغداد مدينة بلا سكان ولا مسلمين ولا

دين بعد أن كانت عاصمة للمسلمين ومركزا حضاريا من أهم وأكبر حواضر العالم الإسلامى .

وهكذا سقطت الخلافة العباسية التى مرت بعدة أطوار وأحوال جعلت المؤرخين ينجحون فى تقسيم تاريخها إلى أكثر من عصر ، ففى المائة سنة الأولى من حكمها اتسمت بالقوة والمنعة وبالخلفاء العظام والمؤسسين من أمثال السفاح والمنصور والمهدى وهارون الرشيد والمعتصم الذين كانت لهم الكلمة الأولى والأخيرة والقبضة القوية على زمام الأمور فى الدولة ، كما شهدت هذه الفترة بناء عدة مدن جديدة كانت بغداد وسامرا من أهمها لاتخاذهما عاصمتين للدولة .

ثم جاءت بعد ذلك فترة قاربت على القرن أيضا ، ضعفت فيه إرادة الخلفاء وبدأ يغلب عليهم نفوذ القادة والأمراء والوزراء من الترك ، وظهرت وانتشرت الدويلات المستقلة التى حكمتها أسرات معينة طالت فترة حكمها وقصرت فى البلدان المختلفة ، وهى وإن كانت معترفة بالولاء والطاعة للخلافة للعباسية إلا أنها لم تجعل للعباسيين القبضة الواحدة القابضة على زمام الأمور كالعهد الأول ، وتولى الخلافة فى هذا القرن من عهد الخلافة العباسية اثنا عشر خليفة لم يمت منهم موتا طبيعيا سوى أربعة والباقون أخرجوا من الخلافة بالعزل أوالقتل من جانب الأمراء الترك الذين لم يقنعوا بالإمارة وإنما ابتدعوا إمرة الأمراء وكان بيد الأمراء كل شئ حتى عزل الخليفة وتعيين خليفة جديد كما رأينا بالتفصيل .

ثم جاء الدور الثالث ـ أو العصر الثالث من عصور الدولة العباسية ويمثله نفوذ أسرة بنى بويه ـ أو الديالمة ـ الذين غلب نفوذهم كوزراء وسلاطين وملوك ـ على نفوذ الخلفاء العباسيين ، واستمر هذا العصر أكثر من قرن (٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ) من الزمان لم يكن للخليفة سوى الاسم والرمز الذى حافظ عليه البويهيون ، وزاد الطين بلة ما عرف عن بنى بويه من تشيع أو تعاطف مع الشيعة ، فكانت المفارقة

الكبيرة التى نجح البويهيون فى حلها وهى كونهم من الشيعة أو من المتعاطفين مع الشيعة وفى نفس الوقت حماة للخلافة العباسية السنية ، وقد ارتضوا هذا ليكون أمر الخلافة العباسية بأيديهم بدلا من أن يكون أمرهم هم بيد خلفاء علويين ، وقد تولى الخلافة خلال عهد نفوذ بنى بويه خمسة من الخلفاء عزل البويهيون منهم ثلاثة .

ثم كان العهد الأخير وهو العصر الرابع (٤٤٧ ـ ٥٩٠ هـ) الذى ساد فيه نفوذ أسرة السلاجقة التركية الذين قاموا بالدور نفسه الذى لعبه البويهيون قبلهم من حيث الحفاظ على الخلافة العباسية كرمز وسيادة اسمية فقط بينما كانت جميع شئون الدولة بأيديهم هم وإن كان وضع الخلفاء العباسيين أحسن حالا وأكثر احتراما فى زمن السلاجقة منه فى زمن بنى بويه ، وقد تولى الخلافة خلال هذا العهد سبعة من الخلفاء حتى زال ملك السلاجقة سنة ٥٩٠ هـ بتولى أسرة خوارزمشاه الحكم فى العراق وفى عهد الأسرة الأخيرة حاول العباسيون استرداد نفوذهم ونجحوا فى ذلك فى حدود حكمهم للعراق وحده الذى استمر بعد قيام دولة خوارزمشاه ستا وستين عاما لم يكن الخلفاء العباسيين خلالها يخضعون لسلطان أحد ، وإنما كانوا مستقلين بحكم العراق حتى كانت الهجمة المغولية وما جرته من بسط النفوذ المغولى على سائر البلدان الإسلامية العباسية الواقعة إلى الشرق من العراق ، ثم كانت الطامة الكبرى بدخول المغول بغداد وقتلهم الخليفة العباسى المستعصم بالله وإسقاطهم الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨ م) .

ويمكننا تلخيص الأسباب التى أدت إلى سقوط الخلافة العباسية فيما يلى :-

أولا : افتقاد العباسيين للعصبية القومية الخاصة بهم ، وتعدد اعتمادهم على عصبيات متنافرة ، فهم وإن كانوا عربا وأولوا العرب اهتمامهم إلا أنهم لم يوحدوا بين العناصر العربية المعروفة بنزعاتها القبلية ، فضلا عن أنهم اعتمدوا فى

مرحلة دعوتهم على الموالي من الفرس ، وكان لهؤلاء تطلعاتهم لإعادة أمجادهم التاريخية القديمة من جهة والتخلص من حكم الأمويين الذين أعلوا العرب عليهم من جهة أخرى ، وعقب نجاح الدعوة وقيام الدولة زاد نفوذهم حتى كاد يطغى على نفوذ الخلفاء ، ولكن الخلفاء في ذلك الوقت كانوا من القوة لدرجة مكنتهم من البطش بالفرس (المنصور بأبي مسلم الخرساني ، والرشيد بالبرامكة) ثم بدأ العباسيون يعتمدون على العنصر التركي بدءا من المأمون والمعتصم ، ونجح هذا العنصر في الاستئثار بالحكم والقوة وأن يسلب الخلفاء سلطانهم خاصة وأنهم كانوا من الضعف لدرجة تمكنهم من تدارك ذلك .

فكانت غلبة أمراء الأمراء الترك ، وأسرة بني بويه وأسرة السلاجقة وما اقترن بهذا السلطان والنفوذ من خلع للخلفاء وقتل لبعضهم ، وهكذا نرى أن الدولة العباسية لم تعتمد على عصبيتها القومية العربية ، كما أنها لم تعتمد على عصبية قومية واحدة لها قوتها ومنعتها فأدى التعدد إلى النزاع بين القوى التى اعتمد عليها العباسيون من عرب وفرس وترك ، ولم يكن يجمع بينهم جميعا سوى رباط الإسلام كدين ، وهو وإن كان رباطا قويا لكنه لم يجد دعما قوميا ووحدة قومية تجمع بين هذا الشتات المتنافر الذي يسعى كل عنصر فيه إلى تحقيق مصالحه التى لم تتفق في كثير من الأوقات مع سيادة الدولة ووحدتها ، أو مع كيان الخلافة واحترامها ، ولذلك اختل التوازن بين عناصر الدولة ولم يجد الخلفاء - لضعفهم - مفرا من الإقرار بما يراه المستأثرون بالحكم وبخاصة في عهد النفوذ التركي ، وعندما دب النزاع في آخر الأسرات التركية الحاكمة وهي الأسرة السلجوقية تشجع بنو العباس وقبضوا على زمام الأمر في العقود القليلة الأخيرة من عمر خلافتهم ، وكان هذا قاصرا على العراق وحده ، ولكن الخطر المغولي الداهم لم يمهلهم فكانت الطامة الكبرى بغزو المغول للعراق بعد اكتساح كل الأقاليم الواقعة إلى الشرق منه .

ثانيا : يمثل العداء العلوى للعباسيين سببا هاما ثانيا من أسباب سقوط خلافة العباسيين ، ذلك أن هذا العداء سار موازيا ومساويا لتاريخ الدولة العباسية ، وبعبارة أخرى لأحد المؤرخين المحدثين قال فيها أن عداء العلويين للعباسيين استمر من أول خليفة إلى آخر خليفة وكان ذلك سببا هاما من أسباب ضعف الدولة العباسية يضاف إلى السبب الأول الخاص بافتقاد العباسيين إلى عصبية قومية واحدة .

وقد رأينا العباسيين قد اعتمدوا فى دعوتهم لأنفسهم على الدعوة للرضا من آل البيت النبوى ـ أو الرضا من آل محمد ، ولما كان البيت النبوى يضم فرعين أحدهما عباسى نسبة إلى العباس عم النبى عليه الصلاة والسلام ، والآخر علوى نسبة إلى على بن أبى طالب إبن عم النبى وزوج ابنته فاطمة ، لذلك كان حنق العلويين شديدا على العباسيين عندما استأثروا من دونهم بالدولة والخلافة بعد نجاح الدعوة وسقوط دولة الأمويين ، فقد كان هذا يعنى استمرار الإفتئات على حقهم فى الخلافة ، وهو الحق الذى كانوا يطالبون به الأمويين من قبل لقناعتهم بأنهم اغتصبوا الأمر منهم اغتصابا بما حدث من دهاء وخديعة فى قضية التحكيم التى أخرجت الحكم من على إلى معاوية ، ولذلك ناصب العلويون الأمويين العداء طوال العهد الأموى ودفعوا ثمنا ـ أو أثمانا غالية فى المطالبة بهذا الحق ، ثم جاء أبناء عمومتهم ـ العباسيون ـ ليكرروا نفس الموقف ، ولذلك قامت الثورات العلوية فى وجه العباسيين منذ قيام دولتهم واستنفذ هذا جهدا ومالا واهتماما كبيرا من جانب العباسيين بدءا من ثورة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم فى عهد أبى جعفر المنصور سنة ١٤٤ هـ ومرورا بثورات الحسين بن على بمكة فى عهد الخليفة الهادى سنة ١٦٩ هـ ثم نجاح الأدارسة فى إقامة دولة شيعية لهم بالمغرب الأقصى

سنة ١٧٢ هـ ومقاومة العباسيين لها بإقامتهم دولة الأغالبة إلى الشرق منها مباشرة فى أفريقيه (تونس) ثم محاولة الخليفة المأمون استرضاء العلويين بتولية الإمام العلوى على الرضا ولاية العهد ثم رجوعه عن ذلك أمام ثورة العباسيين ضده وخلعهم له من الخلافة ، ثم تفاوتت العلاقة بين الطرفين من مراعاة للعمومة والدم والدين بالإحسان إلى العلويين إلى قمة العداء لهم ومواجهتهم بل والعداء للأموات منهم كما فعل الخليفة المتوكل عندما كان يعرض بعلى بن أبى طالب وبسيرته ، ويأمر بإيذاء العلويين ويكافئ الشعراء الذامين للعلويين ، بل أنه أمر بهدم قبر الحسين بن على بكربلاء وسواه بالأرض ونهى الناس عن زيارته .

وفى القرن الثالث الهجرى نظم العلويون صفوفهم لمقاومة العباسيين ، فكانت ثورات القرامطة ضدهم ، وما جرته عليهم من ويلات واعتداءات وصلت إلى حد نزع الحجر الأسود من مكانه بالكعبة وتمزيق كسوة الكعبة وتوزيعها ونهب الحجاج فضلا عن تهديد أكثر من إقليم من أقاليم الدولة العباسية ، ثم كان نجاح الفاطميين فى إقامة دولتهم بالمغرب سنة ٢٩٦ هـ وفرض سلطانهم على بلدان الشمال الإفريقى كله ثم ما لبثوا بعد نصف قرن تقريبا من الوصول إلى مصر والشام والحجاز واليمن وتكوين دولة مترامية الأطراف وإقامة خلافة لهم عاصمتها القاهرة بمصر تعمر أكثر من قرنين من الزمان (٣٥٨ ـ ٥٦٧ هـ) .

ولم يجد العباسيون أمام هذا الانتصار الساحق للعلويين سوى الطعن فى نسب الفاطميين والحط من شأنهم ، ثم حدث تطور جديد وغريب فى العلاقة بين العباسيين والعلويين فى القرن الرابع الهجرى عندما وصلت أسرة بنى بويه المتشيعة إلى الحكم والنفوذ حيث غلب نفوذ أمرائها على نفوذ الخلفاء العباسيين وكادوا يحولون الخلافة إلى البيت العلوى لولا إدراكهم أن هذا التحويل سيضعف من شوكتهم لأنه سيفقدهم الخلافة التى يستعدون بها ويجعلهم تابعين لخلافة أقوى

بأحقيتها فى الحكم فآثروا بقاء الوضع على ما عليه من استئثار بالنفوذ من دون العباسيين مع تعاطفهم الواضح مع العلويين ، وكانت آخر حلقات النزاع بين العباسيين والعلويين تلك الحادثة التى حدثت أواخر عهد آخر الخلفاء العباسيين المستعصم بالله ويعتقد بعض المؤرخين أنها كانت السبب الذى شجع المغول على دخول بغداد ، وهى حادثة الاعتداء العباسى على مدينة الكرخ حيث تمركز العلويون وما صاحبها من قتل الكثيرين منهم ونهب دورهم وسلب أموالهم ، ولهذا لم يكن غريبا قول أحد المؤرخين المحدثين إن العداء العباسى للعلويين بدء مع أول خليفة واستمر حتى آخر خليفة عباسى .

ثالثا : ويضاف إلى السببين الهامين السابقين سبب ثالث كان وراء سقوط الخلافة العباسية وهو تجزؤ الدولة فى القرنين السادس والسابع الهجريين تجزءا أفضى بها إلى التفتت بين أسرات حاكمة عديدة وأتابكيات أصبحت على مستوى المدينة وليس الإقليم (أتابكية الموصل ، وأتابكية دمشق ، وأتابكية حماه وغيرها) . وكان الشاغل الأكبر لأصحابها ترسيخ أقدامهم فى الحكم ، ومحاولة بسطه إلى ماعداها من أتابكيات ، وأقاليم ومدن ، وبالتالى انتفى الحرص على كيان الدولة نفسها ، أما الخلفاء العباسيون فكانوا مغلوبين على أمرهم لضعفهم من جانب ولقوة المتغلبين عليهم من جانب آخر ، يضاف إلى ذلك ما أصاب الخلافة من شيخوخة لم تمكنها من استعادة سلطانها أو بسطه ، وليس أدل على الضعف الذى أصاب الخلافة العباسية عدم مقدرتها عن صد الفاطميين عن امتلاك مصر وتوسيع أملاك دولتهم بضم الشام والحجاز واليمن ، ومن تقاعسها عن صد الحملات الصليبية التى نزلت بالشام وأقامت بها أربع إمارات صليبية ، ولايشفع لها أن بلاد الشام كانت تابعة

حينئذ للفاطميين ، فالخلافة العباسية من قبل الفاطميين ومن بعدهم خلافة قائمة لحماية الإسلام والمسلمين فكيف الحال بها والعدو هذه المرة من الصليبيين ؟! .

رابعا : يضيف بعض المؤرخين إلى الأسباب السابقة سببا آخر يتعلق بأخلاق الخلفاء العباسيين وسلوكهم ، فقد عرف عنهم فى طول تاريخهم الغدر وعدم الوفاء بالعهود فى سبيل تحقيق مصالحهم ، والأمثلة كثيرة على ذلك وورد ذكرها فى موضع كل منها ، ونكتفى هنا بذكر بعضها للتذكير والتدليل ، فقد قتل المنصور فى حياة أخيه الخليفة السفاح القائد ابن هبيرة بعد أن أمنه تماما على حياته ، كما قتل المنصور أبا مسلم الخراسانى داعى الدعاة ومشيد الدولة العباسية عند قيامها وذلك بعد أن أمنه أيضا ، كما غدر المنصور بعمه عبد الله بن علي بعد أن أمنه على حياته ، وكان الخليفة المهدى يقتل مخالفيه لمجرد الشك والريبة ، ويغدر بمن أمنهم ، ولاننسى غدر الأمين بأخيه المأمون بعد مبايعته ، وقد كلف هذا الغدر الدولة الأموال والجيوش ودفع الأمين حياته ثمنا لغدره بوصية أبيه الرشيد فضلا عما أصاب الدولة كلها من فرقة وانقسام بين مؤيد للأمين ومؤيد للمأمون فيما عرف بالنزاع بين الأمين والمأمون (١٩٤ ـ ١٩٨ هـ) .

كما عرف عن العباسيين بطشهم الشديد بمخالفيهم فى الرأى كما حدث فى الفترة التى شهدت فتنة القول بخلق القرآن الكريم ، حيث قتل وسجن الكثيرون من العلماء والفقهاء لمجرد تمسكهم برأيهم المتفق مع الشريعة ونص القرآن الكريم ، ولكنه رأى مخالف لرأى بعض الخلفاء الذين تعصبوا لآراء المعتزلة فى القول بخلق القرآن الكريم كالمأمون والمعتصم والواثق .

من جهة أخرى دلت الكبائر التى ارتكبها الجيش العباسى بقيادة محمد بن سليمان بأهل مصر وبقايا حكامهم من الأسرة الطولونية على وحشية الجيش العباسى

لدرجة أن بعض المؤرخين قال بأن المهاجمين لو كانوا من الروم ماارتكبوا الجرائم التي ارتكبها الجند العباسي من حرق القطائع وتدمير لمنشآتها ونهب أموالها واستباحة حرمات أهلها ، دون تفرقة بين الأسرة الطولونية وأهل مصر الأبرياء .

أحوال عالم الإسلام عند سقوط الخلافة العباسية

عند سقوط الخلافة العباسية ببغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) كانت الأحوال بالعالم الإسلامي على النحو التالي :

- دولة بني نصر بغرناطة بالأندلس .
- دولة المرينيين بالمغرب الأقصى (المغرب ومراكش) .
- دولة الزيدنيين بالمغرب الأوسط (الجزائر) .
- دولة الحفصيين بأفريقية (تونس) .
- دولة المماليك بمصر .
- دولة بني رسول باليمن .
- دولة الزيديين بصنعاء .
- دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى .
- دولة بني أرتق بماردين .
- دولة الأتابكة بفارس وبلورستان .
- دولة قتلغ خان بكرمان .

السلاجقة وعلاقتهم بالخلافة العباسية وتاريخ الدولة فى عصرهم

السلاجقة أسرة تنتمى إلى احدى القبائل التركية يقال لها " غزقنق " ، فهم من عشائر الغز الكبير التى كانت تقيم فى بلاد التركستان (إقليم القرغيز بأسيا الوسطى) وكان جدها الأكبر سلجوق بن تقاق يلقب بلقب تيموريلغ ويعنى صاحب القوس الحديدية حيث كان زعيما لأتراك الغز ـ بنى عشيرته ، وازداد نفوذه ، ولما كانت اقامته بنواحي جند قريبا من بلاد ماورا النهر فإنه استغل النزاع الذى دب بين السامانيين والقره خانية الأتراك فانحاز السلاجقة إلى السامانيين ضد القره خانيه فتحقق النصر للسامانيين ، وبعدها رحل السلاجقة من جند إلى مكان قريب من بخارى ، وبعد وفاة سلجوق تزعم ابنه أرسلان السلاجقة فى شمال وشرق بخارى وعرف باسم اسرائيل وتلقب بيغو ويعنى الشيخ الكبير ، واستمر أرسلان على علاقته الطيبة مع السامانيين ، ولما زالت الدولة السامانيه سنة ٣٨٩ هـ وملك بلادهم أيلك خان ، عظم شأن أرسلان بن سلجوق فى بلاد ما وراء النهر ، وتحالف مع على تكين ـ أحد قواد السامانيين الذى كان محبوسا وهرب ـ على الاستيلاء على بخارى ، وتمكنا من هزيمة أيلك خان .

وعندما عبر محمود بن سبكتكين الغزنوى سنة ٤١٦هـ النهر إلى بخارى للإستيلاء على بلاد ما وراء النهر وضمها إلى دولته هرب على تكين من بخارى، أما أرسلان بن سلجوق وجماعته فتوجهوا إلى المفازة والرمل ولكن محمود الغزنوى تمكن من أسر أرسلان وسجنه فى قلعة كالنجار من أعمال ملتان وإنتهت أخباره بعد ذلك ، وسمح محمود الغزنوى لعشيرة أرسلان بالإقامة فى خراسان ، ولكن لم يطل

بهم المقام هناك وأغاروا على أذربيجان والعراق ودخلوها وعرفوا بالغز العراقيين ، أما باقى الغز فأقاموا ببلاد ما وراء النهر تحت زعامة طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق .

وعندما رفض مسعود الغزنوى إجابة السلاجقة على مطالبهم بتخصيص أرض يقيمون بها نشبت الحرب بينهما ، وانتصر السلاجقة على الغزنويين عدة انتصارات كان من أهمها موقعة دندانقان عند مدخل مدينة سرخس فى رمضان سنة ٤٣١هـ ، وبعدها استولى طغرلبك على نيسابور وأقيمت له الخطبة على منابرها وفى السنة التالية مد السلاجقة نفوذهم على هراة وبلخ وخراسان ، وفى سنة ٤٣٣هـ استولوا على طبرستان وجرجان وأقيمت الخطبة بها لطغرلبك ، وفى السنة التالية استولى من الغزنويين على خرازم ، وفى سنة ٤٤٠هـ استولى السلاجقة على اذربيجان وأرمينية والموصل ، وفى سنة ٤٤٢ هـ دخلوا أصبهان وفتحوا بلاد فارس واستسلم سكانها من الديلم فانتهى بها حكم بنى بويه ، وتوجت الخلافة العباسية انتصارات السلاجقة بتولية طغرلبك جميع البلاد التى دخلها كما أنعم عليها الخليفة القائم بأمر الله بالألقاب والخلع " الهدايا والمنح " .

وكان الغز العراقيون يغيرون فى الوقت نفسه على أقاليم من أذربيجان والعراق التى كان يحكمها بنى بويه ، وبنو عقيل ، وكان بنو بويه يعانون من الضعف والتفكك وفى الوقت نفسه ظلوا على معاملة الخلفاء العباسيين بسوء وازدراء ، وأمام هذه الظروف مجتمعة دعا الخليفة العباسى القائم بأمر الله سنة ٤٤٦ هـ طغرلبك لانقاذ الموقف ، وفى السنة التالية ٤٤٧ هـ تقدم طغرلبك حتى وصل إلى مشارف بغداد ، فأعلن الملك الرحيم سلطان بنى بويه الأخير ولاءه لطغرلبك ودعاه لدخول بغداد ، .

وأمر الخليفة العباسي بأن يدعى على المنابر لطغرلبك وذلك فى اخر رمضان سنة ٤٤٧ هـ ، وفى رواية أخرى فى ٢٢ من المحرم سنة ٤٤٨ هـ ، وقبض طغرلبك على الملك الرحيم وحبسه حتى الموت ، كما نزع اقطاعات البويهيين ، وقضى على ماتبقى لهم من نفوذ ، أما الأتراك فخرجوا من بغداد بعد أن فقدوا حليفهم وشريكهم بنى بويه ، وإمعانا فى توثيق علاقته بالخليفة زوج طغرلبك الخليفة القائم من إبنة أخيه داود ، فلقبه الخليفة بركن الدين ، كما أنعم عليه سنة ٤٤٩ هـ بلقب ملك المشرق والمغرب ، ودانت له جميع بلدان العراق بالولاء والطاعة .

من جهة أخرى قام طغرلبك بالقضاء على ثورة قام بها البساسيرى سنة ٤٥٢ هـ ضد الخلافة العباسية ، وأبو الحارث البساسيرى غلام تركى من مماليك بهاء الدولة البويهى ، وطمع فى إزالة الخلافة العباسية ، فكتب إلى الخليفة الفاطمى المستنصر بالله بمصر بذلك معلنا طاعته له ورغبته فى إقامة الخطبة له ببغداد وتلقى منه المساعدات المادية والمعنوية العديدة واستغل البساسيرى خروج طغرلبك من بغداد لإخماد ثورة قام بها إبراهيم بن اينال بهمذان فأعلن خروجه على طاعة الخليفة العباسى القائم ودخل بغداد فى ذى القعدة سنة ٤٥٠ هـ حاملا الرايات المستنصرية الفاطمية وقبض على الخليفة العباسى وقتل وزيره ابن مسلمة وحول الخطبة بإسم الخليفة الفاطمى العلوى ودعا إلى التشيع واستمرت ثورة البساسيرى سنه كاملة ، وعندما عاد طغرلبك إلى بغداد فى ذى القعدة ٤٥١ هـ هرب البساسيرى منها وتمكنت قوات السلاجقة من قتله فى أوائل سنة ٤٥٢ هـ لتنتهى ثورته تماما ويعود الهدوء إلى بغداد .

ولم تخضع العراق وحدها لحكم السلاجقة ونفوذهم وإنما دانت لهم معظم أقاليم آسيا الصغرى " تركيا الحالية " والشام وفارس وأجزاء من الجزيرة العربية، وامتدت حدود دولتهم شرقا حتى نهر سيحون ، وخضعت هذه الدولة الواسعة فى أول عهدها لسلطان واحد هو طغرلبك ، ولعدد من خلفائه من بعده عرف عهدهم فى كتب التاريخ بعهد السلاطين العظام ، وكانوا بطبيعة الحال يدينون بالمذهب السنى ويدافعون عنه ، ويعترفون بالولاء والطاعة للخليفة العباسى حتى أنهم أطلقوا على أنفسهم إسم " موالى أمير المؤمنين " ، وكانوا يعتبرون نظام الخلافة رمزا لوحدة المسلمين وكيانا يجب الحفاظ عليه وحمايته وقد امتد حكمهم فيما بين سنتى ٤٢٩ – ٥٥٢ هـ .

وأعقب عهد السلاطين العظام عهد تفرعت فيه دولة السلاجقة إلى فروع وأسرات اقتسمت بلدان الخلافة العباسية فى ذلك الوقت ، ويمكن حصر فروع دولة السلاجقة فى أربعه هى :

(١) سلاجقة العراق وكردستان (٥١١ – ٥٩٠ هـ) .
(٢) سلاجقة كرمان (٤٣٣ – ٥٨٣ هـ) .
(٣) سلاجقة الشام (٤٨٧ – ٥١١ هـ) .
(٤) سلاجقة الروم (٤٧٠ – ٧٠٠ هـ) .

وعلى الرغم من تعدد أسرات السلاجقة وانتشارها فى عدة أقاليم من الدولة العباسية ، فإن جميع حكامها من سلاطين ووزراء وأمراء كانوا يحترمون الخلافة العباسية ، ويقدرون الخليفة باعتباره رمزا لرأس الدولة ، وخليفة لرسول الله عليه الصلاة والسلام تجب طاعته ويلزم احترامه .

وقد رأينا مظاهر هذا الإحترام والتقدير من زعيم السلاجقة طغرلبك الذى كان كثير التودد للخليفة القائم ، وتصف المصادر التاريخية مشهد استقبال الخليفة العباسى له عند دخوله بغداد ، ومظاهر احترام طغرلبك له حتى أنه قبل الأرض بين يديه ؛ وصافحه مرتين ، ووضع يده على عينيه ، وألح على الخليفة فى قبول تشريفه وأسرة السلاجقة بقبول الزواج من ابنة أخيه داود ، وتفيض الروايات التاريخية فى وصف الهدايا والأموال التى قدمها طغرلبك لدار الخلافة ، وقد سار جميع حكام السلاجقة على نفس السياسة تجاه الخلافة العباسية كما تكررت مصاهرتهم لبعض خلفاء العصر الرابع ولكنهم فى الوقت نفسه حرصوا على ألا تزيد سلطة الخليفة عن الأمور والمظاهر الدينية والروحية كالدعاء باسمه فى خطبة الجمعة والعيدين ونقش اسمه على السكة والطراز والحرص على أن تظل له سلطة التعيين والأنعام بالإقطاعات والألقاب ، أما السلطة السياسية والتنفيذية فإنهم استأثروا بها من دون الخلفاء ، دون اساءة لأشخاص الخلفاء أو كيان الخلافة بعكس ما كان يفعل بنو بويه من قبلهم ، وها هو طغرلبك منذ دخوله بغداد وتفويض الخليفة له بالحكم نراه يجرد الخليفة ووزيره من كل سلطة مدنية أو تنفيذية ، واستبد هو وموظفوه بالسلطة والحكم ليس فى بغداد وحدها ، ولكن فى سائر أقاليم الدولة .

وفى عهدى الب ارسلان (٤٥٥ – ٤٦٥ هـ) وملكشاه (٤٦٥ – ٤٨٥ هـ) حاول الخليفة العباسى المقتدى بأمر الله مقاومة هذه السياسة ، واستعادة بعض سلطاته ولكن لم يمكنه الوزير السلجوقى نظام الملك من ذلك اعمالا لسياسة استئثار السلاجقة بالسلطة .

واستغل بعض الخلفاء العباسيين النزاع الذى نشب بين أفراد الأسرة السلجوقية فى أعقاب وفاة ملكشاة سنة ٤٨٥ هـ ، وحاولوا استعادة بعض سلطانهم، لكن هذا تطلب منهم التضحية بالانضمام إلى أحد الفريقين المتنازعين ضد الفريق الآخر ، كما حدث عندما انحاز الخليفة المقتدى إلى جانب محمود بن ملكشاه ضد أخيه الأكبر بركياروق ، وإن كان الخليفة قد دفع حياته ثمنا لهذا الانحياز ، اذ تآمر الأخ الأكبر بعد انتصاره لقتل الخليفة ، ولكن الخليفة العباسي المسترشد نجح سنة ٥٢٩ هـ فى الضغط على السلطان مسعود ليتخلى عن حكم بغداد وما حولها ، فأصبحت للخليفة الكلمة العليا عليها من دون السلاجقة .

كما نجح الخليفة المقتضى بأمر الله فى الاستقلال بحكم العراق سنة ٥٥٢ هـ فكان أول خليفة ينتزع حكمها من السلاجقة ، وأدى نجاحه إلى ازدياد قوة الخلفاء من بعده حتى أن سلاطين السلاجقة أصبحوا لايقيمون ببغداد وإنما فى همذان .

واذا تركنا الملامح السياسية للعصر السلجوقى مؤقتا ، لنتعرف على الملامح الحضارية للدولة العباسية خلاله ، وجدنا السلاجقة يصنعون كثيرا من النظم التى قدر لها أن تسود وتنتشر فى سائر أقاليم الدولة العباسية ، فقد وضع الوزير السلجوقى الشهير نظام الملك - الذى تولى الوزارة لكل من السلطان ألب أرسلان ، وملكشاه - وضع أساس نظام الاقطاع الإسلامى عندما ابتدع سنة ٤٨٠ هـ نظام الاقطاع الحربى ، مما جعل الاقطاعات وراثية ، وبالتالى أدى إلى نشأة الدويلات المستقلة استقلالا ذاتيا يدين بالولاء للسلطة السلجوقيه ، ويعترف فى الوقت نفسه بسيادة الخلافة العباسية واحترامها .

كما يعود إلى الوزير نظام الملك فضل اصلاح التقويم الفارسي ، ووضع أصول تقويم جديد عرف بالتقويم الجلالي نسبة إلى جلال الدين ملكشاه ، كما أنه أولى اهتمامه لاصلاح الأراضي الزراعية وحفر القنوات اللازمة للري ، وإليه يعود فضل الأمان الذي وفره لطرق القوافل بين بلدان الدولة ، كما شهد عهد نظام الملك انشاء عدد كبير من المدارس والمساجد والأربطة وقد عرف عن نظام الملك دعوته العلماء وكبار المدرسين للتدريس بالمدرسة النظامية ببغداد كالامام الغزالي الذي دعاه للتدريس بها سنه ٤٨٤هـ ، وكانت المدرسة النظامية من أكبر المدارس التي أنشئت في عهده لتقوم بمهمة نشر علوم المذهب السني مع توفير كافة متطلباتها ، ليس في بغداد وحدها ولكن في نيسابور والبصرة وأصفهان وبلخ وهراه وغيرها ، بل أن المدارس السلجوقية أصبحت نموذجا لانشاء المدارس في سوريا ومصر وآسيا الصغرى وغيرها ، ويعود حرص سلاطين السلاجقة علي نشر المذهب السني إلي خلافهم المذهبي مع الفاطميين العلويين الذين كانوا يحكمون المغرب ومصر والشام ، وربما كان عداء السلاجقة للبويهيين أيضا وحرصهم علي ازالة دولتهم ، بدافع غيرتهم علي المذهب السني لما هو معروف من تشيع البويهيين أو تعاطفهم علي الأقل مع العلويين . .

ويتصل بهذا الحماس للمذهب السني تقدم السلاجقة علي رأس جيوشهم لفتح أقاليم من آسيا الصغرى معقل الدولة البيزنطية وانتصاراتهم عليها أكثر من مرة كما في اخلاط غربي آسيا الصغرى سنه ٤٦٣هـ عند ماتم أسر الإمبراطور البيزنطي " ديوجينس رومانوس " وتعرض للقتل على يد أحد غلمان السلاجقة ، وكان الإمبراطور يتوقع قتله أمام السلطان الب أرسلان عندما أحضر إليه ، ولكن السلطان بسماحته عفا

عنه ، وقبل فداءه بمبلغ كبير فضلا عن اطلاق أسرى المسلمين ، كما منحه السلطان ألب أرسلان خمسة عشر ألف دينار يستعين بها على السفر عائدا إلى بلاده ....

وبالإضافة إلى ماسبق ذكره شهد عصر السلاجقة عدة أحداث سياسية وتاريخية هامة ، فقد كلف سلاطين السلاجقة أتباعهم بحكم الولايات العباسية ونجح بعضهم في الإحتفاظ بحكم هذه الولايات أو معظمها له ولأبناء أسرته من بعده ، وعرف هؤلاء الأتباع المؤسسين لحكم أسرتهم " بالأتابكة " وعرفت كل ولاية من ولاياتهم " بالأتابكية " وكلمة " أتابك " تتكون من مقطعين تركيين هما " آطا " أو " أتا " بمعنى الأب " وبك " بمعنى الأمير فالكلمة تعني الوالد الأمير ، أو الأب الأمير ، أو الوصي ، حيث كانت مهمة الأتابك في المجتمع التركماني القديم الوصاية على أولاد السلطان أو الأمير وتربيتهم ، واقتصرت هذه الوظيفة على الأمراء الترك غالبا ، فقد كلف السلطان ملكشاه وزيره نظام الملك بتدبير المملكة ولقبه بعدة ألقاب كان من بينها " أتابك " ، كما كان كمشتكين أتابكا لبركيارق أي مربيا له ، وكان تقليد أن يعهد بالأبناء إلى وصي أو أكثر لتربيتهم (أتابكة) عادة متبعة لدى السلاطين السلاجقة وغيرهم من أبناء الأسرة السلجوقية ، وتبعا لهذه العادة كان السلاطين يشركون الأتابكة مع أبنائهم في حكم الأقاليم المختلفة ليكونوا عونا لهم من جهة ، وعينا رقيبة عليهم من جهة أخرى لإبلاغ السلطان بأي ثورة أو خروج أو استقلال يقوم به الحاكم ضد السلطان السلجوقي .

وكان من نتائج شيوع هذا النظام أن كثيرا من الأتابكة تولوا حكم الأقاليم والمدن في عصر السلاجقة ، بل أن بعضهم أعلن استقلاله بما يحكمه وما يضمه إليه من أتابكيات أخرى ، ومن أشهر الأتابكة الذين حكموا خلال عهد السلاجقة الزنكيون

في الموصل والشام ، وبنوبكتكين في اربل ، وأتابكة يزد ، وغيرهم ، ولما ورث الأتابكة السلاجقة في حكم كثير من الأقاليم والمدن فإنهم ورثوا بالتبعية التصدى للخطر الصليبي الذى داهم بلاد الشام في اواخر القرن الخامس الهجرى (١١م) وأسس له أربع امارات صليبية بالرها وانطاكية وطرابلس وبيت المقدس ، فقد تصدت اتابكية الموصل وحلب الزنكية للخطر الصليبي وأنزلت أول هزيمة به بطرده من امارة الرها على يد عماد الدين زنكى .

كما عاصر عهد السلاجقة سقوط الخلافة الفاطمية بمصر سنة ٥٦٧ هـ وقيام دولة الأيوبيين بها وعودة المذهب السنى - مذهب الخلافة العباسية - إلى مصر ، مما يعنى انتصار المذهب السنى على المذهب الشيعى فضلا عن أهمية عودة مصر إلى التبعية الاسمية للخلافة العباسية التى كان السلاجقة يحكمون باسمها ويدافعون عنها ، ~~ويعتبر الأيوبيون الذين تصدوا للخطر الصليبي على طول تاريخهم امتدادا للسلاجقة~~ لأنهم أى الأيوبيون كانوا امتدادا للدولة النورية التى ورثت الأتابكية الزنكية بالموصل وحلب ، حيث كان صلاح الدين ممثلا لسيده نور الدين محمود بن زنكى فى مصر قبل أن تأتيه التفويضات من الخلافة العباسية بحكم الديار المصرية والشامية ، كما ورث سلاطين المماليك عن سادتهم الأيوبيين عبء مواجهة بقايا الخطر الصليبي بالشام وتمكنوا من تطهيرها منه ، كما حافظ المماليك على كيان الخلافة العباسية عندما أحياها السلطان الظاهر بيبرس بمصر سنة ٦٥٨ هـ بعد عامين فقط من سقوطها فى بغداد على أيدى المغول ، وكأنه بهذا يستكمل جهود السلاجقة لحماية الخلافة العباسية.

وآخر ما نذكره عن دولة السلاجقة أن نهايتها كانت على أيدى دولة خوارزمشاه التى أنهت حكم السلاجقة فى إيران أولا سنة ٥٩٢ هـ ثم هزمت الغوريين

سنة ٦٠١ هـ ودولة الخطا سنة ٦٠٦ هـ ، وأمراء غزنة سنة ٦١١ هـ وبهذا أصبحت دولة خوارزمشاه تضم خوارزم وخراسان وبخارى وسمرقند وأورتار .

وعندما دب الشقاق والنزاع بين دولة خوارزمشاه والخلافه العباسية فى عهد الخليفةالناصر بسبب رغبته فى استعادة السلطة والسيادة للخلافة من السلاجقة، وتصدى خوارزم شاه لمحاولات الخليفة بعزله عن الخلافة ، واستعد لدخول بغداد للمبايعة بالخلافة لخليفة علوى ، ولكن حلول فصل الشتاء من جهة ومداهمة المغول لدولة خوارزمشاه من جهة أخرى لم يمكناه من تنفيذ خطته ، فقد توترت العلاقات بين خوارزمشاه وجنكيزخان ، فتحرك الأخير بقواته فاستولت على بخارى سنة ٦١٦ هـ فهرب خوارزمشاه إلى همذان وتوفى بها سنة ٦١٧ هـ ، فورثه فى الحكم والتصدى للمغول ابنه جلال الدين ، وتقدمت جيوش المغول ففتحت خوارزم وخراسان وخربتهما ، وبينما عاد جنكيزخان إلى بلاده ليلقى مصرعه سنة ٦٢٤ هـ واصلت جيوشه زحفها حتى بلغت سامراً ، ثم وجه هولاكو قائد المغول الجديد جيوشه إلى إيران ، فاستولى عليها واقترب من بغداد عاصمة الخلافة العباسية التى كانت تئن من ضعف الخلافه والخلفاء وتنازع الخليفه المستعصم مع وزيره الشيعى ابن العلقمى وضياع حكم السلاجقة الأقوياء ، ومن النزاع بين الشيعة والسنة ، فأصبحت فريسة سهلة أمام المغول كما يقول بعض المؤرخين .

وعلى الرغم من تصدى جند الخليفة العباسى بقيادة أيبك الدوادار للمغول وانتصاره عليهم فى أول الأمر ، إلا أن الدائرة دارت على العباسيين فقتل أيبك وأسر الأمراء والقواد ، ودخل هولاكو بغداد فى العاشر من المحرم سنة ٦٥٦ هـ وقتل الخليفة المستعصم ومن كان معه من رجاله ، وخربت بغداد ودمرت مبانيها ونهبت

كنوزها ومتاجرها لعدة أيام ، وبلغ عدد الموتى أكثر من مليون ونصف ، وبعد تخريب بغداد اجتاحت جيوش المغول بقية مدن العراق ، كما دخلت أقاليم من آسيا الصغرى والشام ، وعندما تقدم المغول تجاه مصر ردتهم جيوش المماليك بقيادة قطز وانتصرت على المغول عند عين جالوت بالقرب من نابلس بالشام في منتصف رمضان سنة ٦٥٨ هـ وبهذا كتبت النجاة لمصر وما يليها من بلدان من هجمة المغول البربرية الشرسة وعادت جيوشهم من الشام إلى إيران حيث أسسوا أول دولة لهم بإيران وهي " الدولة الايلخانية " .

أما عن حضارة الدولة العباسية خلال عصر السلاجقة فيمكن القول أن جهود السلاجقة في المجالات والأنشطة الحضارية المختلفة جعلت بعض المؤرخين يصف هذه الحضارة بالحضارة السلجوقية ، فقد نشأت فنون اسلامية ارتبطت بهم شاعت فيها التأثيرات الفارسية الموروثة ، والتأثيرات التركية الوافدة إلى جانب بعض التأثيرات الصينية نتيجة نشاط التبادل التجاري بين دولتهم والصين ، وظهر هذا في فنون الزخرفة والتصوير ، وفي صناعات الخزف والنسيج والمعادن وغيرها ، وقدر لهذه التأثيرات أن تنتشر في سائر العالم الإسلامي .

ويعد استخدام الخط النسخ بصوره المختلفة أحد المعالم المميزة للفنون الإسلامية في العصر السلجوقي ، وكان الخط الكوفي هو الشائع بصوره المختلفة قبل ذلك العهد ، ويفسر بعض علماء الفنون الإسلامية هذا التطور أو التغيير بأنه رد على شيوع استخدام الخط الكوفي لدى الفاطميين ، حتى أن بعض الباحثين أطلق عليه اسم (الخط القرمطي) نسبة إلى القرامطه الذين انتسبوا إلى الشيعة العلويين .

الدويــــلات المستقـــــلة

فى العصر العباسى

دراسة للظاهرة

مع التمثيل بتاريخ

بعض الدويلات

ظاهرة الدويلات المستقلة

سبقت الإشارة إلى أن ظاهرة الدويلات المستقلة لم تظهر إلا فى عهد الخلافة العباسية ، وبالتحديد منذ أواخر القرن الثانى الهجـــرى ، ونعنـى بذلـك الدويـلات التـى كانت تحكمها أسرات معينة ، ومـع استقلالها الذاتى ــ تدين بـالولاء والطاعـة للخلافـة العباسية ، وتلتزم بسياستها ، وتكتسب شرعية قيامها ، وتوريث الحكم فـى أبنائهـا وأفراد أسرتها من رضى الخلافة عنها ، وموافقتها على قيامها .

فقد تكونت أولى هذه الدويلات فى ولاية أفريقية " تونس الحالية " عندما أقطـع هارون الرشيد سنة ١٨٤هـ الأمير إبراهيم بن الأغلب ولاية أفريقيـة ليتولى حكمهـا ثـم توارث الحكم فيها أبناؤه وأفراد أسرته من بعده بموافقة الخلافة ، وعمرت هناك حتـى اجتاحها الفاطميون سنة ٢٩٦ هـ .

وشهد القرن الثالث الهجرى (٩م) ظهور أكبر عدد من هذه الدويـلات فـى أكثر من ولاية من ولايات الدولة العباسية ، وتفاوتت فـترات استمرار حكـم الأسـرات الحاكمـة فـى هذه الدويـلات ، فبعضهـا لـم يعمـر أكـثر مـن ثلاثيـن أو أربعيـن سـنة كالطولونيين فى مصر (٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ) ، وبعضهـا الآخر امتد به الحكم لأكثر من قرن كالدولة السامانية فى بلاد ما وراء النهر (٢٢٦ ـ ٣٨٩هـ) أو لأكثر مـن قرنيـن كالدولـــة الغزنوية بغزنـــة (٣٦٦ ــ ٥٧٩هـ) (انظر الحصر السابق ذكره بأسماء الدويلات التابعة للخلافة العباسية ، والدويلات المعارضة لها فى مقدمة دراسة العصـر العباسى الثانى).

وكما أشرنا من قبل اختلفت آراء المؤرخين فى تقييم ظاهرة الدويلات المستقلة استقلالا يعترف بالولاء والتبعية للخلافة العباسية .

فمنهم من يقول بأنها ظهرت نتيجة لضعف الخلافة العباسية ، وأنها كانت من بين أسباب ضعفها أيضا باعتبارها من وجهة نظر هذا الفريق ــ تمثل تجزءا كيان الدولة لم يكن ليظهر إلا لضعفها ، كما أن ظهورها وتعددها أدى إلى تفكك كيان الدولة وضعفه .

أما الفريق الآخر من المؤرخين فيرد على ذلك بأن الخلافة العباسية لم تكن ضعيفة في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، بل على العكس كانت من القوة والمنعة لدرجة أنها كانت تبارك وتؤيد قيام هذه الدويلات شرقا وغربا من مركز قوة ، بدليل حرص حكام هذه الدويلات على الحصول على موافقة الخليفة وتفويضه ، بل أن الخلافة نفسها أقامت ــ لمصالحها السياسية والأمنية إحدى هذه الدويلات ــ وهي دولة الأغالبة بإفريقية (١٨٤ ــ ٢٩٦ هـ) لتكون حائلا وسدا بين حدودها وبين دولة الأدارسة الشيعية المعادية التي قامت إلى الغرب منها في المغرب الأقصى (١٧٢ ــ ٣٧٥ هـ) كأول تجسيد للكيان العلوي في شكل دولة صغيرة كانت تطمع في بسط نفوذها على بقية أقاليم الشمال الأفريقي الخاضعة للخلافة العباسية ، ولكنها لم تستطع وظلت حبيسة المغرب الأقصى بفضل هذا السد القوي الذي أقامته الخلافة العباسية على حدودها الغربية يمنع الأدارسة من أي توسع ــ الأمر الذي يشهد على قوة الخلافة وليس على ضعفها .

ولكن عندما ضعفت الخلافة العباسية في أواخر القرن الرابع الهجري تمكن الكيان العلوي من النمو والتوسع ، وضم بلدان الشمال الإفريقي إليه ، كما حدث على أيدي دولة الفاطميين الشيعية التي قامت بالمغرب سنة ٢٩٦ هـ ، ولم تستطع الخلافة العباسية التدخل لوقف توسع الفاطميين الشيعية التي قامت بالمغرب ، كما أنها عجزت عن ردهم عن مصر عندما دخلتها جيوشهم بقيادة جوهر الصقلي سنة ٣٥٨ هـ

ونجحت فى إقامة خلافة شيعية بمصر معادية للخلافة العباسية . وتخضع لها بلدان الشمال الإفريقى ومصر ثم تنجح بعد ذلك فى ضم بلاد الشام والجزيرة العربية إليها .

كما يدلل أصحاب الرأى القائل بأن ظهور الدويلات المستقلة فى القرن الثانى والثالث الهجريين لم يكن وليد ضعف الخلافة . بأن الخلافة العباسية عندما رأت تداعى الأحوال بمصر فى أواخر عهد الدولة الطولونية نتيجة ضعف الطولونيين ، وعدم توافر شخصيات قوية كشخصية المؤسس أحمد بن طولون ، أو ابنه خمارويه تدخلت الخلافة بكل قوتها بجيش أتى من الأعمال بما لاتفعله جيوش الروم ، كما وصفه بذلك المؤرخ أبو المحاسن فى كتابه النجوم الزاهرة ، واستطاع بقوته هذه الإجهاز على الدولة الطولونية ، وإعادة مصر مرة آخرى " ولاية " كما كانت قبل تأسيس الدولة الطولونية ، فلو أن الخلافة العباسية ضعيفة فى ذلك الوقت (آخر القرن الثالث الهجرى) ما استطاعت القيام بهذا العمل ، بعكس حالها فى منتصف القرن الرابع الهجرى عندما عجزت عن صد الجيش الفاطمى الذى هاجم مصر ودخلها من جهة الغرب سنة ٣٥٨ هـ وعلى رأسه جوهر الصقلى ..

ويضيف أصحاب هذا الرأى إلى ذلك قولهم أنه بمقارنة أحوال البلدان التى قامت بها أسرات حاكمة ، بتلك التى لم تقم بها يتضح تميز الأولى عن الثانية بالاستقرار السياسى الذى حققه استقرار الحكم فى أسرة بعينها لعدة سنوات ، وكذا بالرخاء الاقتصادى ، والازدهار الحضارى ، وذلك لما كان يبذله مؤسسو هذه الدول وخلفاؤهم فى معظم الأحيان من جهود للارتقاء بدولهم، بل ومنافسة دار الخلافة أحيانا بما تضمه دولهم من أنظمة مستقرة ناجحة ، وما تشعه من مظاهر حضارية متنوعة فى الإقتصاد والعلوم والآداب والفنون والإنشاء والتعمير وغير ذلك من مظاهر التحضر والقوة .

دراسة لتاريخ بعض الدويلات المستقلة
التى قامت فى عهد الدولة العباسية

==============

قامت كما ذكرنا عدة دويلات مستقلة فى شرق الدولة العباسية وفى غربها على السواء ، ويعود أقدمها إلى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ، بينما يعود تاريخ ظهور معظمها إلى القرن الثالث الهجرى ، وكما ذكرنا أيضا ــ كان معظمها مع استقلاله تابع للخلافة العباسية يلتزم بسياستها ويحرص على الحصول منها على تفويض بالحكم سواء للمؤسس أو لورثته من أبناء أسرته ...

ولكن بعض الدويلات المستقلة قام معارضا للخلافة العباسية بل ومعاديا لها سياسيا ومذهبيا .

ونتعرف فيما يلى على أمثلة من هذه الدويلات وتلك ، حيث سنختار دولة من غرب الدولة وهى دولة الأغالبة ، وأخرى من شرق الدولة وهى الدولة الصفارية ، وثالثة قامت بمصر وهى الدولة الطولونية ، أما الرابعة فمن الدويلات المستقلة المعادية فى الوقت نفسه للخلافة العباسية وهى دولة الأدارسة .

أولا :- دولة الأغالبة ١٨٤ - ٢٩٦ هـ

حرصت الخلافة العباسية على إقامة دولة الأغالبة سنة ١٨٤ هـ بولاية أفريقية " تونس الحالية " لتأديب البربر من جهة ، ولتكون حائلا دون تقدم دولة الأدارسة العلوية المعادية للخلافة العباسية ، والتى كانت قد قامت بالمغرب الأقصى " المغرب وموريتانيا حاليا " سنة ١٧٣ هـ ، حيث كانت سياسة العلويين - بعد نجاحهم فى إقامة أول تجسيد لكيانهم فى هذه الدويلة - ترمى إلى التوسع بضم بلدان الشمال الإفريقى وما يليها إلى حوزتها ، فأقطع مسافة هارون الرشيد إبراهيم بن الأغلب - الذى كان حاكما على بعض مناطق نهر الزاب بالعراق - أقطعه ولاية أفريقية فى شهر المحرم سنة ١٨٤ هـ ، فضبط أمورها ، وبنى سنة ١٨٥هـ مدينة جديدة أسماها " العباسية " أو " القصر القديم " قريبا من القيروان ، ونقل إليها أهله ورجاله ، ونجح ابن الأغلب فى التغلب على المشاكل التى واجهته كثورة الثائر العربى حمديس سنة ١٨٦ هـ ، وثورة أهل طرابلس ضد حكم الأغالبة سنة ١٨٩ هـ ، وثورة قبيلة هواره ودخلوهم طرابلس وهدمهم أسوارها..

وعندما فكر إبراهيم بن الأغلب فى التصدى لنفوذ زعيم دولة الأدارسة نصحه أصحابه بالعدول عن ذلك طالما لم يتعرض له الأدارسة بسوء ، كما أن إدريس نفسه أرسل إليه مستعطفا طالبا وقف العداء بينهما فعمل بذلك .

وبعد وفاة إبراهيم بن الأغلب سنة ١٩٦ هـ ولى الحكم - ابنه أبو العباس عبد الله الأول (١٩٦ - ٢٠١ هـ) ، ووافق الخليفة العباسى المأمون على ذلك سنة ١٩٨ هـ ، وبقى فى الحكم خمس سنوات وشهرين أساء فيها الحكم حتى أن الناس كانوا يتمنون الخلاص منه .

وبعد وفاتـــه سنـــة ٢٠١ هـ خلفـــه فى حكم إفريقية أخوه زيادة اللـه الأول (٢٠١ - ٢٢٣ هـ) وكان كأخيه ميـالا للظلم والجور ، فقامت فى عهـده الطويـل عدة ثورات ضده ، كثورة زياد بن سهل المعروف بـابن الصقلبيـة والتـى انتصـرت عليهـا جيوش زيادة الله ، وثورة منصـور ابن نصير الطنبذى بتونس ، ولـم تسـتطع جيـوش زيادة الله الانتصار عليها مما جعل الأمور تضطـرب فـى أفريقيـة ، كمـا تمكـن زعيـم الثورة منصور بن نصير من محاصرة القيروان ، ولكن هزمته جيوش زيادة الله سنة ٢٠٨ هـ ، ثم كرر منصور حصاره للقيروان واستيـلاءه على بعض المدن حتى أنه لم يبق لزيادة الله بن الاغلـب سـوى قـابس والسـاحل ونفـزاوة طرابلـس ، وكـادت دولـة الاغالبة تسقـط لولا حدوث نزاع بين قائـد الثـورة وقـائد قواتـة انتهـى بمقتـل الاثنيـن سنة ٢١٣ هـ فاطمـأن زيادة الله من هذة الناحية .

من جهة أخرى شهد عهد زيادة اللـه فتح جزيـرة صقليـة سنـة ٢١٢ هـ التـى يعود اهتمام المسلمين بفتحها الى عهد معاويـة بن ابى سفيان واستمرت المعارك بيـن الجيـوش الأغلبيـة وجيـوش الـروم حـول الجزيـرة وداخلهـا عـدة سـنوات فاسـتولى الأغالبـــة على بعض مدنهـــا كحصن مينـــاو ، وجريجند ، وبالرم وسرقوسة . ولم يتمكنوا من الاستيلاء على الجزيرة كلها حتى وفاة زيادة الله الأغلبى سنة٢٢٣هـ .

وقـد خلفه أخوه أبو عقال وهو ثالث أبناء مؤسس الدولة الأغلبيـة ابراهيـم بـن الأغلب وكان أحسن حالا من أخويه السابقين عليه فى الحكم ولكن حكمه لم يطل أكـثر من عامين و تسعة أشهر ولـم يشـهد عهـده سـوى تصديـه لثورة بعـض قبـائل البربر وانتصار قوته عليهم .

وبعد وفاته سنة ٢٢٦هـ خلفه إبنه أبو العباس محمد الأول (٢٢٦ ــ ٢٤٢هـ) وهو أطول حكام الأغالبة عهداً فى الحكم وشهدت بداية حكمه اغتصاب أخيه أحمد الحكم منه لمدة عام واحد (٢٣١ ــ ٢٣٢هـ) ثم استرد محمد الحكم منه وتمكن أخيراً من نفيه إلى المشرق حيث توفى بالعراق كما انتصر محمد الأول على ثورة قام بها سالم بن غلبون أمير الزاب لعزله عن ولايته ، وكذا تم له النصر سنة ٢٣٦هـ على ثورة عمر بن سليم التجيبى بتونس .

ثم وجة اهتمامه لاستكمال فتح جزيرة صقلية ، فتمكن قائده االعباس بن الفضل الغزاوى من فتح قصرياتة وقطاينة وسرقوســـة فيما بين سنتي ٢٣٧ ، ٢٤٢ هـ .

وتوفى محمد بن الأغلب سنة ٢٤٢ هـ ليخلفه ابنة أحمد فى الحكم لمدة سبع سنوات (٢٤٢ ــ ٢٤٩ هـ) وقد وصفه المؤرخ ابن عذارى فى " البيان المغرب فى أخبار المغرب " بأنه كان حسن السيرة كريم الأخلاق والأفعال ، ومن أجود الناس وأسمحهم وأرفقهم بالرعية مع دين واجتناب للظلم عن حداثة سنه وقلة عمره " .

وبعد وفاته خلفه أخوه زيادة الله الثاني بن محمد الذى حكم سنة واحدة (٢٤٩-٢٥٠هـ) فتولي بعده ابن أخيه محمد الثانى بن أحمد (٢٥٠-٢٦١هـ ويعرف بلقب " أبو الغرانيق " لاهتمامه بصيد الغرانيق ، ولا يذكر له إلامتابعته لفتح مدن جزيرة صقلية وبخاصة مدينة سرقوسة .

وتوفى أبو الغرانيق سنة ٢٦١ هـ فتولى بعده الحكم من أسرة الأغالبة إبراهيم الثاني ابن أحمد (٢٦١-٢٨٩هـ) وفي عهده تم بناء مدينه رقادة سنه ٢٦٣هـ وفتح مدينه سرقوسة بجزيرة صقلية فتحا كاملا سنة ٢٧٤هـ ، كما شهد عهده خروج العباس بن أحمد بن طولون علي والده وتوجهه إلي أفريقية مدعيا أن الخليفة ولاه حكمها ،

ولكنه عاد بقواته خائبا منهزما أمام جيوش ابراهيم الثاني وإلياس بن منصور صاحب نفوسه وزعيم فرقة الإباضية (إحدى فرق الخوارج الهامة بالشمال الأفريقى) .

وبعد وفاة إبراهيم الثانى فى ذى القعدة سنة ٢٨٩ هـ تولى الحكم ابنه أبو العباس عبد الله بن إبراهيم الثانى لمدة تسعة أشهر فقط لقتله على يد غلمانه ، فتولى من بعده الحكم إبنه زيادة الله الثالث (٢٩٠ ـ ٢٩٦ هـ) وهو آخر حكام أسرة الأغالبة بولاية أفريقية (تونس) إذ نشطت فى عهده أعمال داعية الفاطميين أبى عبد الله الشيعى ، واستولى على كثير من المدن حتى أنه فى سنة ٢٩١ هـ امتد سلطان الفاطميين ونفوذهم ليشمل كل الأقاليم الواقعة إلى الغرب من مدينة القيروان ، كما انحاز كثير من رجاله إلى الشيعيين ومساعدتهم ، ثم توالت الأحداث ليزول أمام النفوذ الفاطمى سلطان بنى مدرار فى سجلماسة ، وبنى رستم فى تاهرت ، وبنى الأغلب فى أفريقية ولتقوم على أشلائها جميعا دولة قوية فتية شيعية هى دولة الفاطميين بالمغرب كله تقريبا سنة ٢٩٦ هـ .

ثانيا : الدولة الصفارية ٢٥٤ - ٢٩٠ هـ

تنسب هذه الدولة إلى مؤسسها " يعقوب بن الليث الصفار " الذى كان يعمل هو وأخوه عمرو بصناعة الصفر " النحاس الأصفر " وعرف عنهما الزهد والورع ، فكان يعقوب أحد زعماء فرقة المطوعة ، وكان فى الوقت نفسه أحد قواد صالح بن النضر الكنانى الذى استولى على سجستان ، ثم استردها منه طاهر ابن عبد الله بن طاهر بن الحسين أمير خراسان وأحد حكامها من أسرة الطاهريين التى حكمت خراسان فى الفترة من سنة ٢٠٥ - ٢٥٩ هـ وكانت تدين بالولاء والطاعة للخلافة العباسية ، وقد جاء قيام دولة الطاهريين بخراسان سنة ٢٠٥ هـ بعد انتصار الخليفة المأمون على أخيه الأمين ووصوله إلى الخلافة سنة ١٩٨ هـ ، وعمرت فى الحكم حتى سنة ٢٥٩ هـ عندما أغار عليها يعقوب بن الليث الصفار - الذى كان يعمل قائدا للجند لدى درهم بن الحسين - وتمكن يعقوب من فرض سلطانه على سجستان وهراة وبوشيخ وغيرها من بلدان خراسان استغلالا لضعف الطاهريين فى عهد آخر حكامهم محمد بن طاهر ، ثم استولى يعقوب بن الليث على نيسابور سنة ٢٥٩هـ . حاضرة الدولة الطاهرية ، ثم حارب الترك على حدود سجستان ، فدانت له بالطاعة ممالك الملتان والرخج والطبين وزابلستان والسند ومكران وطبرستان وغيرها .

وقد خشيت الخلافة العباسية - فى عهد الخليفة المعتمد - بأس يعقوب وقوته ى تهدد قوة الخلافة وأراضيها المتاخمة للأراضى التى بسط سلطانه عليها ، فقام ليفة بإصدار كتاب يلعن فيه يعقوب وأرسله إلى سائر البلدان ، فما كان من يعقوب ن سار إلى الأهواز قاصدا بغداد ، وأرسل إلى الخليفة يطلب توليته خراسان وبلاد ، وغيرهما من المناطق التى كانت تحكمها دولة الطاهريين ، وأن يصدر الخليفة يطل به ما جاء من لعنه بكتابه الأول ، واضطرت الخلافة إلى الإذعان ليعقوب

وإجابته إلى ما طلبه ، ولكن أطماع يعقوب لم تنته ، فقصد بغداد نفسها ، ولكن جيش الخلافة انتصر عليه عند واسط سنة ٢٦٢هـ ومع هذا ضم إلى قبضته جند يسابور والأهواز ، ثم حالت وفاته سنة ٢٦٥هـ دون بسط نفوذه لأكثر من هذا .

وبعد وفاة يعقوب بن الليث الصفار أقرت الخلافة العباسية تولية أخيه عمرو بن الليث الصفار على خراسان وفارس وأصبهان وسجستان والسند وكرمان والشرطة ببغداد ، وأناب عمرو بن الليث عنه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر في شرطة بغداد وسامرا ، وتولى هو حكم الأقاليم الأخرى التي كانت من قبل بيد أخيه يعقوب ، وظلت الدولة الصفارية تدين بولاء اسمي للخلافة العباسية ، غير أنه في سنة ٢٧٤هـ ساءت العلاقة بين عمرو بن الليث والخليفة العباسي المعتمد الذي عزل عمرو عن البلاد التي كان قد ولاه عليها من قبل ، وولاها لمحمد بن طاهر ابن الحسين ، وآثر الأخير البقاء بحاضرة الخلافة ، وأناب رافع بن هرثمة عنه في ولايتها ، كما انتصرت جيوش الخلافة بقيادة الموفق - أخي الخليفة المعتمد على جيش عمرو بن الليث ، ولكن بعد وفاة الخليفة المعتمد وتولية المعتضد الخلافة سنة ٢٧٩هـ عزل رافع بن هرثمة وأعاد عمرو بن الليث إلى الحكم ، فقامت الحرب بين الإثنين وقتل رافع سنة ٢٨٣هـ ، ثم تمادى عمرو في أطماعه فطلب من الخلافة ولاية بلاد ما وراء النهر بالإضافة لما بيده من أقاليم ، فرفض صاحبها إسماعيل بن أحمد الساماني التنازل عنها فقامت الحرب بينهما ، وانهزم عمرو بن الليث ووقع أسيرا في يد إسماعيل الساماني ، وتفرق جيشه ، وانتهى الأمر بقتل عمرو في دار الخلافة بعد التشهير به في شوارع بغداد ومثوله بين يدي الخليفة ...

وآل أمر الدولة الصفارية إلى طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث ـ حفيد عمرو ـ سنة ٢٨٨هـ ، فاستبد بأمر الدولة من دونه "سبك البكرى " غلام جده عمرو بن الليث ، فقبض عليه وعلى أخيه وأرسل بهما إلى بغداد سنة ٢٩٦هـ وتغلب على بلاد فارس ، ثم ساءت علاقة البكرى بالخلافة وامتنع عن إرسال الأموال المقررة على ولايته إلى بيت المال ، فحاربته الخلافة عدة مرات ، ولم تنجح فى القبض عليه ، حتى تمكن أحمد بن اسماعيل السامانى من ذلك ودخول سجستان فى شوال سنة ٢٩٨هـ ، وبذلك سقطت الدولة الصفارية التى كانت تحكم أقاليم واسعة فى شرق الدولة العباسية وتطلع حكامها إلى ضم بغداد نفسها إلى حوزتهم مما أثار الخلافة ضد حكامها ، فضلا عن طمع السامانيين فى دولتهم وانتصارهم عليهم أكثر من مرة حتى قضى عليها نهائيا أحمد بن اسماعيل السامانى .

ثالثا : الدولة الطولونية ٢٥٤ - ٢٩٢ هـ

نجح أحمد بن طولون - التركى الأصل - فى الانفراد بحكم مصر كولاية تابعة للخلافة العباسية ، بعد فترة ثلاث سنوات تقريبا قضاها حاكما لها بالنيابة عن صهريه باكباك ، ويارجوخ اللذين عينتهما الخلافة على مصر واحدا بعد الآخر (٢٥٤ - ٢٥٧ هـ) وفضل الإثنان البقاء بحاضرة الخلافة العباسية فى سامرا - فى ذلك الوقت - على القدوم إلى مصر لحكمها ، فانتدب كل منهما صهره أحمد ابن طولون لحكمها نيابة عنهما - وبعد وفاة الإثنين أطلقت الخلافة يد أحمد بن طولون فى حكم مصر سنة ٢٥٧ هـ لما كان يتمتع به من قوة الشخصية وخبرة الإدارة وحكمة التصرف فضلا عن ولائه الكامل للخلافة العباسية .

وبدأ ابن طولون حكمه لمصر بقضائه على مراكز النفوذ بها من شخصيات قوية كانت تمسك بزمام الأمور ، فقضى على نفوذ أحمد بن المدبر عامل الخراج فى مصر وتولى بنفسه أمور الخراج ، كما تخلص من إسحق بن دينار عامل الإسكندرية ومن أحمد بن عيسى عامل برقة ، ومن بكار بن قتيبة عامل القضاء ، ومن شقير الخادم عامل البريد .

ومن جهة أخرى استغل أحمد بن طولون قيام ثورة عيسى بن الشيخ بالشام - وتكليف الخلافة له بالتصدى لإخمادها - فأعد جيشا لذلك كان نواة لتكوين جيش خاص بدولته ، وهو أول جيش يتكون على أرض مصر الإسلامية ، كما قضى أحمد بن طولون على عدة ثورات قامت ضده بمصر ، كثورة العلوى بغا الصغير فيما بين برقة والإسكندرية سنة ٢٥٥ هـ وثورة العلوى ابن الصوفى التى قام بها بالصعيد سنة ٢٥٦ هـ .

غير أن المشكلة الكبرى التى واجهت أحمد بن طولون تمثلت فى خلافه مع الموفق أخى الخليفة العباسى المعتمد ، حيث كان الموفق يحجر على أخيه الخليفة ، وبدأ يتحرش بأحمد بن طولون طمعا فى أموال دولته الكثيرة ، وبحجة كثرة الأموال التى تحتاجها دار الخلافة لمواجهة خطر الزنج الذين بدأوا يهددون أملاك الخلافة فى العراق والشام منذ سنة ٢٥٤ هـ ، ولما رفض ابن طولون الإستجابة لطلب الموفق بدأ الموفق يكيد لأحمد بن طولون فحاول عزله عن ولاية مصر ، وانتدب " أماجور " عامل الشام منذ سنة ٢٥٧ هـ ليكون واليا على مصر بدلا من ابن طولون ، ولكن الوالى الجديد لم يجرؤ على التقدم تجاه حدود دولة ابن طولون ، فلجأ الموفق إلى استخدام القوة ضد أحمد بن طولون ، واختار " موسى بن بغا " لقيادة جيشه ضد ابن طولون ، ولم يتحرك ابن بغا من الرقة ، ثم ثار عليه جنده ومالبث أن مات سنة ٢٦٤ هـ وبهذا لم يحقق الموفق هدفه فكرر أسلوب تقليص نفوذ أحمد بن طولون فعزله من ولاية الثغور ، ووافقه الخليفة المغلوب على أمره ـ المعتمد ـ على ذلك إلا أنه أعاد ابن طولون مرة آخرى إليها سنة ٢٦٤ هـ بعد ثورة أهلها وسوء أحوالها ثم ما لبث الخليفة أن ولاه إمرة الشام كلها بالإضافة إلى ثغورها .

ولكن الموفق ازداد حنقا على ابن طولون فنجح فى استمالة عامله على الشام لؤلؤ ، فانحاز إليه ضد سيده أحمد بن طولون ، ورد ابن طولون على ذلك بأن كتب إلى الخليفة المعتمد يطلب منه ترك العراق والقدوم إلى مصر ليقيم له الخلافة بها بعيدا عن تسلط الموفق وحجره عليه وهو بهذا الطلب إن تحقق يجرد الموفق من الخليفة سنده الشرعى ، ووجد الخليفة فى هذا الطلب فرصة سانحة تخلصه مما يعانيه ، فخرج بالفعل إلا أن اسحق بن كنداجيق عامل الموصل ورجل الموفق بها تصدى للخليفة ومنعه من إتمام السفر إلى مصر وأعاده مرة أخرى إلى بغداد حيث سلمه إلى رجال

الموفق ، وظل الخلاف محتدما بين ابن طولون والموفق ، وفى الوقت نفسه ظل أحمد بين طولون محتفظا بعلاقته الطيبة مع الخليفة المعتمد ، وبعد ثلاثة عشر عاما من النزاع بين الموفق وابن طولون آثر الطرفان التصالح بعدما تبين لهما خطا التمادى فى النزاع والحرب ، فتم الصلح بينهما سنة ٢٧٠ هـ وباركته الخلافة ومالبث ابن طلون أن اشتد به المرض ومات فى نفس السنة (٢٧٠هـ) .

وترك ابن طولون دولته التى ضمت برقة غربا ومصر والشام بما فيها إمارة الثغور ، كما أنه ترك أموالا ضخمة نعم بها من بعده ابنه خمارويه مما يدل على أنه حقق اقتصادا مزدهرا ومستقرا فى عهده مكنه من بناء جيش كبير ، وإنشاء عاصمة جديدة لمصر هى مدينة القطائع التى بناها إلى الشمال من العاصمتين السابقتين لمصر وهما الفسطاط التى بناها عمرو بن العاص عقب فتحه لمصر سنة ٢٠ هـ والعسكر التى بناها العباسيون بمصر عقب إسقاطهم الدولة الأموية وقتلهم آخر خليفة أموى مروان بن محمد على أرض مصر سنة ١٣٢ هـ .

ويضاف إلى ذلك ماقام به أحمد بن طولون من أعمال إنشائية أخرى كمسجده الضخم الباقى حتى الآن ، والبيمارستان (مستشفى) الكبير الذى أنشأه بالقطائع ،كما يذكر لأحمد بن طولون أنه ضرب بمصر الدنانير الأحمدية [نسبة لاسمه] وكانت تفوق فى قيمتها الشرائية دنانير الخلافة العباسية فى ذلك الوقت ، كما ازدهرت فى عهده الزراعة والصناعة والتجارة مما عاد على أهل مصر بالخير والاستقرار ...

أما خمارويه الذى تولى الحكم بعد أبيه وبموافقة الخلافة على استمرار حكمه فقد امتد حكمه من سنة ٢٧١ إلى سنة ٢٨٢ هـ ، وشهد تجدد النزاع بينه وبين الموفق

ومهاجمة رجال الأخير لأملاك خماوريه بالشام ، وحدوث معركة الطواحين بينهما عند نهر أبى فطرس شمالى يافا بين الرملة ودمشق وانتهاء المعركة بهزيمة جيش الموفق سنة ٢٧٢هـ، ثم عقد الصلح بينهما فى مقابل دفع خماوريه مبلغا كبيرا سنويا للموفق .

كما شهد عهد خماروية مصاهرة البيت الطولونى للخلافة العباسية بزواج الخليفة المعتضد من قطر الندى ابنة خماوريه سنة ٢٨١ هـ ، وتفيض كتب التاريخ فى ذكر النفقات الباهظة التى أنفقها خماوريه على زواج ابنته وتجهيزها ، وتصف الروايات التاريخية مكونات جهاز قطر الندى العديدة والمتنوعة والمصنوع معظمها من الذهب والفضة ، كما تشير إلى الاستراحات التى بناها لها والدها خماوريه على طول الطريق من مصر إلى العراق لتستريح بها ، وأنها كانت على غرار القصر الذى نشأت به قطر الندى حتى لاتشعر فى الطريق بأية غربة أو وحشة وبلغ من كثرة ما أنفقه خماوريه على زواج ابنته أن بعض المؤرخين فسر هذه المصاهرة بأنها كانت تهدف لإفقار البيت الطولونى لكثرة ماخلفه أحمد بن طولون من أموال .

وبعد مقتل خمارويه بدمشق فى أواخر سنة ٢٨٢ هـ تولى الحكم ابنه أبو العساكر جيش الذى لم يمكث كثيرا فى الحكم إذ قتله جنده ونهبوا داره فى العام التالى (٢٨٣هـ) فتولى الحكم أخوه هارون بن خماوريه تحت وصاية " أبى جعفر محمد بن أبى " أحد رجال أحمد بن طولون وفى عهدهما ساءت أحوال الدولة الطولونية وانتشرت الفتن والدسائس ومن أهمها ثورة عمه ضده والتى إنتهت بانتصار هارون عليه ثم مالبث شيبان بن أحمد بن طولون أن ثار على هارون وقتله سنة ٢٩٢ هـ وتولى الحكم من بعده .

وهكذا تداعت أحوال الدولة الطولونية وخلا البيت الطولونى من شخصية قوية تتقذه وتأخذ بيد الدولة منذ مقتل خماورية بن أحمد بن طولون ، ووجدت الخلافة العباسية نفسها مضطرة للتدخل فأرسل الخليفة المكتفى بجيش يقوده محمد ابن سليمان الكاتب ، وتزامن معه قدوم أسطول بحرى عباسى من بلاد الشام لمهاجمة مصر والاجهاز على بقية الطولونيين بها .

وكان محمد بن سليمان قد دخل الشام من قبل على رأس جيشه فدانت له بالولاء والطاعة ، وإنضم إليه كبار قادة وجنود الجيش الطولونى وغيرهم من الناقمين على الطولونيين ، وعند العباسة على أطراف الحدود الشرقية لمصر التقت قوات العباسيين مع قوات الطولونيين بمصر ، كما التقى الأسطول المصرى بالأسطول العباسى عند تنيس فانهزم الطولونيون عندها ثم هزموا عند دمياط مرة أخرى ، كما انهزم الطولونيون برا عند العباسة ، فدخلت قوات محمد بن سليمان عاصمة مصر واستسلم جيش الطولونيين فانتقم الجيش العباسى منه ومن غيره من أهل مصر شر انتقام فأحرقت القطائع ، ولم ينج من الحريق سوى جامع أحمد بن طولون ، وعادت مصر مرة أخرى ولاية تابعة للخلافة العباسية من سنة ٢٩٢ هـ حيث غادرها محمد بن سليمان الكاتب ، وعين الخليفة العباسى المكتفى " أبا موسى عيسى بن محمد النوشرى " واليا عليها لتبدأ مرحلة جديدة تمتد من سنة ٢٩٢ هـ وحتى سنة ٣٢٣ هـ وعندها ينجح والي تركى آخر هو " محمد بن طغج الأخشيد " فى تكوين دويلة تحكمها أسرته من بعده عرفت بالدولة الأخشيدية وتعمر فيما بين سنتى ٣٢٣ ، ٣٥٨ هـ ..

رابعا : دولة الأدراسة ١٧٢ ـ ٣٧٥ هـ

كان من نتائج موقعة فخ التى حدثت سنة ١٦٩ هـ بين جيش الخليفة الهادى العباسى وبين العلويين بقيادة الحسين بن على ابن الحسن أن هرب أخوان من كبار العلويين ، وهما يحيى ابن عبد الله بن الحسن الذى ثار فى عهد الرشيد ببلاد الديلم ، وتصدى له الرشيد بسرعة لحرصه على أمن واستقرار الأجزاء الشرقية من الدولة ، والثانى أخوه ادريس بن عبد الله بن الحسن الذى وصل إلى المغرب الأقصى وتمكن من إثارة كثير من قبائل البربر وجمعهم حوله ، كما نجح فى إقامة دولة شيعية بزعامته (١٧٢ ـ ١٧٧ هـ) كانت تمتد من غرب ولاية أفريقية وحتى المحيط الأطلسى (المغرب وموريتانيا حاليا تقريبا) .

وخشيت الخلافة العباسية من قوة هذه الدولة ومن محاولتها بسط نفوذها على بقية بلدان الشمال الأفريقى ، ففكر هارون الرشيد فى إرسال جيش للقضاء عليها ، ولكنه عدل عن ذلك لبعد المسافة من بغداد إلي المغرب الأقصي ، فلجأ إلي أسلوب الحيلة ، والتآمر فأرسل برجل يدعى سليمان بن جرير ويعرف بالشماخ إلى إدريس بن عبد الله ـ مؤسس دولة الادارسة ـ وادعي أنه شيتعى فقربه إدريس إليه ، ولما أصبح محل ثقته دس السم له ورجع هاربا ، وبعد موت إدريس انتظر البربر مولودا له وضعته إحدى جواريه بعد وفاته بشهرين وأسموه إدريس الثانى ونصبوه أميرا عليهم عند بلوغه الحاديه عشرة من عمره (سنه ١٨٨هـ) ويعتبر إدريس الثاني (١٧٧-٢١٣هـ) المؤسس الحقيقى لدولة الأدارسة بالمغرب ، ومن أهم أعماله تشييدة مدينه فاس واتخاذها عاصمة لدولته سنة ١٩٢هـ ، كما حارب فرقة الصفرية ـ إحدى فرق الخوارج ـ وانتصر عليها ، وتمكن من توفير الاستقرار السياسي والاقتصادى لدولته وضرب عملة تحمل اسمه ، واتبع سياسة مسالمة مع جاره إبراهيم بن الأغلب

الذى أسس دولة الأغالبة السنية في منطقة افريقية (تونس) سنة ١٨٤هـ بتأييد من الخلافة العباسية لتكون حائلا بين أقاليم الدولة العباسية ودولة الأدارسة إلي المغرب منها .

وبعد وفاة إدريس الثاني في جمادى الأخرة سنه ٢١٣هـ خلفه ابنه محمد بن إدريس الذى شهد عهده (٢١٣-٢٢١هـ) انقسام الأدارسة علي أنفسهم بسبب النزاع علي حكم أقاليم الدولة .

وتوفى محمد بن إدرريس سنه ٢٢١هـ فخلفه ابنه علي بن محمد (٢٢١ ـ ٢٣٤هـ) الذى اتخذ لقب "حيدره " وهو لقب الإمام علي بن أبى طالب ، وخلفه في الحكم من بعده أخوه يحيى بن محمد سنه ٢٣٤هـ الذى ازدهرت في عهده الدوله . وعاصمتها فاس حتى أصبحت قبيلة للزائرين من سائر بلدان المغرب بما كانت تضمه من فنادق وحمامات ومنشآت وحدائق ، وتوالي بعد ذلك حكام الأدارسة حتي قامت ثورة بقيادة عبد الرحمن بن أبى سهل ضد يحيى بن علي بن عمر بن محمد بن إدريس ، واستولى على مدينة فاس فاستنجدت زوجة يحيى بأبيها على بن عمر حاكم إقليم الريف بدولة الأدارسة ، فقدم وقضى علي الثورة وتحول حكم الدولة من ذرية علي بن محمد بن إدريس الثانى إلى ذرية عمرو بن إدريس صاحب الريف ، كما آل الحكم في بعض الفترات إلي ذرية القاسم بن إدريس حتي دانت فاس بالطاعة لعلى بن عمر بن إدريس ولكن فرقة الصفرية ـ من الخوارج ثارت عليه بزعامة عبد الرازق الفهرى واضطر على بن عمر إلى الهرب إلي أوربا ...

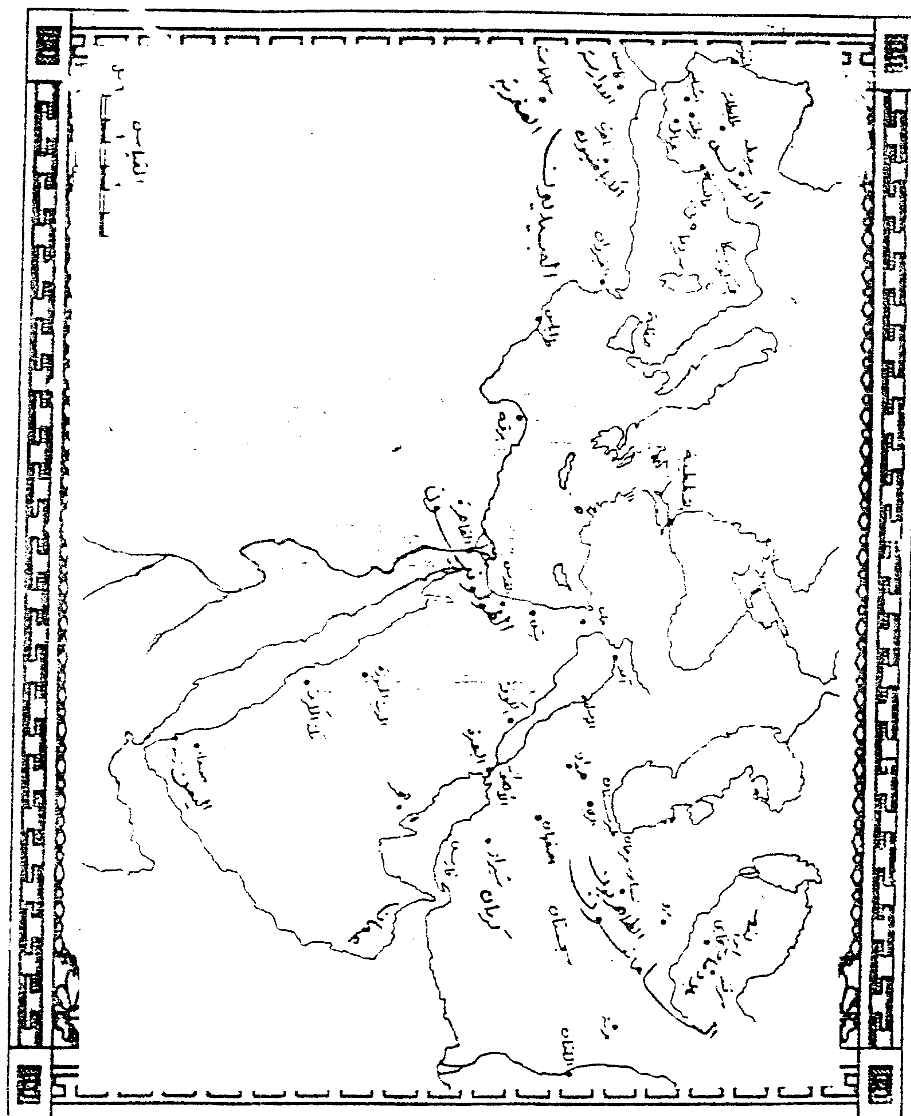
وتشير المصادر التاريخية إلي ما أصاب دولة الأدارسة خلال الفترة من ٢٣٤ ـ ٢٤٠هـ من فتن واضطرابات أدت إلى سوء الأحوال الاقتصادية وكثرة الأمراض

موتى كما حدث سنة ٢٦٧ هـ زلزال عظيم خرب البلاد وضاعف من سوء الأحوال اك ، وانقسم الأدارسة على أنفسهم فزادت الفتن والاضطرابات لدرجة أن المؤرخين يتمكنوا من معرفة تاريخ بداية أو نهاية حكم أمراء الأدارسة . واستنجد أهل ~~فارس~~ فاس يحيى بن إدريس الذى عرف بالعوام وبايعوه أميرا عليهم فحارب الصفرية وقضى عليهم ، وظل بالحكم حتي قتل سنة ٢٩٢هـ ، فتولي الحكم من بعده يحيي بن ادريس بن عمرو بن ادريس الذى يعرف بيحيى الرابع (٢٩٢ ــ ٣١٠هـ) وبايعه أهل فاس ، وبسط نفوذه علي سائر بلدان المغرب الأقصى بدرجة لم تتحقق لغيره من حكام الأدارسة وظل حكمه مستقرا حتي داهمته قوات الفاطميين بقيادة " مصالة بن حبوس" صاحب تاهرت والمغرب الأوسط ، وقائد جيوش عبيد الله المهدى الفاطمى وهزم يحيى الرابع أمامه عند مكناسة ثم حاصرت قوات الفاطميين فاس العاصمة فاضطر يحيى الرابع إلى الصلح بشروط محجفة) وبذلك تقلص حكم الأدارسة بامتداد النفوذ الفاطمى ووصوله إلى المغرب الأقصى . أما يحيي بن إدريس المعروف بيحيى الرابع ، فلم يتركه القائد الفاطمى مصالة ، وإنما قبض عليه ونفاه سنة ٣١٠هـ ثم أطلق سراحه بعد عشرين سنة فأقام بأفريقية حتي مات بمدينة المهدية سنة ٣٣٢ هـ .

وتولى حكم دولة الأدارسة المتداعى بعد يحيى بن إدريس " الحسن بن محمد ابن القاسم" المعروف بالحجام (٣١٠ ــ ٣١٢هـ) الذى تمكن من الاستيلاء علي فاس وقتل حاكمها ريحان الكتامي ، وبسط نفوذه علي ما يجاورها ، فبايعه الناس ، ثم تفرغ لمحاربة موسى بن أبى العافية ، غير أن وفاة الحسن بن محمد سنه ٣١٢هـ حالت دون تحقيق رغبته ، فانفرد موسى بن أبى العافية بحكم المغرب الأقصى ، وأعلن ولاءه للفاطميين ودخل في طاعتهم ، وأصبح حاكما للمغربين الأوسط والأقصى ، أما من تبقي من أفراد أسرة الأدارسة فانتقل إلي بلاد الريف يمارس الحكم تارة ويسلب

منه تارة أخرى ، فقد أصبح الأدارسة خاضعين لمن يغلب أمره علي بلاد المغرب سواء من الفاطميين أو من الأمويين أصحاب الأندلس ، الذين بسطوا نفوذهم هناك في بعض الفترات حتي غلب الحكم الفاطمى علي المغرب كله بعد ذلك ...

ويمكن القول بأن دولة الأدارسة التى عمرت فى الحكم حوالي قرنين من الزمان (١٧٢ ـ ٣٧٥هـ) لم تنعم خلالها بالاستقرار السياسي الذى يمكنها من تحقيق استقرار اقتصادى أو ازدهار حضارى ، ولكن مع هذا لا ينكر دورها في نشر الإسلام في المغرب الأقصي خاصة ، والمغرب كله عامة ، حيث كان لامتداد نسب الأدارسة إلي النبى عليه الصلاة والسلام أثره في التفاف البربر والقبائل المغربية حولهم ، كما يعود إلي مؤسس هذه الدولة الفضل في توحيد الأقاليم الساحلية وأقاليم المراعى ، بالمغرب الأقصى تحت طاعتهم طوال فترة حكمهم ، كما أنها تمثل الدولة الأولى التى استطاع العلويون اقامتها بعد طول جهاد ومعارضة لكل من الدولتين الأموية والعباسية وهو الجهاد الذى سترثه من بعدها دولة الفاطميين الشيعية والتي ستتحول إلى خلافة مقرها مصر وعاصمتها القاهرة .



دراسة تدريبية
لبعض النصوص التاريخية
من العصر العباسي

أولا :

نصوص مراسلات

وأحداث تاريخية

من

تاريخ الإسلام السياسى

للدكتور حسن إبراهيم حسن

الشكر وأدعاه للمزيد ! من أين لك هذا الفرس السابق ؟ فقال له : أمه من خيلك . فقال : والله لأرضينك . ثم أقبل على الرشيد فقال : كنت يا أمير المؤمنين مع أمير المؤمنين أبي العباس ، ونحن في المدائن وقد أرسلت الخيل ، فبينا نحن ننظر طلع آخر سابق ، وقد حصل في الغبار فما ترى علامته ، فقال عيسى بن على . لى ، وقال غيره لى . ثم طلع آخر على تلك الصفة ، فنظروا فإذا هي لخالد بن برمك ، وقد أخذ قصبات السبق ، فقال خالد : يا أمير المؤمنين ! من يقبضها ؟ فقال : هي لنا عندك فإنك عدة من عددنا ؛ فسرى عن الرشيد وزال الغضب عنه » .

وروى المسعودى (١) حكاية تبين لنا مبلغ اهتمام الرشيد بسباق الخيل قال : وأجرى الرشيد الخيل يوماً بالرقة . فلما أرسلت . صار إلى مجلسه في صدر الميدان حيث توافى عليه الخيل ، لا يتقدم أحدها صاحبه ، فتأملها فقال : فرسى والله . ثم تأمل الآخرة فقال : فرس ابنى المأمون . فجاءا يحتكان أمام الخيل . وكان فرسه السابق ، وفرس المأمون ثانية فسر بذلك ، ثم جاء الخيل بعد ذلك .

ومن أنواع التسلية في العصر العباسى الأول لعبة الكريكيت والتنس . ويسمونها لعبة « القراح » . وكان النساء يمارسن الرمى بالسهام . ولم يكن الرقص في بادىء الأمر مقصوراً على الطبقات المحترفة فحسب ، بل كثيراً ما كانت فتيات الطبقة الراقية يشتركن فيه أيضاً .

وكان بعض الخلفاء كلفا بالصيد . فقد حرص المهدى على القيام برحلات منظمة ، بصحبة فرسان يتقلدون السيوف ، ويتبعهم طائفة الجند والغلمان . وكان الخليفة يسير محاذياً لنهر دجلة ارتياداً للخضرة التى تجنح إليها الطيور وتسرح فيها الغزلان .

وقد كلف هؤلاء الخلفاء بالصيد وتأنقوا في إعداد العدة له ؛ وقلدهم في ذلك الأمراء حتى إنهم أخذوا يصنعون نصال سهامهم من الذهب . كما عنوا باستخدام الصقر والباز في الصيد ، وعنوا بتربية الكلاب السريعة العدو ، ووكلوا بكل كلب شخصاً يقوم بتربيته .

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٧٩ .

ملاحق الكتاب

الملحق الأول

خطبة أبي العباس السفاح في مسجد الكوفة (١)

يقول الطبري : « لما صعد (أبو العباس) المنبر حين بويع له بالخلافة قام في أعلاها ، وصعد داود بن علي فقام دونه ، فتكلم أبو العباس فقال : الحمد الله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكرمة ، وشرفه وعظمه ، واختاره لنا ، وأيده بنا ، وجعلنا أهله ، وكهفه وحصنه ، والقوام به ، والذابين عنه ، والناصرين له ، وألزمنا كلمة التقوى ، وجعلنا أحق بها وأهلها ، وخصنا برحم رسول الله وقرابته ، وأنشأنا من آبائه وأنبتنا من شجرته ، واشتققنا من نبعته ، جعله من أنفسنا ، عزيزاً عليه ما عنتنا (٢) ، حريصاً علينا بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً ؛ ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع ، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم فقال عز من قائل ، فيما أنزل من محكم القرآن : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس (٣) أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ . وقال : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ . وقال: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ .وقال : ﴿ وما أفاء (٤) الله على رسوله من أهل القرى ، فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى ﴾ ؛ وقال ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء ، فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى ﴾ فأعلمهم جل ثناؤها فضلنا ، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من الفيء والغنيمة نصيباً ، تكرمة لنا ، وفضلا علينا ، والله ذو الفضل العظيم . وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا ، فشاهت (قبحت) وجوههم ، بما ولم أيها الناس ؟

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .
(٢) يعنى يعز عليه أن نقع فى أمر شاق .
(٣) القذر أو العقاب أو الغضب .
(٤) من الفيء وهو كل ما غنمه المسلمون من المشركين عفواً من غير قتال .

وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم ، وبصرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلكتهم ، وأظهر بنا الحق، ودحض بنا الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً ، ورفع بنا الخسيسة الدنيئة ، وتم بنا النقيصة وجمع الفرقة ، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة فى دينهم ودنياهم ، وإخواناً على سرر متقابلين فى آخرتهم ، فتح الله ذلك منة ومنحة لمحمد صلى الله عليه وسلم . فلما قضبه الله إليه ، قام بذلك الأمر من بعده أصحابه ، وأمرهم شورى بينهم ، فحووا مواريث الأمم ، فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها ، وأعطوها أهلها وخرجوا خماصاً (١) منها ، ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها وتداولوها بينهم ، فجاروا فيها ، واستأثروا بها ، وظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه (٢) . فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ، ورد علينا حقنا ، وتدارك بنا أمتنا ، وولى نصرنا ، والقيام بأمرنا، ليمن بنا على الذين استضعفوا فى الأرض ، وختم بنا كما افتتح بنا . وإنى لأرجو أن لا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح . وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله . يا أهل الكوفة ! أنتم محل محبتنا ، ومنزل مودتنا . أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زمامنا ، وأتاكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا ، وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا ، فأنا السفاح المبيح ، والثائر المبير » .

وكان موعوكا : فاشتد به الوعك ، فجلس على المنبر .

---

(١) أى جياعاً من الخمصة وهى الجوع .
(٢) أى أغضبوه .

الملحق الثانى

خطبة داود بن على العباسى فى مسجد الكوفة (١)

« وصعد داود بن على ، فقام دونه على مراقى المنبر فقال : الحمد لله شكراً شكراً شكراً ، الذى أهلك عدونا ، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، أيها الناس ! الآن أقشعت (أذهبت) حنادس (٢) الدنيا ، وانكشف غطاؤها ، وأشرقت أرضها وسماؤها وطلعت الشمس من مطلعها ، وبزغ القمر من مبزغه ، وأخذ القوس باريها ، وعاد السهم إلى منزعه ، ورجع الحق إلى نصابه فى أهل بيت نبيكم ، أهل الرأفة والرحمة بكم ، والعطف عليكم . أيها الناس ! إنا والله ما خرجنا فى طلب هذا الأمر لنكثر لجينا (فضة) ولا عقيانا (ذهبا) . ولا نحفر نهراً ، ولا نبنى قصراً ، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبنى عمنا ، وما كرثنا (٣) من أموركم ، وبهظنا (٤) من شئونكم . ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ، ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم ، وخرقهم بكم ، واستذلالهم لكم ، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم . لكم ذمة الله تبارك وتعالى ، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذمة العباس رحمه الله ، أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير فى العامة والخاصة منكم بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . تباً تباً لبنى حرب بن أمية وبنى مروان ، آثروا فى مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة ، والدار الفانية على الدار الباقية ، فركبوا الآثام ، وظلموا الأنام وانتهكوا المحارم وغشوا الجرائم وجاروا فى سيرتهم فى العباد وسنتهم فى البلاد التى استلذوا تسربل الأوزار وتجليب الآصار (٥) ؛ ومرحوا فى أعنة المعاصى وركضوا فى ميادين الغى جهلا باستدراج الله وأمناً لمكر

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ١٢٦ — ١٢٧ .

(٢) جمع حندس وهو الليل المظلم والظلمة .

(٣) اشتد علينا .

(٤) غلبنا وثقل علينا .

(٥) جمع إصر وهو الذنب .

الله ، فأتاهم وبأس الله بياتاً وهم نائمون ، فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق ، فبعداً للقوم الظالمين . وأدالنا الله من مروان وقد غره بالله الغرور ، أرسل لعدو الله فى عنانه حتى عثر فى فضل خطامه (زمامه) ، فظن عدو الله أن لن نقدر عليه . فنادى حزبه وجمع مكايده ورمى بكتائبه ، فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ومحق ضلالته وجعل دائرة السوء به ، وأحيا شرفنا وعزنا ورد إلينا حقنا وإرثنا . أيها الناس ! إن أمير المؤمنين نصره الله نصراً عزيزاً إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة ؛ إنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعه عن استتمام الكلام بعد أن اسحنفر [1] فيه شدة الوعك . وادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافيه ، فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان المتبع للسفلة الذين أفسدوا فى الأرض بعد صلاحها بإبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين ، الشاب المتكهل المتمهل المقتدى بسلفه الأبرار والأخيار الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بمعالم الهدى ومناهج التقوى . فعج [2] الناس له بالدعاء .

ثم قال يأهل الكوفة ! إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا وأفلج بهم حجتنا وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم به ينتظرون وإليه تتشوفون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيّض به وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشأم ، ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام ، ومنّ عليكم بإمام منحه العدالة وأعطاه حسن الإيالة . فخذوا ما آتاكم الله بشكر ، والزموا طاعتنا ولا تخدعوا عن أنفسكم فإن الأمر أمركم ، فإن لكل أهل بيت مصراً ، وإنكم مصرنا . ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد ، وأشار بيده إلى أبى العباس . فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم . الحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا .

---

(١) انسع فى كلامه .
(٢) رفع صوته بالدعاء .

الملحق الثالث

وصية أبي جعفر ابنه محمد المهدى (١)

« هذا ما عهد به عبد الله أمير المؤمنين إلى المهدى محمد بن أمير المؤمنين ، ولى عهد المسلمين ، حين أسند وصيته إليه بعده واستخلفه على الرعية ، من المسلمين وأهل الذمة ، وحرم الله وخزائنه وأرضه التى يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين . إن أمير المؤمنين يوصيك بتقوى الله فى البلاد ، والعمل بطاعته فى العباد ، ويحذرك الحسرة والندامة ، والفضيحة فى القيامة ، قبل حلول الموت ، وعاقبة الفوت حين يقول : رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب . هيهات أين منك المهل وقد انقضى عنك الأجل . . . وتقول رب ارجعنى لعلى أعمل صالحاً ، فيومئذ ينقطع أهلك ويحل بك عملك ، فترى ماقدمته يداك وسعت فيه قدماك ، ونطق به لسانك ، واستركبت عليه جوارحك ، ولحظت له عينك ، وانطوى عليه غيبك . فتجزى عليه الجزاء الأوفى ، إن شراً فشراً وإن خيراً فخيراً . .

فليكن تقوى الله من شأنك ، وطاعته من بالك ، استمن بالله على دينك ، وتقرب به إلى ربك ونفسك فخذ منها ، ولا تجعلها للهوى . ولن تعمل الشرقا معاً ؟ فليس أحد أكثر وزراً ، ولا أعظم مصيبة ، ولا أجل رزية منك ، لتكاثف منك أجمعون ، وتكافئ على أفعال ولاتك الظالمين ، فإن الله يقول ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ . فكأنى بك وقد أوثقت بين يدى الجبار ، وخذلك الأنصار ، وأسلمك الأعوان ، وطوقت الخطايا ، وقرنت بك الذنوب ، حل بك الوجل وقعد بك الفشل ، كلت حجتك ، وقلت حيلتك ، وأخذت منك الحقوق ، وقتاد منك المخلوق فى يوم شديد هوله ، عظيم كربه ، تشخص فيه الأبصار لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، فما عسيت أن يكون حالك يومئذ إذا خاصمك الخلق ، واستقضى عليك الحق ،

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٤٧٢ — ٤٧٤ .

إذ لا خصة تنجيك ولا قرابة تحميك، تطلب فيه التباعة (١)، ولا تقبل فيه الشفاعة ويعمل فيه بالعدل ويقضى فيه بالفصل، قال الله: ﴿لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾. فعليك بالتشمير لدينك والاجتهاد لنفسك، فافسكك عنك، وبادر يومك، واحذر غدك، واتق دنياك فإنها دنيا غادرة موبقة، ولتصدق الله نيتك، ولتعظم إليه فاقتك.

« وارغب إلى الله عز وجل فى الجهاد والمحاماة عن دينه، وإهلاك عدوه بما يفتح الله على المسلمين ويمكن لهم فى الدين. وابذل فى ذلك مهجتك ونجدتك ومالك وتفقد جيوشك ليلك ونهارك، واعرف مراكز خيلك ومواطن رحلك، وبالله فليكن عصمتك وحولك وقوتك، وعليه فليكن ثقتك واقتدارك وتوكلك، فإنه يكفيك وينصرك وكفى به مؤيداً ونصيراً ».

(١) يقال لى قبل فلان تبعة وتباعة وهى الظلامة أساس البلاغة.

الملحق الرابع

قتل مروان بن محمد (١)

ولما قتل عامر بن إسماعيل مروان ، وأراد الكنيسة التى فيها بنات مروان ونساؤه ، إذا بخادم لمروان شاهر السيف ، يحاول الدخول عليهن ؛ فأخذوا الخادم ، فسئل عن أمره فقال : أمرنى مروان إذا هو قتل أن أضرب رقاب بناته ونسائه ، فلا تقتلونى ؛ فإنكم والله إن قتلتمونى ليفقدن ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له : انظر ما تقول ، قال : إن كذبت فاقتلونى ، هلموا فاتبعونى ، ففعلوا فأخرجهم من القرية إلى موضع رمل ، فقال : اكشفوا هنا ، فكشفوا ، فإذا البرد والقضيب ومخصر قد دفنها مروان لئلا تصير إلى بنى هاشم ، فوجه بها عامر بن إسماعيل إلى عبد الله بن على ، فوجه بها عبد الله إلى أبى العباس السفاح ، فتداولت ذلك خلفاء بنى العباس إلى أيام المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) .

ولما احتز عامر رأس مروان واحتوى على عسكره ، دخل الكنيسة التى كان فيها مروان ، فقعد على فرشه وأكل من طعامه ، فخرجت إليه ابنة مروان الكبرى ، وتعرف بأم مروان ، فقالت : يا عامر ! أن دهراً أنزل مروان عن فرشه حتى أقعدك عليها فأكلت من طعامه واحتويت على أمره وحكمت فى مملكته لقادر أن يغير ما بك .

ثم وجه عامر بنات مروان وجواريه والأسارى إلى صالح بن على . فلما دخلن عليه تكلمت إبنة مروان الكبرى فقالت : يا عم أمير المؤمنين ! حفظ الله لك فى الدنيا والآخرة ! نحن بناتك وبنات أخيك فليسعنا من عفوكم ما وسعكم من جورنا ، قال : إذاً لا نستبقى منكم أحداً رجلا ولا امرأة . ألم يقتل أبوك بالأمس ابن أخى إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس الإمام فى محبسه بحران ؟

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن على بن الحسين بن على وصلبه فى كناسة الكوفة ، وقتل امرأة زيد بالحيرة على يد يوسف بن عمر الثقفى ؟ ألم يقتل الوليد ابن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان ؟ ألم يقتل عبيد الله بن زياد الدعى مسلمة ابن عقيل بن أبى طالب بالكوفة ؟ ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن على ، على يد عمر بن سعد مع من قتل بين يديه من أهل بيته ؟ ألم يخرج بحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا حتى ورد بهن على يزيد بن معاوية ، وقبل مقدمهم بعث إليه برأس الحسين بن على قد نصب دماغه على رأس رمح يطاف به كور الشام ومدائنها ، حتى قدموا به على يزيد بدمشق ، كأنما بعث إليه برأس رجل من أهل الشرك ؟ ثم أوقف حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم موقف السبى يتصفحهن جنود أهل الشام الجفاة الطغام ، ويطلبون منه أن يهب لهم حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استخفافا بحقه صلى الله عليه وسلم وجرأة على الله عز وجل وكفراً الأنعمه . فما الذى استبقيتم منا أهل البيت لو عدلتم فيه علينا ؟ قالت : ياعم أمير المؤمنين ! وليسعنا عفوكم إذاً ، قال : أما العفو فنعم ، قد وسعكم ، فإن أحببت زوجتك من الفضل بن صالح بن على ، وزوجت أختك من أخيه عبد الله بن صالح . فقالت : ياعم أمير المؤمنين ! أى أوان عرس هذا ؟ بل تلحقنا بحران . قال إذن أفعل ذلك بكم إن شاء الله . فألحقن بحران ، فعلت أصواتهن عند دخولهن بالبكاء على مروان ، وشققن جيوبهن ، وأعولن بالصياح حتى ارتج العسكر بالبكاء منهن على مروان .

الملحق الخامس

نهاية بابك الخرمى(١)

وقد وصف المسعودى نهاية بابك الخرمى وصفاً مسهباً فقال : « فلما استشعر بابك مانزل به وأشرف عليه ، هرب من موضعه وزال عن مكانه ، فتنكر هو وأخوه وولده وأهله ومن تبعه من خواصه ، وقد تزيا بزى السفر وأهل التجارة والقوافل ، فنزل موضعاً من بلاد أرمينية على بعض المياه ؛ وبالقرب منهم راعى غنم ، فابتاعوا منه شاة وشاءوا شراء شيء من الزاد لهم ، فمضى من فوره إلى سهل ابن سنباط ، فأخبره الخبر وقال : وهو بابك لاشك فيه .

وقد كان الأفشين لما هرب بابك من موضعه وزال عن جبله خشى أن يعتصم ببعض الجبال المنيعة أو يتحصن ببعض القلاع ، أو ينضاف إلى بعض الأمم القاطنة ببعض تلك الديار ، فيكثر جمعه وينضاف إليه فلال عسكره فيرجع إلى ماكان من أمره . فأخذ الطرق ، وكاتب البطارقة فى الحصون والمواضع من بلاد أرمينية وأذربيجان والران والبيلقان وضمن فى ذلك الرغائب . فلما سمع سهل بن سنباط من الراعى ما أخبره به ، سار من فوره فيمن حضر من عدده وأصحابه ؛ حتى أتى الموضع الذى به بابك . فترجل له ودنا منه وسلم عليه بالملك وقال له : أيها الملك ! قم إلى قصرك الذى فيه وليك وموضع يمنعك فيه الله من عدوك ؛ فسار معه إلى أن أتى قلعته ، وأجلسه على سريره ، ورفع منزلته ووطأ له منزلته ومن معه ، وقدمت المائدة وقعد يأكل معه ، فقال له بابك بجهله وقلة معرفته بما هو فيه وما دفع إليه : أمثلك يأكل معى ؟ فقام سهل عن المائدة وقال أخطأت أيها الملك ، وأنت أحق من احتمل عبده إذ كانت منزلتى ليست بمنزلة من يأكل مع الملوك ، وجاءه بحداد وقال له : مد رجليك أيها الملك ، وأوثقه بالحديد ، فقال له بابك : أغدرا يا سهل ؟ قال يابن الخبيثة ؟ إنما أنت راعى غنم وبقر ، ما أنت

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ س ٣٥٠ — ٣٥١ .

والتدبير للملك ونظم السياسات ؟ وقيد من كان معه ، وأرسل إلى الأفشين يخبر الخبر وأن الرجل عنده ، فسرح إليه الأفشين أربعة آلاف فارس عليهم الحديد ، وعليهم خليفة ، يقال له بوغادة ، فتسلمه ومن معه ، وأتى به إلى الأفشين ، ومعه ابن سنباط ؛ فرفع الأفشين منزلة سهل ، وخلع عليه ، وحمله وتوجه ، وقاد بين يديه وأسقط عنه الخراج ، فأطلقه ، وأطلق الطيور إلى المعتصم ، وكتب إليه بالفتح . فلما وصل إليه ذلك ضج الناس بالتكبير ، وعمهم الفرح وأظهروا السرور ، وبث الكتب إلى الأمصار بالفتح . وقد كان أفنى عساكر السلطان ، فسار الأفشين ببابك وتنقل بالعساكر حتى أتى سر من رأى ، وذلك سنة ثلاث وعشرين ومائتين . وتلقى الأفشين هارون بن المعتصم وأهل بيت الخلافة ورجال الدولة ، ونزل بالموضع المعروف بالقاطول على خمسة فراسخ من سامرا ، وبعث إليه بالفيل الأشهب ، وكان قد حمله بعض ملوك الهند إلى المأمون وكان فيلا عظيما ، وقد جلل بالديباج الأحمر والأخضر وأنواع الحرير الملون ، ومعه ناقة عظيمة نجيبة قد جللت بما وصفناه . وحمل إلى الأفشين دراعة من الديباج الأحمر ، منسوجة بالذهب ، وقد رصع صدرها بأنواع الياقوت والجوهر ، ودراعة دونها وقلنسوة عظيمة كالبرنس ذات سفاسك بألوان مختلفة ، وقد نظم على القلنسوة كثيراً من اللؤلؤ والجواهر وألبس بابك الدراعة ، وألبس أخوه الأخرى ، وجعلت القلنسوة على رأس بابك ، وعلى رأس أخيه نحوها . وقدم إليه الفيل وإلى أخيه الناقة . فلما رأى صورة الفيل استعظمه ، وقال : ما هذه الدابة العظيمة ! واستحسن الدراعة وقال : هذه كرامة ملك عظيم جليل إلى أسير ، فقد أنعز خلياء ، أخطأته الأقدار ، وزالت عنه الجدود وتورطته المحن ، إنها الفرحة تقتضى ترحة . وضرب له المصاف صفين ، فى الخيل والرجل والسلاح والحديد والرايات والبنود ، من القاطول إلى سامرا ، مدد واحد متصل غير منفصل ، وبابك على الفيل ، وأخوه وراءه على الناقة والفيل يخطر بين الصفين به ، وبابك يخطر ذات اليمين وذات الشمال ويعز الرجال والعدد ، ويظهر الأسف والحنين على ما فاته من سفك دمائهم ، غير مستعظم لما يرى من كثرتهم ، وذلك يوم الخميس لليلتين خلتا من صفر سنة ثلاث

وعشرين ومائتين ، ولم ير الناس مثل ذلك اليوم ولا مثل تلك الزينة ، ودخل الأفشين على المعتصم ، فرفع منزلته وأعلى مكانه ، وأتى ببابك فطوف به بين يديه ، فقال له المعتصم : أنت بابك ؟ فلم يجب وكررها عليه مراراً ، وبابك ساكت ، فمال إليه الأفشين وقال له : الويل لك ! أمير المؤمنين يخاطبك وأنت ساكت ؟ فقال : نعم أنا بابك ، فسجد المعتصم عند ذلك ثم قال : جردوه ، فسلبه الخدام ما عليه من الزينة ، وقطعت يمينه وضرب به وجهه ، وفعل مثل ذلك بيساره ، وثلث برجليه ، وهو يتمرغ في النطع في دمه .

وقد كان تكلم بكلام كثير يرغب في أموال عظيمة قبله ، فلم يلتفت إلى قوله ، وأقبل يضرب بما بقي من زنديه وجهه ، وأمر المعتصم السياف أن يدخل السيف بين ضلعين من أضلاعه أسفل القلب ليكون أطول لعذابه ففعل .

ثم أمر بجز لسانه وصلب أطرافه مع جسده . ثم حمل الرأس إلى مدينة السلام ، ونصب على الجسر ، وحمل إلى خراسان بعد ذلك يطاف به كل مدينة من مدنها وكورها ، لما كان في نفوس الناس من استفحال أمره وعظيم شأنه وكثرة جنوده ، وإشرافه على إزالة ملك وقلب ملة وتبديلها .

وحمل أخوه عبد الله مع الرأس إلى مدينة السلام ، ففعل به إسحاق بن إبراهيم ما فعل بأخيه بابك بسامرا ، وصلب جثة بابك على خشبة طويلة في أقاصي سامرا » .

الملحق السادس

محاكمة الأفشين (١)

« وذكر عن هارون بن عيسى بن منصور أنه قال : شهدت دار المعتصم وفيها أحمد بن أبي دؤاد وإسحاق بن إبراهيم بن مصعب ومحمد بن عبد الملك الزيات . فأتى بالأفشين ، ولم يكن بعد فى الحبس الشديد . فأحضر قوم من الوجوه لتبكيت الأفشين بما هو عليه . ولم يترك فى الدار أحد من أصحاب المراتب إلا ولد المنصور ، وصرف الناس .

وكان المناظر له محمد بن عبد الملك الزيات . وكان الذين أحضروا المازيار صاحب طبرستان والموبذ والمرزبان بن تركش ، وهو أحد ملوك السغد ، ورجلان من أهل السغد . فدعا محمد بن عبد الملك بالرجلين ، وعليهما ثياب رثة ، فقال لهما محمد بن عبد الملك : ما شأنكما ؟ فكشفا عن ظهرهما وهى عارية من اللحم فقال له محمد : تعرف هذين ؟ قال نعم ! هذا مؤذن ، وهذا إمام بنيا مسجداً بأشروسنة ، فضربت كل واحد منهما ألف سوط ، وذلك أن بينى وبين ملوك السغد عهداً أو شرطاً أن أترك كل قوم على دينهم وماهم عليه . فوثب هذان على بيت كان فيه أصنامهم — يعنى أهل أشروسنة — فأخرجا الأصنام واتخذاه مسجداً . فضربتهما على هذا ألفا ألفا ، لتعديهما القوم من بيعتهم . فقال له محمد : ماكتاب عندك قد زينته بالذهب والجوهر والديباج فيه الكفر بالله ؟ قال : هذا كتاب ورثته عن أبى ، فيه أدب من العجم ، وما ذكر من الكفر ، فكنت أستمتع منه بالأدب وأترك ما سوى ذلك . ووجدته محلى ، فلم يضطرنى الحاجة إلى أخذ الحلية منه ، فتركته على حاله ككتاب كليلة ودمنة وكتاب مزدك فى منزلك فما ظننت أن هذا يخرج من الإسلام . ثم تقدم الموبذ فقال : إن هذا كان يأكل المخنوقة ويحملنى على أكلها ويزعم أنها أرطب لحما من المذبوحة . وكان يقتل شاة سوداء كل يوم

---

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٣٦٥ — ٣٦٧ .

أربعاء يضرب وسطها بالسيف ، ثم يمشى بين نصفيها ويأكل لحمها وقال لى يوماً : إنى قد دخلت لهؤلاء القوم فى كل شىء أكرهه حتى أكلت لهم الزيت وركبت الجمل ولبست النعل ، غير أنى إلى هذه الغاية لم تسقط عنى شعرة ، يعنى لم يطل ولم يختتن ، فقال الأفشين : خبرونى عن هذا الذى يتكلم بهذا الكلام ثقة هو فى دينه ؟ وكان الموبذ مجوسياً ، أسلم بعد على يد المتوكل ونادمه ، قالوا لا ، قال فما معنى قبولكم شهادة من لاتثقون به ولا تعدلونه ؟ ثم أقبل على الموبذ فقال : هل كان بين منزلى ومنزلك باب أو كوة تطلع على منها وتعرف أخبارى منها ؟ قال : لا ! قال : أفليس كنت أدخلك إلى وأبثك سرى ، وأخبرك بالأعجمية وميلى إليها وإلى أهلها ؟ قال : نعم ! قال : فلست بالثقة فى دينك ولا بالكريم فى عهدك ، إذا أفشيت على سراً أسررته إليك . ثم تنحى الموبذ وتقدم له المرزبان بن تركش فقالوا للأفشين : هل تعرف هذا ؟ قال لا فقيل للمرزبان : هل تعرف هذا ؟ قال نعم ، هذا الأفشين ، قالوا له : هذا المرزبان ، فقال له المرزبان : يامخرق كم تدافع وتموه ؟ قال له الأفشين : ياطويل اللحية ماتقول ؟ قال كيف يكتب إليك أهل مملكتك ؟ قال : كما كانوا يكتبون إلى أبى وجدى ، قال فقل قال لا أقول ، فقال المرزبان : أليس يكتبون إليك بكذا وكذا بالأشروسنية ؟ قال : بلى ، قال : أفليس تفسيره بالعربية إلى إله الآلهة من عبده فلان بن فلان ؟ قال بلى ! قال محمد بن عبد الملك . . والمسلمون يحتملون أن يقال لهم هذا ! فما بقيت لفرعون حين قال لقومه أنا ربكم الأعلى ؟ قال : كانت هذه عادة القوم لأبى وجدى ولى قبل أن أدخل فى الإسلام ، فكرهت أن أضع نفسى دونهم فتفسد على طاعتهم ، فقال له إسحاق بن إبراهيم ابن مصعب : ويحك ياخيذر ؟ كيف تحلف بالله لنا ، فنصدقك ونصدق يمينك ، ونجريك مجرى المسلمين وأنت تدعى ما ادعى فرعون ؟ قال يا أبا الحسين ! هذه سورة قرأها عجيف على على بن هشام ، وأنت تقرأها على ، فانظر غداً من يقرؤها عليك .

ثم قدم مازيار صاحب طبرستان فقالوا للأفشين . تعرف هذا ؟ قال لا ، قالوا للمازيار تعرف هذا ؟ قال نعم قد عرفته الآن ، قالوا : هل كاتبته ؟ قال لا ، قالوا

للمازيار : هل كتب إليك ؟ قال نعم ، كتب أخوه خاش إلى أخى قوهيار أنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيرى وغيرك وغير بابك ، فإنه بحمقه قتل نفسه ، ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت ، فأبى حمقه إلا أن دلاه فيما وقع فيه ، فإن خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيرى ، ومعى الفرسان وأهل النجدة والبأس .

فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة : العرب والمغاربة والأتراك : والعربى بمنزلة الكلب ، اطرح له كسرة وأضرب رأسه بالدبوس ، وهؤلاء الذئاب يعنى المغاربة ، إنما هم أكلة رأس وأولاد الشياطين ، يعنى الأتراك ، فإنما هى ساعة حتى تنفد سهامهم ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتى على آخرهم ، ويعود الدين إلى مالم يزل عليه أيام العجم ، فقال الأفشين . هذا يدعى على أخيه وأخى دعوى لايجب على ، ولو كنت كتبت بهذا الكتاب إليه لأستميله إلى ويثق بناحيتى ، كان غير مستنكر ، لأنى إذا نصرت الخليفة بيدى كنت بالحيلة أحرى أن أنصره لآخذ بقفاه وآتى به الخليفة لأحظى به عنده كما حظى به عبد الله بن طاهر عند الخليفة : ثم نحى للمازيار ، ولما قال للمرزبان التركشى ماقال ، وقال لإسحق بن إبراهيم ماقال، زجر ابن أبى دؤاد الأفشين فقال : أنت يا أبا عبد الله ترفع طيلسانك بيدك فلا تدعه على عاتقك حتى تقتل به جماعة . فقال له ابن أبى دؤاد :

أمطهر أنت ؟ قال لا ، قال فما منعك من ذلك وبه تمام الإسلام ، والطهور من النجاسة قال : أنت فى دين الإسلام استعمال التقية ؟ قال بلى ، قال خفت أن أقطع ذلك العضو من جسدى فأموت ، قال أنت تطعن بالرمح وتضرب بالسيف ، فلايمنعك ذلك من أن تكون فى الحرب ، وتجزع من قتل قلفة ؟ قال : تلك ضرورة تعنينى فأصبر عليها إذا وقعت ، وهذا شىء أستجلبه ، فلا آمن معه خروج نفسى ، ولم أعلم أن فى تركها الخروج من الإسلام . فقال ابن أبى دؤاد : قد بان لكم أمره يابغا (يوجه كلامه إلى بغا الكبير أبى موسى التركى) ، عليك به . فضرب بغا بيده على منطقته فجذبها فقال : قد كنت أتوقع هذا منكم قبل اليوم ، فقلب بغا ذيل القباء على رأسه ، ثم أخذ بمجامع القباء من عند عنقه ، ثم أخرجه من باب الوزيرى

الملحق السابع

كتاب أبى جعفر المنصور إلى محمد النفس الزكية (١)

« بسم الله الرحمن الرحيم ! من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ (٢) . ولك علىّ عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، إن تبت ورجعت من قبل أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم ، على دمائكم وأموالكم ، وأسوغك ما أصبت من دم أو مال ، وأعطيك ألف ألف درهم ، وما سألت من الحوائج ، وأنزلك من البلاد حيث شئت ، وأن أطلق من فى حبسى من أهل بيتك ، وأن أؤمن كل من جاءك وبايعك واتبعك ، أو دخل معك فى شىء من أمرك ، ثم لا أتبع أحداً منهم بشىء كان منه أبداً . فإن أردت أن تتوثق لنفسك فوجه إلىّ من أحببت يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ماتثق به » .

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢١٠ .

(٢) سورة المائدة ٥ : ٣٣ — ٣٤ .

الملحق الثامن

رد محمد النفس الزكية على أبي جعفر المنصور(١)

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله المهدى محمد بن عبد الله ، إلى عبد الله ابن محمد ﴿ طسم ، تلك آيات كتاب الله المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾(٢) . وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى عرضت على .

فإن الحق حقنا ؛ وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعتنا ، وحظيتم بفضلنا . وإن أبانا عليا كان الوصى وكان الإمام : فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ؟ ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا . لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء . وليس يمت أحد من بنى هاشم مثل الذى يمت من القرابة والسابقة والفضل ، وإنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية ، وبنو بنته فاطمة فى الإسلام دونكم . إن الله اختار لنا ، فوالدنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن السلف أولهم إسلاما على ، ومن الأزواج أفضلهم خديجة الطاهرة وأول من صلى القبلة .

ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين فى الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة . وإن هاشماً ولد علياً مرتين ، وإن عبد المطلب ولد حسناً مرتين ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدنى مرتين من قبل حسن وحسين ، وإنى أوسط بنى هاشم نسباً وأصرحهم أباً ، لم تعرق فى

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢١٠ — ٢١١ .

(٢) سورة القصص ٢٨ : ١ — ٦ .

العجم ، ولم تنازع فى أمهات الأولاد . فما زال الله يختار لى الآباء والأمهات فى الجاهلية والإسلام ، حتى أختار لى فى النار . فأنا ابن أرفع الناس درجة فى الجنة ، وأهونهم عذاباً فى النار ، وأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار ، وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار . ولك الله على أن دخلت فى طاعتى ، وأجبت دعوتى ، أن أؤمنك على نفسك ومالك . وعلى كل أمر أحدثته إلا حداً من حدود الله ، أو حقاً لمسلم أو معاهد فقد علمت ما يلزمك من ذلك ، وأنا أولى بالأمر منك وأدنى بالعهد لأنك أعطيتنى من العهد والأمان ما أعطيته رجالا قبلى . فأى الأمان تعطينى ؟ أمان ابن هبيرة ؟ أم أمان عمك عبد الله ابن على ؟ أم أمان أبى مسلم ؟ » .

الملحق التاسع

رد أبي جعفر المنصور على محمد النفس الزكية (١)

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ! فقد بلغني كلامك ، وقرأت كتابك ، فإذا جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء - ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعصبة والأولياء ، لأن الله جعل العم أبا ، وبدأ به في كتابه عن الوالدة الدنيا . ولو كان اختيار الله لهن على قدر قرابتهن ، كانت آمنة أقربهن رحماً ، وأعظمهن حقاً ، وأول من يدخل الجنة غداً .

ولكن اختيار الله لخلقه على علمه لما مضى منهم ، واصطفائه لهم . وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب وولادتها ، فإن الله لم يرزق أحداً من ولدها الإسلام لا بنتاً ولا إبناً . ولو أحداً رزق الإسلام بالقرابة ، رزقه عبد الله ، أولاهم بكل خير في الدنيا والآخرة ؛ ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء . قال الله عز وجل ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾ (٢) .

ولقد بعث الله محمداً عليه السلام وله عمومة أربعة ، فأنزل الله عز وجل ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ (٣) . فأنذرهم ودعاهم ، فأجاب اثنان أحدهما أبي وأبى اثنان أحدهما أبوك ، فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينه وبينهما إلا ولا ذمة ولا ميراثاً . وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذاباً ، وابن خير الأشرار . وليس في الكفر بالله صغير ، ولا في عذاب الله خفيف ولا يسير ، وليس في الشر خيار ، ولا ينبغي لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار ، وسترد لتعلم ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ (٤) .

---

(١) الطبري ج ٩ ص ٢١١ – ٢١٣ .

(٢) سورة القصص ٢٨ : ٥٦ .

(٣) سورة الشعراء ٢٦ : ٢١٤ .

(٤) سورة الشعراء ٢٦ : ٢٢٧ .

وأما ما فخرت به من فاطمة أم علي ، وأن هاشماً ولده مرتين ، ومن فاطمة أم حسن ، وأن عبد المطلب ولده مرتين ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم ولدك مرتين ، فخير الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لم يلده هاشم إلا مرة ، ولا عبد المطلب إلا مرة . وزعمت أنك أوسط بني هاشم نسباً وأصرحهم أماً وأباً ، أنه لم يلدك العجم ، ولم تعرق فيك أمهات الأولاد ، فقد رأيتك فخرت على بني هاشم طراً ، فانظر ويحك أين أنت من الله غداً . فإنك قد تعديت طورك ، وفخرت على من هو خير منك نفساً وأباً وأولا وآخراً ، إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى والد ولده ، وما خيار بني أبيك خاصة ، وأهل الفضل منهم إلا بنو أمهات أولاد .

وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من علي بن حسين ، وهو لأم ولد ، ولهو خير من جدك حسن بن حسن ، وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن علي وجدته أم ولد ، ولهو خير من أبيك ، ولا مثل أبيه جعفر ، وجدته أم ولد ، ولهو خير منك . وأما قولك إنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله تعالى يقول في كتابه ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم[1] ﴾ .

ولكنكم بنو ابنته وإنها لقرابة قريبة ، ولكنها لا تحوز الميراث ، ولا ترث الولاية ، ولا يجوز لها الإمامة ؛ فكيف تورث بها ، ولقد طلبها أبوك بكل وجه فأخرجها نهاراً ، ومرضها سراً ، ودفنها ليلا ، فأبى الناس إلا الشيخين وتفضيلهما ، وقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين ، أن الجد أبا الأم والخال والخالة لا يرثون .

وأما ما فخرت به من علي وسابقته ، فقد حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاة ، فأمر غيره بالصلاة ، ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل فلم يأخذوه ، وكان في الستة فتركوه كلهم دفعاً له عنها ، ولم يروا له حقاً فيها . أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان ، وقتل عثمان وهو له متهم ، وقاتله طلحة والزبير ، وأبى سعد بيعته ، وأغلق

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ : ٤٠ .

دونه بابه ، ثم بايع معاوية بعده . ثم طلبها بكل وجه وقاتل عليها ، وتفرق عنه أصحابه ، وشك فيه شيعته قبل الحكومة ، ثم حكم حكمين رضى بهما وأعطاهما عهده وميثاقه ، فاجتمعا على خلعه .

ثم كان حسن فباعها من معاوية بخرق ودراهم ، ولحق بالحجاز ، وأسلم شيعته بيد معاوية ودفع الأمر إلى غير أهله ، وأخذ مالا من غير ولائه ولا حله ، فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه . ثم خرج عمك حسين بن على على ابن مرجانة ، فكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه . ثم خرجتم على بنى أمية . فقتلوكم وصلبوكم على جزوع النخل ، وأحرقوكم بالنيران ، ونفوكم من البلدان ، حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان . وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء ، وحملوهم بلا وطاء فى المحامل كالسبى المجلوب إلى الشام ، حتى خرجنا عليهم ، فطلبنا بثأركم وأدركنا بدمائكم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم وسنينا سلفكم وفضلناه . فاتخذت ذلك علينا حجة ، وظننت أنا إنما ذكرنا أباك وفضلناه للتقدمة منا له على حمزة والعباس وجعفر . وليس ذلك كما ظننت ، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين ، متسلماً منهم ، مجتمعاً عليهم بالفضل . وابتلى أبوك بالقتال والحرب ، وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة فى الصلاة المكتوبة ، فاحتججنا له وذكرناهم فضله ، وعنفناهم وظلمناهم بما نالوا منه .

ولقد علمت أن مكرمتنا فى الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم ، فصارت للعباس من بين إخوته ، فنازعنا فيها أبوك ، فقضى لنا عليه عمر ، فلم نزل نليها فى الجاهلية والإسلام . وقد قحط أهل المدينة ، فلم يتوسل عمر إلى ربه ، ولم يتقرب إليه إلا بأبينا ، حتى نعشهم الله وسقاهم الغيث ، وأبوك حاضر لم يتوسل به .

ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بنى عبد المطلب بعد النبى صلى الله عليه وسلم غيره ، فكان وارثه من عمومته . ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بنى هاشم ، فلم ينله إلا ولده : فالسقاية سقايته ، وميراث النبى له ، والخلافة فى ولده ، فلم يبق

شريف ولا فضل فى جاهلية ولا إسلام فى دنيا ولا آخرة ، إلا والعباس وارثه ومورثه .

أما ما ذكرت من بدر ، فإن الإسلام جاء والعباس يمون أبي طالب وعياله ، وينفق عليهم للأزمة التى أصابته . ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرها ، لمات طالب وعقيل جوعاً وللحسا جفان عتبة وشيبة ، ولكنه كان من المطعمين ، فأذهب عنكم العار والسبعة ، وكفاكم النفقة والمؤونة ؛ ثم فدى عقيلا يوم بدر . فكيف تفخر علينا ، وقد علناكم فى الكفر ، وفدينا كم من الأسر ، وحزنا عليكم مكارم الأباء ، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء ، وطلبنا بثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه ؛ ولم تدركوا لأنفسكم ؟ والسلام عليكم ورحمة الله ! » .

الملحق العاشر

أصناف أهل السنة كما ذكره البغدادى(1)

وقد ذهب البغدادى صاحب كتاب الفرق بين الفرق إلى القول « إن أهل السنة والجماعة ثمانية أصناف من الناس : صنف منهم أحاطوا العلم بأبواب التوحيد والنبوة وأحكام الوعد والوعيد والثواب والعقاب ، وشروط الاجتهاد والإمامة والزعامة . وسلكوا فى هذا النوع من العلم طرف الصفاتية (2) من المتكلمين الذين تبرءوا من التشبيه والتعطيل ، ومن بدع الرافضة والخوارج والجهمية والنجارية وسائر أهل الأهواء الضالة .

والصنف الثانى منهم أئمة الفقه من فريقى الرأى والحديث من الذين اعتقدوا فى أصول الدين مذهب الصفاتية فى الله وفى صفاته الأزلية وتبرءوا من القدر والاعتزال ، وأثبتوا رؤية الله بالأبصار من غير تشبيه ولا تعطيل ، وأثبتوا الحشر من القبور مع إثبات السؤال فى القبر ، ومع إثبات الحوض والصراط والشفاعة وغفران الذنوب التى دون الشرك ، وقالوا بدوام نعيم الجنة على أهليها ودوام عذاب النار على الكفرة . وقالوا بإمامة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وأحسنوا الثناء على السلف الصالح من الأمة ، ورأوا وجوب الجمعة خلف الأئمة ، الذين تبرءوا من أهل الأهواء الضالة ، ورأوا وجوب استنباط أحكام الشريعة من القرآن والسنة ومن إجماع الصحابة ، ورأوا جواز المسح على الخفين ووقوع الطلاق الثلاث ورأوا تحريم المتعة ، ورأوا وجوب طاعة السلطان فيما ليس بمعصية . ويدخل فى هذه الجماعة أصحاب مالك والشافعى والأوزاعى والثورى وأبى حنيفة وابن أبى ليلى وأصحاب أبى ثور وأصحاب أحمد بن حنبل ، وأهل الظاهر وسائر الفقهاء الذين اعتقدوا فى الأبواب العقلية أصول الصفاتية ، ولم يخلطوا فقهه بشىء من بدع أهل الأهواء الضالة .

---

(1) الفرق بين الفرق ص ٣٠٠ ـ ٣٠٣ .

(2) الصفاتية هم يثبتون صفات الله.

والصنف الثالث منهم هم الذين أحاطوا علماً بطرق الأخبار والسنن المأثورة عن النبي عليه السلام ، وميزوا بين الصحيح والسقيم منها ، وعرفوا أسباب الجرح والتعديل[1] ، ولم يخلطوا علمهم بذلك بشيء من بدع أهل الأهواء الضالة .

والصنف الرابع منهم قوم أحاطوا علماً بأكثر أبواب الأدب والنحو والتصريف ، وجروا على سمت[2] أئمة اللغة كالخليل وأبي عمرو بن العلاء وسيبويه والفراء والأخفش والأصمعي والمازني وأبي عبيد ، وسائر أئمة النحو من الكوفيين والبصريين الذين لم يخلطوا علمهم بذلك بشيء من بدع القدرية أو الرافضة أو الخوارج .

ومن مال منهم إلى شيء من الأهواء الضالة لم يكن من أهل السنة ، ولا كان قوله حجة فى اللغة والنحو . والصنف الخامس منهم هم الذين أحاطوا علماً بوجوه قراءات القرآن ، وبوجوه تفسير آيات القرآن وتأويلها على وفق مذاهب أهل السنة دون تأويلات أهل الأهواء الضالة . والصنف السادس منهم الزهاد الصوفية الذين أبصروا فأقصروا واختبروا فاعتبروا ، ورضوا بالمقدور وقنعوا بالميسور ، وعلموا أن السمع والبصر والفؤاد ، كل مسئول عن الخير والشر ومحاسب على مثاقيل الذر ، فأعدوا خير الاعتداد ليوم المعاد ، وجرى كلامهم فى طريق العبارة والإشارة على سمت أهل الحديث دون من يشترى لهو الحديث ، لايعملون الخير رياء ولايتركونه حياء . دينهم التوحيد ونفى التشبيه ، ومذهبهم التفويض إلى الله تعالى والتوكل عليه والتسليم لأمره والقناعة بما رزقوا ، والإعراض عن الاعتراض عليه ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾[3] .

والصنف السابع منهم قوم مرابطون فى ثغور المسلمين فى وجوه الكفرة ، يجاهدون أعداء المسلمين ، ويحمون حمى المسلمين ويذبون عن حريمهم وديارهم .

---

(1) الجرح . الذنب الذى يجعل صاحبه غير أهل لرواية الحديث ، والتعديل هو إثبات الصفات التى تجعله غير عرضة للتجريح .

(2) السمت . الطريق .

(3) سورة الحديد : ٢١ ؛ سورة الجمعة : ٤ .

ويظهرون فى ثغورهم مذاهب أهل السنة والجماعة . وهم الذين أنزل الله تعالى فيهم قوله ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ (١) .

والصنف الثامن منهم عامة البلدان التى غلب فيها شعائر أهل السنة دون عامة البقاع التى ظهر فيها شعار أهل الأهواء الضالة . وإنما أردنا بهذا الصنف من العامة عامة واعتقدوا تصويب علماء السنة والجماعة فى أبواب العدل والتوحيد والوعد والوعيد ، ورجعوا إليهم فى معالم دينهم ، وقلدوهم فى فروع الحلال والحرام ، ولم يعتقدوا شيئاً من بدع أهل الأهواء الضالة . وهؤلاء الذين سمتهم الصوفية حشو الجنة ، فهؤلاء أصناف أهل السنة والجماعة ومجموعهم أصحاب الدين القويم والصراط المستقيم » .

---

(١) سورة العنكبوت : ٦٩.

الملحق الحادي عشر

نسخة الشرط الذي كتبه عبد الله بن هارون أمير المؤمنين بخط يده في الكعبة (١)

« هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، في صحة من عقله وجواز أمره ، وصدق نية فيما كتب في كتابه هذا ، ومعرفة بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين ، أن أمير المؤمنين هارون ولاني العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين في سلطانه بعد أخي على محمد بن هارون الوفاء بما عقد لي من الخلافة وولاية أمور العباد والبلاد بعده ، وولاية خراسان وجميع أعمالها ، ولا يعرض لي في شيء مما أقطعني أمير المؤمنين ، وابتاع لي من الضياع والعُقد والرباع ، وابتعت منه من ذلك ، وما أعطاني أمير المؤمنين من الأموال والجواهر والكساء والمتاع والدواب والرقيق وغير ذلك ولا يعرض لي ولا لأحد من عمالي وكتّابي بسبب محاسبة ، ولا يتبع لي في ذلك ولا لأحد منهم أبداً ، ولا يدخل عليّ ولا عليهم ولا على من كان معي ومن استعنت به من جميع الناس ، مكروهاً في نفس ولا دم ولا شعر ولا بشر ولا مال ، ولا صغير من الأمور ولا كبير . فأجابه إلى ذلك وأقربه ، وكتب له كتاباً أكد فيه على نفسه ورضى به أمير المؤمنين هارون ، وقبله وعرف صدق نيته فيه . فشرطت لأمير المؤمنين وجعلت له على نفسي أن أسمع لمحمد وأطيع ولا أعصيه ، وأنصحه ولا أغشه ، وأوفى ببيعته ، وولايته ، ولا أغدره ولا أنكث ، وأنفذ كتبه وأموره ، وأحسن مؤازرته وجهاد عدوه في ناحيتي ماوفى لي بما شرط لأمير المؤمنين في أمري ، وسمى في الكتاب الذي كتبه لأمير المؤمنين ورضى به أمير المؤمنين ، ولم يتبعني بشيء من ذلك ، ولم ينقص أمراً من الأمور التي شرطها أمير المؤمنين لي عليه . فإن احتاج محمد بن أمير المؤمنين إلى جند وكتب إلى يأمرني بإشخاصه إليه ، أو إلى

(١) الطبري ج ١٠ ص ٧٦ – ٧٧ .

ناحية من النواحي، أو إلى عدو من أعدائه خالفه أو أراد نقض شيء من سلطانه أو سلطاني الذي أسنده أمير المؤمنين إلينا وولانا إياه ، فعلي أن أنفذ أمره ، ولا أخالفه ولا أقصر في شيء كتب به إلي . وإن أراد محمد أن يولي رجلا من ولده العهد والخلافة من بعدي ، فذلك له ما وفى لي بما جعله أمير المؤمنين إلي واشترطه لي عليه وشرط على نفسه في أمري ، وعلي إنفاذ ذلك والوفاء له به ، ولا أنقص من ذلك ولا أغيره ولا أبدله ولا أقدم قبله أحداً من ولدي ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين إلا أن يولي أمير المؤمنين هارون أحداً من ولده العهد من بعدي ، فيلزمني ومحمداً الوفاء له وجعلت لأمير المؤمنين ومحمد علي الوفاء بما شرطت وسميت في كتابي هذا ، ما وفى لي محمد بجميع ما اشترط لي أمير المؤمنين عليه في نفسي وما أعطاني أمير المؤمنين من الأسماء المسماة في هذا الكتاب الذي كتبه لي . وعلي عهد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمتي وذمم آبائي وذمم المؤمنين وأشد ما أخذ الله على النبيين والمرسلين من خلقه أجمعين ، من عهوده ومواثيقه والإيمان المؤكدة التي أمر الله بالوفاء بها ونهى عن نقضها وتبديلها ، فإن أنا انقضت شيئاً مما شرطت وسميت في كتابي هذا ، أو غيرت أو بدلت أو نكثت أو غدرت ، فبرئت من الله عزّ وجل ، ومن ولايته ودينه ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقيت الله يوم القيامة كافراً مشركا ، وكل امرأة هي لي اليوم أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة ، طالقاً ثلاثاً البتة طلاق الحرج ، وكل مملوك لي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله . وعلي المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجة نذراً واجباً علي في عنقي حافياً راجلا ، لا يقبل الله مني إلا الوفاء بذلك ، وكل مال لي أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدى بالغ الكعبة . وكل ماجعلت لأمير المؤمنين وشرطت في كتابي هذا ، لازم لي ، لا أضمر غيره ، ولا أنوى غيره. وشهد سليمان بن أمير المؤمنين وفلان ، وكتب في ذي الحجة سنة ست وثمانين ومائة » :

الملحق الثاني عشر

ذكر بناء المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل(1)

« قال أحمد بن أبي طاهر : ذكر أصحاب التاريخ أن بناء المأمون ببوران بنت الحسن كان في شهر رمضان في سنة عشر ومائتين هـ ، وأنه لما مضى إلى فم الصلح إلى معسكر الحسن بن سهل حمل معه إبراهيم بن المهدي ، ومر بالمصلبين الذين كانوا مع إبراهيم بن عائشة في المطبق ، فأمر بإنزالهم ، وكانوا مصلبين على الجسر الأسفل . وكان إنزالهم في جمادى الأولى ليلة الثلاثاء لأربع ليال بقين منه ولما كان من غد يوم الأربعاء أمر بإنزال إبراهيم بن عائشة ، فكفن وصلى عليه . ودفن في مقابر قريش كما ذكرنا في خبر ابن عائشة آنفاً .

حدثني الحارث بن نصر المنجم . وكان من أصحاب الحسن بن سهل قال : لما زار المأمون الحسن بن سهل للبناء ببوران . ركب من بغداد زورقاً حتى أرفى على باب الحسن بن سهل . وكان العباس بن المأمون قد تقدم على الظهر . فتلقاه الحسن خارج عسكره في موضع كان اتخذ له على شاطىء دجلة بنى له فيه جوسق . فلما عاينه العباس ثنى رجله لينزل ، فحلف عليه ألا يفعل . فلما ساواه ثنى رجله الحسن لينزل ، فقال له العباس : بحق أمير المؤمنين لا تنزل فاعتنقه الحسن وهو راكب .

ثم أمر له أن يقدم إليه دابته ودخلها جميعاً إلى منزل الحسن . ووافى المأمون في وقت العشاء ، وذلك في شهر رمضان من سنة عشر ومائتين ، فأفطر هو والحسن والعباس ودينار بن عبد الله قائم على رجله ، حتى فرغوا من الإفطار وغسلوا أيديهم ، فدعا المأمون بشراب . فأتى بجام ذهب فصب فيه وشرب ، فمد يده بجام فيه شراب إلى الحسن فتبطأ عنه الحسن لأنه لم يكن يشرب قبل ذلك ، فغمز دينار بن عبد الله الحسن فقال الحسن : يا أمير المؤمنين ! أشربه بإذنك وأمرك ، فقال له المأمون : لولا أمرى لم أمد يدى إليك فأخذ الجام فشربه .

(1) أحمد بن طاهر طيفور : كتاب تاريخ بغداد ص ٢٠٦ — ٢١١

فلما كان فى الليلة الثانية ، جمع بين محمد بن الحسن بن سهل والعباسة بنت الفضل ذى الرياستين ، فلما كان فى الليلة الثالثة دخل على بوران وعندها حمدونة وأم جعفر وجدتها . فلما جلس المأمون معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت فى صينية ذهب ، فأمر المأمون بأن تجمع . وسألها عن عدد الدر كم هو ، فقالت : ألف حبة ، فأمر المأمون بعدها فنقصت عشرة ، فقال : من أخذها منكم ؟ ردوها فقالوا حسين زجلة (بحسب الطبرى فى النسخة رخلة) ، فأمر بردها فقال : يا أمير المؤمنين ! إنما نثر لنأخذه ، قال فإنى أخلفها عليك فردها . وجمع المأمون ذلك الدر فى الآنية ووضع فى حجرها وقال : هذه نحلتك فاسألى حوائجك ، فأمسكت فقالت لها جدتها : كلمى سيدك واسأليه حوائجك فقد أمرك ، فسألته الرضى عن إبراهيم بن المهدى ، فقال قد فعلت ، وسألته الإذن لأم جعفر فى الحج فأذن لها . ولبستها أم جعفر البدنة الأموية ، وابتنى بها فى ليلته ، وأوقد فى تلك الليلة شمعة عنبر فيها أربعون منا فى تنور ذهب ، فأنكر المأمون ذلك عليهم وقال : هذا سرف .

فلما كان من غد ، دعا بإبراهيم بن المهدى فجاء يمشى من شاطىء دجلة عليه مبطنة ملحم وهو متعمم بعمامة حتى دخل . فلما رفع الستر عن المأمون رمى بنفسه فصاح المأمون : ياعم ! لا بأس عليك ، فدخل فسلم عليه تسليم الخلافة وقبل يده وأنشده شعراً ، ودعا بالخلع فخلع عليه خلعة ثانية ودعا له بمركب ، وقلده سيفاً وخرج ، فسلم على الناس ورد إلى موضعه . قال الحارث : وأقام المأمون سبعة عشر يوماً يعد له فى كل يوم والجميع من معه ما يحتاج إليه . قال : وخلع الحسن بن سهل على القواد على مراتبهم وحملهم ووصلهم .

وكان مبلغ النفقة عليه خمسين ألف ألف درهم قال : وأمر المأمون غسان ابن عباد عند منصرفه أن يدفع إلى الحسن عشرة آلاف آلف من مال فارس وأقطعه الصلح ، فحملت إليه على المكان . وكانت معدة عند غسان بن عباد قال : فجلس الحسن ففرقها فى قواده وأصحابه وحشمه وخدمه . قال : ولما انصرف المأمون شيعه الحسن ثم رجع إلى فم الصلح .

فحدثنى الفضل بن جعفر بن الفضل قال : حدثنى أحمد بن الحسن بن سهل قال : كان أهلنا يتحدثون أن الحسن بن سهل كتب رقاعا فيها أسماء ضياعه ونثرها على القواد وعلى بنى هاشم ، فمن وقعت فى يده رقعة منها فيها اسم الضيعة بعث فتسلمها .

وقال أبو الحسن على بن الحسن بن عبد الأعلى الكاتب قال : حدثنى الحسن ابن سهل يوما بأشياء كانت فى أم جعفر . ووصف رجاحة عقلها وفهمها ، ثم قال : سألها يوما المأمون بفم الصلح حين خرج للبناء على بوران وسأل حمدونة بنت غضيض عن مقدار ما أنفقت فى ذلك الأمر ، فقالت حمدونة : أنفق خمسة وعشرين ألف ألف ، فقالت أم جعفر : ماصنعت شيئاً ، قد أنفق مابين خمسة وثلاثين ألف ألف ، إلى سبعة وثلاثين ألف ألف درهم . قال : وأعددنا له شمعتين عنبر . قال : فدخل بها ليلا فأوقدتا بين يديه ، فكثر دخانهما فقال : ارفعوهما فقد آذانا الدخان وهاتوا الشمع ، قال : ونحلتها أم جعفر فى ذلك اليوم الصلح . قال : فكان سبب عود الصلح إلى ملكى ، وكانت قبل ذلك لى .

فدخل على يوماً حميد الطوسى فأقرأنى أربعة أبيات امتدح بها ذا الرياستين ، فقلت له نفذها لك إلى ذى الرياستين وأقطعك الصلح فى العاجل إلى أن تأتى مكافأتك من قبله ، فأقطعته إياها . ثم ردها المأمون على أم جعفر فنحلتها بوران ، وحدثنى على بن الحسين قال : كان الحسن بن سهل لايرفع الستور عنه ، ولايرفع الشمع من بين يديه حتى تطلع الشمس ويتبينها إذا نظر إليها ، وكان متطيراً يحب أن يقال له إذا دخل عليه : انصرفنا من فرح وسرور ، ويكره أن يذكر له جنازة أو موت واحد » .

وكان الخليفة العزيز بالله الفاطمى ، كخمارويه بن أحمد بن طولون ، مشغوفا بجوارح الطير الغرية ، وجلب لذلك الطيور والحيوانات من السودان ، وكان مغرماً أيضاً بالصيد ، وخاصة صيد السباع [1] ، وولع بعض الخلفاء الفاطميين بالصيد ، وكان الخليفة الآمر يعطى الرهبان فى دير نهيا [2] بالقرب من الجيزة عشرة آلاف درهم كلما خرج للصيد بالقرب من هذا الدير [3] .

(١) ابن خلكان وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٢) وصف . الشابشتى (Aziz Suryal Atiya : Some Egyptian Monasteries Acording to tha Uapublished Ms, of al-Shabushti'sKitab Ai-Diyarat,p17)

أن دير نهيا بالجيزة « من أحسن الديارات وأنزهها وأطيبها ، عامر برهبانه وسكانه . وله فى النيل منظر عجيب ، لأن الماء يحيط به من جميع جهاته . فإذا انصرف الماء وزرع ، أظهرت أراضيه غرائب النوار ، وأصناف الزهر ، فهو من المتنزهات الموصوفة والبقاع المشهورة . وله خليج يجتمع إليه سائر الطيور ، فهو أيضا متصيد حسن » .

(٣) أبو صالح : كنائس وأديرة مصر ص ٧٧ — ٧٨ . ناصر خسرو : Nasri - i Safar Nameh. pp. 155—156. انظر كتاب « تاريخ الدولة الفاطمية » للمؤلف .

ملاحق الكتاب

الملحق الأول

كيف كان عضد الدولة يقضى يومه (١)

« فإنه كان يباكر دخول الحمام ، فإذا خرج منه ولبس ثيابه أدى فرض الصلاة ، ودخل إليه خواصه وحواشيه ، فجلس منهم أبو القاسم المطهر بن عبد الله وزيره ومن قام مقامه بعده . فسأله عما عمله فيما سبق التقدم به إليه ، فيخبره بذلك . ثم يذكر له ما عرض من الأمور ويستأذنه فى كل أمر ، فيوعز إليه بما يعتمده فيه ، ويفعل مثل ذلك مع أبى الحسن على بن عمارة وأبى عبد الله بن سعدان عارضى الجيش : ذاك للديلم وهذا للأتراك والأعراب والأكراد . فإذا ترحل النهار سأل عن ورود النوب المترددة بالكتب ، ولها وقت معلوم تصل فيه وتراعى من ساعات النهار . فإذا اتفق أن تأخرت قامت القيامة ووقع البحث عن العارض العائق ، فإن كان بعائق ظاهر فيه عذر قبل ، أو عن أمر يحتاج إلى إزالته أزيل ، أو من تقصير النوبيين أنزل العذاب بهم . ولقد ذكر بعض الطراد(٢) أن أحد المرتبين قالت له امرأته : قد طبخنا رزاً نتوقف لتأكل منه وتمضى ، فتوقف بقدر ما أكل، وتأخرت النوبة ذلك المدى ، فضرب الطراد والمرتبون ما بين شيراز إلى بغداد أكثر من ثلاثة آلاف عصا . لاجرم أن النوب كانت تصل من شيراز فى سبعة أيام. وكان يحمل مع المرتبين بواكير الفواكه والمشموم من نواحى فارس وخوزستان فتصل طرية سليمة . وقيل إن بعض أصاغر الحواشى حمل فى النوبة من همذان فى كنانة (٣) ، دنانير يسيرة إلى منزله . وقد كانت عاداتهم جارية بذلك ، فقصرت عن أهلها . وعرف عضد الدولة الخبر ، فلم يزل يكشف عن ذلك إلى أن ظهر للخرائطى أخذ الدنانير فأمر بقطع يده .

---

(١) أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ج ٣ ص ٤٠ — ٤٣ .

(٢) من المطاردة وهى الأجراء للسباق ، والمراد هنا أحد المشرفين فى خط البريد .

(٣) فى الأصل كتابة ، والصواب كنانة ؛ وهى جعبة السهام وتصنع من أدم .

فإذا وصلت النوبة كان فض ختومها وفتح خرائطها وإخراج الكتب منها بحضرته ، ويأخذ منها ما كان إلى مجلسه . ويخرج الباقي إلى ديوان البريد فيفرق على أربابه ، ثم يقرأ الكتب إليه كتاباً كتابا ويعارحه إلى أبي القاسم عبد العزيز . فإذا تكامل وقوفه عليها جدد أبو القاسم قراءتها عليه ، فيأمره في جواب كل فصل بما يوقع به تحته ، وأخرج منها ما يأمر بإخراجه ليوجه عليه المطهر بن عبد الله أو من يجرى مجراه في تذكرة وهي أبداً بين يديه ، يعلق فيها ما يعرض له . ثم يسأل عن الطعام عند فراغه من ذلك فإذا حضر الوقت الذى رسمه بالأكل فيه ، استدعاه فأصاب منه ، وطبيب النوبة قائم على رأسه ، وهو يسأله عن شيء من منافع الأغذية ومضارها . ثم يغسل يده وينام ، فإذا انتبه جدد الوضوء وصلى الصلاة الوسطى ، وخرج إلى مجلس الشرب فجلس وحضر الندماء والمهون .

ووافى أبو القاسم بن عبد العزيز فقعد بحضرته على رسمه ، وعرض عليه ما كتبه الكتاب أو كتبه هو بنفسه من أجوبة الكتب الواردة ، فربما زاد فيها أو نقص منها . ثم تصلح وتختم وتجعل في إسكدارها ، وتحمل إلى ديوان البريد فتصدر في وقتها ، ومتى غاب أبو القاسم ابن عبد العزيز لأمر يقطعه أو تأخر في داره واحتيج إلى كتاب يكتب ، يستدعى كاتب النوبة ، فأجلس بين يديه ، وتقدم بما يريده إليه ، وأملاه عليه وهو مع ذلك يشرب ويسمع الغناء ويسأل عما يمضى من أشعاره وما يجب معرفته من أخباره ، ولا يزال على ذلك إلى أن يمضى صدر الليل ثم يأوى إلى فراشه .

وإذا كان يوم موكب برز للأولياء ولينهم ببشر وتأنيس تعلوهما هيبة ووقار ، وأجاب كل ذى حاجة بما يجب في السياسة من بذل ومنع . وتفرق الناس عند انتصاف النهار ، وأقام أصحاب الدواوين وكتابهم إلى حين غروب الشمس . فأما عموم الأيام فإن الأمر يجرى على ما تقدم ذكره ...

فأما ما ذكر في أمر تدبيره لجنده ، فقد كانت أموالهم مطلقة في أوقاتها متبعة في تصرفاتها ، وأكثر كتابهم وأصحابهم عوناً له عليهم . وطبل العطاء يضرب في كل يوم ، ويحضر من تنتهى إليه الدعوة من القواد ، ومعه أصحابه بأحسن رتبة ، فقبض ماله ، والزيادات في الأصول محظورة على العموم ، إلا عند الفتوح وما تدعو السياسة إليه من استمالة القلوب » .

الملحق الثانى

سياسة يعقوب بن الليث الصفار (١)

«كانت سياسة يعقوب بن الليث لمن معه من الجيوش سياسة لم يسمع بمثلها فيمن سلف من الملوك فى الأمم الغابرة من الفرس وغيرهم ممن سلف وخلف، وحسن انقيادهم لأمره واستقامتهم على طاعته، لما كان قد شملهم من إحسانه وغمرهم من بره وملأ قلوبهم من هيبته.. واتخذ لنفسه عريشاً من خشب يشبه السرير حيثما توجه من مسيرة، فيكثر الجلوس عليه ويشرف منه على أهل عسكره وعلى قضيم (٢) دوابه ويؤمن الخلل من وكلائه، فإذا رأى شيئاً يكرهه بادر بتغييره. وقد كان انتخب من أصحابه ألف رجل على اختيار لهم، والغنى الظاهر منهم والنكاية فى حروبهم، فجعلهم أصحاب الأعمدة الذهب، كل عمود منها فيه ألف مثقال من الذهب، ثم يليهم فى اللباس والغنى فوج ثان أصحاب الأعمدة الفضة. فإذا كان فى الأعياد أو فى الأيام التى يحتاج فيها إلى مباهاة الأعداء والاحتفال، دفع إليهم تلك الأعمدة، وإنما ضربت هذه الأعمدة للنوائب.

«وسئل بعض ثقاته ممن ينظر حاله عن أشغاله فى خلواته وعن مجالسته فى أهل بطانته وهل يسير مع أحد أو يجالسه، فذكر أنه لا يطلع أحداً على سره، ولا أحد بتدبيره وعزمه. و[يكون] أكثر نهاره خالياً بنفسه يفكر فيما يريده، ويظهر ما يضمره، ولا يشرك أحداً فيما يريده برأى ولا غيره. وإن تفرجه وانشغاله بغلمان صغار يتخذهم ويؤدبهم ويخرجهم ويدعوهم ويدفع لهم ما قد عمله لهم من السيور يتضاربون بها بين يديه ففى هذا أكثر شغله إذا فرغ من تدبيره. ولما وقع الصفار الحسن بن زيد الحسينى بطبرستان، وذلك فى سنة ستين ومائتين، وقيل سنة تسع وخمسين ومائتين، وانكشف الحسن بن زيد وأمعن يعقوب فى الطلب، وكانت معه رسل السلطان قد قصدوه بكتب ورسالة من المعتمد وهم راجعون فى طلب الحسن بن زيد، قال له بعضهم، لما رأى من طاعة رجاله وما كان منهم فى تلك الحرب: ما رأيت أيها الأمير كاليوم؟ قال له الصفار: وأعجب منه ما أريك إياه، ثم قربوا من الموضع الذى كان فيه عسكر الحسن بن زيد، فوجدوا

---

(١) المسعودى: مروج الذهب ج ٢ ص ٤٤٣ – ٤٤٥.

(٢) قضيم الدواب: صوتها وهى تأكل، من قضمت الدابة الشعير أى كسرته بأطراف أسنانها.

البدر والكراع والسلاح والعدد وجميع ما خلف في العسكر حين الهزيمة ، على حاله لم يلتبس أحد من أصحابه منه بشيء ، ولا دنوا إليه معسكرين بالقرب منه ، من حيث يرونه بالموضع الذى خلفهم فيه الصفار ، فقال له الرسول . هذه سياسة ورياضة راضهم الأمير بها إلى أن تأتى له منهم ما أراد . وكان لا يجلس إلا على قطعة مسح يشبه أن يكون طوله سبعة أشبار في عرض ذراعين أو أرجح . وإلى جانبه ترسه عليه اتكاؤه ، وليس في مضربه شيء غيره ، فإذا أراد أن ينام من ليله أو نهاره ، اضطجع على ترسه ونزع راية فيجعلها مخدته . وأكثر لباسه خفتان مصبوغ فاختى .

وكان من سنته [أن] للقواد والرؤساء والعظماء عنده مراتب في الدخول بباب مضربه ، بحيث تقع عينه عليهم ويرى مداخلهم ، فيمرون مع أطناب (١) الشقاف إلى خيمة مضروبة بحيث لايرى هو موضعها ، لكنه يرى مداخلهم إليها ومخرجهم منها ، فمن احتاج إليه منهم واحتاج إلى كلامه أو أمره أو نهيه دعاه فأمره . وكان دخولهم بحيث يقع نظره عليهم عوضاً من السلام عليه ، ولم يكن لأحد أن يتقدم إلى باب مجلسه إلا رجل من خواصه يعرف بالعزيز وإخوته ، وله من وراء خيمته خيمة تقرب من أطناب مجلسه فيها غلمان من خواصه . فإذا احتاج إلى أمر يأمره به ، صاح بهم فخرجوا إليه ، وإلا فهو في أكثر نهاره وليله في ذلك الموضع لا يقومون على رأسه . وخيمته داخل أخبية (٢) مطنبة كلها ، يدور فيها خمسمائة غلام يبيتون من داخل مضربه، على كل نفس منهم ثقة وكل يتفقد أحواله لئلا يكون منهم عبث أو فساد فهو المأخوذ به . وقال بعض من ورد إليه برسالة السلطان (تمنى الخليفة العباسي) : أيها الأمير ! أنت في رياستك ومجلسك ليس في خيمتك إلا سلاحك ومسح (٣) أنت عليه . قال : إن رئيس القوم يأتم به أصحابه في أفعاله وسيرته ، فلو استعملت ما ذكرت من الأثاث لأثقلنا البهائم ولأتم بي في فعلى من في عسكرى. ونحن نقطع في كل يوم الهيامة (٤) والمفاوز والأودية والقيعان (٥) ، ولا يصلح لنا إلا التخفيف . وكان قليل الاستعمال للبغال في عسكره ، وكان في عسكره خمسة آلاف جمل بختى (٦) وأضعاف عددها حمير

(١) الطنب بضم الطاء وسكون النون (أو ضمها) : الحبل تشد به الخيمة ؛ ومطنب مشدود بالحبال.
(٢) الخباء هو كل مايعمل من وبر أو صوف ، وقد يكون من شعر ، والجمع أخبية من كساء وأكسية ، ويكون على عمودين أو ثلاثة ، وما فوق ذلك فهو بيت .
(٣) المسح بالكسر : البلاس أو اللباس وجمعها مسوح كحمل وحول .
(٤) هام يهيم على وجهه لايدرى أين يتوجه، والهيماء : المفازة التى لاماء فيها ، ورجل هيمان عطشان.
(٥) القاع والقيعة ، وجمعها قيعان ، المستوى من الأرض الذى لاينبت .
(٦) البختى بضم الباء وتسكين الخاء : واحد البخت والبخاتى وهى الإبل الخراسانية ، وفى الأصل جمل بخت.

شهب كالبغال ، وهى الحمير المعروفة بالصفارية تحمل الأثقال عوضاً عن البغال . وكان السبب فى ذلك أنه إذا نزل خليت الجمال والحمير للرعى وليس فى وسع البغال ذلك .

الملحق الثالث

رد الإخشيد على كتاب أرمانوس إمبراطور الروم (١)

وكتب محمد بن طغج (صاحب الديار المصرية وما معها من البلاد الشامية والأعمال الحجازية) إلى أرمانوس ملك الروم : من محمد بن طغج مولى أمير المؤمنين ، إلى أرمانوس عظيم الروم ومن يليه . . .

أما بعد فقد ترجم لنا كتابك الوارد مع نقولا وإسحاق رسوليك ، فوجدناه مفتتحاً بذكر فضيلة الرحمة ، وما نمى عنا إليك وصح من شيمنا فينا لديك ، وبما نحن عليه من المعدلة وحسن السيرة فى رعايانا ، وما وصلت به من هذا القول من ذكر الفداء والتوصل إلى تخليص الأسرى إلى [غير] ذلك مما اشتمل عليه وتضمناه . . .

وإنك إنما خصصتنا بالمكاتبة لما تحققته من حالنا عندك ، فإن ذلك لو كان حقاً وكانت منزلتنا كما ذكرته تقتصر عن منزلة من تكاتبه ، وكان لك فى ترك مكاتبنا غنم ورشد ، لكان من الأمر البين أن أحظى وأرشد وأولى بمن حل محلك أن يعمل بما فيه صلاح رعيته ، ولا يراه وصمة ولا نقيصة ولا عيباً ، ولا يقع فى معاناة صغيرة من الأمور تعقبها كبيرة ، فإن السائس الفاضل قد يركب الأخطار ويخوض الغمار ، ويعرض مهجته فيما ينفع رعيته ، والذى تجشمته من مكاتبتنا ، إن كان كما وصفته ، فهو أمر سهل يسير لأمر عظيم خطير ، وجل نفعه وصلاحه وعائدته تخصكم لأن مذهبنا انتظار إحدى الحسنيين . فمن كان منا فى أيديكم فهو على بينة من ربه وعزمة صادقة من أمره وبصيرة فيما يسبيله ، وإن فى الأسارى من يؤثر مكانه من ضنك الأسر وشدة البأساء على نعيم الدنيا وخيرها لحسن منقلبه وحميد عاقبته ، ويعلم أن الله تعالى قد أعاذه من أن يفتنه (٢) ولم يعذه (يحفظه) من أن يبتليه . هذا إلى أوامر الإنجيل الذى هو إمامكم ، وما توجبه

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ ص ١٠ — ١٨ .

(٢) يعنى يبتليه بأمور على سبيل المحنة والتمحيص .

عليكم عزائم سياستكم والتوصل إلى استنقاذ أسرائكم . ولولا أن إيضاح القول فى الصواب أولى بنا من المسامحة فى الجواب : لأضربنا عن ذلك صفحاً إذ رأينا أن نمس السبب الذى من أجله سما إلى مكاتبة الخلفاء عليهم السلام من كاتبهم أو عدا عنهم إلى من حل محلنا فى ولتهم ، بل إلى من نزل عن مرتبتنا ، هو أنه لم يثق من منعه ورد ملتمسه ممن جاوره ، فرأى أن يقصد به الخلفاء الذين الشرف كله فى إجابتهم ، ولا عار على أحد وإن جل قدره فى ردهم . ومن وثق فى نفسه ممن جاوره ، وجد قصده أسهل السبيلين عليه وأدناهما إلى إرادته حسب ماتقدم. وكذلك كاتب من حل محلك من قصر عن محلنا ولم يقرب من منزلتنا ، فممالكنا عدة ، كان يتقلد فى سالف الدهر كل مملكة منها ملك عظيم الشأن (١) .

وأما الفداء ورأيك فى تخليص الأسر ، فإنا وإن كنا واثقين لمن فى أيديكم بإحدى الحسنيين ، وعلى بينة لهم من أمرهم ، وثبات من حسن العاقبة وعظم المثوبة ، عالمين بأنهم ، فإن فيهم من يؤثر مكانه من ضنك الأسر وشدة البأساء على نعيم الدنيا ولذتها ، سكوناً إلى ما يتحققه من حسن المنقلب وجزيل الثواب ، ويعلم أن الله قد أعاذه من أن يفتنه ولم يعذه من يبتليه ، وقد تبينا مع ذلك فى هذا الباب ما شرعه لنا الأئمة الماضون والسلف الصالحون ، فوجدنا ذلك موافقاً لما التمسته وغير خارج عما أحببته ، فسررنا بما تيسر منه ، وبعثنا الكتب والرسل إلى عمالنا فى سائر أعمالنا وعزمنا عليهم فى جمع كل من قبلهم وأتباعهم بما وفر الإيمان فى إنقاذهم ، وبذلنا فى ذلك كل ممكن ، وأخرجنا إجابتك عن كتابك ليتقدم فعلنا قولنا وإنجازنا وعدنا ، ويوشك أن يكون قد ظهر لك من ذلك ماوقع أحسن المواقع منك إن شاء الله . . .

والحمد لله أحق ما ابتدىء به وختم بذكره ، وصلى الله على محمد نبى الهدى والرحمة وعلى آله وسلم تسليما » .

---

(١) ورد فى هذا الكتاب أن سلطان الإخشيد شمل ما كان يسمى قديما ملك مصر ، وممالك اليمن ، وأجناد الشام التى منها جند حمص ، وجند دمشق ، وجند الأردن ، وجند فلسطين ، وما يتقلده من أمر مكة والمدينة ، وأن سياسته هذه البلاد كانت ترمى إلى تأليف قلوب الرعية وجمعهم على الطاعة وإقرار الأمن والدعة فى المعيشة وكسبها المودة والمحبة ـ صبح الأعشى ج ٧ ص ١٣ ـ ١٤ .

الملحق الرابع

الموقعة التي دارت ببلاد الشام بين محمد بن سليمان الكاتب والحسين بن زكرويه

المعروف بصاحب الشامة (١)

« ولما كان يوم الثلاثاء لست ليال خلون من المحرم (سنة ٢٩١ هـ) ، رحلت من الموضع المعروف بالقروانة نحو موضع يعرف بالعليانة في جميع العسكر من الأولياء ، وزحفنا بهم على مراتبهم في القلب والميمنة والميسرة وغير ذلك . فلم أبعد أن وافاني الخبر بأن الكافر القرمطي أنفذ النعمان ابن أخي إسماعيل بن النعمان أحد دعاته في ثلاثة آلاف فارس وخلق من الرجالة ، وأنه نزل بموضع يعرف بتمنع ، بينه وبين حماه اثنا عشر ميلا . فاجتمع إليه جميع من كان بمعرة النعمان وبناحية الفصيصي وسائر النواحي من الفرسان والرجالة . فأسررت ذلك عن القواد والناس جميعاً ولم أظهره ، وسألت الدليل الذي كان معي عن هذا الموضع ، وكم بيننا وبينه ، فذكر أنه ستة أميال ، فتوكلت على الله عز وجل وتقدمت إليه في المسير نحوه ، فمال بالناس جميعاً ، وسرنا حتى وافيت الكفرة ، فوجدتهم على تعبئة ، ورأينا طلائعهم .

فلما نظروا إلينا مقبلين ، زحفوا نحونا ، وسرنا إليهم . فافترقوا ستة كراديس ، وجعلوا على ميسرتهم ، على ما أخبرني من ظفرت به من رؤسائهم ، مسرورا العليصي وأبا الحمل وغلام هارون العليصي وأبا العذاب ورجاء وصافي وأبا يعلى العلوي في ألف وخمسمائة فارس ، وكمنوا كمينا في أربعمائة فارس خلف ميسرتهم بإزاء ميمنتنا ، وجعلوا في القلب النعمان العليصي ، والمعروف بأبي الحطي والحمارى وجماعة من بطلانهم في ألف وأربعمائة فارس وثلاثة آلاف رجل ، وفي ميمنتهم كليباً العليصي والمعروف بالسديد العليصي والحسين بن العليصي وأبا الجراح العليصي وحميدا العليصي وجماعة من نظرائهم في ألف وأربعمائة فارس ، وكمنوا مائتي فارس ، فلم يزالوا زفا (٢) إلينا ونحن نسير نحوهم غير متفرقين ، متوكلين على الله عز وجل . وقد استحثت

---

(١) الطبري ج ١١ ص ٣٨٦ — ٣٨٨ .

(٢) زف يزف زفا وزفوفا وزفيفا : أسرع .

الأولياء والغلمان وسائر الناس وغيرهم ، ووعدتهم . فلما رأى بعضنا بعضاً حمل الكردوس الذى كان فى ميسرتهم ضرباً بالسياط ، فقصد الحسين بن حمدان وهو فى جناح الميمنة ، فاستقبلهم الحسين بارك الله عليه وأحسن جزاءه بوجهه وبعوضه من سائر أصحابه برماحهم ، فكسروها فى صدورهم ، فانفلوا عنهم .

وعاود القرامطة الحمل عليهم ، وأخذوا السيوف واعترضوا ضرباً للوجوه ، فصرع من الكفار الفجرة ستمائة فارس فى أول واقعة ، وأخذ أصحاب الحسين خمسمائة فرس وأربعمائة طوق فضة ، وولوا مدبرين مفلولين ، وأتبعهم الحسين فرجعوا عليه ، فلم يزالوا حملة وحملة . وفى خلال ذلك يصرع منهم الجماعة بعد الجماعة ، حتى أفناهم الله عز وجل ، فلم يفلت منهم إلا أقل من مائتى رجل . وحمل الكردوس الذى كان فى ميمنتهم على القاسم بن سيما ويمن الخادم ومن كان معهما من بنى شيبان وبنى تميم ، فاستقبلوهم بالرماح حتى كسروها فيهم . واعتنق بعضهم بعضاً ، فقتل من الفجرة جماعة كثيرة . وحمل عليهم فى وقت حملتهم خليفة بن المبارك ولؤلؤ ، وكنت قد جعلته جناحاً لخليفة فى ثلثمائة فارس ، وجميع أصحاب خليفة وهم يعاركون بنى شيبان وتميم فقتل من الكفرة مقتلة عظيمة وأتبعوهم . فأخذ بنى شيبان منهم ثلثمائة فرس ومائة طوق ، وأخذ أصحاب خليفة مثل ذلك .

وزحف النعمان ومن معه فى القلب إلينا ، فحملت ومن معى ، وكنت بين القلب والميمنة . وحمل خاقان ونصر القشورى ومحمد بن كمشجور ومن كان معهم فى الميمنة ، ووصيف موشكير ومحمد بن إسحاق كنداجيق وابنا كيغلغ والمبارك القمى وربيعة بن محمد ومهاجر بن طليق والمظفر بن حاج وعبد الله بن حمدان وحى الكبير ووصيف البكتمرى وبشر البكتمرى ومحمد بن قراطغان . وكان فى جناح الميمنة جميع من حمل على من فى القلب ومن انقطع ممن كان حمل على الحسين بن حمدان ، فلم يزالوا يقتلون الكفار فرسانهم ورجالتهم حتى قتلوا أكثر من خمسة أميال . ولما أن تجاوزت المصاف بنصف ميل ، خفت أن يكون من الكفار مكيدة فى الاحتيال على الرجالة والسواد . فوقفت إلى أن لحقونى ، وجمعتهم ، وجمعت الناس إلى ، وبين يدى المطرد المبارك مطرد أمير المؤمنين ، وقد حملت فى الوقت الأول ، وحمل الناس .

ولم يزل عيسى النوشرى ضابطاً للسواد من مصاف خلفهم مع فرسانه ورجالته على يد مارمته له . فلم يزل من موضعه إلى أن رجع الناس جميعاً إلى من كل موضع .

وضربت مضربى فى الوضع الذى وقفت فيه حتى نزل الناس جميعاً . ولم أزل واقفاً إلى أن صليت المغرب ، حتى استقر العسكر بأهله ، ووجهت فى الطلائع ، ثم نزلت وأكثرت حمداً لله على ما هنأنا به من النصر . ولم يبق أحد من قواد أمير المؤمنين وغلمانه ولا العجم وغيرهم غاية فى نصر هذه الدولة المباركة ، فى المناصحة لها إلا بلغوها ، بارك الله عليهم جميعاً . ولما استراح الناس خرجت والقواد جميعاً لتقيم خارج العسكر إلى أن يصبح الناس خوفاً من حيلة تقع . وأسأل الله تمام النعمة وإيزاع (١) الشكر . وأنا ، أعز الله سيدنا الوزير . راحل إلى حماه ، ثم أشخص إلى سلمية بعن الله تعالى وعونه ، فمن بقى من هؤلاء الكفار مع الكافر ، فهم بسلمية ، فإنه قد صار إليها منذ ثلاثة أيام ، واحتاج إلى أن يتقدم الوزير بالكتاب إلى جميع القواد وسائر بطون العرب من بنى شيبان وتغلب وبنى تميم ، يجزيهم جميعاً الخير على ما كان فى هذه الوقعة ، فما بقى أحد منهم ، صغير ولا كبير ، غاية . والحمد لله على ما تفضل به ، وإياه أسأل تمام النعمة » .

الملحق الخامس

الجدل بين طائفتى المعتزلة وأهل السنة والجماعة (٢)

« ثم لما كثرت العلوم والصنائع ، وولع الناس بالتدوين والبحث فى سائر الأنحاء ، وألف المتكلمون فى التنزيه ، حدثت بدعة المعتزلة فى تعميم هذا التنزيه فى السلوب (٣) ، فقضوا بنفى صفات المعانى مع العلم والقدرة والإرادة والحياة زائدة على أحكامها لما يلزم على ذلك من تعدد القديم بزعمهم ؛ وهو مردود بأن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها . وقضوا بنفى السمع والبصر لكونهما من عوارض الأجسام ؛ وهو مردود لعدم اشتراط البنية فى مدلول هذا اللفظ . وإنما هو إدراك المسموع أو المبصر . وقضوا بنفى الكلام لشبه ما فى السمع والبصر . ولم يعقلوا صفة الكلام التى تقوم بالنفس ، فقضوا بأن القرآن مخلوق ،

---

(١) التوزيع كالإيزاع ، معناه القسمة والتفريق أى توزيع الشكر على الناس .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٥ — ٤٠٦ .

(٣) أى فى أنواع النفى والسلب بتنزيه الله عن كل مالا يليق به من الصفات .

بدعة صرح السلف بخلافها ، وعظم ضرر هذه البدعة ، ولقنها بعض الخلفاء عن أئمتهم [1] ، فحمل الناس عليها ، وخالفهم أئمة السلف ؛ فاستحل لخلافتهم أبشار [2] كثير منهم ودماؤهم . وكان ذلك سبباً لانتهاض أهل السنة بالأدلة العقلية على هذه العقائد ، دفعاً في صدور هذه البدع . وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعرى إمام المتكلمين ، فتوسط بين الطرق ونفى التشبيه ، وأثبت الصفات المعنوية ، وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف ، وشهدت له الأدلة المخصصة لعمومه ، فأثبت الصفات الأربع المعنوية ، والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق النقل والعقل ورد على المبتدعة فى ذلك كله ، وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والأصلح والتحسين والتقبيح ، وكمل للعقائد فى البعثة ، وأحوال الجنة والنار ؛ والثواب والعقاب . وألحق بذلك الكلام فى الإمامة ، لما ظهر حينئذ من بدعة الإمامية من قولهم إنها من عقائد الإيمان ، وإنه يجب على النبي تعيينها والخروج عن العهدة [3] فى ذلك لمن هى له ، وكذلك على الأمة [4] . وقصارى أمر الإمامة أنها قضية مصلحية إجماعية ، ولا تلحق بالعقائد ؛ فلذلك ألحقوها بمسائل هذا الفن . . وكثر أتباع الشيخ أبى الحسن الأشعرى ؛ واقتفى طريقته من بعده تلاميذه كابن مجاهد [5] وغيره ؛ وأخذ عنهم القاضى أبو بكر الباقلانى [6] . فتصدر للإمامة فى طريقتهم ؛ وهذبها ، ووضع

---

(١) أخذها المأمون والمعتصم عن أحمد بن أبى داود وبشر المريسى وغيرهما من متقدمى المعتزلة .

(٢) جمع بشر وهو الجلد ، يعنى استحل قتلهم وجلدهم .

(٣) أى تبرئة الذمة ببيان من تكون له الخلافة .

(٤) يريد أنه من الواجب على الأمة تعيين الإمام أو الخليفة إن لم يعينه سلفه .

(٥) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن يعقوب بن مجاهد ، الطائى البصرى ثم البغدادى ، أحد شيوخ المالكية وصاحب أبى الحسن الأشعرى ، وناصر مذهب أهل السنة ، غلب عليه علما الأصول والكلام ، وكان حسن الدين جميل الطريقة . وعنه أخذ القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المالكى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ علم الكلام ، وهو الذى رواه الباقلانى على الخروج الى شيراز لمناظرة المعتزلة بحضرة فناخسرو : كما ذكر المقرى فى أزهار الرياض .

وهو غير أبى بكر بن مجاهد شيخ القراء ، لأن هذا متقدم الوفاة ، وليس معاصرا للباقلانى (راجع ابن مجاهد المتكلم على طريقة الأشعرى فى تاريخ بغداد للخطيب ، الترجمة ٢٦١ ، وفى الديباج المذهب فى علماء المذهب لابن فرحون اليعمرى المالكى (انظر هامش المقرى : أزهار الرياض فى أخبار عياض ج ٣ ص ٨٥ — ٨٦ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بإشراف الأستاذ مصطفى السقا وآخرين) .

(٦) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٤٨١) « أنه كان على مذهب الأشعرى ، وأنه صنف كتبا كثيرة فى علم الكلام ، وكان أوحد زمانه ، وانتهت إليه الرياسة فى مذهبه . . وكان كثير التطويل فى المناظرة مشهورا بذلك عند الجماعة » وتوفى فى شهر ذى القعدة سنة ٤٠٣ هـ .

المقدمات العقلية التى تتوقف عليها الأدلة والأنظار . . . وجعل هذه القواعد تبعا للعقائد الإيمانية فى وجوب اعتقادها ، لتوقف تلك الأدلة عليها . وإن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول ، وجعلت هذه الطريقة وجاءت من أحسن الفنون النظرية والعلوم الدينية . إلا أن صور الأدلة تعتبر بها الأقيسة (١) . ولم تكن حينئذ ظاهرة فى الملة ، ولو ظهر منها بعض الشىء فلم يأخذ به المتكلمون ، لملابستها للعلوم الفلسفية المباينة للعقائد الشرعية بالجملة ، فكانت مهجورة عندهم لذلك » .

الملحق السادس

استقبال الحكم المستنصر الأموى بالأندلس ، أردون ملك جليقية حين وفد عليه فى سنة ٣٥١ هـ واستنجد به على منافسه وابن عمه شانجه (٢)

« وأمر المستنصر بإنزال أردون فى دار الناعورة ، وقد كان تقدم فرشها بأنواع الغطاء والوطاء وانتهى من ذلك إلى الغاية ، وتوسع له فى الكرامة ، ولأصحابه ، فأقام بها الخميس والجمعة ، فلما كان يوم السبت ، تقدم المستنصر بالله باستدعاء أردون ومن معه بعد إقامة الترتيب وتعبئة الجيوش والاحتفال فى ذلك من العدد والأسلحة والزينة ، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك فى المجلس الشرقى من مجالس السطح وقعد الإخوة وبنوهم ، والوزراء ونظراؤهم صفاً فى المجلس . فيهم القاضى منذر ابن سعيد ، والحكام والفقهاء . فأتى محمد بن القاسم طملس بالملك أردون وأصحابه ، وعالى لبوسه ثوب ديباجى رومى أبيض ، وبليوال من جنسه وفى لونه . وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر . وقد حفته جماعة من وجوه الذمة بالأندلس، يؤنسونه ويبصرونه ، فيهم وليد بن حيزون قاضى النصارى بقرطبة ، وعبد الله بن قاسم مطران طليطلة وغيرهما . فدخل بين صفى الترتيب ، يقلب الطرف فى نظم الصفوف ، ويجيل النظر فى كثرتها وتظاهر (قوة) أسلحتها ورائق حليتها ، فراعهم ما أبصروه ، وصلبوا على وجوههم ، وتأملوا ناكسى رءوسهم غاضين من جفونهم ؛

---

(١) يريد أن الأدلة تتوقف صحتها وتقدمها على الأقيسة المنطقية ، ولم تكن هذه الصناعة المنطقية فاشية فى أهل الملة الإسلامية لذلك العهد . وما وجد منها كان مجفوا من علماء الدين لاتصاله بعلوم الفلسفة .

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٨٣ — ١٨٦ . أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٨٨ — ٢٩٤ .

قد سكرت أبصارهم (١) ، حتى وصلوا إلى باب الأقباء ، أو باب قصر الزهراء ، فترجل جميع من كان خرج إلى لقائه ، وتقدم الملك أردون وخاصة قوامسه على دوابهم حتى انتهوا إلى باب السدة ، فأمر القوامس بالترجل هنالك والمشي على الأقدام ، فترجلوا ، ودخل الملك أردون وحده راكبا مع محمد بن طملس فأنزل في برطل (٢) البهو الأوسط من الأبهاء القبلية التي بدار الجند ، على كرسي مرتفع مكسو الأوصال (٣) بالفضة ، وفي هذا المكان بعينه نزل قبله عدوه ومناوئه شانجه بن ردمير الوافد على الناصر لدين الله رحمه الله تعالى . فقعد أردون على الكرسي ، وقعد أصحابه بين يديه ، وخرج الإذن لأردون الملك من المستنصر بالله بالدخول عليه ، فتقدم يمشي وأصحابه يتبعونه إلى أن وصل إلى السطح .

فلما قابل المجلس الشرقي الذي فيه المستنصر بالله ، وقف وكشف رأسه وخلع برنسه ، وبقي حاسراً إعظاما لما كان له من الدنو إلى السرير ، واستنهض ، فمشى بين الصفين المرتبين في ساحة السطح إلى أن قطع السطح وانتهى إلى باب البهو ، فلما قابل السرير خر ساجداً سويعة ، ثم استوى قائماً . ثم نهض خطوات ، وعاد إلى السجود ووالى ذلك مراراً إلى أن قدم بين يدي الخليفة ، وأهوى إلى يده ، فناوله إياها ، وكر راجعاً متقهقراً على عقبه ، إلى وساد ديباج مثقل بالذهب ، جعل له هنالك ، ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير . فجلس عليه ؛ والبهر قد علاه ؛ وأنهض سنفه من استدنى من قوامسه واتباعه ؛ فدنوا تمتثلين فعله في تكرير الخنوع . وناولهم الخليفة يده ، فقبلوها وانصرفوا متقهقرين ؛ فوقفوا على رأس ملكهم ، ووصل بوصولهم وليد بن حيزون قاضي النصارى بقرطبة ، فكان الترجمان عن الملك أردون ذلك اليوم ، وأطرق الخليفة الحكم عن تكليم الملك أردون إثر قعوده أمامه وقتاً ربما يفرخ روعه (يطمئن) . فلما رأى أن قد خفض عليه (اطمأن في المجلس) افتتح تكليمه . . .

فكرر أردون الخضوع ، وأسهب في الشكر ، وقام للانصراف متقهقراً ، لا يولي الخليفة ظهره ، وقد تكنفه الحفدة من جلة الفتيان ، فأخرجوه إلى المجلس الغربي في السطح . وقد

---

(١) أي أصبحوا كالسكارى لا يستطيعون فتح عيونهم لروعة ما رأوا .

(٢) البرطل بفتح الباء والطاء . المظلة الضيقة .

(٣) الأجزاء أي إنه مغشى عند اتصال أجزائه بالفضة .

علاء البهر وأذهله الروع ، من حول ما بشره وجلالة ما عاينه من فخامة الخليفة وبهاء العزة . فلما أن دخل المجلس، ووقعت عينه على مقعد أمير المؤمنين خالياً منه انحط ساجداً اعظاماً له. ثم تقدم الفتيان به إلى البهو الذى بجوفى هذا المجلس، فأجلسوه هنالك على وساد مثقل بالذهب، وأقبل نحوه الحاجب جعفر ، فلما بصر به قام إليه ، وخضع له ، وأومأ إلى تقبيل يده ، فقبضها الحاجب عنه ، وانحنى إليه ، فعانقه وجلس معه ، فنبطه ، ووعده من إنجاز عدات [1] الخليفة له بما ضاعف سروره . ثم أمر الحاجب جعفر . فصبت عليه الخلع التى أمر له بها الخليفة. وكانت دراعة منسوجة بالذهب، وبرنساً مثلها . له لوزة [2] مفرغة من خالص التبر . مرصعة بالجواهر والياقوت . ملأت عينى العلج [3] ، نجلة فخر ساجداً وأعلن بالدعاء ثم دعا الحاجب أصحابه رجلا رجلا ؛ فخلع عليهم على قدر استحقاقهم ، فكمل جميع ذلك بحسب ما يصلح لهم ؛ وخر جميعهم خاضعين شاكرين . ثم انطلق الملك أردون وأصحابه ، وقدم لركابه فى أول البهو الأوسط فرس من عتاق خيل الركاب ، عليه سرج حلى ، ولجام حلى مفرغ ، وانصرف مع ابن طملس إلى قصر الرصافة مكان تضيفه ، وقد أعد له فيه كل ما يصلح لمثله من الآلة والفرش والماعون ، واستقر الملك أردون وأصحابه فيما لا كفاء له من سعة التضيف وإرغاد المعاش ، واستشعر الناس من مسرة هذا اليوم وعزة الإسلام فيه . ما أفاضوا فى التبجح به والتحدث عنه أياماً » .

---

(١) جمع عدة وهى الوعد .
(٢) حلية على شكل اللوزة .
(٣) العلج : رجل من كفار العجم .

ثانيا
نصوص تاريخية لموضوعات
من العصر العباسى
من
تاريخ الأمم الإسلامية
للشيخ محمد الخضرى

اسم الخلافة لبنى العباس ومنهم من دان يسوم باسم الملك والخلافة جميعاً كالدولة الأموية بالأندلس ، والإدريسية بالمغرب الأقصى ، والفاطمية بأفريقية ومصر ، والزيدية بطبرستان . فرأيت من الواجب أن أذكر مع كل خليفة عباسى من كان فى عصره متغلباً على أى إقليم من الأقاليم الإسلامية ، وإذا ابتدأت دولة فى عهد خليفة ذكرت عنها جملة مختصرة تبين كيف نشأت والمدة التى قامت فيها وثبت ملوكها ، وقصدت بذلك أن تكون الرقعة الإسلامية كلها واضحة الصورة فى جميع العصور . وقد ألممت فى أكثر الأحيان بذكر الملوك المعاصرين فى أوروبا . ولا سيما الذين كانت لهم صلات بالدول المشرقية فى عهد الدولة العباسية كملوك الروم بالقسطنطينية وملوك فرنسا . ومما عنيت به أحوال البيت العلوى الذى ظل ينافس العباسيين من بدء دولتهم إلى سقوطها ، وقد كانوا من أكبر الأسباب فى ضعف العباسيين وجرأة المخالفين لهم على خلافهم . فذكرت أحوال طوائفهم الكبرى الثلاث ، وهى : الزيدية ، والإمامية الاثنا عشرية ، والإمامية الإسماعيلية . وما قامت به كل طائفة من الرجة فى أنحاء العالم الإسلامى .

وإنى أظن أن هذه المجموعة على صغر حجمها قد سدت حاجة كان المشتغلون بالتاريخ الإسلامى يشعرون بها . وأرجو من الله التوفيق لإتمام سلسلة هذا التاريخ إنه نعم المعين .

الدولة العباسية

البيت العباسي

* عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بقى عقبه من كثير من أولاده ، ولكن العدد الأكبر والجمهور العظيم كان من ولديه العباس وأبى طالب ، فقد ملأ بنوهما السهول والحزون من الأقاليم الإسلامية من أقصى حجر فى بلاد المغرب إلى بلاد ما وراء النهر فى أواسط آسيا .

ولكل من البيتين تاريخ جليل بين تاريخ الأمم الإسلامية . ونحن الآن شارعون فى تاريخ البيت الأول .

* **العباس بن عبد المطلب**

أمه نتيلة بنت جناب بن كليب من النمر بن قاسط إحدى قبائل ربيعة بن نزار ، ولد قبل حادث الفيل بثلاث سنين ، فهو أسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين .

كان العباس من سادات بنى هاشم وعقلائهم وكان صديقاً وفياً لأبى سفيان صخر بن حرب . ولما جاء الإسلام كان من المخلصين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإن لم يظهر متابعته . وكان هو الذى تولى إحكام الأمر لرسول الله مع الأنصار حين الهجرة ، فقد قال لهم فى ليلة البيعة : يا معشر الخزرج إنكم قد دعوتم محمداً إلى ما دعوتموه إليه ومحمد من أعز الناس فى عشيرته يمنعه والله من كان منا على قوله ومن لم يكن منا على قوله منعة للحسب والشرف وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم فان كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة فانها سترميكم عن قوس واحدة فارتأوا رأيكم وأتمروا أمركم ولا تفترقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع فان أحسن الحديث أصدقه . وأخرى صفوا لى الحرب كيف تقاتلون عدوكم ؟ قال فأسكت القوم وتكلم عبد الله بن عمرو بن حزام فقال : نحن والله أهل حرب غذينا بها ومرنا عليها وورثناها عن آبائنا كابراً عن كابر نرمى بالنبل حتى تفنى ثم نطاحن بالرماح حتى تكسر ثم نمشى بالسيوف فنضارب بها حتى يموت الأعجل منا أو من عدونا فقال العباس : أنتم أصحاب حرب فهل فيكم دروع ؟ قالوا : نعم شاملة . وقال البراء

ابن معرور . سمعنا ما قلت ، إنا والله لو كان فى أنفسنا غير ما تنطق به لقلناه ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ﷺ . وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ثم دعاهم إلى الله ورغبهم فى الإسلام وذكر الذى اجتمعوا له . فأجاب البراء بن معرور بالإيمان والتصديق فبايعهم رسول الله ﷺ على ذلك والعباس بن عبدالمطلب آخذ بيد رسول الله ﷺ يؤكد له البيعة تلك الليلة على الأنصار .

ولما خرجت قريش إلى بدر أخرج العباس وبنو أخيه إليها كرهاً ، ولذلك قال النبى ﷺ لأصحابه يوم بدر : من لقى منكم العباس وطالباً وعقيلا ونوفل وأبا سفيان فلا تقتلوهم فانهم أخرجوا مكرهين . وكان العباس فى جملة أسرى بدر ففدى نفسه وفدى عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحرث بن عبد المطلب ثم رجع وأقام بمكة ، وكان مقامه بها أنه كان لا يخفى على رسول الله صلى الله عليه وسلم خبراً يكون إلا كتب به إليه ، وكان من هناك من المؤمنين يتقوون به ويصيرون إليه ، وكان لهم عوناً على إسلامهم . ولقد كان يطلب أن يقدم على النبى ﷺ ، فكتب إليه عليه السلام إن مقامكم مجاهد حسن . فأقام بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهاجر إلى المدينة قبيل الفتح وحضر معه فتح مكة ، وكان سبباً فى نجاة أبى سفيان وفى تشريفه بقول رسول الله ﷺ : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن » . وحضر غزوة حنين وكان له فيها أحسن بلاء ثم خرج إلى المدينة فأقام بها

وكان رسول الله ﷺ يحبه ويكرمه وعلى ذلك جرى الخلفاء من بعده وكانت وفاته فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من رجب سنة ٣٢ وهو ابن ثمان وثمانين سنة ودفن بالبقيع .

وأعقب من الولد الفضل وهو أكبر أولاده وبه كان يكنى وعبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن وقثم ومعبد وأم حبيبة ، وأمهم جميعاً لبابة بنت الحارث بن حزن من بنى هلال بن عامر من قيس عيلان ، وفى ولد أم الفضل هؤلاء من العباس يقول عبد الله بن يزيد الهلالى :

ما ولدت نجيبة من فحل   بجبل نعلمه أو سهل
كستة من بطن أم الفضل   أكرم بها من كهلة وكهل

وكان للعباس من غيرها كثير بن العباس وتمام وصفية وأميمة وأمهم أم ولد ، والحارث وأمه جميلة بنت جندب من هذيل . وليس للفضل وعبد الرحمن وقثم وكثير وتمام عقب . عقب العباس من سواهم ، ولا سيما من عبد الله فانه هو الذى انتشر منه عقب العباس ؛ وهو جد الخلفاء العباسيين .

* **عبد الله بن العباس**

هو ثانى ولد العباس بن عبد المطلب . ولد قبل الهجرة بسنتين ، فكانت سنه حين توفى رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة . وكان عليه السلام يحبه ودعا له فقال « اللهم علمه التأويل » . فكان رضى الله عنه أعلم الناس بآيات القرآن وتأويلها والفقه فى الدين على ما أوتيه من لسان طلق ذلق غواص على موضع الحجة . وكان عمر رضى الله عنه يحبه ويدخله مع كبار الصحابة فى مجلس شوراه الخاص ويستفتيه فى كثير من المسائل على صغر سنه . وولاه عثمان الموسم سنة ٣٥ من الهجرة وهو محصور فأقام الموسم . ولما بويع على رضى الله عنه بالخلافة كان له عضداً ونصيراً فى حروبه كلها وولاه البصرة وأعمالها ويقال إنه انحرف عنه أواخر أيامه وترك البصرة ورحل إلى مكة فأقام بالطائف ، وقيل إن ذلك كان بعد مقتل على .

ظل ابن عباس مقيما فى الطائف حياة معاوية كلها وكان معاوية يجله ويتودد إليه كثيراً كما كان يفعل مع سائر بنى هاشم ، وكانت وفاته سنة ٦٨ .

وعبد الله هو الذى نما من نسله البيت العباسى لأن إخوته لم يكن لهم نسل باق وعقب عبد الله الذى نما إنما هو من ولده على بن عبد الله بن العباس .

* **على بن عبد الله بن العباس**

أمه زرعة بنت مشرح بن معد يكرب من كندة . ولد ليلة قتل على بن أبى طالب سنة ٤٠ من الهجرة ، فسمى باسمه وكنى بكنيته أبى الحسن ، وهو أصغر أولاد أبيه وكان سيداً شريفاً بليغاً ويقال كان أجمل قرشى على وجه الأرض وأوسمهم وأكثرهم صلاة ، وكان مفرطاً فى الطول إذا طاف فكأنما الناس حوله مشاة وهو راكب من طوله . وقد أقطعه بنو أمية قرية اسمها الحميمة بالشراة (وهى صقع بالشام فى طريق المدينة من دمشق بالقرب من الشوبك وهو من إقليم البلقاء) فأقام بها وفيها ولد أكثر أولاده ، وكانت وفاته سنة ١١٧ .

وأعقب على اثنين وعشرين ولداً ذكراً وإحدى عشرة أنثى . وذكور أولاده هم محمد وداود وعيسى وسليمان وصالح وأحمد وبشر ومبشر وإسماعيل وعبد الصمد وعبد الله الأكبر وعبيد الله وعبد الملك وعثمان وعبد الرحمن وعبد الله الأصغر ويحيى وإسحاق ويعقوب وعبد العزيز وإسماعيل الأصغر وعبد الله الأوسط . ستة منهم لا عقب لهم والباقون أعقبوا كثيراً . ومنهم انتشر البيت العباسي وكثر جداً وبيت الخلافة في محمد أكبر أولاده .

محمد بن علي

هو والد إبراهيم الإمام وأبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور الذين هم مبدأ الخلافة العباسية . وهو الذي ابتدأت الدعوة على يديه : وكان ذلك في حياة أبيه علي : ولكن لم يكن لأبيه ذكر في هذه الدعوة .

وحيث قد ذكرنا هذا البيت الرفيع العماد . فلنشرع في بيان كيف وجدت فكرة الخلافة عند العباسيين وكيف كانت الدعوة إليهم وكيف تمكنوا من قلب الدولة الأموية والحلول محلها .

كيف نشأت فكرة الخلافة في بني العباس

توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس يؤثر عنه خبر مكشوف فيمن يتولى خلافة المسلمين بعده : وكان العباس بن عبد المطلب قد أشار على علي بن أبي طالب أن يدخل على رسول الله ﷺ وهو مريض فيسأله عن الخلافة بعده فان كانت فيهم وإلا أوصى بهم من سيكون الخليفة . فامتنع من ذلك علي قائلا : إنه إن منعنا إياها لا ننالها أبداً .

توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم والحال ما ذكرنا . فمال الجمهور الإسلامي إلى مبايعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد المناظرات التي جرت بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة . وكانت هناك فئة قليلة تميل إلى أن تكون الخلافة في بني هاشم رهط النبي الأدنين . ولم يكن فيهم من أعمامه إلا العباس بن عبد المطلب

وكان من بني أعمامه جماعة رأسهم وذو الفضل والسابقة فيهم علي بن أبي طالب . ومع أن العباس كان في ذلك الوقت أسن بني هاشم لم يكن من هذه الفئة القليلة من يقدمه على علي بن أبي طالب لما لعلي من المزايا الكثيرة التي بيناها فيما سبق . وكان علي نفسه يرى أنه أحق الناس أن يكون خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك كانت ترى فاطمة زوجه . ومن أجل ذلك امتنع عن مبايعة أبي بكر مدة حياة فاطمة رضي الله عنها . فلما ماتت دخل فيما دخل فيه الجمهور ، وبايع أبا بكر على ملأ من الناس .

عاش علي والعباس في عهد أبي بكر ، ثم بايعا عمر لما عهد إليه أبو بكر بالخلافة وظلا مدة حياته محترمين مطيعين . إلى أن استخلف ثالث الخلفاء عثمان بن عفان بعد مناظرات طويلة بين رجال الشورى الذين عهد إليهم عمر اختيار الخليفة من بعده ، وكان يرى أن رجال الشورى اتبع كثير منهم هواه في العدول عنه .

وفي أواخر خلافة عثمان توفي العباس بن عبد المطلب تاركا عقباً كثيراً أشهرهم عبد الله بن عباس وهو ثاني أولاده ولم يعلم أن أحداً منهم كان يتطلع إلى الخلافة أو يأمل أن تكون له أو لأحد من أولاده

بعد مضي ست سنوات من خلافة عثمان ، وجدت حركة في بعض النفوس تتجه إلى نقل الخلافة من عثمان بن عفان إلى علي بن أبي طالب ، وقام بأمر ذلك دعاة انتشروا في الأمصار الإسلامية الكبرى وهي الكوفة والبصرة والفسطاط ، وتذرعوا إلى ذلك بالعيب في ولاة عثمان والطعن فيهم بأعمال زعموهم ارتكبوها . وكان من في مصر يكتب إلى من في المصر الآخر بما عندهم من ذلك فيشيعونه بين الناس ، فيقول الناس أما نحن ففي عافية مما ابتلي به هؤلاء وجميعهم يكتبون إلى ناس في المدينة بمثل ذلك حتى ملئوا البلاد طعناً . ولما وجدوا لذلك ارتياحاً من بعض النفوس انتقلوا من ذلك إلى الطعن في عثمان نفسه ، فنسبوا إليه أموراً منها ما هو غير صحيح ، ومنها ما هو صحيح وقد فعل أسلافه مثله فلم يقدر أن يطعن فيهم طاعن ، وساعدهم لين عثمان وتخوفه من فتح أبواب الفتنة على ما قصدوا إليه .

ألفت وفود غوغاء من الأمصار الثلاثة ، ممن تأثر بهذه الفتن فذهبت إلى المدينة وهي حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاضرة الإسلام الكبرى ومقر الخلافة

الإسلامية متظاهرين ببث شكواهم من عمال عثمان ، فأشكاهم عثمان من جميع ما شكوا منه ، ولأن لهم جداً حتى لا يوجد لهم سبيلا إلى الفتنة ، فأظهروا الاقتناع وأزمعوا الرحيل إلى أوطانهم ، وسار كل وفد فى الطريق التى توصله إلى مصره . وبعد أيام عادت هذه الغوغاء متمسكة بكتاب مزور زعموه صادراً من عثمان إلى عامله بمصر يأمره فيه بقتل رجال الوفد من المصريين عقاباً لهم وتنكيلا ، والكتاب مختوم بخاتم عثمان . فلما أروه إياه حلف لهم أنه ما كتبه ولا أمر بكتابته ، وهو صادق فى يمينه ، فاتهموا بذلك كاتبه مروان بن الحكم وطلبوا منه أن يسلمهم إياه فأبى فأعلنوا العداء وصرحوا بما فى أنفسهم من الشر ، وحصروا عثمان فى داره مدة ثم اقتحموا عليه داره وقتلوه ظلما وعدواناً ففتحوا على المسلمين باب فتنة وانقسام لا يغلقه مرور الزمان ولا كر الأيام .

بعد أن تم لهم ما أرادوا غرضوا الخلافة على على بن أبى طالب فقبلها بعد تردد . أمضى رحمه الله حياته فى حرب مخالفيه فى البصره والنهروان وصفين ، ولم تصف له الخلافة يوماً واحداً إلى أن اغتاله أحد الخوارج فى رمضان سنة ٤٠ من الهجرة فى حاضرة خلافته وهى الكوفة .

كان الجمهور الإسلامى فى ذلك الوقت قد أنضم إلى خصمه معاوية بن أبى سفيان حيث كان فى بيعته أهل الشام الذين هم أنصاره وأهل الحجاز واليمن ومصر . أما الكوفة فكانت مقراً لشيعة على ومحبيه الذين كان منهم من يرى تفضيله لا على خصمه معاوية فقط بل على من سبقه من الخلفاء أيضاً . ومع هذا فانه لم ينل منهم ما يناسب تلك العقيدة من الطاعة والإخلاص ، بل كثيراً ما أهملوا أوامره التى كان يصدرها إليهم من جهة الاستعداد لحرب أهل الشام . ولذلك أسباب لسنا بصدد بيانها الآن .

(على) — لما قتل رحمه الله رأت الشيعة أن يقوم فى الخلافة مقامه ابنه الحسن وهو السيد العظيم الشأن : أبوه على بن أبى طالب وأمه فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم . وقد رأى رضى الله عنه بثاقب فكره أن الذين لم ينل منهم أبوه ما يرجوه لا يحسن الاعتماد عليهم ، ففضل الصلح مع معاوية على شروط اشترطها لنفسه ولأتباعه وتنازل عن

الخلافة مفضلا جمع كلمة المسلمين والسكنى بطيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقام على ذلك حتى توفى بها سنة ٥٠ من الهجرة .

وظل معاوية يسوس الناس بما عرف عنه من لين العريكة وسخاوة اليد ، فاجتمعت الأمة على طاعته والرضا به ، وسكنت الدعوة إلى أهل البيت ، وخبت نار التشيع إلا أنها كانت مستكنة فى أنفس ذويها ينتظرون الوقت الملائم للهبوب .

أوصى معاوية بالخلافة لابنه يزيد ، فلما تولاها هبت أعاصير الفتنة فى المدينة ومكة والكوفة . فأما المدينة فثارت تطلب عزل يزيد وتولى كبر الثورة بعض أبناء الأنصار ولكن هذه الثورة قمعت بشدة مسلم بن عقبة المرى الذى أوقع بأهلها وقعة الحرة المشهورة ، وأما مكة فعاذ بها عبد الله بن الزبير طالباً الخلافة لنفسه .

وأما الكوفة فان من بها من الشيعة أرسلوا يطلبون إليهم الحسين بن على شقيق الحسن ليبايعوه بالخلافة وينزعوا من أعناقهم بيعة يزيد ، فلم يكن من الحسين إلا أن لبى دعوتهم مع علمه بتاريخهم مع أخيه وأبيه ، وسار إليهم من غير جند يركن إليه ولا مال يستعين به . فقابلته ببعض الطريق جنود عبد الله بن زياد عامل يزيد بالعراق وكلها جنود عراقية ليس بها أحد من أهل الشام ، فلم يكن له قبل بمدافعتهم وقتل رحمه الله بكربلاء . ولم تقم شيعة أبيه بشىء من المساعدة بل ظلوا فى مساكنهم آمنين مطمئنين ولسان حال الحسين يقول :

لا ألفينك بعد الموت تندبنى ... وفى حياتى ما زودتنى زادى

انتهت هذه الحوادث ومات يزيد ، وعظم أمر ابن الزبير ودخل فى دعوته أهل الحجاز ومصر والعراق ، وأبى أن يبايعه رجال بنى هاشم الذين كانوا بمكة كمحمد بن على المشهور بابن الحنفية وعبد الله بن عباس وغيرهما فاضطهدهم وحبسهم .

ظهر فى تلك الأوقات رجل أراد ان ينتفع من وراء هذه الفتن ويجعل لنفسه مركزاً فى البلاد العراقية ، مستعيناً بما تضمره قلوب أهل الكوفة من التشيع لأهل البيت ، وهو المختار بن أبى عبيد الثقفى . فذهب إلى الكوفة لابساً ثوب التشيع ناعياً على من قتل الحسين بن على وداعياً إلى الإمام المهدى وهو محمد بن على الذى صار بعد أخويه أكبر أبناء على رضى الله عنه ، وتوسل إلى غايته بكل ما يمكن من عبارات التأثير حقاً كانت أم كذباً ، وكان عقلاء أهل الكوفة يسمونه الكذاب لكثرة ما كان يصدر عنه

من الأكاذيب التى تؤثر عادة فى أنفس الغوغاء . وقد أمكنه أن يجتذب إلى نفسه رؤساء الشيعة فى الكوفة ، وأرسل إلى محمد بن على وهو مضطهد محبوس بمكة جنداً يخلصونه من شدته فنجحوا . واجتمع فى حج هذه السنة بمكة أربعة ألوية : لواء لابن الزبير ، ولواء لبنى أمية ، ولواء للخوارج ، ولواء لأصحاب محمد بن على ؛ إلا أن الله حفظ الحاج فلم يقع قتال بين هذه الجنود المختلفة الأهواء التى يكره بعضها بعضاً .

لم يطل حبل المختار بالكوفة فان عبد الله بن الزبير جهز له جيشاً يقوده أخوه مصعب فسار إليه ، ومالأه أكثر أشراف أهل العراق لما ظهر لهم من أكاذيب المختار وسوء طويته ، وبذلك كانت الغلبة لمصعب . إلا أن ذلك لم يقض على التشيع فى بلاد العراق بل ظل كامناً ينتظر من يثيره لينتفع منه .

أما محمد بن على فانه بايع عبد الملك بن مروان بعد أن استقر الأمر له وقضى على فتنة ابن الزبير ودانت له الأقاليم الإسلامية كلها ، ومع قيامه بهذه البيعة لم تزل له شيعة تراه أحق بالخلافة إلا أنه مغلوب على أمره ، حتى إنه لما مات غلا فيه بعضهم فأنكر موته ، وقال إنه تغيب وسيرجع ، وقال فى ذلك شاعرهم السيد الحميرى :

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء
على والأئمة من بنيه ... هم الأسباط ليس بها خفاء
فسبط سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء

اضطربت أفكار الشيعة بعد موت محمد بن على : فمنهم من استمر على ولائه وقال بغيبته ورجعته كما قلنا . ومنهم من تولى بعده ابنه أبا هاشم ، ويقال لهذا الفريق والذى قبله الكيسانية ؛ ينسبون إلى كيسان وهو لقب للمختار بن أبى عبيد .

ومنهم من تولى بعد الحسين ابنه علياً المعروف بزين العابدين وهو ممن بايع يزيد ابن معاوية وعبد الملك بن مروان ولم يعرف عنه أنه طلب الخلافة لنفسه — قال هؤلاء إن الخلافه محصورة فى أولاد على من فاطمة رضى الله عنها ، ولما كان الحسين هو الذى قتل دون الخلافة فهى فى عقبه ؛ وعلى هو الذى بقى من أولاد الحسين بعد وقعة كربلاء . وقد يقولون إن علياً هو الوصى أوصى إليه رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم بالخلافة ، ثم الإمام من بعده الحسن ، ثم الحسين ، ثم علي ؛ وهكذا لا بد للأمة من إمام منصوص عليه ، ويقال لهؤلاء الشيعة الإمامية .

كان أكبر ولد العباس في ذلك الوقت علي بن عبد الله بن عباس وهو الذي انتشر منه العباسيون . وكان قد فارق الحجاز وأقام بالحميمة التي أقامه بها بنو أمية والتي أنزله بها الوليد بن عبد الملك . وقد ظهرت فكرة انتقال الخلافة إلى ولد العباس منذ علي هذا ، ويقال إن السبب في ذلك أن أبا هاشم بن محمد بن علي بن أبي طالب لما حانت منيته كان مقيما بالحميمة عند بني عمه فأدلى بنصيبه من الخلافة إلى علي هذا وأولاده وأوصى أولياءه به فصارت الشيعة الكيسانية في جانب علي بن عبد الله بن عباس .

أما بقية الشيعة فانهم بعد وفاة علي زين العابدين افترقت بهم الطرق : فمنهم من تولى بعده ابنه محمداً الباقر زاعمين أنه الأمام بعد أبيه . ومنهم من قال إن الخلافة حق لكل فاطمي اتصف بصفات العلم والشجاعة والسخاء ، ومن هؤلاء من قام بمساعدة زيد بن علي بن الحسين ، وهم المعروفون بالشيعة الزيدية .

والذين حاولوا الوصول إلى الخلافة وانتزاعها من بني أمية هم الشيعة الكيسانية الذين ساعدوا علي بن عبد الله ، والشيعة الزيدية الذين ساعدوا زيداً وابنه يحيى .

وكانت وفاة علي بن عبد الله ومحمد الباقر في زمن متقارب بالحميمة ، فانتقل ولاء الكيسانية إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس لأن أباه أوصى إليه وانتقل ولاء الإمامية إلى جعفر الصادق بن محمد الباقر ، ولم يفعل أنصار الأئمة شيئاً ليرجعوا الخلافة إلى ذوي الحق فيها حسب رأيهم .

أما الشيعة الزيدية فقد دعاهم إلى النصر زيد بن علي فقاموا بنصرته حيث خرج بالكوفة طالباً الخلافة . إلا أن بني أمية لم تكن قد ظهرت فيهم العيوب التي أودت بحياتهم بعد ، فسرعان ما انتصروا على زيد وأطفأوا ثورته وقتلوه وصلبوه . وثار بعده ابنه يحيى فكانت خاتمته خاتمة أبيه .

أما محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فهو يعسوب القوم وذو العقل الراجح فيهم . فانه رأى أن نقل السلطان من بيت إلى بيت لا بد أن يسبق باعداد أفكار الأمة إلى هذا النقل وأن كل محاولة فجائية لابد أن تكون عاقبتها الفشل ، فرأى أن يسير في

المسألة بالأناة المصحوبة بالحزم فعهد إلى شيعته أن يؤلفوا منهم دعاة يدعون الناس إلى ولاية أهل البيت بدون أن يسموا أحداً خوفاً من بنى أمية أن يقضوا على المدعو إليه إذا عرف ، ورأوا أن أحسن منطقة يبثون فيها الدعوة هى الكوفة وبلاد خراسان .. أما الكوفة فهى مهد التشيع لأهل البيت من قديم فيمكنهم أن يأووا إليها ويجعلوها نقطة مواصلاتهم . وأما بخراسان فسهولة الدعوة فيها مبنية على أمرين : الأول أن فكرة التشيع يفهمها الخراسانى من المسلمين بسهولة لأن مؤداها نقل الخلافة إلى بيت النبى صلى الله عليه وآله وسلم صاحب الرسالة وسيد الأمة ، وذلك قريب مما كان عندهم من الملك الذى يتوارثه أهل بيته ، ولا يجوز نقله إلى غير بيت الملك إلا إن كان ذلك عن اختلاس . الثانى : أن البلاد الفارسية كانت ذات تاريخ وملك قديمين ولذلك فائدة كبيرة فى حياة النفوس وقد عاملهم بنو أمية معاملة السادة للعبيد ، فكان العنصر العربى بينهم هو صاحب الكلمة العليا والنفوذ السائد ولا يتولى من ليس منهم شيئاً من الولايات العامة ، فكان أهل فارس مستعدين لأن يقوموا بتغيير الدولة الحاضرة وإخراج الخلافة إلى الدولة المستقبلة كى يكون لهم فيها حظ أحسن من حظهم فى دولة بنى أمية . قال أبو بكر بن أحمد بن محمد الهمدانى المعروف بابن الفقيه فى كتاب البلدان :

وقد كان محمد بن على بن عبد الله قال لدعاته حين أراد توجيههم إلى الأمصار : أما الكوفة وسوادها فشيعة على وولده . وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف ، تقول كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل . وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج ومسلمون فى أخلاق النصارى . وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبى سفيان وطاعة بنى مروان وعداوة راسخة وجهل متراكم . وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان ، فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدغل ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة . وبعد فانى أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق .

تأليف الجمعية السرية للدعوة

ابتدأ تأليف هذه الجمعية وعلى بن عبد الله بن عباس حي لم يمت بعد لأنها ابتدأت في أول القرن الثاني وعلى لم يمت إلا سنة ١١٧ على قول وسنة ١١٤ على قول . وكان الخليفة من بني أمية إذ ذاك عمر بن عبد العزيز بن مروان ، وكانت تتألف من كثير من الدعاة والرؤساء .

وجعل للدعوة مركزان : أحدهما بالكوفة التي اعتبرت نقطة المواصلات وأقيم فيها ميسرة مولى على بن عبد الله . والثاني بخراسان التي هي محل الدعوة الحقيقي ، ووجه إليه محمد بن خنيس وأبو عكرمة السراج ، واختير من الدعاة اثنا عشر نقيباً وهم :

(١) سليمان بن كثير الخزاعي	(٧) لاهز بن قريظ التميمي
(٢) مالك بن الهيثم «	(٨) موسى بن كعب «
(٣) طلحة بن زريق «	(٩) القاسم بن مجاشع «
(٤) عمرو بن أعين «	(١٠) أبو داود خالد بن إبراهيم الشيباني
(٥) عيسى بن أعين «	(١١) أبو على الهروى شبل بن طهمان الحنفي
(٦) قحطبة بن شبيب الطائي	(١٢) عمران بن إسماعيل المعيطي

واختار سبعين رجلا ليكونوا مؤتمرين بأمر هؤلاء ، وكتب إليهم محمد بن على كتاباً ليكون لهم مثالا وسيرة يسيرون بها .

وقد ظل رجال الدعوة يشتغلون بها من مفتتح القرن الثاني إلى سنة ١٣٢ ، وهي السنة التي تم فيها النجاح وبويع فيها لأبي العباس السفاح .

وهذه المدة تنقسم إلى قسمين متمايزين : الأول عصر الدعوة المحضة الخالية عن استعمال القوة وذلك قبل أن ينضم إلى القوة أبو مسلم الخراساني ، وذلك في الوقت الذي كانت الدولة الأموية فيه متماسكة القوى لم ينقسم فيها البيت المالك على نفسه ولم تحصل العصبية القومية بين جند هذه الدولة بخراسان ، وذلك نحو ٢٧ سنة . والعصر الثاني عصر استعمال القوة مع الدعوة حين تهيأت الأسباب الداعية إلى ذلك

وصف المملكة الاسلامية حين استيلاء بنى العباس :

كانت المملكة الإسلامية تمتد من أقصى المشرق عند كاشغر إلى السوس الأقصى على شاطىء بحر الظلمات وطولها على ماذكره أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى المعروف بالبشارى فى كتابه الموسوم بأحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ٢٦٠٠ فرسخ وتمتد عرضا من شاطىء بحر قزوين إلى أواخر بلاد النوبة وهى منقسمة إلى أقسام كبرى وكل قسم يشتمل على ولايات : وها نحن أولاء نذكر هذه الأقسام وما فيها من الولايات :

(١) جزيرة العرب وتشتمل على أربع كور جليلة :

الأولى — الحجاز وقصبته مكة ومن مدنه طيبة وينبع والجار وجدة والطائف وغيرها .

الثانية — اليمن وما كان نحو البحر فهو غور واسمه تهامة وقصبته زبيد وما كان من ناحية الجبل فهو نجد وقصبته صنعاء .

الثالثة — عمان وقصبتها صحار على شاطىء بحر الهند .

الرابعة — هجر وقصبتها الأحساء .

ويتبع اليمن من النواحى : الاحقاف وبها من المدن حضرموت . ومهرة وبها من المدن الشحر . ويتبع هجر اليمامة وقصبتها حجر . ويتبع الحجاز وادى القرى وبهذه الجزيرة مكة وبها بيت الله الحرام والكعبة المقدسة التى جعلها الله قياما للناس وهى قبلة المسلمين كافة فى صلاتهم — وبها طيبة وهى مهاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومبعث النور الاسلامى .

أمة هذا القسم عربية محضة تتكلم اللسان العربى إلا بصحار فان نداءهم وكلامهم بالفارسية وأكثر أهل عدن وجدة فرس إلا أن لغتهم لغة عربية : ومذاهبهم السياسية التشيع ببلاد اليمن والخوارج بعمان وهجر والسنة فيما عداهما .

وبشمال هذا القسم بادية العرب وهى بادية ذات مياه وغدران وآبار وتلال ورمال وقرى ونخيل قليلة الجبال كثيرة العرب خفيفة السيل خفيفة الطرق طيبة الهواء ردية الماء ليس بها بحيرة ولا نهر إلا الأزرق ولا مدينة إلا تيماء وفيها اثنا عشر

طريقاً توصل إلى مكة منها تسع طولا يؤدين إلى مكة وثلاث عرضاً يؤدين إلى الشام وبها طريق آخر لوادى القرى يؤدى إليها من البصرة ثم إلى مصر وهذه الطرق هى :

(١) طريق مصر (٢) طريق الرمة (٣) طريق الشراة (٤) طريق تبوك (٥) طريق وبير (٦) طريق بطن السر (٧) طريق الرحبة (٨) طريق هيت (٩) طريق الكوفة (١٠) طريق القادسية (١١) طريق واسط (١٢) طريق وادى القرى (١٣) طريق البصرة . وقد أجاد وصف هذه الطرق البشارى فى كتابه أحسن التقاسيم ص ٢٤٩ وما بعدها فراجعه .

(٢) إقليم العراق وبه ست كور :

الأولى — الكوفة وقصبتها الكوفة وهى من المدن الإسلامية وبها من المدن : القادسية وعين التمر .

الثانية — البصرة وقصبتها البصرة وهى من المدن الإسلامية وبها من المدن : الابلة وعبادان .

الثالثة — واسط وقصبتها واسط وهى من المدن الإسلامية وبها من المدن : فم الصلح .

الرابعة — المدائن وقصبتها المدائن وهى مدينة كسروية وبها النهروان والدسكرة وجلولاء .

الخامسة — حلوان وقصبتها حلوان وبها من المدن خانقين والسيروان .

السادسة — سامراء وقصبتها سامراء وبها من المدن الكرخ وعكبرا والأنبار وهيت وتكريت .

وهذا الاقليم كان يسمى فى القديم إقليم بابل وهكذا كان اسمه فى التقويم الأول عهد العباسيين ولقد كان زهرة ملك العباسيين وأجمل بلدان الدنيا وأثرها وروافده الدجلة والفرات من أحسن أنهار الدنيا .

وأمة هذا الإقليم نبطية دخل عليها العرب فى بلادها فزاحوها وصارت كأنها هم ولذلك صارت لغة هذا الأقليم عربية وأصبح لغاتهم الكوفية لقربها من البادية وبعدهم عن النبط وأما البطائح فنبط والذين نزلوا بهذا الإقليم من العرب أكثر من الذين نزلوا منهم بأى إقليم آخر ما عدا الشام والجزيرة وقد كانوا بهذه الأقاليم

الثلاثة قبل الإسلام ، وكان بها منهم ملوك المناذرة بالعراق والغساسنة بالشام إلا أنهم لم يكونوا مستقلين بالملك بل كانوا تحت رعاية الفرس والروم . فلما جاء الإسلام اتسق لهم الملك بالاقليمين وكان الشام مهد الدولة الأموية كما كان العراق مهد الدولة العباسية.

ومساحة العراق طولاً من البحر إلى السن ١٢٥ فرسخا وعرضه من العذيب إلى عقبة حلوان ٨٠ فرسخاً فاذا كسرته كان ١٠٠٠٠ فرسخ .

(٣) إقليم الجزيرة : جزيرة أقور أو أثور أو أشور وهي ما بين دجلة والفرات وبها ثلاث كور :

الأولى — ديار ربيعة وقصبتها الموصل ومن مدنها : الحديثة وسنجار ونصيبين ودارا ورأس العين وثمانين وبها ناحية جزيرة ابن عمر .

الثانية — ديار مضر وقصبتها الرقة وبها من المدن : باجروان وحصن مسلمة وحران والرها .

الثالثة — ديار بكر وقصبتها آمد وبها من المدن : ميافارقين وحصن كيفا .

وقد نزل العرب قبل الاسلام بهذا الاقليم وكانت به قبائل شتى من جميع العدنانيين حتى سميت كوره بأسمائهم ولذلك يعتبر إقليما عربياً محضاً لأن من كان به من الآشوريين وغيرهم درست آثارهم . وينتهي هذا الاقليم إلى حدود الروم وأرمينية .

(٤) إقليم الشام وبه ست كور :

الأولى — قنسرين وقصبتها حلب ومن مدنها إنطاكية وبالس وسميساط ومنبج وقنسرين ومرعش واسكندرونة ومعرة النعمان .

الثانية — حمص وقصبتها حمص ومن مدنها سلمية وتدمر واللاذقية وانطرسوس

الثالثة — دمشق وقصبتها ~~دمشق ومن مدنها~~ باتياس وصيدا وبيروت وطرابلس

الرابعة — الأردن وقصبتها ~~طبرية ومن مدنها صور~~ وعكا وبيسان وأذرعات

الخامسة — فلسطين وقصبتها الرملة وبها بيت المقدس وعسقلان ويافا وأرسوف وقيسارية وأريحا وعمان .

السادسة — الشراة وقصبتها صفد ومن مدنها مآب وعمان وتبوك وأذرح وهذا الاقليم دخله العرب قبل الاسلام وملكوا به وزاحموا من كان به من الأمم القديمة .

ولما جاء الاسلام كان مهداً عظيماً من مهاد الحضارة العربية الاسلامية ولغة أهله عربية .

وحدود هذا الإقليم من الشمال بلاد الروم وكانت المدن التى على حدوده وحدود الجزيرة يقال لها الثغور ، وعندها يكون الجهاد لرد غارة الروم وحفظ البلاد الاسلامية وفتح ما يمكن فتحه من البلدان .

وبهذا الاقليم بيت المقدس وهو ثالث المساجد المقدسة بناه سليمان بن داود عليهما السلام حينما كان ملكاً على بنى إسرائيل ، واحتفل فى بنائه كثيراً ويعظمه جميع الأديان من موسوى وعيسوى وإسلامى .

(٥) إقليم مصر وبه سبع كور على حسب التقويم القديم :

الأولى — الجفار وقصبتها الفرما وبها من المدن البقارة والواردة والعريش .

الثانية — الحوف وقصبتها بلبيس وبها من المدن مشتول وفاقوس وغيرهما .

الثالثة — الريف وقصبتها العباسية وبها من المدن دمنهور وسنهور وبنها العسل وشطنوف ومليج والمحلة الكبيرة ودقهلة .

الرابعة — اسكندرية وقصبتها اسكندرية وبها من المدن رشيد ومريوط والبرلس وذات الحمام .

الخامسة — مقدونيا وقصبتها الفسطاط ومن مدنها العزيزية والجيزة وعين شمس

السادسة — الصعيد وقصبتها أسوان وبه من المدن قوص وإخميم والبلينا والفيوم وغيرها :

السابعة — الواحات .

وأمة هذا الاقليم كانت فى القديم مصرية قبطية ساكنها كثير من الأمم التى ملكتها كاليونان والرومان وغيرهم ، وكان بالحوف بعض قبائل عربية تقيم فيها . ولما جاء الاسلام جاءها كثير من العرب الفاتحين فأقاموا فى مدنها الكبرى ثم جاءت قبائل كثيرة من قيس فى عهد الدولة الأموية وأقامت بالحوف (الشرقية) ثم اختلطت هذه الأمة الفاتحة بالمصريين تمام الاختلاط فتزاوجوا حتى غلب على الجمهور اللسان العربى والدين الاسلامى وذلك بعد تملك الدولة العباسية .

أما أول عهدها فكان أكثر الفلاحين بالقرى أقباطاً لا يزالون على دينهم

(٦) إقليم المغرب وهو ثماني كور :

الأولى — برقة وقصبتها برقة وبها من المدن رمادة وطرابلس .

الثانية — إفريقية وقصبتها القيروان وبها من المدن أسفاقس وسوسة وتونس وبونة وجزيرة بني زغناية — ومنستير .

الثالثة — تاهرت وقصبتها تاهرت وبها من المدن مطماطة ووهران وغيرهما .

الرابعة — سجلماسة وقصبتها سجلماسة وبها من المدن درعة وامصلى وتازروت .

الخامسة — فاس وقصبتها فاس وتسمى هذه الكورة السوس الأدنى . وأمافاس فحدثه بعد عهد العباسيين . ومن مدنها البصرة وورغة وصنهاجة وهواره وسلا .

السادسة — السوس الأقصى وقصبتها طرفانة ومن مدنها إغمات وماسة وغيرهما .

السابعة — الأندلس وقصبتها قرطبة وكانت لعهد بني أمية تدع أمير إفريقية وعنيـ وال من قبله . وهذا الإقليم كان يسكنه قبل الاسلام البربر وساكنهـ فيه كثير من الرومان والويزيغوط الذين ملكوا المغرب قبل الاسلام . فلما جاء الاسلام دخله العرب الفاتحون وزاحموا البربر . إلا أنهـ لم يكثروهم لقلتهم ولم يكثر العنصر العربي بها إلا بعد ذلك في منتصف القرن الخامس . فأمة هذا الاقليم الغالبة عليه لهذا العهد بربرية واللسـ الغالب هو اللسان البربري .

(٧) إقليم المشرق وهو إقليم ذو جانبين الأول في الشرق وهو ما كان شرقي جيحون أو أموداريا ويسمى بما وراء النهر أو هيطل والثاني في الغرب وهو ما كان غربي جيحون ويسمى خراسان .

(١) ما وراء النهر قال البشاري هذا الجانب أخصب بلاد الله تعالى وأكثره خيراً وفقهاً وعمارة ورغبة في العلم واستقامة في الدين وأشد بأساً وأغلظ رقاباً وأدوم جهاداً وأسلم صدوراً وأرغب في الجماعات مع يسار وعفة ومعروف وضيافة وتعظيم لمن يفهم .

وبهذا القسم ست كور :

الأولى — فرغانة وقصبتها اخسيكث ومن مدنها : نصراباذ وأوزكند ومرغينان وغيرها .

الثانية — اسبيجاب وقصبتها اسبيجاب ومن مدنها فاراب وترار وطراز وبلاسكون وغيرها .

الثالثة — الشاش وقصبتها بنكث ومن مدنها نكث وغيرها .

الرابعة — أشر وسنة وقصبتها بنجكث .

الخامسة — الصغد وقصبتها سمرقند وهي مصر الإقليم .

السادسة — بخارى وقصبتها بخارى ومن مدنها بيكند .

وهذا الإقليم يمر به نهر جيحون العظيم ويتشعب منه أنهار كثيرة ويقلب فيه أنهار ستة وعليه كور ومدن . فالكور هي الختل وقصبتها هليك . ثم قواديان ومدينتها نير . ثم خوارزم وهي على سافلتي جيحون قصبتها العظمى شرقي النهر وهي كاث ولها قصبة أخرى غربية وهي الجرجانية وعلى النهر من المدن ترمذ وكالف ونويدة زم وفربر وآمل .

(ب) خراسان وبها تسع كور :

الأولى — بلخ قصبتها بلخ وبها ناحية طخارستان ومن مدنها ولوالج والطالقان

الثانية — غزنين وقصبتها غزنين وبها من المدن كابل .

الثالثة — بست وقصبتها بست . وبعض الناس يجمع غزنين إلى بست ويجعلهما كورة واحدة يسميها كابلستان .

الرابعة — سجستان وقصبتها زرنج .

الخامسة — هراة وقصبتها هراة ومن مدنها باذغيس .

السادسة — جوزجانان وقصبتها اليهودية .

السابعة — مرو الشاهجان وهي القصبة وبها ناحية مرو الروز .

الثامنة — نيسابور والقصبة إيرانشهر وبها من المدن بيهق وطوس ونسا وأبيورد

التاسعة — قهستان وقصبتها قاين .

وهذا الاقليم من أخطر الأقاليم الاسلامية وأهل خراسان منهم الذين أقاموا الدولة العباسية وشيدوا صرحها ومعظمهم كان شيعة لهم . أما أهل ما وراء النهر فجلهم من التركمان ولم يكن الاسلام قد شملهم لأول عهد العباسيين . وقد دخل العرب هذا الإقليم ولم يتجاوزوا النهر إلا في عهد الدولة الأموية وقد كثرت فتوحهم لما وراء

النهر فى عهد قتيبة بن مسلم الباهلى العامل من قبل الحجاج . ولم تتغلب اللغة العربية على هذا الإقليم وما يأتى بعد من الأقاليم الفارسية ولكن الدين الإسلامى شملهم فصار منهم أمة إسلامية قادرة عمها العلم ولا سيما الدينى ووجد منهم أفاضل الفقهاء من الشافعية والحنفية والمحدثين والعلماء فى العلوم كافة .

قال البشارى فى أحسن التقاسيم : وألسنتهم مختلفة أما لسان نيسابور ففصيح مفهوم غير أنهم يكسرون أوائل الكلم ويزيدون الياء وفيه رخاوة وبلجاج ، وأهل طوس ونسا أحسن لساناً ، وفى كلام سجستان تحامل وخصومة يخرجونه من صدورهم يجهرون فيه . ولسان بست أحسن ولا بأس بلسان المروين غير أن فيه تحاملا وطولا ومدا فى أواخر الكلم . ولسان بلخ أحسن الألسن إلا أن لهم فيه كلمات تستقبح . ولسان هراة وحش تراهم يتقمون ويتكلفون ويتحاملون ثم يخرجون الكلام آخر ذلك ملوثاً بالقوة إلى آخر ما قال .

(٨) إقليم الديلم به خمس كور :

الأولى — قومس وقصبتها الدامغان ومن مدنها سمنان وبسطام .

الثانية — جرجان وقصبتها شهرستان ومن مدنها استراباذ وآبسكون .

الثالثة — طبرستان وقصبتها آمل ومن مدنها سالوس وسارية .

الرابعة — الديلمان وقصبتها بروان .

الخامسة — الخزر وقصبتها إتل ومن مدنها بلغار وسمندر وبهذه الكورة نهر إتل وهذا الإقليم لم يفش الاسلام به إلا فى عهد الدولة العباسية ولم يتأثر كثيراً باللغة العربية .

(٩) إقليم الرحاب وهو ثلاث كور :

الأولى — أران وقصبتها برذعة ومن مدنها تفليس وشروان وباب الأبواب وملازكرد .

الثانى — أرمينية وقصبتها أردبيل ومن مدنها مدليس وخلاط وخوى وسلماس وأرمية ومراغة ومرند وقاليقلا .

الثالث — أذربيجان وقصبتها أردبيل ومن مدنها تبريز .

وهذا الاقليم به كثير من الأجناس والألسنة فيه الكرد والأرمن والفرس وغيرهم

ويخترقه نهر الكر وهو يتخلل مدينة برذعة ومدينة تفليس وبه نهر الرس ونهر الملك ولم يفش الإسلام بهذه البلاد إلا في عهد الدولة العباسية. واللغة العربية به قليلة

(١٠) إقليم الجبال وبه ثلاث كور :

الأولى — الرى وقصبتها الرى وبها من المدن آوة وساوة وقزوين وأبهر .

الثانية — همذان وهى القصبة ومصر الأقليم .

الثالثة — أصفهان وقصبتها اليهودية .

(١١) إقليم خوزستان ويعرف بالأهواز وبه سبع كور وهى :

الأولى — السوس وهى تتاخم العراق والجبال .

الثانية — جنديسابور وهى القصبة وكانت مصر الاقليم .

الثالثة — تستر وهى القصبة وليس بالاقليم أجل منها .

الرابعة — عسكر مكرم وهى القصبة وبها من المدن جوبك وزيدان وسوق الثلاثاء

الخامسة — الأهواز وبها من المدن تيرى ومناذر الكبرى ومناذر الصغرى .

السادسة — الدورق كورة تتاخم العراق من مدنها آزر وأجم وغيرهما .
وقصبتها الدورق .

السابعة — رامهرمز كورة تتاخم فارس وهى القصبة .

ولهذا الاقليم لسان خاص به يعرف باللسان الخوزى .

(١٢) إقليم فارس وبه ست كور :

الأولى — أرجان وهى القصبة .

الثانية — أردشيرخرة وقصبتها سيراف وهى ممتدة على البحر .

الثالثة — درابجرد وهى القصبة وكانت في القديم مصر الإقليم .

الرابعة — شيراز قصبتها على اسمها وهى مصر الإقليم وبها من المدن البيضاء وفسا.

الخامسة — سابور وقصبتها شهرستان ومن مدنها كازرون والنوبندجان وتوز

السادسة — اصطخر وهى أوسع الكور وقصبتها على اسمها .

وبهذا الإقليم عدد عظيم من الأكراد وباسمه سميت البلاد الفارسية كلها .

(١٣) إقليم كرمان وبه خمس كور :

الأولى — بردسير وقصبتها على اسمها ومن مدنها ماهان وكوغون وزرند .

الثانية — نرماسير وهى القصبة .
الثالثة — السيرجان وقصبتها على اسمها . وهى مصر الإقليم .
الرابعة — بم وهى تتاخم فارس .
الخامسة — جيرفت وهى على البحر .

(١٤) إقليم السند وبه خمس كور :
الأولى — مكران وقصبتها بنجبور .
الثانية — طوران وقصبتها قصدار .
الثالثة — السند وقصبتها المنصورة ومن مدنها ديبل .
الرابعة — ويهند والقصبة باسمها .
الخامسة — قنوج وهى القصبة .

وبهذا الإقليم نهر مهران وهو يشبه النيل في الحلاوة والزيادة ووجود التماسيح .

فهذه أربعة عشر إقليما منها ستة عربية وثمانية أعجمية والمراد بكونها عربية تغلب اللسان العربى على أهلها وإلا فأصل إقليم العرب هو جزيرتهم فحسب .

وتشتمل هذه الأقاليم على ثلاث وثمانين كورة يجبى منها جميعها الخراج إلى حاضرة الدولة حيث يحمل منها ما بقى عن مصروفها وذلك شىء عظيم .

هذا هو الملك الطويل العريض الذى ورثه العباسيون بهمة شيعتهم من أهل خراسان . وليس عدد ولاة هذه الدولة بعدد الأقاليم التى بيناها بل كان بعض الأقاليم فيه الواليان والثلاثة وبعضها قد يضم إلى إقليم آخر حسب الأحوال . فى بعض أيام بنى أمية قد جمع العراقان وفارس كلها لوال واحد كما كان الحجاج بن يوسف . فقد كان أمير المشرق كله من نهر الفرات إلى نهر جيحون وله ولاة من قبله على الأقاليم أو الكور التى تحت يده . وفى بعض الأحيان كانت تضم أفريقية كلها إلى والى مصر ويرسل من قبله واليا على أفريقية .

والجزيرة العربية لم تجتمع كلها لوال واحد بل كان للحجاز وال ولليمن وال . أما اليمامة وعمان فربما أضيفتا إلى والى العراق كما كان الحجاج بن يوسف .

ونحن الآن شارعون فى تفصيل أحوال بنى العباس وتبيين ما فعلوه فى هذا الميراث مقارنين ذلك عند اللزوم بما كان عليه الحال فى الدولة الأموية .

فصل في ولاية العهد والبيعة

الأصل في انتخاب الخليفة رضا الأمة فمن ذلك يستمد قوته. هكذا رأى المسلمون عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد انتخبوا أبا بكر الصديق اختياراً منهم . لا استناداً إلى نص أو أمر من صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم. وبعد أن انتخبوه بايعوه ومعنى ذلك عاهدوه على السمع والطاعة فيما فيه رضا الله سبحانه كما أنه عاهدهم على العمل فيهم بأحكام الدين من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا التعاهد المتبادل بين الخليفة والأمة هو معنى البيعة تشبيهاً له بفعل البائع والمشترى فانهما كانا يتصافحان بالأيدى عند إجراء عقد البيع .

فمن هذه البيعة تكون قوة الخليفة الحقيقية وكانوا يرون الوفاء بها من ألزم ما يوجبه الدين وتحتمه الشريعة .

وقد سن أبو بكر رضى الله عنه طريقة أخرى فى انتخاب الخليفة وهى أن يختار هو من يخلفه ويعاهده الجمهور على السمع والطاعة وقد وافق الجمهور الإسلامى على هذه الطريقة ورأى أن هذا مما تجب الطاعة فيه وذلك العمل هو ولاية العهد .

وأول من اختار الخليفة بعده من عشيرته الأدنين معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه حيث اختار للخلافة ابنه يزيد وأخذ بيعة الجمهور له وصار الخلفاء من بعده يعهدون على هذا النمط . وقد بينا فى تاريخ الدولة الأموية الأغلاط التى ارتكبها الأمويون فى ولاية العهد وأنها كانت من الأسباب التى قضت عليهم .

اتبع بنو العباس فى ولاية العهد الأسلوب الذى سار عليه الأمويون وهو عقد الولاية لأكثر من واحد من الأبناء والإخوة ولم يعتبروا بمن مضى قبلهم فقد كان ذلك مبعث شرور وفتن شديدة ولما سار هؤلاء سيرة أسلافهم جلبوا على أنفسهم تلك الشرور بعينها ولم يعتبر الخلف بما أصاب السلف كما يتضح مما يأتى :

ولى السفاح عهده رجلين يلى أحدهما الآخر أخاه أبا جعفر المنصور فابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن على . فلما تولى أبو جعفر وشب ابنه محمد المهدى عز عليه أن يلى بعده ابن أخيه ويحرم ابنه فسام عيسى أن يخلع نفسه من ولاية العهد على أن تكون رتبته تلو رتبة المهدى فأظهر عيسى إباء فساموه خطة لا يرضى بها إلا الذليل حتى أظهرت ذات نفسه فى شعر قاله وهو :

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما   إما صغار وإما فتنة عمم
وقد هممت مراراً أن أساجلهم   كأس المنية لولا الله والرحم

ويقال إن أبا جعفر سقاه شراباً يتلفه فكاد يموت منه ولكنه أبل من علته فقال في ذلك شعراء الدولة :

أفلت من شربة الطبيب كما   أفلت ظبي الصريم من فتره
من قانص ينفذ الفريص إذا   ركب سهم الحتوف في وتره
دفع عنك المليك صولة ليث   يريد الاسد في ذرى خمره
حتى أتانا وفيه داخلة   تعرف في سمعه وفي بصره
أزعر قد طار عن مفارقه   وحف أثيث النبات من شعره

ثم أجاب عيسى إلى ما طلب منه هذا مع ما كان من حسن أثر عيسى بن موسى في الدولة واستهدافه للنوائب وقوده الكتائب لشد دولة المنصور .

لما ولي المهدي وشب ابناه موسى وهارون أعاد هذه السيرة بعينها مع عيسى ابن موسى وطلب منه أن يخلع نفسه من الخلافة ليولي المهدي العهد ولده فكان ما أراد بعد أن قاسى عيسى ما قاسى من صنوف الأذى ومع ما رآه المهدي من نتائج تولية اثنين للعهد لم يتعظ بل ولى ولديه موسى الهادي فهارون الرشيد .

جاء الهادي فحاول أن يخلع أخاه هارون مع أن ابنه لم يبلغ الحلم فلم يفلح لأن الدفاع عن الرشيد كان قوياً وقربت منية الهادي فأخرت النتائج السيئة ويقال إنه مات مسموماً .

ولي الرشيد ففكر في ولاية العهد وكان أكبر ولده محمد المأمون فعدل عنه إلى أخيه محمد الأمين لانه ابن زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور والمأمون أمه أمة جلية من بلاد فارس وكان ذلك العقد سنة ١٧٣ وسن الأمين لا تتجاوز ثلاث سنوات وبعد عشر سنين رأى أن يضم المأمون ليكون ولي العهد بعد الأمين وذلك برأي جعفر بن يحيى البرمكي وسعيه فعقد له سنة ١٨٣ . ثم طلب عبد الملك ابن صالح بن علي من الرشيد أن يبايع لثالث أولاده القاسم بن الرشيد ففعل وسماه المؤتمن وقسم البلاد بين أولاده الثلاثة فجعل الشرق للمأمون وهو خراسان والري

إلى همذان وجعل الغرب للأمين وهو المغرب ومصر والشام وجعل للمؤتمن الجزيرة والثغور والعواصم فألقى بذلك بأسهم بينهم ووضع بيده بذور الفتنة والشر حتى قال بعض شعراء العصر :

أقول لغمة فى النفس منى ... ودمع العين يطرد اطرادا
خذى للهول عدته بحزم ... ستلقى ما سيمنعك الرقادا
فانك إن بقيت رأيت أمراً ... يطيل لك الكآبة والسهادا
رأى الملك المهذب شر رأى ... لقسمته الخلافة والبلادا
رأى مالو تعقبه بعلم ... لبيض من مفارقه السوادا
أراد به ليقطع عن بنيه ... خلافهم ويبتذلوا الودادا
فقد غرس العداوة غير آل ... وأورث شمل ألفتهم بدادا
وألقح بينهم حرباً عواناً ... وسلس لا جتنابهم القيادا
فويل للرعية عن قليل ... لقد أهدى لها الكرب الشدادا
وألبسها بلاء غير فان ... وألزمها التضعضع والفسادا
ستجرى من دمائهم بحور ... زواخر لا يرون لها نفادا
فوزر بلائهم أبداً عليهم ... أغيا كان ذلك أم رشادا

وحج الرشيد بعقب ذلك وهناك كتب لعبد الله المأمون ابنه كتابين أجهد الفقهاء والقضاة أنفسهم فيهما أحدهما على محمد الأمين بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه والآخر نسخة البيعة التى أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد الله على محمد وعليهم وجعل الكتابين فى البيت الحرام بعد أخذ البيعة على محمد وإشهاده عليها بها الله وملائكته ومن كان فى الكعبة من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتابه وغيرهم وكانت الشهادة بالبيعة والكتاب فى البيت الحرام وتقدم إلى الحجبة فى حفظهما ومنع من أراد إخراجهما والذهاب بهما وقرىء الكتابان فى داخل البيت الحرام بمحضر من الأخوين وشهد عليهما الحاضرون .

وقد أكد الأمر فى العهدين تأكيداً بلغ الغاية من التشديد ولكن طبيعة الملك غلابة . فما عتم الأمين أن استخلف حتى حاك فى صدره ماحاك فى صدر أسلافه وهو تقديم ابنه فى ولاية العهد على أخيه وعرض ذلك على المأمون وهو بين جنده وقواده

بخراسان فأباه طبعاً لأن من ورائه قوة تدفع عنه ، وكان من جراء ذلك الخلاف الهائل والوقائع المفظعة التي كانت بين جند الأمين والمأمون وتعطلت المسالك والدروب وحصرت بغداد حصراً شنيعاً وانتهى الأمر بخلع الأمين ثم قتله . وحدث بعقب ذلك ثورات شديدة في أكثر البلدان الإسلامية ولو كانت لخصومهم من آل علي قوة منظمة لنجحوا وثلوا عرش ملك العباسيين .

لم يعهد المأمون إلا لأخيه المعتصم وكذلك المعتصم لم يعهد إلا لابنه الواثق ومات الواثق عن غير عهد فاختير للخلافة أخوه المتوكل اختاره لها كبار الدولة بعد موت الواثق .

جاء المتوكل وغلط غلطة جده الرشيد فبايع بولاية العهد لأولاده الثلاثة وهم محمد المنتصر بالله ومحمد المعتز بالله وإبراهيم المؤيد بالله ، وعقد لكل منهم لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهود والآخر أبيض وهو لواء العمل ، فأقطع أكبرهم المنتصر أفريقية والمغرب كله والعواصم والثغور جميعها الشامية والجزرية وبلاد الجزيرة والعراق والحجاز واليمن والأهواز والسند ومكران . وأقطع ثانيهما خراسان وما يضاف اليها وطبرستان والري وأرمينية وأذربيجان وكور فارس ، وأقطع ثالثهم جند حمص وجند دمشق وجند فلسطين .

حذا هذا الرجل حذو جده مع ما رأى من سوء العاقبة ونقض العهود والمواثيق ثم زاد الطين بلة فعزم في أخريات أيامه أن يخلع المنتصر أكبر الإخوة من ولاية العهد فمالأ المنتصر وجماعة من الأتراك على قتله فقتلوه ، وتولى المنتصر وبايعه أخواه ولم يلبث أن خلعهما بعد أربعين ليلة من ولايته . فأما المؤيد فقابل ذلك بالسمع والطاعة ، وأما المعتز فأبى وقال إن أردتم القتل فشأنكم . ثم أجاب بعد تهديد ووعيد وأشهد كلا الأخوين على نفسه بالخلع القضاة وبني هاشم والقواد ووجوه الناس ، هذا مع أن المنتصر لم له يكن ابن كبير يصح أن يلي العهد . وأعقب ذلك موت المنتصر فلم يتمتع بما استعجل به فمات من غير عهد .

اختير للخلافة بعده أحمد المستعين بالله بن محمد بن المعتصم أخرجها الموالي عن أولاد المتوكل خوفاً أن يفتكوا بهم لقتلهم أباهم .

اختل نظام الخلافة ببغداد في ذلك الوقت إذ صار كبار الأتراك الذين هم من بقايا المعتصم ومن معهم من رجال الدولة يولون من شاءوا وبعد زمن يخلعونه ثم

يولون غيره حتى أتى المعتمد بالله وهو الخامس عشر منهم فعهد إلى ابن أخيه أحمد المعتضد بن طلحة بن المتوكل وعهد المعتضد إلى ابنه المكتفي ثم عادت الاضطرابات والخلع والقتل في الخلفاء حتى جاءت دولة بني بويه وفي عهدهم لم يكن للخلفاء إلا الاسم ، والتولية والعزل لبني بويه وجميع الخلفاء الذين ولوا في عهدهم خلعوا إلا أحمد القادر بالله فانه طال حكمه وعهد من بعده إلى ابنه القائم .

بعد ذلك تسلسلت الخلافة من الخليفة إلى ابنه حتى انتهت الدولة بظهور التتار حيث أغار هولاكوخان حفيد جنكيزخان موحد التتر وقتل المستعصم سنة ٦٥٦ . وخلاصة القول أن ولاية العهد في النصف الأول من خلافة بني العباس كانت جارية على السنن المعيب وهو تولية أكثر من واحد فترتب على ذلك شرور كثيرة وكوارث عظيمة ولم يلتفت أحد منهم نوضع نظام لذلك مع ما كانوا عليه من العلم والعرفان . أما البيعة فكانت في الصدر الأول عبارة عن المصافحة وقول المبايع أبايعك على السمع والطاعة على العمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ثم زيدت عليه أيمان في أواخر الدولة الأموية وزادت الأيمان كثيراً في أوائل عهد الدولة العباسية . ويظهر لكم ذلك من ختام العهدين اللذين كتبهما الأمين والمأمون وحفظا في البيت الحرام . وقد أثارت تلك الأيمان مسألتين شرعيتين بمكان عظيم من الأهمية :

(أولاهما) طلاق المكره لأنه لايخفى أن من ضمن تلك الأيمان يمين الطلاق . من رأي فقهاء الحجاز أن ليس للمكره يمين وقد أفتى مالك بعدم وقوع طلاق المكره وكان ذلك سبباً لإهانات شديدة أصابته في عهد المنصور ثاني خلفاء العباسيين ، وقد تغلب بسبب ذلك رأي فقهاء العراق أن طلاق المكره واقع .

(الثانية) إضافة الطلاق إلى الزوجة التي لم تكن وقت اليمين ، فان البيعة لم تكن تكتفي بطلاق الزوجات الموجودات بل تعدت ذلك إلى من يتزوجهن الحالف إلى خمسين سنة أو ثلاثين سنة وكذلك إضافة العتق إلى المملوكين الذين يحدثون بعد البيعة إلى أجل معين أو غير معين . قال فقهاء العراق إن ذلك صحيح ويلحق الطلاق من يتزوجها الحالف . وخالف ذلك بعض فقهاء الحجاز كالشافعي محمد بن إدريس ، وقد تغلب طبعاً رأي فقهاء العراق .

اليك فاني آثرت الله وديني على هواى وإرادتي فكذلك فليكن عملك وعليه فليكن أمرك ودبر في عمال الكور الذين تمر بهم في صعودك ما لا يستوحشون معه إلى أمر يريبهم وظن يرعبهم وأبسط من آمال أهل ذلك الثغر ومن أمانهم وعذرهم ثم اعمل بما يرضي الله منك وخليفتك ومن ولاك الله أمره إن شاء الله . هذا عهدى وكتابي بخطي وأنا أشهد الله وملائكته وحملة عرشه وسكان سمواته وكفى بالله شهيداً) وكتب أمير المؤمنين بخط يده لم يحضره إلا الله وملائكته .

شخص هرثمة وقد اختار من ثقات رجاله ولاة على كور خراسان مع وصيتهم بكتمان أمرهم إلى اليوم الذى عينه لهم حتى إذا وصل مرو خرج على بن عيسى لمقابلته لأن هرثمة لم يدع مجالا للريبة إلى قلبه فلما دخلا المنزل أطلعه على كتاب الرشيد إليه وأول كلمة منه تنبىء عن يقينه فأسقط في يده وبعد تلاوته الكتاب قبض عليه وقيده وكذلك قيد أولاده وكتابه وعماله ثم ذهب هرثمة إلى المسجد الجامع فخطب وبسط من آمال الناس وأخبرهم أن أمير المؤمنين ولاه ثغورهم لما انتهى إليه من سيرة الفاسق على بن عيسى وما أمره به فيه وفى عماله وأعوانه وأنه بالغ من ذلك ومن إنصاف العامة والخاصة والأخذ لهم بحقوقهم أقصى مواضع الحق وأمر بقراءة عهده عليهم فأظهروا السرور بذلك وانفسحت آمالهم وعظم رجاؤهم وعلت بالتكبير والتهليل أصواتهم وكثر الدعاء لأمير المؤمنين بالبقاء وحسن الجزاء . ثم صادر جميع ما يملكه على بن عيسى هو وأولاده وكتابه وأرسل كل ذلك إلى الرشيد وقالوا إنه حمل على ١٥٠٠ بعير وأرسل هرثمة إلى الرشيد يخبره بما صنع . ولما استوفى ما عند على بن عيسى أرسله هو وأولاده فى الأغلال إلى بغداد .

وقد اهتم هرثمة بأمر رافع ولكن استفحال أمره دعا الرشيد إلى الذهاب بنفسه لحربه فشخص يريد خراسان فى ربيع الآخر سنة ١٩٣ وهى السفرة التى مات فيها بطوس فلم يصل إلى ما أراد وبقى رافع على حاله حتى أطاع المأمون من غير قتال .

وزراء الرشيد :

أول وزراء الرشيد يحيى بن خالد بن برمك . ولما كانت أسرة البرامكة من أعظم الأسر تاريخاً وأشهرها اسما فى صدر الدولة العباسية أحببنا أن نشرح أوليتها

اسرة البرامكة :

تنسب هذه الاسرة إلى جدها برمك وهو من مجوس بلخ وكان يخدم النوبهار وهو معبد كان للمجوس بمدينة بلخ توقد فيه النيران فكان برمك وبنوه سدنة له وكان برمك عظيم المقدار عندهم ولم يعلم هل أسلم أولا ؟ لما جاءت الدعوة العباسية خراسان كان خالد بن برمك من أكبر دعاتها وزعمائها وكان ذا صفات عالية أهلته للسيادة ورفعة القدر فى صدر الدولة حتى استوزره أبو العباس السفاح بعد هلاك أبى سلمة حفص بن سليمان الخلال فكان مدبر أمره غير أنه لم يكن يسمى وزيرا واستمر على ذلك حياة أبى العباس فلما ولى أبو جعفر أبقى خالداً فى منصبه مدة ثم ولاه فارس بتدبير أبى أيوب المورياني الذى تولى الوزارة بعده فأقام فيها مدة ثم انكسرت عليه جملة من المال إلى فحمل بغداد وطولب بالمال : ذكر الطبرى فى حوادث ١٥٨ أن أبا جعفر ألزمه ثلاثة آلاف ألف ونذر دمه وأجله ثلاثة أيام ولم يذكر سبب ذلك فاستعان فى ذلك أصدقاءه فأعانه كثير منهم حتى جمع فى يومين ألفى ألف وسبعمائة ألف درهم . وفى غد ذلك اليوم الذى أصيب فيه بهذه المصيبة ولاه المنصور ولاية الموصل وكان ممدوح الولاية حسن السيرة قال أحمد بن محمد بن سوار الموصلى ما هبنا قط أميراً هيبتنا خالد بن برمك من غير أن تشتد عقوبته ولا نرى منه جبرية ولكن هيبة كانت له فى صدورنا والياً على الموصل حتى مات أبو جعفر وكانت وفاة خالد سنة ٢٦٣ فى أوائل خلافة المهدى .

أما يحيى بن خالد فكان واحد الدنيا علماً وأدباً وفضلا ونبلا وجوداً رباه أبوه فأحسن تربيته وكان مولده سنة ١٢٠ فكانت سنه حين جاءت الدولة العباسية اثنى عشرة سنة فتربى فى كنف الدولة وكان عضد أبيه فى تلماته وشدائده وقد اختاره المنصور لولاية إذربيجان سنة ١٥٨ قال له أردتك لأمر مهم من الأمور واخترتك لثغر من الثغور وكانوا لا يولون ثغورهم إلا من كانت تقمهم به عظيمة فسار فى ولايته سيرة أبيه فى الموصل واستمر بها حتى مات المنصور .

وفى سنة ١٦٣ اختاره المهدى ليكون كاتباً ووزيراً لابنه هارون فكان يدبر أمره وهارون لا يناديه إلا بيا أبى وذلك لأن زوجة يحيى أم ابنه الفضل أرضعت هارون بلبان ابنها الفضل وأرضعت الخيزران أم هارون الفضل بلبان ابنها هارون

وخرج معه فى غزوة الصائفة سنة ١٦٣ وكان على أمر العسكر ونفقاته وكتابته والقيام بأمره وكان فى تلك الغزوة الربيع بن يونس الحاجب غازياً عن المهدى فكان الذى بين الربيع ويحيى على حسب ذلك وكان هارون يشاورهما ويعمل برأيهما ولما ندب المهدى يحيى لذلك المهم قال له إنى قد تصفحت أبناء شيعتى وأهل دولتى واخترت منهم رجلا لهارون ابنى أضمه إليه ليقوم بأمر عسكره ويتولى كتابته فوقعت عليك خيرتى له ورأيتك أولى به إذ كنت مربيه وخاصته وقد وليتك كتابته وأمر عسكره .

ولما ولى المهدى ابنه هارون المغرب كله سنة ١٦٤ من الأنبار إلى آفريقية أمر يحيى بن خالد أن يتولى ذلك فكانت إليه أعماله ودواوينه يقوم بها ويخلفه على ما يتولى منها واستمر على حاله تلك إلى أن مات المهدى ولما ولى الهادى أبقاه على حاله مع هارون حتى إذا خطر ببال الهادى أن يخلع أخاه من ولاية العهد ابتدأت محنة يحيى فانه هو الذى جرأه على الاستمساك بحقه الذى منحه إياه أبوه المهدى وكان هارون قد طاب نفساً بالخلع فقال له يحيى لا تفعل فقال أليس يترك لى الهنىء والمرىء فهما يسعانى وأعيش مع ابنة عمى وكان هارون يجد بأم جعفر وجداً شديداً فقال له يحيى وأين هذا من الخلافة ولعلك ألا يترك هذا فى يدك حتى يخرج أجمع ومنعه من الإجابة فسعى إلى الهادى بيحيى وقيل له إنه ليس عليك من هارون خلاف وإنما يفسده يحيى بن برمك فأرسل إليه الهادى وقال له لم تدخل بينى وبين أخى وتفسده على فقال يا أمير المؤمنين من أنا حتى أدخل بينكما إنما صيرنى المهدى معه وأمرنى بالقيام بأمره فقمت بما أمرنى به ثم أمرتنى بذلك فانتهيت إلى أمرك . ثم قال له لما كلمه فى أمر الخلع يا أمير المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته فقال صدقت ونصحت ولى فى هذا تدبير ، ومما قاله فى هذا يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان الأمر أسأل الله ألا نبلغه وأن يقدمنا قبله أتظن أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحلم ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم . قال والله ما اظن ذلك قال يا أمير المؤمنين أفتأمن أن يسمو اليها أهلك وجلتهم مثل فلان وفلان ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد أبيك . فقال له نبهتنى يا يحيى . قال وكان يقول ـ ما كلمت

أحداً من الخلفاء كان أعقل من موسى وقال له لو أن هذا الأمر لم يعقد لأخيك أما كان ينبغي أن تعقد له فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدى له ولكن أرى أن تقر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله فاذا بلغ جعفر وبلغ الله به أتيته بالرشيد فخلع نفسه وكان أول من يبايعه ويعطيه صفقة يده فقبل الهادى قوله . ولكن يظهر أن الذى كان يحرك الهادى إلى خلع الرشيد مما لا تمكن مقاومته فاشتد غضبه منه وضيق عليه فقال يحيى لهارون استأذن فى الخروج إلى الصيد فاذا خرجت فاستبعد ودافع الأيام ففعل ذلك هارون وخرج إلى قصر مقاتل فأقام به أربعين ليلة حتى أنكر الهادى أمره وغمه احتباسه وجعل يكتب إليه ويصرفه فتعلل عليه حتى تفاقم الأمر وأظهر شتمه وبسط مواليه وقواده ألسنتهم فيه وكان الذى ينوب عن يحيى والرشيد بالباب الفضل بن يحيى فكان يكتب إلى أبيه بكل ما يحدث .

ولما لم ير الهادى يحيى بن خالد يرجع عما كان عليه لهارون بما بذل له من إكرام ولا إقطاع ولا صلة بعث إليه يتهدده بالقتل إن لم يكف عنه ولم تزل الحال على ذلك من الخوف والخطر حتى اعتل موسى علته التى مات فيها فقام يحيى بأمر الرشيد خير قيام ودبره أحسن تدبير فقلده الرشيد وزارته وزارة تفويض حيث قال له قلدتك أمر الرعية وأخرجته من حتى إليك فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت وامض الأمور على ما ترى ، ودفع إليه خاتمه وفى ذلك يقول إبراهيم الموصلى :

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة ... فلما ولى هارون أشرق نورها
بيمن أمين الله هارون ذى الندى ... فهارون واليها ويحيى وزيرها

وكانت الخيزران هى الناظرة فى الأمور وكان يحيى يعرض عليها ويصدر عن رأيها وكان يحيى بما أوتيه من كريم الخلق وسماحة النفس وجودة الكتابة غرة فى دولة الرشيد وكان قبلة الآمال ومنتجع الرواد . وقد ضم إليه الرشيد فى سنة ١٧١ خاتم الخلافة فاجتمعت له الوزارتان .

وكان ليحيى أربعة من الأولاد كلهم سادة نجب وهم الفضل وجعفر ومحمد وموسى بنو يحيى .

فأما الفضل فهو أكبر الإخوة ولد أواخر سنة ١٤٨ قبل ولادة الرشيد بأيام وقد

أرضعت كلا منهما أم الآخر ولما شب كان لأبيه يحيى كما كان يحيى لأبيه خالد ولما ولى أبوه وزارة الرشيد كان الفضل ينوب عنه فى جلائل أعماله ولما ولد محمد الأمين جعله الرشيد فى حجر الفضل حتى يقوم بتربيته فكان له أباً .

وفى سنة ١٧٦ كان خروج يحيى بن عبد الله بن الحسن ببلاد الديلم فأهم أمره الرشيد واختار له أوثق الناس عنده وهو الفضل بن يحيى فولاه كور الجبال والرى وجرجان وطبرستان وقومس ودنباوند والرويان ولم يزل يحتال فى أمر يحيى حتى استنزله من معقله بأمان من غير أن يريق فى ذلك نقطة دم إلا حسن السياسة وقد عرف الرشيد ذلك للفضل فبلغ الغاية فى إكرامه ومدحه شعراء العصر بسبب ذلك فقال مروان بن أبى حفصة :

ظفرت فلا شلت يد برمكية ... رتقت بها الفتق الذى بين هاشم
على حين أعيا الراتقين التئامه ... فكفوا وقالوا ليس بالمتلائم
فأصبحت قد فازت يداك بخطة ... من المجد باق ذكرها فى المواسم
ومازال قدح الملك يخرج فائزا ... لكم كلما ضمت قداح المساهم

وقال أبو ثمامة الخطيب :

للفضل يوم الطالقان وقبله ... يوم أناخ به على خاقان
ما مثل يوميه اللذين تواليا ... فى غزوتين توالتا يومان
سد الثغور ورد ألفة هاشم ... بعد الشتات فشملها متدان
عصمت حكومته جماعة هاشم ... من أن يجرد بينها سيفان
تلك الحكومة لا التى عن لبسها ... عظم النبا وتفرق الحكمان

وفى سنة ١٧٨ ولاه الرشيد خراسان وثغورها فأحسن السيرة بها وبنى بها الرباطات والمساجد . وغزا ماوراء النهر فخرج إليه ملك أشروسنه وكان ممتنعا ، ويقال إنه اتخذ بخراسان جندا من العجم سماهم العباسية وجعل ولاءهم له وإن عدتهم بلغت ٥٠٠٠٠٠ رجل وأنه قدم منهم بغداد عشرون ألف رجل فسموا ببغداد الكرنبية وخلف الباقى منهم بخراسان على أسمائهم ودفاترهم وفى ذلك يقول مروان بن أبى حفصة .

ما الفضل إلا شهاب لا أفول له ... عند الحروب إذا ما تأفل الشهب

حام على ملك قوم غر سهمهم		من الوراثة فى أيديهم سبب
أمست يد لبنى ساقى الحجيج بها		كتائب مالها فى غيرهم أرب
كتائب لبنى العباس قد عرفت		ما ألف الفضل منها العجم والعرب
أثبت خمس مئين فى عدادهم		من الألوف التى أحصت لك الكتب
يقارعون عن القوم الذين هم		أولى بأحمد فى الفرقان إن نسبوا
إن الجواد ابن يحيى الفضل لاورق		يبقى على جود كفيه ولا ذهب
ما مر يوم له من شد مئزره		إلا تمول أقوام بما يهب
كم غاية فى الندى والبأس أحرزها		للطالبين مداها دونه تعب
يعطى اللها حين لايعطى الجواد ولا		ينبو إذا سلت الهندية القضب
ولا الرضا والرضا لله غايته		إلى سوى الحق يدعوه ولا الغضب
قد فاض عرفك حتى ما يعادله		غيث مغيث ولا بحر له حدب

ولما قدم من خراسان خرج الرشيد إلى بستان أبى جعفر يستقبله وتلقاه بنو هاشم والناس من القواد والكتاب والأشراف فوصلهم وأحسن جوائزهم وكان رجوعه بعد أن حسن أحوال خراسان وأذل العاصين بأطرافها وذلك سنة ١٧٩ وكان الفضل فى جميع الأعمال التى أسندت اليه كفوءاً نزيها وكان من أكثر البرامكة كرما وكان أكرم من أخيه جعفر . وكان الناس يسمونه فى بدء أعماله بالوزير الصغير واستمر محمود السيرة مرفوع الرأس فى المهمات حتى كانت النكبة الآتى ذكرها .

وأما جعفر فهو ثانى أولاد يحيى وكان من علو القدر ونفاذ الأمر وبعد الهمة وعظم المحل وجلالة المنزلة عند الرشيد بحالة انفرد بها ولم يشاركه فيها وكان سمح الأخلاق طلق الوجه ظاهر البشر وأما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه فكان أشهر من أن يذكر وكان من ذوى الفصاحة والمشهورين باللسن والبلاغة وكان أبوه قد ضمه إلى أبى يوسف يعقوب القاضى حتى علمه وفقهه وكان الرشيد يأنس به أكثر من أنسه بأخيه الفضل لسهولة أخلاق جعفر وشراسة أخلاق الفضل . وقال الرشيد يوما ليحيى ما بال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير ولا يسمون جعفرا بذلك فقال يحيى لأن الفضل يخلفنى قال فضم إلى جعفر أعمالا كأعمال الفضل فقال يحيى إن خدمتك ومنادمتك يشغلانه عن ذلك فجعل إليه أمر

دار الرشيد فسمي بالوزير الصغير، وقال له يوما قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر وقد استحييت من مكاتبته فى هذا المعنى فاكتب أنت إليه فكتب يحيى إلى الفضل قد أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن تحول الخاتم من يمينك إلى شمالك فأجابه الفضل قد سمعت ما أمر به أمير المؤمنين فى أخى وما انتقلت عنى نعمة صارت إليه ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه فقال جعفر لله در أخى ما أكيس نفسه وأظهر دلائل الفضل عليه وأقوى منة العقل عنده وأوسع فى البلاغة ذرعه .

وفى سنة ١٧٦ ولاه الرشيد مصر زيادة على ماله من الأعمال فى دار السلام فولاها من قبله عمر بن مهران .

وفى سنة ١٨٠ هاجمت العصبية بالشام بين أهلها وتفاقم أمرها فاغتم الرشيد لذلك فعقد لجعفر بن يحيى على الشام وقال له إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا فقال له جعفر بل أقيك بنفسى فشخص فى جملة القواد والكراع والسلاح فأصلح بين الناس وقتل زواقيلهم والمتلصصة منهم ولم يدع بها رمحا ولا فرسا فعادوا إلى الأمن والطمأنينة وأطفأ تلك الثائرة وقد مدحه شعراء العصر بسبب ذلك فقال منصور النميرى :

لقد أوقدت بالشام نيران فتنة ... فهذا أوان الشام تخمد نارها
إذا جاش موج البحر من آل برمك ... عليها خبت شهبانها وشرارها
رماها أمير المؤمنين بجعفر ... وفيه تلاقى صدعها وانجبارها
رماها بميمون النقيبة ماجد ... تراضى به قحطانها ونزارها
تدلت عليهم صخرة برمكية ... دموع لها الناكثين انحدارها
غدوت تزجى غاية فى رءوسها ... نجوم الثريا والمنايا ثمارها
إذا خفقت راياتها وتجرست ... بها الريح هال السامعين انبهارها
فقولوا لأهل الشام لا يسلبنكم ... حجاكم طويلات المنى وقصارها
فان أمير المؤمنين بنفسه ... أتاكم وإلا نفسه فخيارها
هو الملك المأمول للبر والتقى ... وصولاته لا يستطاع خطارها
وزير أمير المؤمنين وسيفه ... وصعدته والحرب تدمى شفارها
ومن تطوى أسرار الخليفة دونه ... فعندك مأواها وأنت قرارها

وفيت فلم تغدر لقوم بذمة | ولم تدن من حال ينالك عارها
طبيب باحياء الأمور إذا التوت | من الدهر أعناق فأنت جبارها
إذا ما ابن يحيى جعفر قصدت له | ملمات خطب لم ترعه كبارها
لقد نشأت بالشام منك غمامة | يؤمل جدواها ويخشى دمارها
فطوبى لأهل الشام ياويل أمها | أتاها حياها أو أتاها بوارها
فان سالموا كانت غمامة نائل | وغيث وإلا فالدماء قطارها
أبوك أبو الأملاك يحيى بن خالد | أخو الجود والنعمى الكبار صغارها
كأين ترى في البرمكيين من ندى | ومن سابقات ما يشق غبارها
غدا من نجوم السعد من حل رحله | إليك وعزت عصبة أنت جارها
عذيرى من الأقدار هل عزماتها | مخلفتى عن جعفر واقتسارها
فعين الأسى مطروقة لفراقه | ونفسى إليه ما ينام ادكارها

ولما شخص جعفر من هذه المهمة ازداد الرشيد له إكراما وخطب جعفر أمامه خطبة جميلة استشفع فيها لأهل الشام واستعطف قلب الرشيد عليهم .

وفي هذه السنة ولاه الرشيد خراسان ثم عزله منها بعد عشرين ليلة وولاه الحرس وكان يخلفه في هذا العمل هرثمة بن أعين وهو من كبار قواد الدولة .

وفي سنة ١٨٢ بايع الرشيد لابنه عبد الله المأمون بولاية العهد بعد أخيه محمد الأمين وضمه إلى جعفر بن يحيى ليكون المدبر لأمره كما كان الأمين مع الفضل بن يحيى وقد جعل الرشيد الأمين والى المغرب كله والمأمون والى المشرق كله وكانت الولاة التي ترسل إلى الأقاليم من قبل ولى العهد .

وأما موسى بن يحيى فكان أشجع القوم وأشدهم بأساً لم ينل من الشهرة ما ناله أخواه الفضل وجعفر إلا أنه كان في تلك الدولة عاملا سريا وقائدا باسلا ولاه الرشيد الشام سنة ١٨٦ لما هاجت بها الفتن والعصيان قبل الحادثة التي ذهب فيها أخوه جعفر وضم إليه من القواد والأجناد ومشايخ الكتاب جماعة فلما ورد الشام أقام بها حتى أصلح بين أهلها وسكنت الفتنة واستقام أمرها فانتهى الخبر إلى الرشيد بمدينة السلام وورد الرشيد الحكم فيهم إلى يحيى بن خالد فعفا عنهم وعما كان بينهم وأقدمهم بغداد . فقيل في موسى بن يحيى :

قد هاجت الشام هيجا • يشيب رأس وليده
فصب موسى عليها • بخيله وجنوده
فدانت الشام لما • أتى بسنخ وحيده
هو الجواد الذى بذ كل جود بجوده
أعداه جود أبيه • يحيى وجود جدوده
فجاء موسى بن يحيى • بطارف وتليده
ونال موسى ذرى المجد وهو حشو مهوده
خصصته بمديحى • منثوره وقصيده
من البرامك عود • له فأكرم بعوده
حووا على الشعر طرا • خفيفه ومديده

وقد اتهمه على بن عيسى بن ماهان أمير خراسان من قبل الرشيد بأنه هو السبب فى اضطراب خراسان عليه وأعلمه طاعة أهلها لموسى ومحبتهم إيام وأنه يكاتبهم ويعمل على الانسلال إليهم للوثوب به معهم فوقر ذلك فى نفس الرشيد عليه وأوحشه منه فلما قدح على بن عيسى فيه أسرع ذلك فى الرشيد وعمل فيه القليل منه ثم ركب موسى دين واختفى من غرمائه فتوهم الرشيد أنه صار إلى خراسان كما قيل له فلما صار إلى الحيرة فى حجه سنة ١٨٧ وافاه موسى من بغداد فحبسه الرشيد بالكوفة عند العباس بن عيسى بن موسى فركبت أم الفضل بن يحيى فى أمره ولم يكن الرشيد يردها فى شىء فقال يضمنه أبوه فقد رفع إلى فيه فضمنه يحيى ودفعه إليه ثم رضى عنه الرشيد وخلع عليه .

وأما محمد بن يحيى فكان سريا بعيد الهمة ولم يكن له من الشهرة ما لإخوته كانت هذه الأسرة فى عهد الرشيد غرة فى جبين دولته جمعوا من الصفات المحمودة ما استحقوا به ثناء معاصريهم من الكتاب والشعراء والقصاد وقد كانوا فرسان البلاغة وملوك الكلام كما كانوا مبرزين فى حلبة الجود والسخاء تهزهم الأريحية عند سماع المديح فيجودون بما ضن به الكرام حتى أنسوا الناس ذكر الأولين .

خدمت هذه الأسرة الدولة العباسية من أول نشأتها حيث كان خالد بن برمك من كبار دعاتها وقوادها إلى هذه السنة سنة ١٨٧ التى نسطر فيها أخبار نكبتها على يد الرشيد

نكبة البرامكة :

أولع المؤرخون بذكر نكبة البرامكة وأجهدوا قرائحهم فى تعرف أسباب إيقاع الرشيد بهم . لم يكن هذا العمل بدعا فى الدولة العباسية فانه للمنصور والمهدى سلفا فى ذلك فقد أوقع المنصور بوزيره أبى أيوب المورياني قتله وأقاربه واستصفى أموالهم لخيانة مالية اطلع عليها منهم وأوقع المهدى بوزيريه أبى عبد الله معاوية بن يسار ويعقوب بن داود لوشاية كانت بهما مع نزاهة الأول وحسن سيرته ومع ما كان للمهدى من الوثوق بالثانى حتى كتب للجمهور أنه اتخذ أخاه فى الله . كل هذا قد سبق به الرشيد .

يرى المؤرخ أن طبيعة الملك الاستبداد أى يحب الملك فيه أن يكون ذا السلطان الذى لا يشارك والحول الذى لا يقاوم واليد الطولى التى لا تضارعها يد وكبار الرجال الذين يعينونهم ويقومون بتأييد سلطانهم كثير منهم لا يقف عند حد فى الانتفاع بتلك السابقة ثم فلا يزالون يرتفعون حتى تتنبه إليهم أفكار الخلفاء بما يلقيه إليهم الحاسدون والواشون من تعظيم سلطانهم على سلطانه واشتداد وطأتهم وعلو أيديهم فتدخل الغيرة فى قلوب أولئك الخلفاء والغيرة بدء الشعور بعيوب أولئك الرجال فلا تزال معايبهم تتجسم وهفواتهم الصغيرة تعظم وحينئذ يرى هذا السلطان المستبد أن لا مناص من الإيقاع بمن كان سيفه الذى لا ينبو فى الخطوب إشفاقا من هذا السيف أن ينقلب عليه فينتقص منه ملكه الذى دونه كل شيء وليس هذا خاصا بالرشيد والبرامكة بل كل مستبد هذا شأنه مع وزرائه وأعوانه إلا قليلا من الوزراء الذين يعلمون طباع الملك فيقفون عند حد لا يهيج الغيرة والحسد فى قلوب الناس وقلب السلطان وهؤلاء أندر من الكبريت الأحمر لأنهم يتغلبون على ما فى طبع الإنسان من عدم الوقوف عند حد فى العظمة والتكاثر فى الأموال على أن أبا عبد الله وزير المهدى مع نزاهته وبعده عما يوجب غيرة سلطانه جاءه أعداؤه من قبل ابنه فقالوا للمهدى إنه زنديق فقتله المهدى فكان ذلك سبباً للوحشة بين المهدى ووزيره .

كان يحيى بن خالد هو القائم بأمر الرشيد أيام المهدى وكان الرشيد يدعوه يا أبى وكانت أم الفضل بن يحيى ظئرا للرشيد وأرضعت الخيزران أم الرشيد الفضل بن

يحيى فكان يحيى هو الذى يكفله ويقوم بتربيته من لدن ولد إلى أن شب . وهو الذى كانت له اليد الطولى فى إخفاق المساعى التى بذلت لخلع الرشيد من ولاية العهد أيام الهادى فلما تولى الرشيد قلده وزارته وزارة تفويض ثم ضم إليه وزارة الخاتم بعد وفاة الفضل بن سليمان الطوسى فاجتمعت له الوزارتان وأعانه فى العمل أبناؤه إلا أن الشهرة ونباهة الذكر كانت للفضل وجعفر مع ما كان لهم جميعاً من الكفاية حتى روى القاضى يحيى بن أكثم قال سمعت المأمون يقول لم يكن كيحيى بن خالد وولده أحد فى الكفاية والبلاغة والجود والشجاعة قال القاضى فقلت يا أمير المؤمنين أما الكفاية والبلاغة والسماحة فنعرفها فيهم ففيمن الشجاعة فقال موسى بن يحيى وقد رأيت أن أوليه ثغر السند .

* ولم يكونوا فى الاتصال بالرشيد على درجة واحدة فكان يحيى صاحب المقام الأرفع وهو المدبر أمر المملكة وحاله فى سنه وجلالة قدره تبعده عما يدعو إليه الشباب من المنادمة وكان الفضل فى الأخلاق مثله فلم يكن يخف على قلب الرشيد لتشبهه بأبيه حتى كان الرشيد قد عتب عليه وثقل مكانه عليه لتركه الشراب معه فكان الفضل يقول لو علمت أن الماء ينقص من مروءتى ما شربته وكان مشغوفا بالسماع أما جعفر فكان أخف الجميع على قلب الرشيد فكان لذلك يدخل فى منادمته حتى كان أبوه ينهاه ويأمره بترك الأنس به فيترك أمر أبيه ويدخل معه فيما يدعوه إليه ويقال إنه كتب إليه حين أعيته الحيلة فيه . إنى إنما أهملتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها أمرك وإن كنت لأخشى أن تكون التى لا سوى لها . وقد كان يحيى قال للرشيد يا أمير المؤمنين أنا والله أكره مداخلة جعفر معك ولست آمن أن ترجع العاقبة فى ذلك على منك فلو أعفيته واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك كان ذلك واقعا بموافقتى وآمن لك على . قال الرشيد يا أبت ليس بك هذا ولكنك إنما تريد أن تقدم عليه الفضل . ومن أجل ذلك كان سلطان جعفر أيام الرشيد عظيما جداً حتى كان يقضى أعظم الأمور فلا يرد له الرشيد قضاء .

رآهم الناس بعد هذا العز المتين والشرف الباذخ منكوبين على يد الرشيد ، ابن يحيى وأخى الفضل وحبيب جعفر . فجعفر مقتول بالعمر من ناحية الأنبار فى آخر ليلة من محرم سنة ١٨٧ﻫ بعد أوبة الرشيد من حجه وكتابته عهدى ولديه الأمين

والمأمون — ثم جسمه مصلوب ببغداد على ثلاثة جسور ثم احرق . ويحيى بن خالد وأبناؤه الباقون محبوسون . ورأوا مصادرة لكل ما يملكون من عقار ومنقول ورقيق — ورأوا كتبا أرسلت إلى جميع العمال فى نواحى البلدان والأعمال بقبض أموالهم وأخذ وكلائهم وأمراً بالنداء فى جميع البرامكة أن لا أمان لمن أواهم إلا محمد ابن خالد بن برمك وولده وأهله وحشمه فان الرشيد استثناهم لما ظهر له من نصيحة محمد له وعرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة . رأوا ذلك كله فعرتهم الدهشة وظنوا الظنون وسادت عليهم الخيالات والأوهام ناسين ذلك لحادث فجائى حدث فغير قلب الرشيد هذا التغيير وأداه إلى هذا العمل شأن الناس فى الأعصار كافة إذا عصفت بهم عاصفة من حادث شديد الوقع .

نسب ذلك بعضهم إلى مجرد المال والغيرة . وسئل سعيد بن سالم عن جناية البرامكة الموجبة لغضب الرشيد عليهم فقال والله ما كان منهم ما يوجب بعض عمل الرشيد بهم ولكن طالت أيامهم وكل طويل مملول والله لقد استطال الناس الذين هم خير الناس أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه وما رأوا مثلها عدلا وأمنا وسعة أموال وفتوح وأيام عثمان رضى الله عنه حتى قتلوهم ، ورأى الرشيد مع ذلك أنس النعمة بهم وكثرة حمد الناس لهم ورميهم بآمالهم دونه والملوك تتنفس بأقل من ذلك فتعنت عليهم وتجنى وطلب مساويهم ووقع منهم بعض الإدلال خاصة الفضل وجعفر دون يحيى فانه كان أحكم خبرة وأكثر ممارسة للأمور ولاذ من أعدائهم بالرشيد كالفضل بن الربيع وغيره فستروا المحاسن وأظهروا القبائح حتى كان ما كان .

ونسب ذلك بعضهم إلى حادثة يحيى بن عبد الله بن الحسن الذى روينا حديث ذهابه إلى بلاد الديلم واستنزال الفضل بن يحيى إياه بأمان الرشيد — ذكر أبو محمد اليزيدى وكان فيما قيل من أعلم الناس بأخبار القوم قال : من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله بن الحسن فلا تصدقه وذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه ثم دعا به ليلة من الليالى فسأله عن شىء من أمره فأجابه إلى أن قال اتق الله فى أمرى ولا تتعرض أن يكون خصمك غدا محمدا صلى الله عليه وسلم فوالله ما أحدثت حدثا ولا آويت محدثا فرق عليه وقال اذهب حيث شئت من بلاد الله . قال وكيف أذهب ولا آمن أن أوجد بعد قليل فأرد إليك أو إلى

غيرك فوجه معه من أداه إلى مأمنه وبلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين كانت له عليه من خاصة خدمه فعلم الأمر فوجده حقا وانكشف عنده فدخل على الرشيد فأخبره فأراه أنه لا يعبأ بخبره وقال ما أنت وهذا لاأم لك فلعل ذلك عن أمرى فانكسر الفضل وجاء جعفر فدعا بالغداء فأكلا وجعل يلقمه ويحادثه إلى أن كان آخر مادار بينهما أن قال مافعل يحيى بن عبد الله قال بحاله يا أمير المومنين فى الحبس الضيق والأكبال . قال : بحياتى . فأحجم جعفر وكان من أدق الخلق ذهنا وأصحهم فكرا فهجس فى نفسه أنه قد علم بشيء من أمره فقال لا وحياتك يا سيدي ولكن أطلقته وعلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عنده قال نعما فعلت ما عدوت ما كان فى نفسى فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد يتوارى عن وجهه ثم قال قتلنى الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك فكان من أمره ما كان .

ونسب ذلك بعضهم إلى حديث العباسة بنت المهدى التى رواها الطبرى عن زاهر بن حرب وتناقلها المؤرخون وزادوا عليه ونقصوا منها وهى حكاية مشهورة ونحن تريد أن نبين أن نكبة البرامكة ليست حادثة فجائية بل هى حادثة تقدمتها أسباب طويلة أنتج بعضها بعضا .

كان من موالى العباسيين الفضل بن الربيع وقد قدمنا ذكر أبيه الربيع بن يونس فى حياة المنصور والمهدى ولم يكن للفضل فى أول خلافة الرشيد شيء من نباهة الذكر لأن الخيزران أم الرشيد كانت تمنعه أن يوليه شيئاً فى اليوم الذى توفيت فيه سنة ١٧٤ دعا به هارون فقال له وحق المهدى إنى لأهم لك بالليل بالشيء من التولية وغيرها فتمنعنى أمى فأطيع أمرها فخذ الخاتم من جعفر وكان بيده نيابة عن والده فقال الفضل بن الربيع لاسماعيل بن صبيح الكاتب أنا أجل أبا الفضل عن ذلك بأن أكتب إليه وآخذه ولكن أرى أن يبعث به . وهذه مجاملة سببها أن الفضل يريد منافسة القوم وهم الذين بيدهم كل شيء فأحب أن يتخذ عندهم يدا حتى لا يتخوفونه وولى الفضل بن الربيع الخاتم مع نفقات العامة والخاصة وولايات أخرى .

فى سنة ١٧٦ حصلت حادثة يحيى بن عبد الله فاستنزله الفضل من معقله بأمان الرشيد فحضر إلى بغداد وأكرمه الرشيد لكن الزمان لم يطل على هذا الإكرام فان السعاة رفعوا عن يحيى ما يريب وكان الرشيد يرتاب بأقل شيء فرفع إليه

أن يحي لا يزال يدعو إلى نفسه وإنما ينتظر الفرص وكان أكثر الناس سعاية في ذلك بكار بن عبد الله الزبيري وكان شديد البغض لآل أبي طالب ويبلغ عنهم هارون ويسيء بأخبارهم فكان من وراء تلك السعايات أن حبسه الرشيد وضيق عليه وحاول أن يقتله ولم يكن يمنعه إلا خيفة أن يقول الناس فيه شيئا لما كتبه من كتاب الأمان الذي استنزل به يحي فأراد أن يأخذ من العلماء قولا في أن ذلك الأمان لاغ فأحضر أبا البختري القاضي ومحمد بن الحسن الفقيه صاحب أبي يوسف فأما محمد بن الحسن فإنه قال له ما تصنع بالأمان لو كان محاربا ثم ولي كان آمنا وليس هذا الجواب موافقا لغرض الرشيد ولذلك احتمل هذه الكلمة على محمد — وأما أبو البختري فقال إن الأمان منتقض وأقبل بعدد وجوه تنقضه ولذلك قال له الرشيد أنت قاضي القضاة وأنت أعلم بذلك فخرق الأمان .

ويظهر أن الفضل بن الربيع كان يحرك هؤلاء السعاة تسعى بيحيي بن عبد الله عند الرشيد لأن في قتله إذلالا لمن كان السبب في استنزاله وكان الربيع يحاول أن ينال مركز البرامكة أو يساميهم لما كان يرى من وفرة أموالهم وقوة سلطانهم والذي أوضح لنا ان الفضل بن الربيع هو الذي كان يحرك السعاة للسعي بيحيي أن الرشيد لما كان يحاج يحي نظر يحي إلى الفضل بن الربيع وقال له : هذا والله من آفاتك .

كان المفهوم بعد ذلك أن يجتهد البرامكة في تخليص يحي ففعل جعفر فعلته التي قدمنا ذكرها والرشيد وإن كان يحتمل لجعفر كثيرا من الإدلال لا يحتمل له هذا لأنه متعلق بملكه — ومن الغريب ما ورد في هذه الحادثة من أن الفضل بن الربيع علم بما فعله جعفر من عين كانت له عليه من خاصة خدمه وهذا يبين كيف كان الفضل بن الربيع يترقب أحوال جعفر حتى اختار من خاصة خدمه جاسوساً يعلم أخباره ويلقى بها إليه كانت هذه الحادثة سبباً للوشاية بالبرامكة في أخص صفات الوزراء وهي الإخلاص لمركهم وذلك طعن منفذ . وقر في نفس الرشيد شيء من ذلك وأن البرامكة يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحته وهذه التهمة أشد من تهمة الزندقة عند المهدي وهي التهمة التي استعملها الربيع بن يونس والد الفضل ضد أبي عبيد الله وزير المهدي حتى جعله يقتل ابنه بتلك التهمة .

كان من الظاهر بعد ذلك أن تتجسم عيوبهم وتظهر للرشيد مثالبهم ومآثمهم ويتنسى

عليهم ماصار إليهم من عظيم الأموال وجلائل المدح وظهرت على الرشيد آثار النفرة منهم واستراب بهم وظن كل منهم فى الآخر الظنون . روى بختيشوع الطبيب عن أبيه جبريل قال إنى لقاعد فى مجلس الرشيد إذ طلع يحيى بن خالد وكان فيا مضى يدخل بلا إذن فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم رد عليه رداً ضعيفا فعلم يحيى أن أمرهم قد تغير ثم أقبل الرشيد على جبريل فقال ياجبريل يدخل عليك وأنت فى منزلك أحد بلا إذنك فقلت لا ولا يطمع فى ذلك قال فما بالنا يدخل علينا بلا إذن فقام يحيى فقال : يا أمير المؤمنين قدمنى الله قبلك والله ما ابتدأت ذلك الساعة وما هو إلا شىء كان خصنى به أمير المؤمنين ورفع به ذكرى حتى إن كنت لأدخل عليه وهو فى فراشه مجرداً حيناً وحيناً فى بعض إزاره وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب وإذ قد علمت فانى أكون عنده فى الطبقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثة إن أمرنى سيدى بذلك قال فاستحيا الرشيد وكان من أرق الخلفاء وجها وعيناه فى الأرض مايرفع إليه طرفه ثم قال : ما أردت ما تكره ولكن الناس يقولون . قال جبريل فظننت أنه لم يسنح له جواب يرتضيه فأجاب بهذا القول ثم أمسك عنه وخرج يحيى .

وحدث محمد بن الفضل مولى سليمان بن أبى جعفر قال دخل يحيى بن خالد على الرشيد فقام الغلمان إليه فقال الرشيد لمسرور الخادم مر الغلمان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار قال فدخل فلم يقم إليه أحد فاربد لونه قال وكان الغلمان والحجاب إذا رأوه أعرضوا عنه قال فكان ربما استسقى الشربة من الماء أو غيره فلا يسقونه وبالحرى إن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعو بها مرارا .

وحدث يعقوب بن إسحاق عن إبراهيم بن المهدى قال أتيت جعفر بن يحيى فى داره التى ابتناها فقال أما تعجب من منصور بن زياد قال قلت له فماذا ؟ قال سألته هل ترى فى دارى عيبا قال نعم ليس فيها لبنة ولا صنوبرة قال إبراهيم فقلت له الذى يعيبها عندى أنك أنفقت عليها نحواً من عشرين ألف ألف درهم وهو شىء لا آمنه عليك غداً بين يدى أمير المؤمنين . قال هو يعلم أنه قد وصلنى بأكثر من ذلك وضعف ذلك سوى ما عرضنى له قال قلت إن العدو إنما يأتيه فى هذا من جهة أن يقول له يا أمير المؤمنين إذا أنفق على دار عشرين ألف ألف درهم فأين نفقاته وأين صلاته وأين النوائب التى تنوبه وما ظنك يا أمير المؤمنين بما وراء ذلك وهذه جملة سريعة إلى

القلب والوقف على الحاصل منها صعب قال إن سمع منى قلت لأمير المؤمنين نعم على قوم قد كفروها بالستر أو باظهار القليل من كثيرها وأنا رجل نظرت إلى نعمة عندى فوضعتها فى رأس جبل ثم قلت للناس تعالوا فانظروا . وحدث زيد بن على عن إبراهيم بن المهدى أن جعفر بن يحيى قال له يوما (وكان جعفر صاحبه عند الرشيد وهو الذى قربه منه) إنى قد استربت بأمر هذا الرجل (يعنى الرشيد) وقد ظننت أن ذلك لسابق سبق لى منه فأردت أن أعتبر ذلك بغيرى فكنت أنت فارمق ذلك فى يومك هذا وأعلمنى ماترى منه قال إبراهيم ففعلت ذلك فى يومى .

فلما نهض الرشيد من مجلسه كنت أول أصحابه نهض عنه حتى صرت إلى شجرة فى طريقى فدخلتها ومن معى وأمرتهم باطفاء الشمع وأقبل الندماء يمرون بى واحدا بعد واحد فأراهم ولا يرونى حتى إذا لم يبق منهم أحد إذا أنا بجعفر قد طلع فلما جاوز الشجرة قال اخرج يا حبيبى قال فخرجت فقال ما عندك فقلت حتى تعلمنى كيف علمت أنى ههنا قال عرفت عنايتك بما أعنى به وأنك لم تكن لتنصرف أو تعلمنى ما رأيت منه وعلمت أنك تكره أن ترى واقفاً فى مثل هذا الوقت وليس فى طريقك موضع أستر من هذا الموضع فقضيت بأنك فيه ثم قال فهات ما عندك قلت رأيت الرجل يهزل إذا جددت ويجد إذا هزلت قال كذا هو عندى فانصرف يا حبيبى .

من كل هذا يتبين أن النفور والريبة وقعت فى قلب كل من الطرفين للآخر وتبع ذلك معاملات من الرشيد لم يكن يبعثه عليها إلا ماركز فى نفسه وأثبته عنده وشاة السوء وأعداء البرامكة وكان الرشيد يتحين الفرصة للإيقاع بهم ولا سيما جعفر لما كان منه من تخليص يحيى بن عبد الله وهذا دليل عدم الإخلاص للرشيد وتثبيت العباسى وقد قام الفضل بن الربيع بما انتدب إليه خير قيام وشايعه فى ذلك كثيرون وكانت زوجة الرشيد زبيدة منحرفة عن جعفر لقيامه فى أمر المأمون فانه هو الذى قام فى ولايته العهد وجعله مناظراً لابنها الأمين وكانوا يتخوفون من جعفر أن يكون سبباً فى الإيقاع بين الأخوين إذا حانت منية الرشيد لذلك كانت زبيدة توغر قلب الرشيد على جعفر كلما حانت الفرصة .

فى سنة ١٨٦ حج الرشيد ولما انصرف من حجه أتى الأنبار ومعه يحيى والفضل وجعفر ومحمد بن خالد ودعا موسى بن يحيى فرضى عنه بعد غضبه عليه وفى غاية

المحرم أمر فيهم أمره فقتل جعفراً وحبس يحيى وابنيه وصادر أموالهم كلها وقد حبس يحيى مع الفضل ومحمد فى دير القائم وجعل عليهم حفظة ولم يفرق بينهم وبين عدة من خدمهم ولا ما يحتاجون إليه وصير معهم زبيدة بنت منير أم الفضل وعدة من خدمهم وجواريهم ولم تزل حالهم سهلة إلى أن سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح فعمهم بالتسقف بسخطه وجدد لهم التهمة عند الرشيد فضيق عليهم ؟

حادثة عبد الملك بن صالح :

هو عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس وهو فى درجة السفاح والمنصور نسبا. رفع إلى الرشيد أنه يطلب الخلافة ويطمع فيها وأن البرامكة كانوا له عونا والذى سعى به ابنه عبد الرحمن وخادمه قمامة فأحضر إلى الرشيد فلما دخل عليه قال « أكفرا بالنعمة وجحوداً لجليل المنة والتكرمة » فقال يا أمير المؤمنين « لقد بؤت إذاً بالندم وتعرضت لاستحلال النقم وماذاك إلا بغى حاسد نافسنى فيك مودة القرابة وتقديم الولاية إنك يا أمير المؤمنين خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته وأمينه على عترته لك عليها فرض الطاعة وأداء النصيحة ولها عليك العدل فى حكمها والتثبت فى حادثها والغفران لذنوبها » فقال له الرشيد « أتضع لى من لسانك وترفع لى من جنانك هذا كاتبك قمامة يخبر بغلك وفساد نيتك فاسمع كلامه » فقال عبد الملك « أعطاك ما ليس فى عقده ولعله لا يقدر أن يعضهنى ولا يبهتنى بما لم يعرفه منى » وأحضر قمامة فقال له الرشيد تقدم غير هائب ولا خائف قال أقول إنه عازم على الغدر بك والخلاف عليك ، فقال عبد الملك أهو كذلك يا قمامة قال نعم لقد أردت ختل أمير المؤمنين — فقال عبد الملك كيف لا يكذب على من خلفى وهو يبهتنى فى وجهى — فقال له الرشيد وهذا ابنك عبد الرحمن يخبرنى بعتوك وفساد نيتك ولو أردت أن أحتج عليك بحجة لم أجد أعدل من هذين لك فبم تدفعهما عنك فقال عبد الملك هو مأمور أو عاق مجبور فان كان مأموراً فمعذور وإن كان عاقا ففاجر كفور أخبر الله عز وجل بعداوته وحذر منه بقوله « إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » قال فنهض الرشيد وهو يقول أما أمرك فقد وضح ولكنى لا أعجل حتى أعلم الذى يرضى الله فيك فانه الحكم بينى وبينك — فقال عبد الملك

رضيت بالله حكما وبأمر أمير المؤمنين حاكما فانى أعلم أنه يؤثر كتاب الله على هواه وأمر الله على رضاه .

فلما كان بعد ذلك جلس مجلساً آخر فسلم عبد الملك لما دخل فلم يرد عليه الرشيد فقال عبد الملك ليس هذا يوما أحتج فيه ولا أجاذب منازعا فقال : الرشيد لم ؟ قال لأن أوله جرى على غير السنة فأنا أخاف آخره قال وماذاك قال لم ترد على السلام نصف نصفة العوام فقال الرشيد السلام عليكم اقتداء بالسنة وإيثاراً للعدل واستعمالا للتحية . ثم التفت نحو سليمان بن أبي جعفر وقال :

أريد حياته ويريد قتلى — أما والله لكأنى أنظر إلى شؤبوبها قد همع وعارضها قد لمع وكأنى بالوعيد قد أورى ناراً تسطع فأقلع عن براجم بلا معاصم ورءوس بلا غلاصم فمهلا مهلا بى والله سهل لكم الوعر وصفا لكم الكدر وألقت إليكم الأمور أثناء أزمتها فنذار لكم نذار قبل حلول داهية خبوط باليد لبوط بالرجل فقال عبد الملك : اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك وفى رعيتك التى استرعاك ولا تجعل الكفر مكان الشكر ولا العقاب موضع الثواب فقد نخلت لك النصيحة ومحضت لك الطاعة وشددت أواخى ملكك بأثقل من ركنى يلملم وتركت عدوك مشتغلا فالله الله فى ذى رحمك أن تقطعه بعد أن بلته بظن أفصح الكتاب لى بعضه أو ببغى باغ ينهش ويلغ فى الدم فقد والله سهلت لك الوعور وذللت لك الأمور وجمعت على طاعتك القلوب فى الصدور فكم من ليل تمام فيك كابدته ومقام ضيق لك قمته كما قال أخو بنى جعفر بن كلاب :

ومقام ضيق فرجته ۔ ببنان ولسان وجدل

لو يقوم الفيل أو فياله ۔ زل عن مثل مقامى وزحل

فقال له الرشيد أما والله لولا الإبقاء على بنى هاشم لضربت عنقك ثم أمر بحبسه فحبس عند الفضل بن الربيع وبعث إلى يحيى بن خالد وهو فى السجن إن عبد الملك بن صالح أراد الخروج على ومنازعتى فى الملك وقد علمت ذلك فأعلمنى ما عندك فيه فانك إن صدقتنى أعدتك إلى حالك فقال والله يا أمير المؤمنين ما اطلعت من عبد الملك على شيء من هذا ولو اطلعت عليه لكنت صاحبه دونك لأن ملكك كان ملكى وسلطانك كان سلطانى والخير والشر كان فيه على ولى . فكيف يجوز لعبد الملك أن

يطمع فى ذلك منى وهل كنت إذا فعلت ذلك به يفعل بى أكثر من فعلك . أعيذك بالله أن تظن بى هذا الظن ولكن كان رجلا محتملا يسرنى أن يكون فى أهلك مثله فوليته لما أحمدت من مذهبه وملت إليه لأدبه واحتماله . فلما أتاه الرسول بهذا أعاد عليه فقال إن أنت لم تغر عليه قتلت ابنك الفضل فقال له أنت مسلط علينا فافعل ماشئت على أنه إن كان من هذا الأمر شىء فالذنب فيه لى فيم يدخل الفضل فى ذلك فقال الرسول للفضل قم فانه لابد لى من إنفاذ أمر أمير المؤمنين فيك فلم يشك أنه قاتله فودع أباه وقال له ألست راضياً عنى قال بلى فرضى الله عنك ففرق بينهما ثلاثة أيام فلما لم يجد عندهما من ذلك شيئاً جمعهما كما كانا وكان يأتيهم من أغلظ رسائل لما كان أعداؤهم يقرفونهم به عنده .

سقنا هذا لندل على أن التهم التى وجهت إلى البرامكة كافة ولا سيما جعفر سياسية محضة وفى القليل منها ما يكفى عند الرشيد لتغيير نعمتهم والغضب عليهم وإذا أضيف إلى ذلك غيرة السلطان ممن يساميه فى سلطانه ويشاركه فى نفوذ أمره كان ذلك أشد لغضبه ولا حاجة بعد ذلك لحيرة الجمهور حتى تخترع له تلك الحكاية التى يظهر عليها أثر التوليد والاختراع لمخالفتها لأخلاق الرشيد وللتقاليد التى سار عليها بنو العباس فقد كان مما عده المنصور على أبى مسلم من ذنوبه وهو من هو فى الدولة وتشييد بنيانها أنه كتب إليه يخطب آمنة بنت على بن عبد الله بن عباس ولم يتنازل بنو العباس عن تلك التقاليد فى أوقات ضعفهم وتسلط آل سلجوق عليهم فكيف يظن بمثل الرشيد أن يقدم على زواج سرى كهذا سببه خسيس ؟ هذا بعيد جداً .

فيما تتبعناه من أحوال الرشيد كفاية فقد كان وصل من خوفه على ملكه وعلى نفسه إلى درجة الوساوس حتى جعله ذلك اذنا يسمع لكل واش ويصدق كل حسود ففقد بذلك زهرة دولته وغرة جبينها بل زهرة الدولة العباسية كلها فقد وزراء إن كتبوا أجادوا وإن قادوا الجيوش سدوا الثغور ، وإن ولوا عملا أصلحوا وهكذا الخليفة ذو السلطان المطلق لا يأمنه خدمه بل تراهم حذرين وجلين فما هى إلا وشاية تطرق حتى تراه قد أخذ بخلاقيمهم فأوردهم شر مورد لا يبالى بما سبق لهم من جليل الخدم ولا يؤثر فيه ما يرى لهم من الفضل بل ينسى ذلك كله ثم يتقدم عنده الوشاة وإن لم يكن لهم فى ميدان الصالحين أثر فقد بقى للرشيد الفضل بن الربيع وهو السبب الوحيد فيما وقع من

الشقاق والعداوة بين الأمين والمأمون كما سيجيء لأن الرجل مفسد معتاد على اختلاق الأخبار ويرى ذلك يحسن فى آذان الخلفاء فلم يكن يصطبر على ذلك فأفسد الدولة وأوقع بأس الأمة بينها وإنا نعوذ بالله من الخذلان ومن وزراء السوء وبطانة السوء فهي آفة الأمم وسوس عظامها .

تولى وزارة الرشيد بعد البرامكة الفضل بن الربيع فلم يسد المكان الذى سدوا

العلاقات الخارجية :

كانت دول هذا العصر الكبيرة دولة الروم الشرقية بالقسطنطينية ودولة شرلمان الذى كان يميل إلى تجديد دولة الرومان الغربية ودولة الأمويين بالاندلس وحدثت فى عهده دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى كما سبق .

مع الروم :

من أعمال الرشيد أنه عزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزاً واحداً وسميت العواصم وجعل قاعدتها منبجا وأسكنها عبد الملك بن صالح سنة ١٧٣ وسميت العواصم لأن المسلمين كانوا يعتصمون بها فتعصمهم وتمنعهم من العدو إذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر وكان من هذه العواصم دلوك ورعبان وقورس وانطاكية وتيزين وما بين ذلك من الحصون ومن تلك المدن الشهيرة طرسوس وقد عمرت فى زمن الرشيد على يد أبى سليم فرج الخادم التركى ونزلها الناس وكان يغزو الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح ووصل سنة ١٧٥ إلى اقريطية . وفى سنة ١٨١ غزا الرشيد الصائفة بنفسه ففتح عنوة حصن الصفصاف وغزا عبد الملك بن صالح فبلغ أنقرة .

ولم يزل عبد الملك يرى الثغور وحربياً وهو قائم بذلك خير قيام حتى عزله الرشيد وحبسه بعد نكبة البرامكة سنة ١٨٧ فولى بعده القاسم بن الرشيد وسكن منبجا فغزا الروم وأناخ على حصن قرة وحاصرها ووجه العباس بن جعفر بن محمد بن الاشعث فأناخ على حصن سنان حتى جهدوا فبعثت الروم تبذل ٣٢٠ رجلا من أسارى المسلمين على أن يرحل عنهم فأجابهم إلى ذلك ورحل عن حصني قرة وسنان .

وخرج معه ابنه عبد الله المأمون ولم يزل الرشيد فى مسيره حتى وافى مدينة طوس فى صفر سنة ١٩٣ وهناك اشتدت به علته ولحق بربه ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ١٩٣ وصلى عليه ابنه صالح لأن المأمون كان قد سبقه إلى مرو حاضرة خراسان ودفن الرشيد بهذه المدينة .

وكان للرشيد اثنا عشر ولدا ذكرا وأربع بنات فذكور أولاده محمد الأمين من زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر وعلى من زوجته أمة العزيز أم ولد موسى الهادى — وعبد الله المأمون والقاسم والمؤتمن ومحمد المعتصم وصالح ومحمد أبو عيسى ومحمد أبو يعقوب ومحمد أبو العباس ومحمد أبو سليمان ومحمد أبو على ومحمد أبو أحمد وهم لأمهات أولاد شتى .

وتزوج الرشيد بست زوجات مات عن أربع منهن وهن زبيدة وأم محمد بنت صالح المسكين والعباسة بنت سليمان بن المنصور والجرشية بنت عبد الله العثمانية .

* أثر جليل من عهد الرشيد

الخراج :

بين يدينا أثر من أجل الآثار التاريخية الاقتصادية للدولة الإسلامية فى النصف الثانى من القرن الثانى وهو كتاب الخراج للفقيه أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصارى صاحب الإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت (١١٣ — ١٨٢) .

كان خليفة المسلمين فى هذا التاريخ خامس بنى العباس هارون الرشيد بن محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور وكان قاضى قضاته أبا يوسف، وكان الرشيد خليفة يحب أن يسود العدل بين أمته كما كان أبوه المهدى من قبله ويحب من جهة أخرى أن تنتظم جباية الخراج وغيره من موارد بيت مال المسلمين وأن يكون ذلك على النحو المشروع الذى سنه رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون المهديون من بعده حتى لا يقع حيف على الرعية فيثقل الجور كاهلهم ويخرب عمرانهم وحتى يكون بيت المال قائماً بما يجب عليه من مصالح الأمة وحفظ ثغورها وتأمين طرقها فكتب إلى قاضيه الأكبر رسالة ضمنها أسئلة وطلب منه أن يجيب عنها فقام أبو يوسف بما طلب منه خير قيام

وكتب جوابه عن تلك الأسئلة في رسالة عظيمة الشأن ، سميت بكتاب الخراج وهى التى جعلناها موضوع محاضرتنا هذه الليلة .

لم يكن أبو يوسف فى رسالته ذلك الفقيه الجاف الذى هو فى خيال الكثير منا يكتب جوابه مبتوراً منقولا من سطر سبق به أو ذلك المفتى الضعيف ينظر إلى غرض المستفتى فيجتهد أن تكون فتواه طبق رغبته بل كان ذلك العالم الناصح الذى سبر حال الأمة فعرف ما يصلحها وأدرك سر الدين الذى أوحى الله به إلى رسوله صلى الله عليه وسلم لإصلاح حال الأمة فجال فى ميدانه جولة الفارس العالم بثنيات الطريق وأحاط علماً بتاريخ المسائل التى يفتى فيها . فبينا نراه واعظاً لا يخاف فى الله لومة لائم يصوغ من كلمات النصح أشدها وقعاً وأقواها تأثيراً يوجهها إلى إمامه مع رعاية الأدب واللياقة إذا هو مؤرخ يسرد تاريخ الأمور المالية وغيرها مما يتكلم فيه وكيف وضعها السلف الصالح وكيف كان غرضهم من ذلك وبينا أنت تستخرج منه لطائف التاريخ إذا بك تراه يستنبط الأحكام من تلك الوقائع مستنا بسنة أسلافه الطيبين الطاهرين ثم تراه قد سبر ما يفعله ولاة الخراج والجبايات وحواشيهم من المظالم التى يرهقون بها الرعية ويضرون بها العمارة فينبه الإمام إلى مخازيهم ويرفع صوته طالباً إجراء العدالة فيهم ويشير على إمامه بما يجب عليه من رعاية تنفيذ الحق ويبين له كيف يفعل فى ذلك ليكون ناجياً بين يدى الله سبحانه وتعالى الذى جعله كفيلا لحقوق الرعية .

هذا هو الكتاب الجليل الذى يعطى من قرأه صورة فى غاية الجمال والكمال لذلك الفقيه المتقدم .

وغرضنا التعرف بما انتظمه هذا الكتاب حتى يكون عندنا صورة من الجباية ونظامها فى هذا العصر وإذا كان عندنا كلمة نقولها لإيضاح شىء مما قد يحتاج إلى الإيضاح نبهنا عليها .

انتظمت هذه الرسالة ثلاثة أمور :

(الأول) بيان موارد الدولة على اختلافها حسبما جاءت به الشريعة ومصارف تلك الأموال .

(الثانى) بيان الطريقة المثلى لجباية تلك الأموال .

(الثالث) بيان بعض الواجبات التى يلزم بيت المال القيام بها مما أغفل بعض الولاة القيام به .

ونحن نتكلم فى ذلك متبعين هذا الترتيب وقد يخالف طريقة ترتيب الكتاب لأن القصد تقريبه إلى النفوس من أسهل الطرق .

موارد بيت المال :

يتبين من كتاب الخراج أن موارد بيت المال تنقسم بحسب ما يجب أن تصرف فيه إلى ثلاثة أقسام :

(الأول) خمس الغنائم .

(الثانى) الخراج

(الثالث) الصدقات

الغنائم :

الغنيمة كل ما أصاب المسلمون من عساكر أهل الشرك وما أجلبوا به من المتاع والسلاح والكراع . وجعل منها أبو يوسف ما أصيب من المعادن من قليل أو كثير والركاز وهو الذهب والفضة الذى خلقه الله فى الأرض يوم خلقت . والكنوز العادية التى تصاب فى غير ملك أحد وما أخرج من البحر من الحلى والعنبر كل ذلك حكمه واحد وهو أن للإمام خمسه . أما أربعة أخماسه الباقية فتكون حقاً للغانمين فيما أصيب مع المحاربين وتكون حقاً للواجد فيما عداها .

ويقسم الإمام أربعة الأخماس على الغانمين سواء فى ذلك أهل الديوان والمطوعون يضرب للفارس منهم ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه وللراجل سهم وخالف فى ذلك شيخه أبا حنيفة رحمه الله حيث قال للفارس سهمان وللراجل سهم وقال للرشيد فخذ بأى القولين رأيت واعمل بما ترى أنه أفضل وأخير للمسلمين فان ذلك موسع عليك إن شاء الله ولست أرى أن تقسم للرجل أكثر من فرسين .

مصرف الخمس :

بين الله فى كتابه مصرف الخمس فى الآية من سورة الأنفال حيث يقول « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » قال أبو يوسف فكان ذلك الخمس يقسم فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لله وللرسول سهم ولذى القربى سهم ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم ثم قسمه أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم على ثلاثة أسهم وسقط سهم الرسول وسهم ذوى القربى وروى عن ابن عباس أنه قال عرض علينا عمر بن الخطاب أن نزوج من الخمس أيمنا ونقضى عن غارمنا فأبينا إلا أن يسلمه لنا وأبى علينا سلفه ومع أن ذلك كان رأى على بن أبى طالب رضى الله عنه فانه قسم الخمس كما قسمه

وذكر أبو يوسف أن الصحابة اتفقوا أن يجعلوا هذين السهمين سهم الرسول وسهم ذوى القربى فى الكراع والسلاح . وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه بعث بسهم الرسول وسهم ذوى القربى إلى بنى هاشم . قال وكان أبو حنيفة وأكثر فقهائنا يرون أن يقسمه الخليفة على ما قسمه أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم. وأقول رأى الشافعى محمد بن إدريس المطلبى رحمه الله أن سهم الرسول يصرف فى مصالح المسلمين وسهم ذوى القربى يصرف لمن ينتسب إلى هاشم والمطلب ابنى عبد مناف دون بنى أخويهم عبد شمس ونوفل ويسوى فى العطاء بين الأغنياء والفقراء لأن سبب الاستحقاق القرابة ويشترط فيه الرجال والنساء بالتسوية بين الذكر والأنثى كما قال المزنى وأبو ثور من أصحاب الشافعى وللذكر مثل حظ الأنثيين كما قال غيرهما — ويقول الشافعى قال أحد إلا أنه قال إن ردوه صرف فى السلاح والكراع كفعل أبى بكر وعمر وعثمان .

الخـــراج :

المورد الثانى من موارد الخلافة الخراج وهو كلمة تجمع ثلاثة أشياء .

(١) وظيفة الأرض الخراجية .

(٢) جزية أهل الذمة .

(٣) ما يأخذه العاشر ممن يمر عليه من تجار أهل الذمة والمستأمنين من أهل الحرب

وظيفة الأرض الخراجية :

لما غلب المسلمون على سواد العراق وعلى بلاد الجزيرة والشام في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه طلب إليه بعض ذوى الرأى من الصحابة أن يقسم الأرض على الغانمين كما قسم ما أصابوه من سلاح ومتاع وأكثروا عليه فى ذلك فأبى عليهم مستنداً إلى كتاب الله تعالى الذى جعل هذا الفىء حقاً للمسلمين كافة الموجودين منهم والآتين بعدهم . ذكر ذلك فى سورة الحشر حيث قال — « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون . والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفرلنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ».

فجعل هذا الفىء حقاً للمهاجرين والأنصار ولمن جاء بعدهم ومن أجل ذلك لم يرض عمر بقسمة الأرض بين الغانمين لأنه لو قسمها بينهم لم يبق لمن يأتى بعدهم شىء بل ترك الأرضين والأنهار بعمالها ليكون ذلك فى أعطيات الجنود وغير ذلك ومن هنا رأى أبو يوسف رحمه الله أن هذين الأرضين المفتوحة عنوة يخير فيها الإمام فان شاء قسمها بين الغانمين الذين افتتحوها وإن لم ير قسمها ورأى الصلاح فى إقرارها فى يد أهلها كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى السواد فله ذلك وهى أرض خراج وليس له أن يأخذها بعد ذلك منهم وهى ملك لهم يتوارثونها ويتبايعون ويضع عليهم الخراج ولا يكلفون من ذلك مالا يطيقون .

وإذاً يكون حد أرض الخراج — كل أرض من أرض الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فلم يقسمها الإمام وأبقاها بأيدى أهلها أو صالحهم عليها وصيرهم ذمة .

ويخرج من ذلك أنواع من الأراضى لا يوضع عليها الخراج وإنما تكون أرضاً عشرية وهى :

(١) كل أرض للعرب غير بنى تغلب.

(٢) كل أرض من أرض الأعاجم أسلم عليها طوعاً .

(٣) كل أرض من أرض الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فقسمها الإمام بين الغانمين . وسنبين حكم كل نوع بعد الكلام على أرض الخراج .

ما فعله عمر في أرض الخراج :

لما اتضح لعمر رأيه في الأرض المغنومة أرسل من قبله من يمسح أرض السواد فبلغت ٣٦,٠٠٠,٠٠٠ جريب فوظف عليها الخراج مقادير معينة من الدراهم وأطعمه حسبا رأى المندوبان اللذان أرسلهما الملك وهذه الوظيفة تختلف من درهمين لعشرة دراهم على الجريب، فأقلها وظيفة جريب الشعير عليه درهمان وأكثرها وظيفة جريب الكرم والنخل عليه عشرة دراهم في رواية وثمانية في أخرى وبين ذلك جريب الخضر عليه ثلاثة دراهم وجريب الحنطة أربعة دراهم أو درهم وقفيز وجريب الرطبة والسمسم والقطن خمسة دراهم وجريب القصب ستة دراهم قال إن جباية السواد بلغت قبل وفاة عمر بعام ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم .

أقول وإذا كانت المساحة كما قلنا والجباية ما ذكرنا يكون متوسط جباية الجريب ٢,٧٥ درهم وهذا بالضرورة غير قفزان القمح التي كانت تؤخذ على أجربة الحنطة لأن هذا المتوسط بدونها لا يصلح إلا إذا كان معظم الأرض يزرع شعيراً وهو بعيد . وقال ابن خرداذبه إن عمر جبا العراق ١٢٨,٠٠٠,٠٠٠ درهم فيكون متوسط جباية الجريب ٣,٥٥ درهم وهو أقرب من المفهوم ولا بد أنه لم يعتبر في ذلك أجربة القمح والجريب اسم لستين ذراعاً في ستين بذراع الملك وهي ٥٧,٧٧ وبالتكسير تكون مساحة الجريب ١٢٠٠ م فكل ثلاثة أجربة ونصف فدان مصرى . ولا بد أن ننبه هنا على ما رأيناه في كتاب صاحب السعادة المفضال يعقوب ارتين باشا الموسوم بالأحكام المرعية في الأراضى المصرية فانه روى عن قدامة أن الجريب اسم لستين ذراعاً في ستين بذراع الملك وظن أن ذراع الملك هى الذراع السوداء فوقع في الخطأ الحسابي الذى اتتج له أن كل أربعة أجربة و ½ جريب تعادل فدانا مصرياً مع أن هناك اختلافاً بين الذراعين كما ذكره الماوردى في كتابه الأحكام السلطانية حيث قال إن ذراع الملك تزيد على الذراع

السواد بخمسة أصابع وثلثي أصبع فتكون ذراعاً وثمناً وعشراً أي ذراعاً و ٩/٤٠ وحقق العلامة المرحوم علي مبارك باشا أن النسبة بين الذراعين هي ٤:٥ فتكون ذراع الملك ذراعاً وربعاً بالسواد . وقد نتج له هذا من تقدير المتقدمين لضلع قاعدة الهرم الأكبر بأربعمائة ذراع بذراع النجار و ٥٠٠ بالذراع السواد وبقسمة أمتار قاعدة الهرم على ٤٠٠:٥٠٠ يخرج هذان الرقمان ٧٥,٧٧ س وهو طول ذراع الملك و ٤٦,٢ س وهو طول الذراع السواد .

وإذا كان كل ٣,٥ جريب فداناً تكون ضريبة الفدان المزروعة قمحاً ١٤ درهماً هذا هو الخراج الموظف الذي رآه عمر .

لم ير أبو يوسف رحمه الله ما قرره عمر رضي الله عنه في أمر الخراج حيث جعله وظيفة معلومة أبداً لازماً لمن يأتي بعده بل يجوز للخلفاء إذا رأوا مصلحة جمهور الزارعين في المقاسمة أن يعدلوا إليها وقد ناظر أبو يوسف أهل العلم بالخراج في هذا الأمر فرأى أن تحديد الخراج بكيل مسمى أو دراهم مسماة فيه ضرر على بيت المال وعلى أهل الخراج . أما وظيفة الطعام فان كان رخيصاً رخصاً فاحشاً لم يكتف السلطان بالذي وظف عليهم ولم يطب نفساً بالحط عنهم ولم يقو بذلك الجنود ولم تشحن به الثغور — وإن كان غلاء فاحشاً لا يطيب السلطان نفساً بترك ما يستفضل أهل الخراج من ذلك والرخص والغلاء بيد الله لا يقومان على أمر واحد وكذلك وظيفة الدراهم . ثم قال : وأما ما يدخل على أهل الخراج فيما بينهم فهو التظالم وغلبة القوي على الضعيف ثم قال — ولم أجد شيئاً أوفر على بيت المال ولا أعفى لأهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض ولا أعفى لهم من عذاب ولاتهم وعمالهم من مقاسمة عادلة خفيفة فيها للسلطان رضا ولأهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض راحة وفضل . وقد رأى أن يقاسم من عمل الحنطة والشعير من أهل السواد جميعاً على خمسين للسيح منه وأما الدوالي فعلى خمس وتصف وأما النخل والرطاب والكرم والبساتين فعلى الثلث وأما غلال الصيف فعلى الربع ولا يؤخذ بالخرص في شيء من ذلك ولا يحرز عليهم شيء منه بياع من التجار ثم تكون المقاسمات في أثمان ذلك أو يقوم ذلك قيمة عادلة لا يكون فيما حمل على أهل الخراج ولا يكون على السلطان ضرر . ثم يؤخذ منهم ما يلزمهم من ذلك أي

ذلك كان أخف على أهل الخراج فعل ذلك بهم . وإن كان البيع وقسمة الثمن بينهم وبين السلطان أخف فعل ذلك بهم . ومن رأى أبي يوسف إعفاء مادون خمسة أوستى من الخراج وهى ٣٠٠ صاع أو ١٦٠٠ رطل وخالف فى ذلك شيخه أبا حنيفة رحمه الله .

وقد أشار أبو يوسف بأن يكون حصاد الطعام ودياسه من الوسط ولا يحبس الطعام بعد الحصاد إلا بقدر مايمكن الدياس فاذا أمكن الدياس رفع إلى البيادر ولا يترك بعد إمكانه للدياس يوما واحداً لئلا تذهب به الأكرة والمارة والطير والدواب فيضر ذلك بالخراج . وإذا رفع إلى البيادر وصير أكداسا أخذ فى دياسه ولا يحبس الطعام إذا صار فى البيادر الشهر والشهرين والثلاثة لا يداس فان فى حبسه فى البيادر ضررا على السلطان وعلى أهل الخراج وبذلك تتأخر العمارة والحرث ولا يخرص عليهم ما فى البيادر ولا يحزر عليهم حزرا ثم يؤخذون بنقائص الحزر فان هذا هلاك لأهل الخراج وخراب للبلاد وإذا ديس الطعام وذرى قاسمهم .

ثم قال ولا يؤخذ أهل الخراج برزق عامل ولا أجر مدى ولا احتفان ولا نزلة ولا حمولة طعام السلطان ولا يأخذ منهم ثمن صحف ولا قراطيس ولا أجور الفيوج ولا أجور الكيالين ولا مؤنة لأحد عليهم فى شىء من ذلك ولا قسمة ولا نائبة سوى الذى وصفنا من المقاسمة ولا يأخذون بثمن الأتبان ويقاسمون الأتبان على مقاسمة الحنطة والشعير كيلا أو تباع فيقسم ثمنها على ماوصفت من القطيعة فى المقاسمة ولا يؤخذ منهم ماقد يسمونه رواجا للدراهم يؤدونها فى الخراج فانه بلغنى أن الرجل منهم يأتى بالدراهم ليؤديها فى الخراج فيقتطع منها طائفة ويقال هذا رواجها وصرفها ولا يضرب رجل فى دراهم خراج ولا يقام على رجله فانه بلغنى أنهم يقيمون أهل الخراج فى الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة وهذا عظيم عند الله وشنيع فى الإسلام .

من أجل ذلك ترى أن أبايوسف رحمه الله دقق كثيراً فى أمر من يولى جباية الخراج فأشار على إمامه أن يكون والى ذلك فقيها عالما مشاورا لأهل الرأى عفيفاً لا يطلع الناس منه على عورة ولا يخاف فى الله لومة لائم ماحفظ من حق وأدى من أمانة احتسب به الجنة . وما عمل به من غير ذلك خاف عقوبة الله فيما بعد الموت تجوز شهادته

إن شهد ولا يخاف منه جور فى حكم إن حكم . ثم قال : إنى قد أراهم لايحتاطون فيمن يولون الخراج إذا لزم الرجل منهم باب أحدهم أياما ولاه رقاب المسلمين وجباية خراجهم ولعله لايكون عرفا بسلامة ناحية ولا عفاف ولا باستقامة طريقة ولا بغير ذلك ثم قال : وتقدم إلى من وليت أن لايكون عسوفا لأهل عمله ولا محتقرا لهم ولا مستخفا بهم لكن يلبس لهم جلبابا من اللين يشوبه بطرف من الشدة والاستقصاء حتى غير أن يظلموا ويحملوا مالا يجب عليهم واللين للمسلم والغلظة على الفاجر والعدل على أهل الذمة وإنصاف المظلوم والشدة على الظالم والعفو عن الناس : قال . وإنى لأرجو إن أمرت بذلك وعلم الله من قلبك إيثارك ذلك على غيره ثم بدل منه مبدل لو خالف منه مخالف أن يأخذه الله دونك وأن يكتب لك أجرك وما نويت إن شاء الله . ولتصير مع الوالى الذى وليته قوما من الجند من أهل الديوان فى أعناقهم بيعة على النصح لك فان من نصحك أن لا تظلم رعيتك وتأمر باجراء أرزاقهم عليهم من ديوانهم شهرا بشهر ولا تجرى عليهم من الخراج درهما فيما سواه .

ثم تكلم بعد ذلك فيما بلغه أنه يحصل من الولاة وحواشيهم من ظلم الناس وعسفهم وأخذهم فوق مالهم ونبه عليه وطلب منه أن يحسم ذلك كله سدا لضرر أهل الخراج ونقص الفيء .

ورأى مع هذا كله أن يبعث الإمام قوما من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته يسألون عن سيرة العمال وما عملوا به الخراج وكيف جبوه على ما أمروا به وعلى ماوظف على أهل الخراج واستقر فاذا ثبت ذلك عندك وصح أخذوا بما استفضلوا من ذلك أشد الأخذ حتى يؤدوه بعد العقوبة الموجعة والنكال حتى لا يتعدوا ما أمروا به وما عهد اليهم فيه فان كل ما عمل به والى الخراج من الظلم والعسف فانما يحمل على أنه قد أمر بغيره وإن أحللت بواحد منهم العقوبة الموجعة انتهى غيره واتقى وخاف وإن لم تفعل هذا بهم تعدوا على أهل الخراج واجترأوا على ظلمهم وتعسفهم وأخذهم بما لا يجب عليهم وإذا صح عندك من العامل والوالى تعد بظلم وعسف وخيانة لك فى رعيتك واحتجاز شيء من الفيء أو خبث طعمته أوسوء سيرته فحرام عليك استعماله والاستعانة به وأن تقلده شيئا من أمور رعيتك أو تشركه فى شيء من أمرك .

تقبل الأرض :

كان النظام المتبع فى جباية الخراج التقبل وهو جعل شخص من الأشخاص قبيلا أى كفيلا بتحصل الخراج وأخذه لنفسه مقابل قدر معلوم يدفعه وكان الناس يتزايدون فيما يتقبلون به الأرض فيستفيد السلطان تعجيل المال ويستفيد المتقبل الفضل بين مادفعه وما حصله وقد كره أبو يوسف هذا النظام فقال للرشيد و رأيت ألا تقبل شيئا من السواد ولا غير السواد من البلاد فان المتقبل إذا كان فى قبالته فضل عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم مالا يجب عليهم وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليسلم مما يدخل فيه وفى ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعيه والمتقبل لايبالى بهلاكهم بصلاح أمره فى قبالته ولعله يستفضل بعدما يتقبل به فضلا كثيرا وليس يمكنه ذلك إلا بشدة منه على الرعية وضرب لهم شديد وإقامته لهم فى الشمس وتعليق الحجارة فى الأعناق وعذاب عظيم ينال أهل الخراج مما ليس يجب عليهم من الفساد الذى نهى الله عنه إنما أمر الله عز وجل أن يؤخذ منهم العفو وليس يحل أن يكلفوا فوق طاقتهم . وإنما أكره القبالة لأنى لا آمن أن يحمل هذا المتقبل على أهل الخراج ماليس يجب عليهم فيعاملوهم بما وصفت لك فيضر ذلك بهم فيخربوا ماعمروا ويدعوه فينكسر الخراج وليس يبقى على الفساد شىء ولن يقل مع الصلاح شىء إن الله قد نهى عن الفساد فى الأرض فقال (ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها) وقال (وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد) وإنما هلك من هلك من الأمم بحبسهم الحق حتى يشترى منهم وإظهارهم الظلم حتى يفتدى منهم والحمل على أهل الخراج ماليس بواجب عليهم من الظلم الظاهر الذى لا يحل ولا يصح — واختار أبو يوسف التقبل إذا طلبه أهل القرية أو المصر وقالوا هو أخف علينا بشرط أن يوظف على المتقبل رقيب أمين رزقه من بيت المال حتى يمنعه من ظلم إن أراده والاعذار إلى المتقبل والوالى برفع الظلم عن الرعية والوعيد له إن حملهم مالا طاقة لهم به أو بما ليس بواجب عليهم فان فعل فأوفوا له بما أوعد به ليكون ذلك زاجراً له وناهيا لغيره إن شاء الله .

القطائع :

القطائع جمع قطيعة وهى ما يمنحه الإمام من الأرض لبعض الممتازين بفعالهم من الرعية .

قال أبو يوسف رحمه الله : إن عمر رضى الله عنه بعد أن فتح العراق اصطفى من أرضه كل ما كان لكسرى ومرازبته وأهل بيته مما لم يكن فى يد أحد أو لرجل قتل فى الحرب أو لحق بأرض الحرب وكانت مساحة ما اصطفاه من هذه الأرض ٤٠٠٠٠٠٠ جريب فكان عمر يقطع هذه لمن أقطع ، قال أبو يوسف وذلك بمنزلة المال الذى لم يكن لأحد ولا فى يد وارث فللإمام العادل أن يجيز منه ويعطى من كان له غناء فى الإسلام ويضع ذلك موضعه ولا يحابى به فكذلك هذه الأرض . ثم قال : فأما من أخذ واحداً وأقطع آخر فهذا بمنزلة المال غصبه واحد من واحد وأعطى واحداً .

والإمام مخير فى هذه الأرض بين أن يجعلها عشرية أو خراجية إن كانت تسقى من أنهار الخراج . قال أبو يوسف : وكل من أقطعه الولاة المهديون أرضا من أرض السواد وأرض العرب والجبال من الأصناف التى ذكرنا أن الإمام يقطع منها فلا يحل لمن يأتى بعدهم من الخلفاء أن يرد ذلك ولا يخرجه من يدى من هو فى يده وارثا أو مشتريا . فأما ما أخذ الولاة من يد واحد أرضا وأقطعها آخر فهذا بمنزلة الغاصب غصب واحداً وأعطى آخر ، فلا يحل للإمام ولا يسعه أن يقطع أحداً من الناس حق مسلم ولا معاهد ولا يخرج من يده من ذلك شيئا إلا بحق يجب له عليه فيأخذه بذلك الذى وجب له عليه فيقطعه من أحب من الناس فذلك جائز له والأرض عندى بمنزلة المال فللإمام أن يجيز من بيت المال من كان له غناء فى الإسلام ومن يقوى على العدو ويعمل فى ذلك بالذى يرى أنه خير للمسلمين وأصلح لأمرهم وكذلك الأرضون يقطع منها الإمام من أحب من الأصناف التى سميت ولا أرى أن يترك أرضا لا ملك لأحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها الإمام فان ذلك اعمر للبلاد وأكثر للخراج . فهذا حد الإقطاع عندى على ما أخبرتك . ومن رأى

أبي يوسف أن أرض الإقطاع تجعل عشرية لما يلزم صاحب الإقطاع من المؤنة فى حفر الأنهار وبناء البيوت وعمل الأرض
ومن أجل ذلك يكون وارده لبيت مال الصدقات الآتى ذكره.

موات الأرض :

قال أبو يوسف : لو أن بلاداً فتحت عنوة أو صلحا وفى بعض قراها أرض كثيرة لايرى عليها أثر زراعة ولا بناء لأحد وليست مرافق لقرية من القرى فهى موات ؛ فن أحياها فهى له وللإمام أن يقطع ذلك من أحب وله أن يؤاجره ويعمل بما فيه الصلاح ، وقد خالف شيخه أبا حنيفة رحمه الله فى إحياء الموات فان الإمام يقول لايملك المحيى ما أحيا إلا باذن الإمام ، قال أبو يوسف : وإنما قال ذلك أبو حنيفة كيلا يتنازع الناس .

وإذا كانت الأرض الموات فى أرض العشر أدى عنها العشر وإن كانت فى أرض الخراج أدى عنها الخراج وإن احتفر لها بئرا أو استنبط لها قناة كانت أرض عشر أما إن ساق إليها ماء الخراج فهى أرض خراج .

قال أبو يوسف : وأيما قوم من أرض الحرب بادوا وبقيت أرضهم معطلة ولا يعرف لأحد عليها يد ولا دعوى فأخذها رجل وأحياها وأدى عنها العشر او الخراج فهى له وليس للإمام أن يخرجها من يده .

وجعل من الأرض الموات ما ينكشف من الجزر فى دجلة والفرات إذا كان لرجل جزيرة أو أرض تلاصقها فحصنها من الماء وزرع فيها فهى له بشرط ألا يضر ذلك بأحد ولا بسير السفن وكذلك ماعولج من البطائح بضرب المسنيات عليها وقطع ما فيها من القصب وكذلك ماعولج من الآجام — كل ذلك مشروط بألا يكون للأرض مالك أو ذو يد أو مرتفق فان المحافظة على حقوق ارتفاع الجمهور مما أكد فيه ابو يوسف ، حتى منع من إنشاء الغروب فى دجلة إذا كان ذلك بموضع يضر بسير السفن التى تمر فى دجلة ومن فعل من ذلك شيئا فعطبت به سفينة فهو ضامن قال أبو يوسف : ولا يترك الإمام شيئا من ذلك إلا أمر به فهدم ونحى، فان فى هذا ضرراً عظيما فالفرات ودجلة إنما هما بمنزلة طريق المسلمين ليس لأحد أن يحدث فيه شيئاً فمن أحدث فيه شيئاً فعطب بذلك عاطب ضمن وقد أرى أن

يوكل بذلك رجلا ثقة أميناً حتى يتتبع ذلك ولا يدع من هذه الغروب شيئاً فى دجلة والفرات فى موضع يضر بالسفن ويتخوف عليها منه إلا نحاه وتوعد أهله على إعادة شىء منه فان فى ذلك أجراً عظيما . وتكلم طويلا فى المياه على اختلاف أنواعها وحقوق الجمهور فيها .

المورد الثانى من موارد الخراج جزية اهل الذمة :

وضع المسلمون بعد غلبتهم على غير البلاد العربية الجزية على الرءوس وهذه الجزية يقابلها من المسلمين الحماية ودفع العدو عنهم . وذلك أنهم لم يكونوا يدخلون مع المسلمين فى حروبهم وقد رأيت من السنن العمرية أن من استعين به من غير الملة لا يدفع جزية . روى الطبرى فى حوادث سنة ٢٢ من الهجرة أن عبد الرحمن بن ربيعة أحد قواد عمر لما توجه من أذربيجان لفتح الباب أتاه ملكه شهربراز فقال له إنى بازاء عدو كلب وأمم مختلفة لا ينسبون إلى أحساب وليس ينبغى لذى الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوى الأحساب والأصول وذو الحسب قريب ذى الحسب حيث كان ولست من القبح فى شىء ولا من الأرمن وإنكم قد غلبتم على بلادى وأمتى فأنا اليوم منكم ويدى مع أيديكم وصغوى معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا إليكم النصر لكم والقيام بما تحبون فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم . فقال عبد الرحمن فوقى رجل فسر إليه فجوزه فسار إلى سراقة بن عمرو فلقيه بمثل ذلك فقال سراقة قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا مادام عليه ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض فقبل ذلك وصارسنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزاء إلا أن يستنفروا فتوضع عنهم جزية تلك السنة وكتب سراقة إلى عمر بن الخطاب بذلك فأجازه وحسنه وكتب لهم سراقة بذلك كتابا :

فهذا مما يستأنس به على فكرة المسلمين إذ ذاك فى أمر الجزية : قال أبو يوسف : إن الجزية واجبة على جميع أهل الذمة ماخلا نصارى تغلب وأهل نجران خاصة والذى يجب عليه الجزية منهم الرجال دون النساء والصبيان ولا تؤخذ من مسكين ولا من أعمى لاحرفة له ولا عمل ولا من مقعد لامال له ولا من راهب ولا من شيخ كبير لا يستطيع العمل ولا مال له : وليس فى مواشى أهل الذمة من الإبل والبقر والغنم زكاة

وقد قدر أبو يوسف الجزية ثلاث فئات ٥٨ درهما على الموسرين و٢٤ على المتوسطين و ١٢ على العمال .

ثم قال أبو يوسف وينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم فى الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم .

أما نصارى بنى تغلب فتؤخذ منهم صدقة المسلمين مضاعفة . هكذا فعل عمر ابن الخطاب رضى الله عنه .

وقد تكلم أبو يوسف على ما منح لأهل الذمة من الامتيازات فى دينهم وكنائسهم وبيعهم فقال إنه كان قد جرى الصلح بين المسلمين وأهل الذمة فى أداء الجزية على ألا تهدم بيعهم ولا كنائسهم داخل المدينة ولا خارجها وعلى أن يحقنوا لهم دماءهم وعلى أن يقاتلوا من ناوأهم من عدوهم وعلى أن يخرجوا بالصلبان فى أعيادهم وعلى أن يذبوا عنهم فأدوا الجزية على هذا الشرط وجرى الصلح بينهم على الا يحدثوا بناء بيعة ولا كنيسة فافتتحت الشام كلها والحيرة إلا أقلها على هذا فلهذا تركت البيع والكنائس ولم تهدم . ثم اقتص تاريخ ما أعطاه القواد لأهل الذمة فى الأقاليم المختلفة من هذه الشروط وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه) وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب رضى الله عنه عند وفاته أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم .

المورد الثالث من موارد الخراج العشور :

لم تكن العشور من الموارد التى ذكرها القرآن الكريم ولكنها حدثت فى عهد عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وسبب ذلك أن أبا موسى الأشعرى كتب إليه إن تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر فكتب إليه عمر خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهما وليس فيما دون المائتين شيء فاذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم ومازاد فبحسابه . وروى أن أهل منبج قوم من أهل الحرب وراء

البحر كتبوا إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا فشاور عمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك فأشاروا عليه به فكانوا أول من عشر من أهل الحرب . وبعث زياد بن حدير الأسدى على عشور العراق والشام . فصار ذلك سنة فى المرور بأموال التجارة خاصة ومايرد منها من أهل الحرب وأهل الذمة سبيله سبيل الخراج أما ما يرد من المسلمين فسبيله سبيل الصدقات ولذلك إذا قال المسلم قد أديت زكاة هذا المال الذى فى يدى صدق فى يمينه ؛

قال أبو يوسف : رأيت أن تولى العشور قوما من أهل الصلاح والدين وتأمرهم ألا يتعدوا على الناس فيما يعاملونهم به فلا يظلموهم ولا يأخذون منهم أكثر مما يجب عليهم وإن يمتثلوا مارسمناه لهم ثم تتفقد بعد أمرهم وما يعاملون به من يمر عليهم وهل يجاوزون ماقد أمروا به فان كانوا قد فعلوا ذلك عزلت وعاقبت وأخذتهم بما يصح عندك عليهم لمظلوم أو مأخوذ منه أكثر مما يجب عليه وإن كانوا قد انتهوا إلى ما أمروا به وتجنبوا ظلم المسلم والمعاهد أثبتهم على ذلك وأحسنت إليهم فانك متى أثبت على حسن السيرة والأمانة وعاقبت على الظلم والتعدى بما تأمره به فى الرعية يزيد المحسن فى إحسانه ونصحه وارتدع الظالم عن معاودة الظلم والتعدى وأمرتهم أن يضيفوا الأموال بعضها إلى بعض بالقيمة .

مصاريف بيت مال الخراج :

الخراج الذى يتكون مما ذكرنا من هذه الموارد الثلاث هو دعامة مالية الدولة ومصرفه المصالح العامة لأنه حق للجمهور كله وهذه المصالح بحسب مايرى الإمام وقد ذكر أبو يوسف بعضها لورودها فى أسئلة الخليفة وهى :

أولا — أرزاق القضاة والولاة والعمال :

قال أبو يوسف : فيجرى على والى كل مدينة وقاضيها بقدر ما يحتمل وكل رجل تصيره فى عمل المسلمين فأجر عليه من بيت مالهم ولا تجر على الولاة والقضاة من مال الصدقة شيئاً إلا والى الصدقة فانه يجرى عليه منها ، فأما الزيادة فى أرزاق القضاة والعمال والولاة والنقصان مما يجرى عليهم فذلك إليك ، ومن رأيت أن تزيده منهم فى رزقه زدت ومن رأيت أن تحط من رزقه حططت ؛ أرجو أن

يكون ذلك موسعاً عليك وكل ما رأيت أن الله تعالى يصلح به أمر الرعية فافعله ولا تؤخره فانى أرجوا لك بذلك أعظم الأجر وأفضل الثواب .

وقد سأله الرشيد عن رأيه فيما يجرى على القاضى إذا صار إليه ميراث من مواريث الخلفاء وبنى هاشم من الذى يصير إليه ويوكل من قبله من يقوم بضياعهم ومالهم فأجاب سلباً وقال إنما يعطى القاضى رزقه من بيت المال ليكون قيما للفقير والغنى والصغير والكبير ولا يأخذ من مال الشريف ولا الوضيع إذا صارت إليه مواريثه رزقاً ولم تزل الخلفاء تجرى للقضاة الأرزاق من بيت مال المسلمين فأما من يوكل بالقيام بتلك المواريث فى حفظها والقيام بها فيجرى عليهم من الرزق بقدر ما يحتمل ماهم فيه فلا يجحف بمال الوارث فيذهب به ويأكله الوكلاء والأمناء ويبقى الوارث هالكا وما أظن كثيرا من القضاة والله أعلم يبالى بما صنع وكيفما عمل ولا يبالى أكثر من معهم أن يفقروا اليتيم ويهلكوا الوارث إلا من وفقه الله تعالى منهم .

ثانياً — أعطيات الجنود وهى مرتبات العسكر :

ولم يكن فى حياة النبى صلى الله عليه وآله وسلم مرتبات معينة للجنود الذين كانوا يتألفون من جميع أفراد المسلمين ، وإنما كانوا يأخذون مالهم فى أربعة أخماس مايغنمون وفيما يرد من خراج الأراضى التى أبقيت فى أيدى أهلها كأرض خيبر ، ولما ولى أبو بكر رضى الله عنه أعطى الناس وسوى بينهم فى العطاء قائلا هذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة فلما ولى عمر رضى الله عنه رأى فى ذلك غير رأى أبى بكر وقسم العطاء مفضلا الأسبق فالأسبق وهذا قوله بنصه : والله الذى لا إله إلا هو ما أحد إلا وله فى هذا المال حق أعطيه أو منعه وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك وما أنا فيه إلا كأحدكم ولكننا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فالرجل وتلاده فى الإسلام والرجل وقدمه فى الإسلام والرجل وغناؤه فى الإسلام والرجل وحاجته فى الإسلام . بناء على هذه القواعد فرض العطاء فكانت المرتبات كما يأتى : —

١٢٠٠٠	درهم	لأزواج النبى صلى الله عليه وسلم ولعمه العباس
٥٠٠٠	«	لمن شهد بدراً من المهاجرين والأنصار وألحق بهم الحسن والحسين
٤٠٠٠	«	لمن كان إسلامه كاسلام أهل بدر ولم يشهد وألحق بهم أسامة بن زيد

٣٠٠٠ لعبد الله بن عمر ولبعض أبناء المهاجرين والأنصار كعمر بن أبي سلمة .
٢٠٠٠ لابناء المهاجرين والانصار .
٨٠٠ لاهل مكة .
٤٠٠ و ٣٠٠ لسائر الناس
٦٠٠ و ٤٠٠ و٣٠٠ و٢٠٠ لنساء المهاجرين والانصا .

وكان يفرض لامراء الجيوش والقرى في العطاء ما بين ٩٠٠٠ و٨٠٠٠ و٧٠٠٠ على قدر ما يصلحهم من الطعام وما يقومون به من الامور وكان للمنفوس إذا طرحته أمه ١٠ دراهم فاذا ترعرع بلغ به ٢٠٠ فاذا بلغ زاده

وكان للعطاء ديوان تسجل فيه اسماء المرتزقين ويقبضون عطاءهم على رأس السنة حسبما هو وارد فيه والذي أوجد هذا الديوان هو عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

ولما كثر الناس عن الحاجة واضطرتهم المدنية إلى أن يشتغل كثير من الامة بغير الجهاد من الصنائع اقتصر الديوان على ما تقوم به حاجة الامة من الجيش وكان بعض من ليس مرتزقا في الديوان يدعوه حبه للجهاد أن يذهب مع الجيش فلا يمنع ويسمون هذا متطوعا وكانوا كثيرين يلازمون الثغو ويخرجون مع الجيوش .

ثالثاً — كرى الأنهار وإصلاح مجاريها :

وقال أبو يوسف - رحمه الله وإذا احتاج أهل السواد إلى كرى أنهارهم العظام التي تأخذ من دجلة والفرات كريت لهم وكانت النفقة من بيت المال ومن أهل الخراج ولا يحمل ذلك كله على أهل الخراج .

وأما الانهار التي يجرونها إلى أرضهم ومزارعهم وكرومهم ورطابهم وبساتينهم ومباقلهم وما أشبه ذلك فكريها عليهم خاصة ليس على بيت المال من ذلك شيء .

وأما البثوق والمسنيات والبريدات التي تكون في دجله والفرات وغيرها من الانهار العظام فان النفقة على هذا كله من بيت المال لا يحمل على أهل الخراج من ذلك شيء لأن مصلحة هذا على الامام خاصة لانه أمر عام لجميع المسلمين فالنفقة عليه من بيت المال لأن عطب الارضين من هذا وشبه وإنما يدخل الضرر من ذلك على الخراج ولا يولى النفقة على ذلك إلا رجل يخاف الله يعمل في ذلك بما يجب عليه قد عرفت أمانته وحمدت مذهبه ولا تول من يخونك ويعمل في ذلك بما لا يحل

ولا يسعه يأخذ المال من بيت المال لنفسه ومن معه أو يضيع المواضع المخوفة ويهملها ولا يعمل عليها شيئاً يحكمها به حتى تنفجر فتغرق ما للناس من الغلات وتخرب منازلهم وقراهم ثم وجه من يتعرف ما يعمل به وإليك فى هذه المواضع المخوفة منها وما يمسك من العمل عليها مما قد يحتاج إلى العمل وما تفجر وما السبب فى انفجاره ثم عامله حسبما يأتيك الخبر عنه من حمد لأمره أو ذم وإنكار وتأديب .

رابعاً — حفر الترع بعد التثبت من نفعها بواسطة من لهم بصيرة ومعرفة فاذا تبين الامام ذلك أمر بحفر تلك الترع وجعل النفقة من بيت المال ولا يحمل النفقة على أهل البلد فانهم إن يعمروا خير من أن يخربوا وإن يعزوا خير من أن يذهب مالهم ويعجزوا .

خامساً — الاجراء على المسجونين .

قال جواباً لسؤال للرشيد عنهم لا بد لمن كان فى مثل حالهم إذا لم يكن له شيء يأكل منه لا مال ولا وجه شيء يقيم به بدنه أن يجرى عليه من الصدقة أو من بيت المال من أى الوجهين فعلت فذلك موسع عليك وأحب إلى أن تجرى من بيت المال على كل واحد منهم ما يقوته فانه لا يحل ولا يسع إلا ذلك قال والأسير من أسرى المشركين لا بد أن يطعم ويحسن إليه حتى يحكم فيه فكيف برجل مسلم قد أخطأ وأذنب يترك يموت جوعاً وإنما حمله على ما صار إليه القضاء أو الجهل ولم تزل الخلفاء تجرى على أهل السجون ما يقوتهم فى طعامهم وأدمهم وكسوتهم الشتاء والصيف وأول من فعل ذلك على بن أبى طالب كرم الله وجهه بالعراق ثم فعله معاوية بالشام ثم فعله الخلفاء من بعده .

قال أبو يوسف : فمر بالتقدير لهم مايقوتهم فى طعامهم وأدمهم وصير ذلك دراهم تجرى عليهم فى كل شهر يدفع ذلك إليهم فانك إن أجريت عليهم الخبز ذهب به ولاة السجن والقوام والجلاوذه وول ذلك رجلا من أهل الخير والصلاح يثبت أسماء من فى السجن ممن تجرى عليهم الصدقة وتكون الاسماء عنده ويدفع ذلك إليهم شهراً بشهر يقعد ويدعو باسم رجل رجل ويدفع ذلك إليه فى يده فمن كان منهم أطلق وخلى سبيله رد مايجرى عليه ويكون للأجراء عشرة دراهم فى الشهر لكل واحد وليس كل من فى السجن يحتاج إلى أن يجرى عليه وكسوتهم فى للشتاء قميص وكساء

وفى الصيف قميص وإزار ويجرى على النساء مثل ذلك وكسوتهن فى الشتاء قميص ومقنعة وكساء وفى الصيف قميص وإزار ومقنعة وأغنهم عن الخروج فى السلاسل يتصدق عليهم الناس فان هذا عظيم أن يكون قوم من المسلمين قد أذنبوا وأخطؤا وقضى الله عليهم ماهم فيه فحبسوا يخرجون فى السلاسل يتصدقون وما أظن أهل الشرك يفعلون هذا بأسارى المسلمين الذين فى أيديهم فكيف ينبغى أن يفعل هذا بأهل الإسلام ؟ وإنما صاروا إلى الخروج فى السلاسل يتصدقون لماهم فيه من جهد الجوع فربما أصابوا مايأكلون وربما لم يصيبوا وإن ابن آدم كم يعرمن الذنوب فتفقد أمرهم ومر بالإجراء عليهم مثل مافسرت لك ومن مات منهم ولم يكن له ولى ولا قرابة غسل وكفن من بيت المال وصلى عليه ودفن فانه بلغنى وأخبرنى به الثقات أنه ربما مات منهم الميت الغريب فمكث فى السجن اليوم أواليومين حتى يستأمر الوالى فى دفنه وحتى يجمع أهل السجن من عندهم ما يتصدقون ويكثرون من يحمله إلى المقابر فيدفن بلا غسل ولا كفن ولا صلاة فما أعظم هذا فى الإسلام وأهله .

(المورد الثالث من موارد بيت المال الصدقات وهى مايؤخذ من المسلمين)

أولا — من أنعامهم وهى الإبل والبقر والغنم على حساب معين فى الفقه الإسلامى

ثانياً — من نقودهم التى هى الذهب والفضة باعتبار ٥ و ٢ من كل مائة .

ثالثاً — من أموال تجاراتهم ومنها ما يمرون به على العاشر يؤخذ منهم كذلك باعتبار ٥ ر٢ من كل مائة .

رابعاً — ما يؤخذ من حاصلاتهم الزراعية وهى أعشار الأرض يؤخذ مما سقى بدون مؤنة العشر ومما سقى بمؤنة نصف العشر .

قال أبو يوسف رحمه الله ومر يا أمير المؤمنين باختيار رجل أمين ثقة عفيف ناصح مأمون عليك وعلى رعيتك فوله جمع الصدقات فى البلدان ومره فليوجه فيها أقواما يرتضيهم ويسأل عن مذاهبهم وطرائقهم وأماناتهم يجمعون إليه صدقات البلدان فاذا جمعت اليه أمرته فيها بما أمر الله جل ثناؤه به فأنفذه ولا تولها عمال الخراج فان مال الصدقة لا ينبغى أن يدخل فى مال الخراج وقد بلغنى أن عمال الخراج يبعثون رجالا من قبلهم فى الصدقات فيظلمون ويعسفون ويأتون مالا يحل ولا يسع وإنما ينبغى أن يتخير للصدقة أهل العفاف والصلاح فاذا وليتها رجلا ووجه من قبله من يوثق بدينه

وأمانته أجريت عليهم من الرزق بقدر ما ترى ولا تجر عليهم ما يستغرق أكثر الصدقة .

مصارف الزكاة :

الزكاة تصرف بالنص إلى ثمانية أصناف من الناس قال الله تعالى «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله » :

قال أبو يوسف : فالمؤلفة قلوبهم قد ذهبوا (وخالف الحنفية فى ذلك أكثر الأئمة) والعاملون عليها يعطيهم الإمام ما يكفيهم من غير سرف ولا تقتير وقسمت بقية الصدقات بينهم للفقراء والمساكين سهم ، والغارمون وهم الذين لا يقدرون على قضاء ديونهم سهم وفى السبيل المنقطع بهم سهم ، يحملون به ويعاونون وفى الرقاب سهم . وسهم فى إصلاح طرق المسلمين ويقسم سهم الفقراء والمساكين من صدقة ماحول كل مدينة فى أهلها ولا يخرج منها فيتصدق به على أهل مدينة أخرى وأما غيره فيصنع به الإمام ما أحب من هذه الوجوه التى سمى الله تعالى فى كتابه ، وإن صيرها فى صنف واحد ممن سمى الله تعالى أجزأ .

٦ ــ الأمين

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور فهو هاشمى أبا وأما ولم يتفق ذلك لغيره من الخلفاء إلا لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ولابنه الحسن :

ولد سنة ١٧٠ من الهجرة وولاه أبوه العهد سنة ١٧٥ وكان قائما مقام أبيه ببغداد حينما سافر إلى خراسان ولما مات الرشيد بطوس بويع له فى عسكر الرشيد بالخلافة ووصل الخبر إلى بغداد فبايعه الخاصة والعامة واستمر فى الخلافة إلى أن قتل فى ٢٥ محرم سنة ١٩٨ (٥ سبتمبر سنة ٨١٣) فكانت مدته أربع سنوات إلا أربعة أشهر تقريباً .

الحال الداخلية لتلك العهد :

كانت هذه المدة التي وليها الأمين مملوءة بالمشاكل والاضطرابات بين الأخوين الأمين والمأمون وكادت الأمة تذهب بينهما ضياعا وسبب ذلك مافعله الرشيد من ولاية العهد لأولاده الثلاثة أحدهم بعد الآخر وقسمته البلاد بينهم كما قدمنا ونحن نبين كيف ابتدأت المشاكل وكيف انتهت ونبين آثارها فى الأمة :

لما كان الرشيد بطوس جدد البيعة لابنه المأمون على القواد الذين معه واشهد من معه من القواد وسائر الناس أن جميع من معه من الجند مضمومون إلى المأمون وأن جميع ما معه من مال وسلاح وآلة وغير ذلك . للمأمون ولما علم الأمين وهو ببغداد مرض أبيه وأنه لمابه أرسل من يفيده الأخبار كل يوم وأرسل كتباً تسلم إلى من أرسلت إليه بعد وفاة الرشيد فلما توفى كان من تلك الكتب كتاب للمأمون يعزيه فيه عن أبيه ويأمره أن يأخذ البيعة على من قبله للأمين بالخلافة وللمأمون بولاية العهد وللقاسم المؤتمن بعده . ومنها كتاب لصالح بن الرشيد وقد كان أكبر ولد الرشيد الذين معه وهو الذى صلى عليه حين مات وقد أمره فيه بالاجتهاد والتشمير وأن يأخذ البيعة على من معه للأمين ثم المأمون ثم المؤتمن على الشريطة التى اشترطها الرشيد وأمره بالمسير إليه مع جميع الجنود والذخائر والسلاح وقال له فى الكتاب وإياك أن تنفذ رأيا أو تبرم أمراً إلا برأى شيخك وبقية آبائك الفضل بن الربيع وفيه : وإن أمرت لأهل العسكر بعطاء أو أرزاق فليكن الفضل بن الربيع المتولى لاعطائهم على دواوين يتخذها لنفسه بمحضر من أصحاب الدواوين فان الفضل بن الربيع لم يزل مثل ذلك لمهمات الأمور .

لما قرأ الذين وردت عليهم كتب محمد الأمين بطوس من القواد والجند وأولاد هارون تشاوروا فى اللحاق بمحمد فقال الفضل بن الربيع لا أدع ملكا حاضراً لآخر لا يدرى مايكون من أمره ، وأمر الناس بالرحيل ففعلوا ذلك محبة منهم للحوق بأهلهم ومنازلهم ببغداد وتركوا العهود التى كانت أخذت عليهم للمأمون .

انتهى خبر ذلك إلى المأمون وهو بمرو فجمع من معه من قواد أبيه واستشارهم فأشاروا عليه أن يلحقهم فى ألفى فارس تجريدة فيردهم فدخل عليه الفضل بن سهل

وهو عنده من أعظم الناس قدرا وأخصهم به فقال له إن فعلت ما أشاروا به عليك جعلت هؤلاء هدية إلى محمد ولكن الرأى أن تكتب إليهم كتابا وتوجه إليهم رسولا فتذكرهم البيعة وتسألهم الوفاء وتحذرهم الحنث وما يلزمهم فى ذلك فى الدين والدنيا فعل ذلك المأمون ووصل الكتاب والقوم بنيسابور قد رحلوا ثلاث مراحل فلم يفد هذا الجواب فائدة وتم الفضل بن الربيع على سيره .

ولما جاء المأمون خبر ذلك كان الفضل بن سهل حاضراً فأزال عنه الانزعاج وأمله فى الخلافة فجعل أمره إليه وأمره أن يقوم به بعد ان رفضه كبار القواد الذين معه فكان من أول تدبيره أن يبعث إلى من بالحضرة من الفقهاء فيدعوهم إلى الحق والعمل به وإحياء السنة وأن يقعد على اللبود ويرد المظالم ليكون بذلك قريباً من نفوس الجمهور ففعل .

ولم يبدأ المأمون اخاه بشىء يريبه بل تواترت كتبه إليه بالتعظيم والهدايا إليه من طرف خراسان من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح .

أما الأمر فى بغداد فقد كان يدل على شر مستطير فان الفضل بن الربيع بعد مقدمه العراق ناكثا للعهود التى كان الرشيد أخذها عليه للمأمون رأى أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون يوما وهو حى لم يبق عليه فحث محمدا على خلعه وأن يولى العهد من بعده ابنه موسى ولم يكن ذلك من رأى محمد ولا عزمه بل كان عزمه الوفاء لأخويه بما أخذ عليه الرشيد لهما من العهود فلم يزل به الفضل حتى أزاله عن رأيه فأول ما بدأ به أن كتب إلى جميع العمال فى الأمصار كلها بالدعاء لابنه موسى بالامرة بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم . فلما بلغ ذلك المأمون وبلغه أن الأمين عزل أخاه القاسم عما كان الرشيد ولاه من الأعمال وأقدمه بغداد علم أنه يدبر فى خلعه فقطع البريد عنه وأسقط اسمه من الطراز .

كرر الأمين تجربته فكتب إلى العباس بن عبد الله بن مالك وهو عامل المأمون على الرأى وأمره أن يبعث إليه بغرائب غروس الرى مريدا بذلك امتحانه فبعث إليه بما طلب فبلغ ذلك المأمون فعزل العباس عن ولايته .

ثم بعث الأمين إلى المأمون ثلاثة نفر أحدهم العباس بن موسى بن عيسى والغرض من هذا الوفد أن يطلبوا من المأمون رضاه بتقديم موسى بن الأمين على نفسه

بل كان النزاع كثيرا ما يستحكم بين الديلم عنصر السلطان وبين الأتراك قدماء العهد ببغداد وكانت وفاة أبي كاليجار سنة ٤٤٠ .

بويع بالسلطان بعده ابنه أبو نصر خسرو فيروز وطلب من الخليفة أن يلقبه بالملك الرحيم فلم يجب إلى ذلك وقال لا يجوز أن يلقب بأخص صفات الله تعالى فأبى إلا أن يكون ذلك لقبه فكان ما أراد واستقر ملكه بالعراق وخوزستان والبصرة وقد استمر سلطانا حتى ورد إلى بغداد السلطان طغرلبك فأزاله عن ملكه ونفاه إلى قلعة السيرجان وبذلك انقضت مدة آل بويه التي لم يكن فيها شيء من الصلاح للبلاد بل زادتها فسادا وفرقة بما أظهرته من التشيع في بغداد مع أن أكثرية أهلها أهل سنة وجماعة فكان النزاع كثيرا ما يقع بين الفريقين وتحصل حوادث شديدة الوقع في بغداد لا يغيرها الخليفة لضعفه ولا السلطان لأنه كان يعين طائفته ووجد الخلاف بين أفراد البيت بعد وفاة الرجال الثلاثة الذين أسسوا هذا الملك العظيم وكان هذا الخلاف كثيرا ما يدعوا إلى وقوف بعضهم متحاربين وعلى الجملة فان البلاد التي استولوا عليها لم تستفد من دولتهم شيئاً على طول مدتهم وضخامة دولتهم وأجمل هذه المدة عهد عضد الدولة فاخسرو ثالث ملوك هذه الدولة بالعراق .

آل سلجوق

من عشائر الغز الكبير عشيرة السلاجقة تنسب إلى مقدمها سلجوق بن تقاق وكانت هذه العشيرة تقيم في بلاد تركستان تحت حكم ملك الترك المسمى بيغوا وكان تقاق مقدم العشيرة إلى قوله يرجعون وعن أمره يصدرون وولد له ابنه سلجوق بذلك الإقليم فلما كبر ظهرت عليه أمارات النجابة ومخايل التقدم فقربه ملك الترك وجعله قائد الجند (شباسي) وكان امرأة تخوفه من سلجوق لما ترى من طاعة الناس له فأغرته بقتله وبلغ سلجوق ذلك الخبر فجمع عشيرته وهاجر إلى ديار الإسلام واعتنق الحنيفية فازداد بذلك عزا إلى عزه وأقام بنواحي جند (على طرف سيحون من حدود الترك) وصار يشن الغارة على بلاد الترك .

في تلك الأوقات قام النزاع بين أحد ملوك السامانية وهرون بن أيلك خان وقد استولى هرون على بعض بلاد فرأى أن يضرب الحديد بالحديد فاستنجد

سلجوق فأنجده بابنه أرسلان فى جمع من أصحابه فقوى بهم السامانى واسترد من خصمه ما أخذه وهذه أول صلة بين عشيرة السلاجقة والسامانية .

لم يزل سلجوق بجند حتى توفى له ثلاثة من الأولاد هم أرسلان وميكائيل وموسى فأما ميكائيل فغزا غزوة فى بلاد الترك فاستشهد وبقيت أولاده وهم بيغوا وطغرلبك محمد وجغرى بك داود فأطاعتهم عشيرتهم .

رحلوا بعد ذلك من جند ونزلوا بالقرب من بخارى على عشرين فرسخا منها : فخافهم أميرها فأساء جوارهم وأراد الإيقاع بهم فالتجأوا إلى بغراخان ملك تركستان وأقاموا فى بلاده ولمزيد حرصهم على أنفسهم اتفق طغرلبك وداود أنهما لا يجتمعا عند بغراخان حذرا من مكر يمكره بهم وكان بغراخان يجتهد أن يجمع بينهما عنده فلم ينجح فقبض على طغرلبك وأسره فثار داود فى عشائره ليخلص أخاه فأنفذ إليه بغرخان عسكرا فانهزم ذلك العسكر وخلص طغرلبك من الأسر والصرف إلى جند .

لما انقرضت دولة السامانية سنة ٣٨٩ وملك أيلك خان عظم محل أرسلان بن سلجوق بما وراء النهر وكان على تكين أحد قواد السامانية فى حبس أرسلان خان فهرب ولحق ببخارى واستولى عليها واتفق مع أرسلان بن سلجوق فامتنعا واستفحل أمرهما وقصدهما أيلك فهزماه وبقيا ببخارى .

لما عبر محمود بن سبكتكين النهر إلى بخارى للاستيلاء على بلاد ما وراء النهر هرب على تكين من بخارى وأما ارسلان بن سلجوق وجماعته فانهم دخلوا المفازه والرمل فاحتموا من محمود فرأى من قوتهم ما هاله وأراد أن يستعمله معهم الحيلة فكاتب ارسلان واستماله ورغبه فورده عليه فلم يكن من محمود إلا أن قبض عليه وسجنه فى قلعة ونهب حركاته ثم أمر عشيرته فعبروا نهر جيحون وفرقهم فى بلاد خراسان فلم تطمئنوا بها من جور العمال عليهم فسار منهم أهل ألفى خركاه فلحقوا بأصبهان ومنها إلى أذربيجان ودخلوا مراغة سنة ٤٢٩ وأحرقوا جامعها وقتلوا من عوامها مقتلة عظيمة فعظم الأمر على أهلها واشتد بهم البلاء .

رأى ذلك أكراد أذربيجان وكانوا مختلفين فاتفقت كلمتهم على هؤلاء المفسدين فانتصفوا منهم رأى الغز أنهم لا مقام لهم هناك فافترقوا فرقتين فطائفة سارت إلى الرى ومقدمهم بوقا وطائفة سارت إلى همذان ومقدمهم منصور وكوكتاش .

أما الذين ذهبوا إلى الرى فانهم استولوا عليها ونهبوها نهباً فاحشاً وسبوا النساء وبقوا كذلك خمسة أيام حتى لجأ الحرام إلى الجامع وتفرق الناس كل مذهب ومهرب وكان السعيد من نجا بنفسه وكادوا يستأصلون أهل الرى .

وأما الذين ساروا إلى همذان فانهم ملكوها أيضا من يد بنى بويه سنة ٤٢٠

ولما دخلوها نهبوها نهبا منكرا لم يفعلوه بغيرها من البلدان غيظا منهم وحنقا عليهم حيث قاتلوهم أولا وأخذوا الحرم وضربت سراياهم إلى أسداذبان وقرى الديتور .واستباحوا تلك البلاد .

ولم يزالوا على هذا الإفساد والتخريب حتى ظهرت السلاجقة وخرج إبراهيم ينال أخو طغرلبك إلى الرى فلما علموا بمسيره جفلوا من بين يديه وفارقوا بلاد الجبل قاصدين أذربيجان فلم يمكنهم القيام بها لما فعلوه بها أولا ولأن إبراهيم ينال وراءهم وكانوا يخافونه لأنهم كانوا له ولأخيه طغرلبك رعية فساروا إلى ديار بكر وأميرها سليمان بن نصر الدولة بن مروان فأخربوا ونهبوا أعمالها إلى أن بذل لهم سليمان مالا ليفارقوا عمله . إذ ذاك صمموا على قصد الموصل وأميرها قرواش من الدولة العقيلية فانهزم عنهم لما حاربوه فدخلوا البلد ونهبوه ووصل قرواش إلى مدينة السن وهناك راسل جلال الدولة سلطان بغداد يعرفه الحال ويطلب النجدة واستنجد أيضا دبيس بن مزيد ملك الحلة وغيره من أمراء العرب الأكراد .

عمل الغز بأهل الموصل الأعمال الشنيعة من القتل وهتك الحريم ونهب الأموال ولما اشتد الأمر على أهل الموصل ثاروا بالغز وقتلوا منهم كثيرا فخرج الغز وعسكروا خارج المدينة حتى جمعوا قواتهم ثم عادوا إليها متفقين فوضعوا السيف فى أهلها وأسروا كثيرا ونهبوا الأموال وأقاموا على ذلك اثنى عشر يوما يقتلون وينهبون .

لما طال مقامهم بتلك البلاد كتب جلال الدولة ونصر الدولة بن مروان إلى طغرلبك يشكون ما حل بالبلاد من تلك الفئة .

بقى قرواش بالسن حتى جاءته النجدات فسار إلى الموصل وبلغ الخبر الغز فتهيئوا للحرب فاجتمعت القوتان على نهر العنجاج وكان النصر أولا للغز ثم نصر الله العرب فانهزمت الغز شر هزيمة وأخذهم السيف وتفرقوا وكثر القتل فيهم وملك العرب حللهم وحركاتهم وكفى الله أهل الموصل شرهم وتبعهم قرواش إلى نصيبين ثم

عاد عنهم فقصدوا ديار بكر وصاروا يعيثون فسادا ولكن قواهم وهنت وتضعضع أمرهم ويسمى التاريخ هذه الطائفة بالغز العراقية وهى بقايا من كان مع أرسلان ابن سلجوق .

آما من كان من أولاد ميكائيل بن سلجوق فانهم أقلعوا بنواحى بخارى كما قدمنا فغص بمكانهم أمير بخارى على تكين فأعمل الحيلة فى الظفر بهم فأرسل إلى يوسف ابن موسى بن سلجوق ومناه الإحسان وفوض إليه التقدم على جميع الأتراك الذين فى ولايته ولقبه بالأمير اينانج بيغو وأراد بذلك أن يستعين به وبعشيرته على ابنى عمه طغرلبك وداود وأن يفرق كلمتهم ويضرب بعضهم ببعض فلم تجز هذه الحيلة على يوسف فلم يكن من على تكين إلا أن قبض عليه وقتله بيد أمير من أمرائه فعظم على ابنى عمه فجمعا قومهما للأخذ بثأره وجمع على تكين جيوشه فكان النصر لطغرلبك وأخيه ثم إحتشد على تكين مرة ثانية وأوقع بالسلاجقة وقعة كانت عليهم شديدة ألجأتهم إلى عبور النهر . نحو خراسان فكتب إليهم خوارز مشاه هرون بن التونتاميش ملك خوارزم يستدعيهم للاتفاق معه فساروا إليه وخيموا بظواهر خوارزم سنة ٤٢٦ واطمأنوا إلى خوارز مشاه ولكن غدر بهم وكبسهم وهم غارون فقتل منهم جمعا فساروا عن خوارزم إلى مفازة نسا ثم كتبوا إلى الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين يطلبون منه الأمان ويضمنون أن يكونوا عونا له على من يعاديه فلم يفعل وسير إليهم جيوشه فلقيتهم عند نسا فأوقع السلاجقة بجيش مسعود ولما بلغه ذلك ندم على رده طاعتهم وعلم أن هيبتهم تمكنت من قلوب عسكره فأرسل إليهم يتهددهم ويتوعدهم فكتب إليه طغرلبك هذه الآية (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير) فلما ورد الكتاب على مسعود كتب من ثانية يعدهم المواعيد الجميلة ويلومهم أن يرحلوا إلى آمل على شاطىء جيحون وينهاهم عن الشر والفساد وأقطع داهستان لداود ؛ وداهستان مدينة عند مازندران بناها عبد الله بن طاهر بين جرجان وخوارزم آخر حدود طبرستان ؛ وأقطع نسا لطغرلبك وأقطع فراوة لبيغو ؛ وفراوة بلدة مما يلى خوارزم ، بناها عبد الله بن طاهر . استخف السلاجقة برسل مسعود لعدم ثقتهم بالرسالة وصاروا يشنون

الغارة على البلاد وعسكر مسعود قد هابهم ومسعود قد شغل عنهم بنفسه وأعرض عن خراسان والسلاجقة فاجتمع وزراؤه وقالوا له إن هؤلاء القوم إذا تركوا وشأنهم استولوا على خراسان سريعا ثم ساروا منها إلى مدينة غزنة فأيقظوه من رقدته فجهز لهم الجنود مع أكبر قواده وكان داود قد استولى على مرو وأحسن السيرة فى أهلها وخطب له بها أول جمعة فى رجب سنة ٤٢٨ ولقب فى الخطبة بملك الملوك . جاءت الجنود المسعودية فالتقت بجند داود عند باب مرو فلم يثبت العسكر المسعودى وانهزم أقبح هزيمة وسار أخزى سير إلى هراة فتبعهم داود إلى طوس وكانت هذه الواقعة هى التى ملك السلاجقة بعدها خراسان ودخلوا قصبات البلاد فدخل طغرلبك نيسابور وخطب له بها فى شعبان ولقب بالسلطان المعظم وفرقوا النواب فى النواحى .

علم ذلك مسعود فاضطر أن يسير بنفسه من غزنة فى جيوش عظيمة حتى وصل بلخ ومنها سار فى أول رمضان سنة ٤٢٩ واستعد له السلاجقة فلما التقى الفريقان كان التعب قد أخذ من عسكر مسعود فاجتاحهم السلاجقة واضطر مسعود أن ينهزم ومعه مائة فارس وغنم السلاجقة من هذا العسكر مالا يدخل تحت الإحصاء فقسمه داود على عسكره وآثرهم على نفسه .

بعد تلك الواقعة عاد طغرلبك إلى نيسابور فلكها ثانية آخر سنة ٤٣١ وسكن الناس وطمأنهم بعد أن كانوا فى شدة من الفوضى ثم ملك داود بلخ وفى سنة ٤٣٣ ملك طغرلبك جرجان وطبرستان من يد أنو شروان بن منوجهر بن قابوس بن وشمكير . وفى سنة ٤٣٤ ملك خوارزم .

لما تم له ذلك سار يريد الرى وبلاد الجبل وكان قد سبقه إليها أخوه لأمه إبراهيم ينال واستولى على الرى فلما سمع بقدومه سار إليه وسلمه إياها وجميع ماملك من بلاد الجبل فأمر طغرلبك بعمارة الرى وكانت قد خرجت ثم سار إلى قزوين فلكها صلحا وملك أيضا همذان .

بذلك تم له ملك أصقاع كبيرة من البلاد الاسلامية وهى خوارزم وخراسان وبلاد الرى ووصلت طلائع جنوده إلى البلاد العراقية أهم ذلك الملك أبا كاليجار صاحب العراق ولم يجد فى نفسه قدرة على صد ذلك السيل فأرسل إلى طغرلبك فى

للصلح فأجابه إليه واصطلحا وكتب طغرلبك إلى أخيه إبراهيم ينال يأمره بالكف عما وراء مابيده واستقر الحال على أن يتزوج طغرلبك بابنة أبى كاليجار ويتزوج الأمير أبو منصور بن أبى كاليجار بابنة الملك داود أخى طغرلبك وتم هذا فى ربيع الأول سنة ٤٣٩ وفى سنة ٤٤١ خطب لطغرلبك بديار بكر. خطب له بها نصر الدولة ابن مروان صاحبها وفى سنة ٤٤٢ استولى على أصبهان ثم أطاعته أذربيجان وأرسل إليه من بها من الأمراء يبذلون له الطاعة والخطبة فأبقى بلادهم بأيديهم وأخذ رهائنهم ثم سار إلى أرمينية وقصد ملازجرد وهى للروم فحصرها وأخرب ما حولها وأثر فى بلاد الروم آثارا عظيمة وبلغ فى غزوته هذه إلى ارزن الروم (ارضروم) ولما هجم عليه الشتاء عاد إلى أذربيجان ثم توجه إلى الرى فأقام بها إلى سنة ٤٤٧.

فى هذا الوقت كانت الأحوال سيئة فى بغداد فان آل بويه قد تفرقت كلمتهم وزالت من القلوب هيبتهم فلم يكن يمكنهم أن يحفظوا بغداد لامن عدو طارىء ولا من عيارها ولصوصها فأعدوا الجمهور لقبول ما يغير من هذه الحال: ومما زاد الحال فسادا ماكان من أمر أبى الحارث أرسلان المعروف بالبساسيرى وهو غلام تركى من مماليك بهاء الدولة فانه أراد أن يزيل الخلافة عن بنى العباس وكاتب الخليفة المستنصر العلوى بمصر ليدخل فى طاعته ويخطب باسمه على منابر بغداد والخليفة العباسى عنده علم ذلك. فكتب إلى السلطان طغرلبك مستنجدا مستغيثاً وكانت هذه أمنيته فأظهر أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة والمسير إلى الشام ومصر وإزالة المستنصر العلوى صاحبها وكاتب أصحابه بالدينور وقرميسين وحلوان وغيرها فأمرهم باعداد الأقوات والعلوفات فعظم الإرجاف ببغداد وفت أعضاد الناس. وصل طغرلبك إلى حلوان وانتشر أصحابه فى طريق خراسان فأجفل الناس إلى غربى بغداد وأرسل طغرلبك إلى الخليفة يبالغ فى إظهار العبودية والطاعة إلى الأتراك البغداديين يعدهم الجميل والإحسان. فاتفق من ببغداد من الرؤساء والأمراء على مكاتبة طغرلبك يبذلون له الطاعة والخطبة وفعلا تقدم الخليفة إلى الخطباء بالخطبة لطغرلبك بجوامع بغداد فخطب له فى يوم الجمعة ٢٢ محرم سنة ٤٤٨ ودخلها طغرلبك فى الخامس والعشرين منه وقبض على آخر سلاطين بنى بويه وهو الملك الرحيم وبذلك انقضت دولتهم ووجدت بالعراق وما وراءه هذه الدولة الجديدة الفتية وهى دولة السلاجقة.

هذه العشيرة استولت على جل ماملكه المسلمون وقد انقسمت إلى خمسة بيوت :

الأول : السلاجقة العظمى وهى التى كانت تملك خراسان والرى والجبال والعراق والجزيرة وفارس والأهواز :

الثانى : سلاجقة كرمان

الثالث : سلاجقة العراق

الرابع : سلاجقة سوريا

الخامس : سلاجقة الروم

أما السلاجقة الكبرى فهى الدولة التى أسسها ركن الدين ابو طالب طغرلبك وحياتها ٩٣ سنة من سنة ٤٢٩ (١٠٣٩) م إلى سنة ٥٢٢ (١١٢٧) م وهذا ثبتها :

(١) ركن الدين أبو طالب طغرلبك : من	٤٢٩ — ٤٥٥
(٢) عضد الدين أبو شجاع ألب أرسلان	٤٥٥ — ٤٦٥
(٣) عضد الدين أبو الفتح ملكشاه	٤٦٥ — ٤٨٥
(٤) ناصر الدين محمود	٤٨٥ — ٤٨٧
(٥) ركن الدين أبو المظفر بركياروق	٤٨٧ — ٤٩٨
(٦) ركن الدين ملكشاه الثانى	٤٩٨ — ٤٩٨
(٧) غياث الدين أبو شجاع محمد	٤٩٨ — ٥١١
(٨) معز الدين أبو الحارث سنجر	٥١١ — ٥٢٢

وقد انقضت دولتهم على أيدى شاهات خوارزم .

وأما سلاجقة كرمان فكانوا من عشيرة قاروت بك بن داود بن ميكائيل بن سلجوق وهو أخو ألب أرسلان ومدة ملكهم ١٥٠ سنة من ٤٣٢ (١٠٤١) م إلى ٥٨٣ (١١٨٨) وهذا ثبت ملوكها .

(١) عماد الدين قرا أرسلان قاروت بك	٤٣٣ — ٤٥٦
(٢) كرمانشاه	٤٥٦ — ٤٦٧
(٣) حسين	٤٦٧ — ٤٦٧
(٤) ركن الدين سلطان نشاه	٤٦٦ — ٤٧٧
(٥) تورانشاه	٤٧٧ — ٤٩٠

(٦) أرانشاه	٤٩٠ — ٤٩٤
(٧) أرسلانشاه	٤٩٤ — ٥٣٦
(٨) مغيث الدين محمد الأول	٥٣٦ — ٥٥١
(٩) محيى الدين طغريل شاه بهر امشاه	٥٥١ — ٥٦٣
أرسلانشاه الثانى	
طرخان شاه	
محمد الثانى	٥٦٣ — ٥٦٣

وقد انقضت دولتهم على أيدى الغز التركمان .

وأما سلاجقة العراق وكردستان فقد ابتدأت دولتهم سنة ٥١١ (١١١٧) أى من عهد وفاة غياث الدين أبى شجاع محمد سابع ملوك السلاجقة وانتهت سنة ٥٩٠هـ (١١٩٤) فبقيت ٧٩ سنة وانقرضت على أيدى شاهات خوارزم وهذا ثبت ملوكها .

(١) مغيث الدين محمود	٥١١ — ٥٢٥
(٢) غياث الدين داود	٥٢٥ — ٥٢٦
(٣) طغريل الأول	٥٢٦ — ٥٢٧
(٤) غياث الدين مسعود	٥٢٧ — ٥٤٧
(٥) معين الدين ملكشاه	٥٤٧ — ٥٤٨
(٦) محمد	٥٤٨ — ٥٥٤
(٧) سليمانشاه	٥٥٤ — ٥٥٦
(٨) أرسلانشاه	٥٥٦ — ٥٧٣
(٩) طغريل الثانى	٥٧٣ — ٥٩٠

وأما سلاجقة سوريا فكانوا من بيت تتش بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل ابن سلجوق وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٨٧ (١٠٩٤) أى فى أول عهد ركن الدين بركياروق خامس ملوك السلاجقة العظمى وانتهت سنة ٥١١ (١١١٧) فكانت حياتها ٢٤ سنة وانتهت على أيدى الدولتين النورية والأرتقية وهذا ثبت ملوكها .

(١) تتش بن الب أرسلان	٤٧٧ — ٤٨٨
(٢) رضوان بن تتش	٤٨٨ — ٤٨٨

(٣) تقاق بن تتش فى دمشق	٤٨٨ — ٥٠٧
(٤) ألب أرسلان آخرص بن رضوان	٥٠٧ — ٥٠٨
(٥) سلطانشاة بن رضوان	٥٠٨ — ٥١١

وأما السلاجقة الروم ملوك قونية وأقصرا فكانوا من بيت قطلمش بن إسرائيل ابن سلجوق وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٧٠ (١٠٧٧) فى عهد جلال الدين أبى الفتح ملكشاه ثالث ملوك السلاجقة العظمى وانتهت سنة ٧٠٠ (١٣٠٠) فمدة حياتها ٢٣٠ سنة فهى أطول دول السلاجقة حياة وقد انتهت دولتهم على أيدى الأتراك العثمانيين والمغول وهذا ثبت ملوكها .

(١) سليمان بن قطلمش	٤٧٠ — ٤٧٥
(٢) قليج أرسلان داود بن سليمان	٤٧٥ — ٥٠٠
(٣) ملكشاه بن قليج أرسلان	٥٠٠ — ٥١٠
(٤) مسعود بن قليج أرسلان	٥١٠ ٥٥١
(٥) عز الدين قليج أرسلان بن ملكشاه	٥٥١ ٥٨٤
(٦) قطب الدين ملكشاه بن قليج أرسلان	٥٨٤ — ٥٨٨
(٧) غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان	٥٨٨ — ٥٩٧
(٨) ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان	٥٩٧ — ٦٠٠
(٩) قليج أرسلان بن سليمان	٦٠٠ — ٦٠١
غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان ثانيا	٦٠١ — ٦٠٧
(١٠) عز الدين كيقاوس بن ملكشاه	٦٠٧ — ٦١٦
(١١) علاء الدين كيقباذ بن ملكشاه	٦١٦ — ٦٣٤
(١٢) غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ	٦٣٤ — ٦٤٣
(١٣) عز الدين كيقاوس بن كيخسرو	٦٤٣ — ٦٥٥
(١٤) ركن الدين قليج أرسلان بن كيخسروا	٦٥٥ — ٦٦٦
(١٥) غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان	٦٦٦ — ٦٨٢
(١٦) غياث الدين مسعود بن كيقاوس	٦٨٢ — ٦٩١
(١٧) علاء الدين كيقباذ	٦٩١ — ٧٠٠

والذى كان يرتبط تاريخه من هذه البيوت بتاريخ الدولة العباسية لدخول بغداد فى حوزتهم السلاجقة العظمى وسلاجقة العراق الذين كان لهم السلطان على العباسيين ٤٤٧ إلى سنة ٥٩٠ أى ١٤٣ سنة .

استخلف من آل العباس فى عهد الدولة السلجوقية تسعة خلفاء وهم :

٢٦ عبد الله القائم بأمر الله بن القادر بن المقتدر .

٢٧ عبد الله المقتدى بالله بن محمد بن القائم .

٢٨ أحمد المستظهر بن المقتدى .

٢٩ الفضل المسترشد بن المستظهر .

٣٠ المنصور الراشد بن المسترشد .

٣١ محمد المقتفى بن المستظهر .

٣٢ يوسف المستنجد بن المقتفى .

٣٣ الحسن المستضىء بن المستنجد .

٣٤ أحمد الناصر بن المستضىء

وأولهم القائم بأمر الله هو الذى فى عهده انتهى العصر البويهى وابتدأ ملك السلجوق وآخرهم الناصر لدين الله هو الذى انتهى فى عصره ملك السلاجقة .

ملك السلطان طغرلبك بغداد وتقرب من الخليفة تقربا عظيما حتى إن الخليفة تزوج أرسلان خاتون واسمها خديجة بنت داود أخى طغرلبك وقبل الخليفة العقد بنفسه وذهبت والدة الخليفة وتسلمتها وأحضرتها إلى دار الخلافة . ولم تقف المصاهرة بين البيتين عند هذا الحد بل إن السلطان طغرلبك تطلع إلى أن يتزوج هو أيضا من البيت العباسى وهو أمر لم تجر به العادة فأرسل سنة ٤٥٣ يخطب بنت الخليفة فانزعج الخليفة من هذا الطلب وأرسل إلى السلطان رسولا أمره أن يستعفى من الإجابة فان أعفى، وإلا تم الأمر على أن يحمل السلطان ٣٠٠٠٠٠ دينار ويسلم واسط وأعمالها . فلما وصل الرسول قال له عميد الملك الكندرى وزير طغرلبك لا يحسن أن يرد السلطان وقد سأل وتضرع ولا يجوز مطالبته أيضا بطلب الأموال والبلاد فهو يفعل أضعاف ما طلب منه ففوض الرسول الأمر إلى الوزير فبنى الوزير الأمر على الإجابة وطالع السلطان فسر به وجمع الناس وعرفهم أن همته سمت

به إلى الاتصال بتلك الجهة النبوية وبلغ من ذلك مالم يبلغه سواه من الملوك وأمر الوزير أن يسير إلى بغداد لإتمام ذلك فلما ورد الوزير بغداد رأى من الخليفة امتناعا ولم يزل المحيطون بالخليفة يرققون به حتى رد الأمر إلى عميد الملك فحضر إلى دار الخلافة ومعه جمع من الأمراء والحجاب والقضاة والشهود فتكلم وقال للخليفة أسأل مولانا أمير المؤمنين التطول بذكر ماشرف به العبد المخلص شاهنشاه ركن الدين فيما رغب فيه ليعرفه الجماعة فأظهر الخليفة نفرة من ذلك وكاد الأمر يفضى إلى فساد ولما رأى الخليفة شدة الأمر أذن فى العقد وكل فيه عميد الملك فجرى العقد فى شعبان سنة ٤٥٤ بظاهر تبريز وحمل السلطان أموالا كثيرة وجواهر نفيسة للخليفة ولولى العهد ولزوجته ولوالدتها وغيرهم وجعل يعقوبا وما كان بالعراق لخاتون زوجة السلطان التى توفيت للسيدة ابنة الخليفة ولما تم ذلك حضر السلطان إلى بغداد فأراد الخليفة أن يستقبله فاستعفاه من ذلك وأرسل عميد الملك يطلب السيدة من دار الخلافة فنقلت إلى دار المملكة فى منتصف صفر سنة ٤٥٥ وجلست على سرير ملبس بالذهب ودخل السلطان إليها وقبل الأرض وخدمها ولم تكشف الخمار عن وجهها ولا قامت له وحمل لها شيئا كثيرا من الجواهر وغيرها وبقى كذلك يحضر كل يوم يخدم وينصرف وخلع على كثير من الأمراء وظهر عليه كثير من السرور .

الحادث العظيم ببغداد :

فى السنة التى تلى حكم السلاجقة ببغداد وهى سنة ٤٤٨ كانت عند مدينة سنجار وقعة شديدة بين البساسيرى ومعه نور الدولة دبيس بن مزيد الأسدى وبين قريش ابن بدران العقيلى ومعه قتلمش ابن عم السلطان طغرلبك انهزم فيها قريش وقتلمش فوصل خبر هذه الواقعة إلى السلطان بعد أن أقام ببغداد ثلاثة عشر شهرا لم يقابل فيها الخليفة فسار عنها بجيوشه فقاتل العرب بالموصل والجزيرة وانتصر عليهم وانتهى الأمر باستيلائه على جميع البلاد الموصلية والجزرية وسلمها إلى أخيه لأمه إبراهيم ينال ثم عاد إلى بغداد فى أوائل سنة ٤٤٩ وقابل الخليفة لأول مرة وفوض إليه الخليفة أمر إدارة البلاد وقد بالغ طغرلبك فى احترام مقام الخلافة العباسية وخلع عليه الخليفة سبع خلع وتوج وعمم إشارة إلى جمعه بين ملك العرب والعجم وقلد

سيفا محلى بالذهب وخاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب فقبل يد الخليفة دفعتين ووضعها على عينه تبركا ، فعل مافعل من ذلك التعظيم والإجلال تدينا .

وفى سنة ٤٥٠ ترك إبراهيم ينال بلاد الموصل وتوجه نحو بلاد الجبل ويقال إن المصريين كاتبوه وأطمعوه فى الملك فأهم ذلك السلطان وسار وراءه إلى همذان فى ذلك الوقت عاد البساسيرى بقوته وكان المصريون يساعدونه ويمدونه ولم يزل يجتاح البلاد حتى وصل بغداد فى ثامن ذى القعدة سنة ٤٥٠ واستولى عليها لأنه ليس بها جند يحميها وخطب بجامع المنصور لمعد المستنصر العلوى صاحب مصر وأذن بخير العمل وكانت العامة قد مالت إليه أما الشيعة فلاتحاد المذهب وأما أهل السنة فلما فعل بهم الأتراك .

أما الخليفة القائم فانه خرج من قصره فى ذمام رئيس العرب قريش بن بدران العقيلى استلم منه بذمام الله وذمام رسوله صلى الله عليه وسلم وذمام العربية فأعطاه ذلك ونزع قريش قلنسوته فأعطاها الخليفة ثم حمله إلى معسكره وعليه السواد والبردة وبيده السيف وعلى رأسه اللواء وأنزله فى خيمة ثم سلمه إلى ابن عمه مهاريش بن المجلى وهو رجل فيه دين وله مروءة فحمله فى هودج وسار به إلى حديثة عانة فتركه بها آمنا مطمئنا فى ذمام العربية الذى يرى الخيانة عاراً .

أما البساسيرى فانه سار ببغداد سيرة ملك ورفعت على رأسه الألوية البيضاء التى أرسلت إليه من مصر ثم ملك بعد ذلك واسط والبصرة وهتف على منابر تلك البلاد باسم آل على .

أما السلطان فانه استنجد بأولاد أخيه أرسلان وياقوتى وقاورت باك فجاءوه بالعساكر يتلو بعضها بعضا فلقى بهم أخاه إبراهيم ينال بالقرب من الرى فتغلب عليه وأسره ثم أمر به فخنق بوتر قوسه فى تاسع جمادى الآخر سنة ٤٥١ ولما تم له ذلك عاد يطلب العراق وليس له هم إلا إعادة القائم بأمر الله إلى خلافته ولما قارب بغداد أدرك البساسيرى أنه لاقبل له بمقاومته فرحل عن بغداد وكان دخوله إليها سادس ذى القعدة سنة ٤٥٠ وخروجه منها سادس ذى القعدة سنة ٤٥١ وكان السلطان قد أرسل وهو بالطريق إمام أهل السنة أبا بكر أحمد بن محمد المعروف بابن فورك إلى قريش بن بدران يشكره على مافعله بالخليفة ويخبره أنه أرسل ابن فورك

للقيام بخدمة الخليفة وإحضاره فأرسل قريش إلى ابن عمه مهارش يقول له أودعنا الخليفة عندك ثقة بأمانتك لينكف بلاء الغزو عنا والآن فقد عادوا وهم عازمون على قصدك فارحل أنت وأهلك إلى البرية فانهم إذا علموا أن الخليفة عندنا فى البرية لم يقصدوا العراق ونحكم عليهم بما نريد فأبى ذلك مهارش وقال إن الخليفة قداستحلفنى بعهود ومواثيق لاتخلص منها وسار بالخليفة إلى العراق وقد لقيهما ابن فورك بتل عكبرا فساروا معا حتى وصلوا إلى النهروان فى ٢٤ ذى القعدة فخرج السلطان إلى خدمة الخليفة فاجتمع به وقبل الأرض بين يديه وهيأه بالسلامة وأظهر الفرح بسلامته واعتذر من تأخره بعصيان أخيه إبراهيم وأنه قتله عقوبة لما جرى من الوهن على الدولة العباسية فقلده الخليفة بيده سيفا وقال لم يبق مع أمير المؤمنين من داره سواه وقد تبرك به أمير المؤمنين فكشف غشاء الخركاه حتى رآه الأمراء فخدموا وانصرفوا ثم ساروا جميعاً إلى بغداد وكان دخول الخليفة لخمس بقين من ذى القعدة سنة ٤٥١ م .

ثم أنفذ السلطان جيشاً لملاحقة البساسيرى الذى توجه سمت الشام وسار السلطان فى أثرهم فقابلته الطلائع بعض الطريق فوقف لهم فقاتلوه وقتلوه وحملوا رأسه إلى بغداد وكان البساسيرى هذا مملوكاً تركيا من مماليك بهاء الدولة الديلمى تقلبت به الأمور حتى بلغ هذا المقام المشهور وكنيته أبو الحارث وهو منسوب إلى بسا مدينة بفارس ، كان سيده الأول منها .

وبعد أن تم ما أراده عاد إلى الرى التى جعلت دار ملكه وكان له ببغداد محافظ يسمى الشحنة . وفى سنة ٤٥٥ عاد إلى بغداد ليبنى بابنة الخليفة التى ذكرنا فيما مضى حديثها ثم عاد إلى الرى وبها كانت وفاته فى يوم الجمعة ٨ رمضان سنة ٤٥٥ .

ولما توفى أراد عميد الملك أن يقيم فى الملك بعده ابن أخيه سليمان بن داود ولكن لم يتهيأ له ماأراد وتم الأمر للسلطان .

(٢) عضد الدولة أبى شجاع ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق وقد عارضه فى الملك ابن عم أبيه قتلمش بن إسرائيل فقتل دون مراده . استعان ألب أرسلان فى إدارة ملكه بوزيره العظيم نظام الملك وسيأتى التعريف به وبما نال المملكة من الخير العميم على يديه .

كان ألب أرسلان بعيد الهمة ثاقب العزم ميمون النقيبة إلى بره بالرعية وإرادته خيرهم وكان إذا أمر ببناء أوعز بأن يكون أسمى بنيان ويقول . آثارنا هذه تدل على علو همتنا ووفور نعمتنا . وكانت أظهر أعماله بالبلاد الرومية فقد أقبل لأول عهده سنة ٤٦٢ ملك الروم وأخنى على منبج واستباحها وسبى حاميتها فأساء ذلك ألب أرسلان ولاسيما أنه بلغه أن الروم عازمون على إعادة الكرة فأغذ السير إلى أذربيجان لأنه سمع أن ملك الروم أخذ على سمت خلاط ومعه من الجنود من لايحصون كثرة ولما قارب خلاط أرسل إليها بعشرين ألف فارس فوقف فى أوجههم مقدم عسكر خلاط وانتصف منهم وذلك فى رابع ذى القعدة سنة ٤٦٣ ثم تلاحق عسكر الروم ونزل على خلاط محاصرا ونزل على ملازكرد فسلمت حاميتها . حصل ذلك والعسكر السلطانى مجد فى سيره ولم ينتظر السلطان تلاحق جنده بل قال أنا أحتسب عند الله نفسى بالشهادة وكان وصول السلطان فى اليوم الذى سلمت فيه حامية ملازكرد وكان نزول عسكره فى يوم الخميس ٦ ذى القعدة والروم بين خلاط وملازكرد فأرسل السلطان إلى ملك الروم يقول له إن كنت ترغب فى الهدنة أتممنا ما تريد وإلا اعتزمنا وعلى الله اعتمدنا ، فظن ملك الروم أن صدور هذه الرسالة عن خور فقال للرسول سوف أجيب عن هذا بالرى فكان ذلك مما ألهب النفوس الإسلامية وزادها حمية وقال إمام السلطان أبو نصر محمد بن عبد الملك البخارى الحنفى للسلطان إنك تقاتل عن دين الله الذى وعد باظهاره ، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال والناس يدعون لك على المنابر . فلما أصبحوا يوم الجمعة وكادت الشمس تزول تهيأ السلطان وعبأ أصحابه تعبئة عسكريه تدل على فهم ثاقب لأنه قسمهم أربع فرق كل فرقة أقامها فى نقطة لاتبرحها لتكون عند اللزوم وراء جند العدو ثم أشعل نار الحرب بهمته العالية واستجر الروم إليه حتى صار الكمين من ورائهم وحينئذ أخذتهم الجنود السلجوقية من أمامهم ومن خلفهم فما عتم الروم أن انهزموا بعد أن أخذ منهم الذعر والرعب وأسر ملكهم ، قالوا وكان مع الروم ثلاثة آلاف عجلة لحمل الأثقال ومعهم منجنيقات كثيرة منهم منجنيق له ثمانية أسهم ويمد فيه ألف ومائتا رجل ويحمله مائة عجلة يرمى حجرا وزنه — بالرطل الكبير الخلاطى — قنطار وكثر عدد الأسرى من الروم وكذلك الغنائم حتى سقطت قيم الدواب والكراع والسلاح والمتاع فبيعت ١٢ خوذة بسدس دينار وثلاثة أدراع بدينار .

وعاد السلطان مؤيدا ظافرا بعد هذه الواقعة التى لم تقم للروم بعدها قائمة فى نواحى أرمينية .

وكان عهد ألب أرسلان كله عهد نمو وارتقاء فى دولة السلاجقة لا للسيف وحده بل للعلم أيضا فان نظام الملك أسس فى عهده أول المدارس النظامية ببغداد وقد تم بناؤها سنة ٤٥٨ ودرس فيها شيخ الشافعية بالعراق بل وبغيرها وهو الشيخ أبو إسحاق الشيرازى ولما رأى ذلك شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور مستوفى المملكة ببغداد بنى على ضريح أبى حنيفة رحمه الله بباب الطاق مشهدا ومدرسة لأصحابه وكتب على تلك القبة .

ألم تر هذا العلم كان مشتتا   فجمعه هذا المغيب فى اللحد
كذلك كانت هذه الأرض ميتة   فأنشرها فضل العميد أبى سعد

وفى سنة ٤٦٥ توجه ألب أرسلان قاصدا بلاد الترك فعبر نهر جيحون ولكن المشيئة سابقته فسبقته . حكى عنه أنه قال وهو يقرب من الموت : ماكنت قط فى وجه قصدته ولا عدو أردته إلا توكلت على الله وطلبت منه النصر وأما فى هذه النوبة فانى أشرفت من تل عال فرأيت عسكرى فقلت أين من له قدر بمصارعتى ومعارضتى وإنى أصل بهذا العسكر إلى بلاد الصين . فكان ما أراد الله وكانت وفاته فى ٦ ربيع الأول سنة ٤٦٥ .

ولى السلطنة بعده ولى عهده السلطان جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه .

ولأوائل حكمه توفى الخليفة القائم بأمر الله ثالث عشر شعبان سنة ٤٦٧ فقام بالأمر بعده ولى عهده حفيده .

ثالثاً

نصوص تراجم
لبعض شخصيات العصر العباسي

من

تاريخ الإسلام ووفيات
المشاهير والأعلام
للحافظ الذهبي

ووقع الحصار على نهاوند وتقهقر الأمير نصر بن سيار إلى أن وصل إلى الرى فأدركه الأجل بها، وقيل: مات نساؤه وأوصى بنيه أن يلحقوا بالشام وقد كان أنشد لما أبطأ عنه المدد:

أرى خلل الرماد وميض نار * ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالزندين تورى * وإن الفعل يقدمه الكلام
وإن لم يطفها عقلاء قوم * يكون وقودها جثث وهام
أقول من التعجب: ليت شعرى * أأيقاظ أمية أم نيام

ثم إن ابن هبيرة كتب إلى مروان الحمار يخبره بمقتل ابن ضبارة فوجه إلى نجدته: حوثرة بن سهيل الباهلى فى عشرة آلاف من قيس، ثم تجمعت جيوش مروان بنهاوند، عليهم مالك بن أدهم، فضايقهم - كما ذكرنا - قحطبة أربعة أشهر حتى أكلوا خيلهم، ثم خرجوا بالأمان فى شوال، ثم قتل قحطبة وجوها من عسكر نصر بن سيار وقتل أولاده وقتل سعيد بن الحر وعبيد الله بن عمر الجزوى وحاتم بن الحارث التميمى وعاصم بن عمرو السمرقندى وعمارة بن سليم. ثم أقبل قحطبة فى جيوشه يريد العراق فنهض متوليها ابن هبيرة حتى نزل بين حلوان والمدائن وعلى مقدمته عبيد الله بن عباس الليثى وانضم إليه المنهزمون حتى صار فى ثلاثة وخمسين ألفا. ثم توجه فنزل جلولاء، ونزل قحطبة فى آخر العام بخانقين، فكان بين الطائفتين بريد فبقوا أياما كذلك.

* * *

وفيها، فى شعبان وبعده كان الطاعون بالبصرة فهلك خلق حتى قيل: إنه هلك فى اليوم الأول سبعون ألفا. نقله صاحب المنتظم.

وفيها تحول أبو مسلم الخراسانى من مرو فنزل نيسابور واستولى على عامة خراسان.

* * *

سنة اثنتين وثلاثين ومائة

توفى فيها خلق: منهم إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة، أمية بن يزيد، أعين بن ليث جد ابن عبد الحكم، خالد بن سلمة المخزومى، رباح بن عبد الرحمن الدمشقى، زياد بن سلم بن زياد ابن أبيه، سالم الأفطس ابن عجلان، سليمان بن هشام بن عبد الملك، سليمان بن يزيد بن عبد

الملك، صفوان بن سليم المدنى، عبد الله بن طاوس اليمانى، عبد الله بن عثمان بن خثيم المكى، عبيد الله بن أبى جعفر المصرى، عبيد الله بن وهب الكلاعى، عطاء بن قرة السلولى. عطاء السليمى العابد، عمر بن أبى سلمة الزهرى، قحطبة بن شبيب الأمير، محمد بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، مروان بن محمد الأموى الخليفة، منصور بن المعتمر عالم الكوفة، يزيد بن عمر بن هبيرة الأمير، يزيد بن القعقاع أبو جعفر فى قول، يونس بن ميسرة بن حلبس.

وفيها زالت دولة بنى أمية.

ففى المحرم بلغ ابن هبيرة أن قحطبة توجه نحر الموصل فقال لأصحابه: ما بال القوم تنكبونا؟! قالوا: يريدون الكوفة، فترحل ابن هبيرة نحو الكوفة وكذلك فعل قحطبة فعبر الفرات فى سبعمائة فارس، وتتام إلى ابن هبيرة نحو ذلك، فتواقعوا فجاءت قحطبة طعنة فوقع فى الفرات فهلك ولم يعلم به قومه، وانهزم أيضا أصحاب ابن هبيرة وغرق خلق منهم فى المخايض وذهبت أثقالهم، فقال بيهس بن حبيب: نجمع الناس بعد أن جاوزنا الفرات، فنادى مناد: «من أراد الشام فهلم»، فذهب معه عنق من الناس، ونادى آخر: «من أراد الجزيرة» فتبعه خلق، ونادى آخر: «من أراد الكوفة» فذهب كل جند إلى ناحية، فقلت: «من أراد واسط فهلم» فأصبحنا مع ابن هبيرة بقناطر المسيب ودخلنا واسطا يوم عاشوراء، وأصبح المُسَوِّدَة [دعاة العباسيين] قد فقدوا قائدهم قحطبة ثم استخرجوه من الماء فدفنوه، وأمّروا عليهم ابنه الحسن فقصد بهم الكوفة فدخلوها يوم عاشوراء أيضا وهرب متوليها زياد بن صالح إلى واسط.

وقتل ليلة الفرات صاحب شرطة ابن هبيرة زياد بن سويد المرى وكاتبه عاصم مولى بنى أمية.

وأما ابن قحطبة فاستعمل على الكوفة أبا سلمة الخلال، ثم قصد واسط فنازلها وخندق على جيشه فعبأ ابن هبيرة عساكره فالتقوا فانهزم عسكر ابن هبيرة وتحصنوا بواسط، وقتل فى الوقعة يزيد أخو الحسن بن قحطبة وحكيم بن المسيب الجدلى.

وفى المحرم، وثب أبو مسلم صاحب الدعوة على ابن الكرمانى فقتله بنيسابور وجلس فى دست الملك وبويع وصلى وخطب للسفاح وصفت له خراسان.

بيعة السفاح

فى ثالث ربيع الأول، بويع أبو العباس عبد الله السفاح أول خلفاء بنى العباس بالكوفة فى دار مولاهم الوليد بن سعد.

وأما مروان الحمار خليفة الوقت فسار فى مائة ألف حتى نزل الزابين دون الموصل، فجهز السفاح عمه عبد الله ابن على فى جيش فالتقى الجمعان على كشاف فى جمادى الآخرة، فانكسر مروان وتقهقر إلى الجزيرة وقطع وراءه الجسر وقصد الشام ليتقوى ويلتقى، ودخل عبد الله بن على الجزيرة فاستعمل عليها موسى بن كعب التميمى ثم طلب الشام مجدا، وأمده السفاح بصالح بن على وهو عمه الآخر، فسار عبد الله حتى نازل دمشق وفر مروان إلى غزة، فحوصرت دمشق مدة وأخذت فى رمضان وقتل بها خلق من بنى أمية ومن جندهم، فما شاء الله كان، فلما بلغ مروان ذلك هرب إلى مصر ثم قتل فى آخر السنة. وهرب ابنه عبد الله وعبيد الله حتى دخلا أرض النوبة، وكان مروان قد استعمل على مصر عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير اللخمى مولاهم فأحسن السيرة، وسار عم السفاح صالح بن على فافتتح مصر وظفر بعبد الملك وبأخيه معاوية فعفا عنهما وقتل الأمير حوثرة بن سهيل، فيقال طبخوه طبخا، وكان قد ولى مصر مدة. وقتل حسان بن عتاهية وصلب سنة.

قال محمد بن جرير الطبرى: كان بدء أمر بنى العباس أن رسول الله ﷺ فيما ذكر عنه أعلم العباس عمه أن الخلافة تؤول إلى ولده فلم يزل ولده يتوقعون ذلك.

وعن رشدين بن كريب أن أبا هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية خرج إلى الشام فلقى محمد بن عبد الله بن عباس فقال: يا بن عم إن عندى علما أريد أن أنبذه إليك فلا تطلعن عليه أحدا: إن هذا الأمر الذى يرتجيه الناس فيكم قال: قد علمته فلا يسمعنه منك أحد.

وروى المدائنى عن جماعة أن الإمام محمد بن على بن عبد الله قال: لنا ثلاثة أوقات: موت يزيد بن معاوية، ورأس المائة، وفتق بأفريقية، فعند ذلك تدعو لنا دعاة ثم يقبل أنصارنا من المشرق حتى ترد خيولهم المغرب. فلما قتل يزيد بن أبى مسلم بأفريقية ونقضت البربر بعث محمد الإمام رجلا إلى خراسان وأمره أن يدعو إلى الرضا من آل محمد ﷺ ولا يسمى أحدا، ثم وجه أبا مسلم وغيره، وكتب إلى النقباء فقبلوا كتبه ثم وقع فى يد مروان الحمار كتاب من إبراهيم بن محمد الإمام إلى أبى مسلم جواب كتاب يأمره بقتل كل من تكلم بالعربية بخراسان، فقبض مروان على إبراهيم، وقد كان مروان وصف له صفة السفاح التى كان يجدها فى الكتب فلما جىء بابراهيم قال: ليست هذه الصفة التى وجدت ثم ردهم فى طلب الموصوف له فإذا بالسفاح وإخوته وعمومته قد هربوا إلى العراق وأخفتهم شيعتهم، فيقال: إن إبراهيم قد نعى إليهم نفسه وأمرهم بالهرب وكانوا بالحميمة من أرض البلقاء، فلما قدموا الكوفة أنزلهم أبو سلمة الخلال دار الوليد بن سعد فبلغ الخبر أبا الجهم فاجتمع بموسى بن كعب وعبد الحميد بن ربعى وسلمة بن محمد وإبراهيم بن سلمة وعبد الله الطائى وإسحاق ابن إبراهيم وشراحيل وابن بسام وجماعة من كبار شيعتهم فدخلوا على آل العباس فقال: أيكم عبد الله بن محمد ابن الحارثية؟ فأشاروا إلى السفاح، فسلموا عليه بالخلافة، ثم خرج السفاح يوم جمعة على برذون أبلق فصلى بالناس بالكوفة فذكر أنه لما صعد المنبر وبويع قام عمه داود بن على دونه.

فقال السفاح : الحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه فكرمه وشرفه وعظمه واختاره لنا وأيده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوام به والذابين عنه ، ثم ذكر قرابتهم فى آيات القرآن إلى أن قال : فلما قبض الله نبيه قام بالأمر أصحابه إلى أن وثبت بنو حرب ومروان فجاروا واستأثروا فأملى الله لهم حينا حتى آسفوه فانتقم منهم بأيدينا ورد علينا حقنا ليمن بنا على الذين استضعفوا فى الأرض وختم بنا كما افتتح بنا وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله ، يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا وقبول مودتنا لم تفتروا عن ذلك ويثنكم عنه تحامل أهل الجور فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا وقد زدت فى أعطياتكم مائة مائة فاستعدوا فأنا السفاح المتيح والثائر المبير ، وكان موعوكا فجلس .

وخطب داود فأبلغ ، ثم قال : وإن أمير المؤمنين نصره الله نصرا عزيزا إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة لأنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره وإنما قطعه عن استتمام الكلام شدة الوعك فادعوا له بالعافية فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان المتبع لسلفه المفسدين فى الأرض الشاب المكتهل ، فعج الناس له بالدعاء .

وكان عيسى بن موسى إذا ذكر خروجهم من الحميمة يريدون الكوفة قال : إن أربعة عشر رجلا خرجوا من ديارهم يطلبون ما طلبنا لعظيمة همتهم شديدة قلوبهم .

وأما إبراهيم بن محمد فإن مروان قتله غيلة ، وقيل : بل مات بالسجن بحران من طاعون ، وكان قد وقع بحران وباء عظيم ، وهلك فى السجن أيضا : العباس بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز فيما قيل : وفيه نظر .

وفيها توجه أبو عون الأزدى إلى شهرزور لقتال عسكر مروان فالتقوا ، وقتل أمير المروانية عثمان بن سفيان واستولى أبو عون على ناحية الموصل قبل عبد الله بن على فلما جاء عبد الله جهز خمسة آلاف عليهم عيينة بن موسى فخاضوا الزاب وحاربوا المروانية حتى حجز بينهم الليل ، ثم جهز عبد الله من الغد أربعة آلاف عليهم مخارق بن عفار فالتقوا ، فقتل مخارق ، وقيل أسر . فبادر عبد الله بن على وعبأ جيشه ، وكان يومئذ على ميمنته أبو عون الأزدى ، وعلى ميسرته الوليد بن معاوية فالتقاه مروان واشتد الحرب ، ثم تخاذل عسكر مروان وانهزموا ، فانهزم مروان وقطع وراءه الجسر ، فكان من غرق يومئذ أكثر ممن قتل ، فغرق إبراهيم بن الوليد المخلوع واستولى عبد الله على أثقالهم وما حوت ، فوصل مروان إلى حران فأقام بها عشرين يوما ، ثم دهمته المسودة فانهزم ، وخلف بحران ابن أخته أبان بن يزيد ، فلما أظله عبد الله خرج أبان مسودا مبايعا لعبد الله فأمنه ، فلما مر مروان بحمص اعترضه أهلها فحاربوه ، وكان فى أنفسهم منه فكسرهم ، ثم مر بدمشق وبها متوليها زوج بنته الوليد بن معاوية فانهزم وخلف بدمشق زوج بنته ليحفظها فنازلها عبد الله وافتتحها عنوة بالسيف وهدم سورها وقتل أميرها فيمن قتل ، وتبع عسكر عبد الله بن على مروان بن محمد إلى أن بيتوه بقرية بوصير من عمل مصر ، فقتل وهرب ولداه ، وحل بالمروانية من البلاء ما لا يوصف .

ويقال : كان جيش عبد الله بن على لما التقى مروان عشرين ألفا وقيل اثنى عشر ألفا . وافتتح دمشق فى عاشر رمضان، صعد المسودة سورها ودام القتل بها ثلاث ساعات، فيقال : قتل بها خمسون ألفا .

وذكر ابن عساكر فى ترجمة الطفيل بن حارثة الكلبى أحد الأشراف : أنه شهد حصار دمشق مع عبد الله فحاصرها شهرين وبها يومئذ الوليد بن معاوية بن عبد الملك فى خمسين ألف مقاتل فوقع الخلف بينهم ثم إن جماعة من الكوفيين تسوروا برجا وافتتحوها عنوة فأباحها عبد الله ثلاث ساعات لا يرفع عنهم السيف .

وقيل : إن الوليد بن معاوية قتله أصحابه لما اختلفوا عليه، ثم أمن عبد الله الناس كلهم وأمر بقلع حجارة السور، روى ذلك عن المدائنى .

وقال محمد بن الفيض الغسانى : ثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى الغسانى حدثنى أبى عن جدى قال : لما نزل عبد الله بن على وحصر دمشق استغاث الناس بيحيى بن يحيى الغسانى فسأله الوليد بن معاوية أن يخرج ويطلب الأمان، فخرج فأجيب فاضطرب بذلك الصوت حتى دخل البلد وقال الناس : الأمان الأمان فخرج على ذلك من البلد خلق وأصعدوا إليهم المسودة، فقال يحيى بن يحيى لعبد الله بن على : اكتب لنا بالأمان كتابا، فدعا بدواة ثم رفع رأسه فإذا السور قد ركبته المسودة فقال : نح القرطاس فقد دخلنا قسرا، فقال له يحيى : لا والله ولكن غدرا لأنك أمنتنا فإن كان كما تقول فاردد رجالك عنا وردنا إلى بلدنا، فقال : والله لولا ما أعرف من مودتك إيانا أهل البيت وهدده وقال : أتستقبلنى بهذا! فقال : إن الله قد جعلك من أهل بيت الرحمة والحق، وأخذ يلاطفه، فقال : تنح عنى، ثم ندم عبد الله بن على وقال : يا غلام اذهب به إلى حجرى تخوفا عليه لمكان ثيابه البيض، وقد سود الناس كلهم، (1) ثم حمى له داره فسلم فيها خلق، وقتل بالبلد خلق لكن غالبهم من جند الأمويين وأتباعهم .

ثم سار عبد الله بن على إلى فلسطين وجهز أخاه صالحا ليفتح مصر وسير معه أبا عون الأزدى وعامر بن إسماعيل الحارثى وابن قنان، فساروا على الساحل، فافتتحوا الإقليم، وولى إمرة مصر أبو عون، وأما عبد الله بن على فإنه نزل على نهر أبى فطرس وقتل هناك من بنى أمية خاصة اثنين وسبعين نفسا صبرا . ولما رأى الناس جور المسودة وجبروتهم كرهوهم فثار الأمير أبو الورد مجزأة بن كوثر الكلابى أحد الأبطال بقنسرين وبيض وبيض معه أهل قنسرين كلهم، واشتغل عنهم عبد الله بن على بحرب حبيب بن مرة المرى بالبلقاء والثنية وتم له معه وقعات، ثم هادنه عبد الله وتوجه نحو قنسرين وخلف بدمشق أبا غانم عبد الحميد بن ربعى الطائى فى أربعة آلاف فارس، وسار فما بلغ حمص حتى انتقض عليه أهل دمشق وبيضوا ونبذوا السواد وكان رأسهم الأمير عثمان ابن عبد الأعلى بن سراقة الأزدى، فهزموا أبا غانم وأثخنوا فى أصحابه وأقبلت جميع الحلبيين وانضم إليهم الحمصيون وأهل تدمر، وعليهم كلهم أبو محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية السفيانى وصار فى أربعين ألفا

(1) لبسوا السواد وهو شعار العباسيين .

وأبو الورد كالوزير له ، فجهز عبد الله لحربهم أخاه عبد الصمد بن علي في عشرة آلاف ، فالتقى الجمعان واستمر القتل بالفريقين ، وانكشف عبد الصمد ، وذهب تحت السيف من جيشه ألوف ، وانتصر السفياني ، فقصده عبد الله بنفسه ومعه حميد بن قحطبة فالتقوا ، وعظم الخطب واستظهر عبد الله فثبت أبو الورد في خمسمائة فراحوا تحت السيف كلهم وهرب السفياني إلى تدمر ورجع عبد الله إلى دمشق وقد عظمت هيبته فتفرقت كلمة أهلها وهربوا فآمنهم وعفا عنهم وهرب السفياني إلى الحجاز وأضمرته البلاد إلى أن قتل في دولة المنصور، بعث إليه متولي المدينة زياد بن عبد الله الحارثي خيلا فظفروا به وقتلوه وأسروا ولديه فعفا عنهما المنصور وخلاهما .

ولما بلغ أهل الجزيرة هيج أهل الشام خلعوا السفاح أيضا وبيضوا وبيض أهل قرقيسيا ، فسار لحربهم أبو جعفر أخو السفاح فجرت لهم وقعات ، ثم انتصر أبو جعفر وحكم على الجزيرة وأذربيجان وأرمينية وضبط تلك الناحية إلى أن انتهت إليه الخلافة فخص أبو جعفر لما مهد ذلك القطر إلى خراسان إلى صاحب الدولة أبي مسلم ليأخذ رأيه في قتل وزير دولتهم أبي سلمة حفص بن سليمان الخلال ، وذلك أنه لم نزل عنده آل العباس بالكوفة حدثته نفسه فيما قيل أن يبايع رجلا من آل علي ويذر آل العباس ، وشرع يخفي أمرهم على القواد ، فبادروا وبايعوا السفاح كما ذكرنا فبايعه أبو سلمة الخلال وبقي متهما عندهم .

قال أبو جعفر : انتدبني أخي السفاح للذهاب إلى أبي مسلم فسرت راحلا فأتيت الري ومنها إلى مرو فلما كنت على فرسخين منها تلقاني أبو مسلم في الناس فلما دنا مني ترجل ومشى وقبل يدي فنزلت وأقمت ثلاثة أيام لا يسألني عن شيء ، ثم سألني فأخبرته قال : فعلها أبو سلمة أنا أكفيكموه فدعا مرار بن أنس الضبي فقال : انطلق إلى الكوفة فاقتل أبا سلمة حيث لقيته ، فأتى الكوفة فقتله بعد العشاء ، وكان يقال له : وزير آل محمد ، ولم رأى أبو جعفر عظمة أبي مسلم بخراسان وسفكه للدماء ورجع من عنده قال لأخيه أبي العباس : لست بخليفة إن تركت أبا مسلم حيا ! قال : كيف ؟ قال : والله ما يصنع إلا ما يريد ، قال : فاسكت واكتمها .

وأما الحسن بن قحطبة فإنه استمر على حصار يزيد بن عمر بن هبيرة بواسط وجرت بينهم حروب يطول شرحها ، ودام القتال والحصر أحد عشر شهرا ، فلما بلغهم قتل مروان الحمار ضعفوا وطلبوا الصلح ، وتفرغ أبو جعفر فجاء في جيش نجدة لابن قحطبة وجرت السفراء بين أبي جعفر وبين ابن هبيرة حتى كتب له أمانا ، مكث ابن هبيرة وهو يشاور فيه العلماء أربعين صباحا حتى رضيه ابن هبيرة وأمضاه السفاح ، وكان رأي أبي جعفر الوفاء به وكان السفاح لا يقطع أمرا ذا بال دون أبي مسلم ومشاورته ، وكان أبو الجهم عينا لأبي مسلم بحضرة السفاح ، فكتب أبو مسلم إليه إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد ، ولا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة ، وخرج ابن هبيرة إلى أبي جعفر وفي خدمته من خواصه ألف وثلاثمائة ، وهم أن يدخل الحجرة على فرسه فقام إليه الحاجب سلام وقال : مرحبا أبا خالد انزل ، وقد أطاف بالحجرة من الخراسانية عشرة آلاف فأدخله الحاجب وحده فحدثه ساعة ثم قام ، فلم يزل ينقص من كثرة الحشم حتى بقي في ثلاثة ، وألح السفاح على أبي جعفر

يأمره بقتله وهو يراجعه فلما زاد عليه أزمع على قتله وجاء خازم بن خزيمة والهيثم بن شعبة فختما بيوت الأموال التى بواسط، ثم بعث إلى وجوه من مع ابن هبيرة فأقبلوا وهم محمد بن نباتة وحوثرة بن سهيل وطارق بن قدامة وزياد بن سويد وأبو بكر بن كعب والحكم بن بشر فى اثنين وعشرين رجلا من وجوه القيسية، فخرج سلام الحاجب فقال : أين الحوثرة وابن نباتة؟ فقاما فأدخلا، وقد أقعد لهم فى الدهليز مائة فنزعت سيوفهما وكتفا، ثم طلب الباقون كذلك فأمسكوا، ثم ذبحوا صبرا. وبادر خازم والهيثم فى مائة فدخلوا على ابن هبيرة ومعه ابنه داود وكاتبه عمرو بن أيوب وحاجبه وعدة من مماليكه وبنى له فى حجره فأنكر نظرهم وقال : والله إن فى وجوههم الشر، فقصدوه، فقام صاحبه فى وجوههم وقال : تأخروا، فضربه الهيثم على حبل عاتقه فصرعه، وقاتلهم داود فقتل، وقتل غير واحد من المماليك فنحى الصغير من حجره ثم خر ساجدا لله فقتلوه، ثم قتلوا خالد بن سلمة المخزومى وأبا علاقة الفزارى صبرا، ووجه أبو مسلم الخراسانى محمد بن أشعث على إمرة فارس وأمره أن يضرب أعناق نواب أبى سلمة الخلال ففعل ذلك.

وفيها وجه السفاح عمه عيسى بن علىّ على فارس فغضب محمد بن أشعث وهم بقتله وقال : أمرنى أبو مسلم أن لا يقدم على أحد يدعى الولاية من عنده إلا ضربت عنقه، ثم إنه فكر وخاف من غائلة ذلك المقال واستحلف عيسى بن على على أن لا يعلو منبرا ولا يتقلد سيفا إلا وقت جهاد، فلم يل عيسى بعد ذلك عملا. ثم وجه السفاح عمه إسماعيل بن على على فارس وغضب من أبى مسلم ولكنه كان يعجز عنه، وبعث على الحجاز واليمن داود بن على، واستعمل على الكوفة ابن عمه عيسى بن موسى وتوطدت للسفاح الممالك.

* * *

سنة ثلاث وثلاثين ومائة
ذكر من توفى فيها من الأعيان

أيوب بن موسى الأموى المكى الفقيه، والحسن بن الحر الكوفى بدمشق، وداود بن على الأمير عم السفاح، وسالم أبو النضر فى قول أبى عبيد، وسعيد بن أبى هلال بمصر وقيل ١٣٥ وزيد بن أسلم بالمدينة فى آخر العام، وعمار الدهنى أبو معاوية بالكوفة، وعمر بن أبى سلمة بن عبد الرحمن فيها على الصحيح، وعياش بن عباس القتبانى بمصر، ومغيرة بن مقسم الضبى فيها على الصحيح، ومطرف بن طريف الكوفى، ويحيى بن العلاء أبو هارون الغنوى، ويحيى بن يحيى الغسانى فى قول، ويزيد بن أبى زياد فى قول.

وفيها استعمل السفاح على البصرة عمه سليمان بن على، ولما قدم داود بن على مكة أخذ من كان بالحجاز

من بنى أمية وقتلهم صبرا، فلم يمتع، وهلك واستخلف حين احتضر على عمله ولده موسى فاستعمل السفاح على مكة خاله زياد بن عبد الله، وعلى اليمن ابن خاله محمد بن زياد، فوجه زياد بن عبيد الله الأمير أبا حماد الأبرص إلى المثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة وهو باليمامة فأخذه وقتله وأصحابه.

* * *

وفيها وجه السفاح على أفريقية محمد بن الأشعث وكان أهلها قد عصوا فحاربهم حربا شديدا حتى استولى عليها.

وفيها خرج ببخارى شريك بن شيخ المهرى وكان قد نقم على أبى مسلم تجبره وعسفه وقال: ما على هذا تبعنا آل محمد، فالتف عليه نحو من ثلاثين ألفا فجهز أبو مسلم لحربه زياد بن صالح الخزاعى فظفر زياد به فقتله.

وفيها توجه أبو داود خالد بن إبراهيم إلى الختل فدخلها وهرب صاحبها فى طائفة حتى انتهى إلى أرض فرغانة ثم سار إلى أن دخل الصين.

وفيها قتل عبد الرحمن بن يزيد بن المهلب بن أبى صفرة.

وفيها خرج طاغية الروم قسطنطين - لعنه الله - فى جيوشه فنازل ملطية وألح عليهم بالقتال حتى أخذها بالأمان وهدم السور والجامع وبعث من يخفر أهلها إلى مأمنهم.

وفيها قتل عبد الله بن على خلقا من قواد بنى أمية منهم ثعلبة وعبد الجبار ابنا أبى سلمة بن عبد الرحمن.

* * *

سنة أربع وثلاثين ومائة

فيها توفى أسيد بن عبد الرحمن بالرملة، وإسماعيل بن محمد بن سعد، وإسماعيل بن أمية فيما قيل، وجعفر ابن ربيعة المصرى. قاله خليفة، وعبد الله بن عبد الله بن أبى طلحة، وعبد العزيز بن حكيم الحضرمى، وأبو هارون العبدى عمارة بن جوين، ومنصور بن جمهور بالهند، ويزيد بن يزيد بن جابر فى قول.

وفيها خلع الطاعة بسام بن إبراهيم الخراسانى وخرج معه طائفة فساقوا إلى المدائن، فوجه السفاح لحربهم خازم بن خزيمة فالتقوا فانهزم بسام وقتل أبطاله، ثم مر خازم بثلاثين من الحارثيين خؤولة السفاح فكلمهم فى أمر فاستخفوا به فضرب أعناق الكل، فأعظم ذلك اليمانية ودخل وجوههم على السفاح وصاحوا فهم السفاح بقتل



كلمتان تخرجان في صحيفتي يوم القيامة : لا إله إلا الله أو لعن الله فلانًا .

وقال بكار بن محمد : حضرت وفاة ابن عون فكان حين قُبض مرجَّهًا يذكر الله حتى غرغر، فقالت عمتي : اقرأ عنده (يس) فقرأتها ، ومات في السحر، وما قدرنا أن نصلي عليه حتى وضعناه في محراب المصلي غلبنا الناس عليه . ومات وعليه من الدين بضعة عشر ألفًا، وأوصى بعد وفاء دينه بخمس ماله إلى أبي يفرقه في أقاربه المحتاجين، ولم أره يشكو في علته .

قال بكار: وكانت ثياب ابن عون تمس ظهر قدميه .

وقال أبو قطن : رأيت بعض أسنان ابن عون مشدودة بالذهب .

وقال بكار بن محمد : كان ابن عون زوج عمتي أم محمد بنت عبد الله بن محمد بن سيرين ، ولما مات كفنوه في برد ثمنه مائتا درهم ، ولم يخلف درهمًا إنما خلف دارين ، قال : ومات في رجب سنة إحدى وخمسين ومائة ، وفيها أرخه يحيى القطان وأبو نعيم وجماعة ، وما عدا ذلك وهم .

قيل : سنة خمسين ومائة ومولده سنة ست وستين ، وكان يمكنه السماع من طائفة من الصحابة .

قال ابن سعد : كان أكبر من سليمان التيمي ، قال : وكان ثقة كثير الحديث ورعًا عثمانيًا .

وقال محمود بن غيلان : ثنا النضر بن شميل قال: كان رجل يلازم ابن عون فقيل له : بلغ حديث ابن عون ألفًا؟ قال: أضعف ، قيل : وألفين ، قال : أضعف ، قيل : فأربعة آلاف ، قال : أضعف ، قيل : ستة ، فسكت الرجل ، قال عمر بن حبيب : سمعت عثمان البتي يقول : ما رأت عيناي مثل ابن عون .

وروى عن ابن عون أن أمه نادته فَعَلا صوته صوتها فخاف فأعتق رقبتين .

وقال ابن المبارك : ما رأت عيني أحدًا بمن ذكر لي إلا رأيته دون ما ذُكر لي إلا ابن عون وحيوة بن شريح .

وقال يحيى بن يوسف الزمي : نا أبو الأحوص قال: كان يقال لابن عون : سيد القراء في زمانه .

قال ابن المديني : جمع لابن عون ما لم يجمع لأحد من أصحابه ، ولم يحدِّث إلا بعد موت أيوب ، كان يمتنع من الحديث فلما مات يونس بن عبيد ألح على ابن عون أصحاب الحديث فسلس وحدَّث .

وقال ابن سعد : أخبرنا بكار بن محمد حدثني بعض أصحابنا أن ابن عون كان له ناقة يغزو عليها ويحج عليها وكان بها معجبًا فأمر غلامًا له يستقي عليها فجاء بها وقد ضربها على وجهها فسالت عينها على خدِّها فقلنا : إن كان ابن عون يسيء فاليوم ، فلم يلبث أن نزل فلما نظر إلى الناقة قال : سبحان الله أفلا غير الوجه بارك الله فيك أخرج عني اشهدوا أنه حر.

وقال معاذ بن معاذ : حدثني غير واحد من أصحاب يونس بن عبيد أنه قال : إني لأعرف رجلاً منذ عشرين سنة يتمنى أن يسلم له يوما من أيام ابن عون فما يقدر عليه .

قال ابن المبارك : ما رأيت مصليًا مثل ابن عون .

قرأت على إسحاق بن أبي بكر أخبركم ابن خليل أنا أبو المكارم اللبان أنا أبو علي الحداد أنا أبو نعيم أنا أبو محمد بن حبان نا عبد الرحمن بن محمد بن حماد نا حفص الرياني أنا معاذ بن معاذ: سمعت هشام بن حسان يقول: حدثني من لم تر عيناي مثله، فقلت في نفسي: اليوم نستبين فضل الحسن وابن سيرين، قال فأشار بيده إلى ابن عون وهو جالس. وبه قال أبو نعيم: ثنا إبن خلاد ثنا الكديمي ثنا الخريبي قال: دخلت البصرة لألقي ابن عون فلما صرت إلى قناطر بني دارم تلقاني نعيه فدخلني ما الله به عليم.

قلت: ترجمته في «تاريخ دمشق» عشرون ورقة. ومات سنة إحدى وخمسين ومائة على الصحيح.

وقال ابن معين: سنة اثنتين.

وقال المنقري: مات سنة خمسين.

عبد الله بن عياس الهمداني

المتوف أبو الجراح. وكان أخباريًا علامة.

حمل عن الشعبي وغيره، وكان من أصحاب أبو جعفر المنصور.

أخذ عنه الهيثم بن عدي وجماعة.

قال الخطيب: توفي سنة ثمان وخمسين ومائة.

وفيها توفي **عوانة بن الحكم الأخباري**

فأما **عبد الله بن عياش القتباني المصري**

في الطبقة الآتية.

أبو جعفر المنصور

عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عياش القرشى الهاشمى العباسى.

أمير المؤمنين، وأمه سلامة البربرية.

ولد في سنة خمس وتسعين أو في حدودها.

وروى عن أبيه ورأى جده. وعنه ولده المهدي.

وكان قبل أن يلي الإمامة يقال له عبد الله الطويل، ضرب في الآفاق إلى الجزيرة والعراق وأصبهان وفارس قال أبو بكر الجعاني: كان المنصور يلعب في صغره بمدرك التراب. أتته البيعة بالخلافة بعد موت أخيه السفاح وهو بمكة بعهد السفاح لما احتضر إليه. فوليها اثنتين وعشرين سنة. وكان أسمر طويلاً نحيفًا مهيبًا خفيف العارضين معرق الوجه رحب الجبهة يخضب بالسواد كأن عينيه لسانان ناطقان، تخالطه أُبَّهة المُلك بزي النُّساك تقبله القلوب وتتبعه العيون، وكان أقنى الأنف بين القنا، وقد مر من أخباره في الحوادث ما يدل على أنه كان فحل بني العباس هيبة وشجاعة وحزمًا ورأيًا وجبروتًا، وكان جمَّاعًا للمال، تاركًا للهو، واللعب، كامل العقل،

جيد المشاركة في العلم والأدب، فقيه النفس، قتل خلقًا كثيرًا حتى استقام ملكه. وكان في الجملة يرجع إلى عدل وديانة وله حظ من صلاة وتدين، وكان فصيحًا بليغًا مفوهًا، خليقًا للإمارة.

وقد ولي بعض كور فارس في شبيبته لعاملها سليمان بن حبيب بن المهلب الأزدي ثم عزله وضربه ضربًا مبرحًا لكونه احتجز المال لنفسه ثم أغرمه المال، فلما ولي المنصور الخلافة ضرب عنقه.

وكان المنصور يُلقَّب أبا الدوانيق لتدقيقه ومحاسبته العمال والصناع على الدوانيق والحبات، وكان مع هذا ربما يعطي العطاء العظيم.

قال أبو إسحاق الثعالبي: وعلى شهرة المنصور بالبخل ذكر محمد بن سلام أنه لم يعط خليفة قبل المنصور عشرة آلاف ألف دارت بها الصكاك وثبتت في الدواوين فإنه أعطي في يوم واحد كل واحد من عمومته عشرة آلاف ألف درهم.

قلت: وقد حدَّث عن عطاء بن أبي رباح يسيرًا. وقد خلف يوم مات في بيوت الأموال تسعمائة ألف ألف درهم وخمسين ألف ألف درهم.

وروى يحيى بن غيلان ـ ثقة ـ نا أبو عوانة عن الأعمش عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: (منا السفاح ومنا المنصور).

وقال علي بن الجعد وأبو النضر: نا زهير بن معاوية، نا ميسرة بن حبيب عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير سمع ابن عباس يقول: (منا السفاح ومنا المنصور ومنا المهدي) فهذا إسناده صالح والذي قبله منكر وهو منقطع ويروى نحوه بإسناده أخرجه عن المنهال.

قال أبو سهل بن علي بن نوبخت: كان جدنا نوبخت المجوسي نهاية في التنجيم فسجن بالأهواز فقال: رأيت أبا جعفر وقد أدخل السجن فرأيت من هيبته وجلالته وحسن وجهه ما لم أره لأحد فقلت له: وحق الشمس والقمر إنك لمن ولد صاحب المدينة، قال: لا ولكني من عرب المدينة، قال: فلم أزل أتقرب إليه وأخدمه حتى سألته عن كنيته فقال: أبو جعفر فقلت: وحق المجوسية لتملكن، قال: وما يدريك؟ قلت: هو كما أقول فاذكر هذه البشرى، قال: إن قُضي شيء فسيكون، قلت: قد قضاه الله من السماء فقدمت دواة فكتب لي: يا نوبخت إذا فتح الله ورد الحق إلى أهله لم تغفل عنك وكتب أبو جعفر، فلما استخلف صرت إليه فأخرجت الكتاب فقال: أنا له ذاكر ولك متوقع فالحمد لله. فأسلم نوبخت فكان منجمًا لأبي جعفر ومولى.

قال إبراهيم بن عبد الصمد بن موسى بن محمد الهاشمي: حدثني أبي نا أبي عن أبيه قال: قال لنا المنصور: رأيت كأني في الحرم وكأن رسول الله ﷺ في الكعبة وبابها مفتوح فنادى مناد «أين عبد الله» فقام أخي أبو العباس حتى صار على الدرجة فأدخل فما لبث أن خرج ومعه عباءة عليها لواء أسود قدر أربعة أذرع، ثم نودي «أين عبد الله» فقمت إلى الدرجة فأصعدت وإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وبلال فعقد لي وأوصاني بأمته وعممني بعمامة وكان كورها ثلاثة وعشرين وقال: (خذها إليك أبا الخلفاء إلى يوم القيامة).

وقال الربيع بن يونس الحاجب : سمعت المنصور يقول : الخلفاء أربعة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، والملوك : معاوية وعبد الملك وهشام وأنا .

قال شباب : أقام الحج للناس أبو جعفر سنة ست وثلاثين ، وسنة أربعين وسنة أربع وأربعين ، وسنة اثنتين وخمسين [ومائة] ، زاد الفسوي : أنه حج أيضًا سنة سبع وأربعين ومائة .

قال أبو العيناء : نا الأصمعي أن المنصور صعد المنبر فشرع في الخطبة فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين اذكر من أنت في ذكره .. فقال له : مرحبًا لقد ذكرت جليلاً وخوّفت عظيمًا وأعوذ بالله أن أكون ممن إذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم ، والموعظة منا بدت وعنا خرجت وأنت يا قائلها فأحلف بالله ما الله أردت إنما أردت أن يقال قام فقال فعوقب فصبر فأهون بها من قائلها وأهتبلها من الله ويلك إني قد غفرتها ، وإياكم معشر الناس وأمثالها ثم عاد إلى خطبته وكأنما يقرأ من كتاب .

وقال الزبير: حدثني مبارك الطبري سمعت أبا عبيد الله الوزير سمع المنصور يقول : الخليفة لا يصلحه إلا التقوى ، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة والرعية لا يصلحها إلا العدل ، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة وأنقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه .

قال الفريابي محمد بن يوسف : قال عباد بن كثير لسفيان : قلت لأبي جعفر: أتؤمن بالله ، قال : نعم ، قلت : فحدثني عن الأموال التي اصطفيتموها من بني أمية ، فوالله لئن كانت صارت إليهم ظلمًا وغصبًا لما رددتموها إلى أهلها الذين ظلموا ، ولئن كانت لهم لقد أخذتم ما لا يحل لكم ، إذا دعيت يوم القيامة بنو أمية بالعدل جاءوا بعمر بن عبد العزيز، فإذا دعيتم أنتم لم تجيئوا بأحد ، فكن أنت ذلك الأحد ، فقد مضت من خلافتك ست عشرة سنة وما رأينا خليفة بلغ اثنتين وعشرين سنة ، فهبك تبلغها فما ست سنين ، قال : يا أبا عبد الله ما أجد أعوانًا ، قلت : علي عونك بغير مرزئة أنت تعلم أن أبا أيوب الموريانى يريد منك كل عام بيت مال ، وأنا أجيئك بمن يعمل بغير رزق آتيك بالأوزاعي تقلده كذا وبالثوري تقلده كذا ، وأنا بينك وبين الناس أبلغك عنهم وأبلغهم عنك ، فقال : حتى أستكمل بناء بغداد ، فأخرج إلى البصرة وأوجه إليك . فقال له سفيان الثوري : ولم ذكرتني له؟ قال : والله ما أردت إلا النصح للأمة ، ثم قال لسفيان : ويل لمن دخل عليهم اذا لم يكن كبير العقل كثير الفهم كيف تكون فتنته عليهم وعلى الأمة .

ويقال إن عمرو بن عبيد رأس المعتزلة دخل على المنصور ووعظه ، فبكى المنصور وقال : يا أبا عثمان هل من حاجة - وكان يدني عمرًا ويكرمه ويجله - قال : نعم ، قال : وما هي؟ قال لا تبعث إليّ حتى آتيك . قال : إذن لا نلتقي ، قال : عن حاجتي سألتني : ثم نهض فلما ولى أمده بصره وهو يقول :

كلكم يمشي رويد * كلكم يطلب صيد
غير عمرو بن عبيد

قال عبد السلام بن حرب: أمر له بمال فرده، فقال المنصور: والله لتقبلنه، قال: والله لا أقبله. فقال له المهدي: أمير المؤمنين يحلف فتحلف!

قال: أمير المؤمنين أقوى على الكفارة من عمك.

أبو خليفة: نا محمد بن سلام قال: قيل للمنصور هل بقي من لذات الدنيا شيء لم تنله؟ قال: بقيت خصلة: أن أقعد في المصطبة وحولي أصحاب الحديث فيقول المستملي: من ذكرت رحمك الله. قال فغدا عليه الندماء وأبناء الوزراء بالمحابر والدفاتر، فقال: لستم بهم إنما هم الدنسة ثيابهم، المشققة أرجلهم، الطويلة شعورهم برد الآفاق ونقلة الحديث.

الصولي: ثنا أحمد بن يحيى عن محمد بن إسماعيل عن أبيه قال: قال عبد الصمد بن علي للمنصور: يا أمير المؤمنين لقد هممت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو؛ قال: لأن بنى أمية لم تبل رممهم. وآل أبي طالب لم تغمد سيوفهم، ونحن بين قوم قد رأونا أمس سوقة، واليوم خلفاء، فليس تتمهد هيبتنا في صدورهم إلا بنسيان العفو.

وروى عن هشام بن عروة دخل على المنصور فقال: يا أمير المؤمنين اقض عني ديني، قال: فكم دينك؟ قال: مائة ألف. قال: وأنت في فقهك وفضلك تأخذ مائة ألف ليس عندك قضاؤها! قال: شب فتيان لي فأحببت أن أبوئهم وخشيت أن ينتشر عليَّ من أمرهم ما أكره فبوأتهم واتخذت لهم منازل وأولمت عنهم ثقة بالله وبأمير المؤمنين، قال فردد عليه: مائة ألف! استنكارًا لها، ثم قال: قد أمرنا لك بعشرة آلاف، فقال: يا أمير المؤمنين أعطني ما تعطي وأنت طيب النفس فإني سمعت أبي يحدث عن النبي ﷺ قال: (من أعطى عطية وهو بها طيب النفس بورك للمعطي والمعطى) قال: فإني طيب النفس بها، فأهوى هشام إلى يد المنصور يقبلها فمنعه وقال: إنا نكرمك عنها ونكرمها عن غيرك.

وروي عن الربيع قال: لما مات المنصور دُرْنا في الخزائن أنا والمهدي فرأينا في بيت أربعمائة جب مسدودة الرؤوس فإذا فيها أكباد مملحة أعدها للحصار.

وذكر الرياشي عن محمد بن سلام أن جارية رأت قميصًا للمنصور مرقوعًا فأنكرت ذلك فقال: ويحك أما سمعت قول ابن هرمة:

قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه * خلق وجيب قميصه مرقوع

وروى عمر بن شبة عن المدائني وغيره أن المنصور لما احتضر قال: اللهم إني قد ارتكبت الأمور العظام جرأة مني عليك وقد أطعتك في أحب الأشياء إليك شهادة أن لا إله إلا الله منًّا منك لا منًّا عليك ومات. وقد كان المنصور رأى منامًا يدل على قرب الأجل فتهيأ وسار للحج.

قال هشام بن عمار: نا الهيثم بن عمران أن المنصور مات بالبطن بمكة.

وقال خليفة والهيثم وغيرهما: عاش أربعًا وستين سنة.

وقال الصولي: دفن ما بين الحجون وبئر ميمون في ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة.

عبد الله بن محمد بن عمر (د) (ت)

ابن علي بن أبي طالب أبو محمد العلوي المدني.

روى عن أبيه وخاله أبي جعفر الباقر.

وعنه ابنه عيسى وابن المبارك وابن أبي فديك والواقدي وغيرهم.

وقال علي بن المديني: هو وسط، وقد روى أيضًا عن عاصم بن عبيد الله العمري وعن أمه خديجة بنت زين العابدين، وكان لقبه دافن.

قال بعض الحفاظ: صالح الحديث، مات بدمشق في آخر خلافة المنصور، وابنه عيسى واه.

عبد الله بن المحرر الحراني (ق)

قاضي الجزيرة. عن الحسن البصري ونافع وقتادة.

وعنه بقية وأبو نعيم ومحمد بن حمير ويحيى البابلتي وغيرهم.

قال أحمد بن حنبل: ترك الناس حديثه. ومن مفارده عن قتادة عن أنس أن النبي ﷺ عق عن نفسه بعد النبوة.

عبد الله بن نافع العدوي (ق)

مولى ابن عمر. مدني واه، له إخوة.

ضعّفه ابن معين وغيره. روى عن أبيه وعبد الله بن دينار.

وعنه عبد الله بن نافع الصائغ وابن أبي فديك وأبو داود الطيالسي وآخرون.

توفي سنة أربع وخمسين ومائة.

عبد الله بن النعمان الجهضمي الحداني

عن عكرمة. وعنه حفيده علي بن نصر ونوح بن قيس وأبو قتيبة سلم.

عبد الله بن الوليد (ن) (ت)

ابن عبد الله بن معقل بن مقرن المزني الكوفي.

وقد يقال له العجلي لنزوله فيهم.

روى عن أبي جعفر الباقر وأبي صخرة جامع بن شداد وعاصم بن كليب وبكير بن شهاب.

وعنه ابن المبارك وابن عيينة وأبو نعيم وأبو أحمد الزبيري وجماعة.

وثّقه النسائي.

وقال أبو حاتم: صالح الحديث.

الكُنَى

أبو بكر بن نافع (م) (د) (ن)

مولى ابن عمر. روى عن أبيه وسالم بن عبد الله.

وعنه مالك والدراوردى.

قال أحمد بن حنبل: هو أوثق إخوته وهم: هو وعبد الله وعمرو.

أبو الجحاف التميمى (ت) (ن) (ق)

الكوفى داود بن أبى عوف.

روى عن الشعبى وعكرمة وأبى حازم الأشجعى وشهر بن حوشب.

وعنه سفيان وشريك وعبد السلام بن حرب وتليد بن سليمان وغيرهم.

قال أحمد بن حنبل: صالح الحديث. وضعفه ابن عدى ومشّاه غيره.

أبو الجودى الأسدى (د)

شامى نزل واسط يقال اسمه الحارث بن عمير.

عن سعيد بن المهاجر وعمر بن عبد العزيز ونافع.

وعنه شعبة وعبثر وهشيم وأبو معاوية. وثّقه ابن معين.

أبو حمزة القصاب (ت) (ق)

الكوفى الأعور، اسمه ميمون.

روى عن أبى وائل وسعيد بن المسيب وإبراهيم.

وعنه الثورى والحمادان وعبد الوارث وابن عُلَيَّة.

ضعفه أحمد والدارقطنى وغيرهما.

أما أبو حمزة القصاب عمران، فقد مر.

أبو رجاء الأزدى الحدانى البصرى

هو محمد بن سيف.

أبو ريحانة السعدى (م) (د) (ت) (ق)

الاهم البصرى عبد الله بن مطر، ويقال زياد بن مطر.

روى عن سفينة وابن عباس وابن عمر.

وعنه وهيب وبشر بن المفضل وابن علية وعلي بن عاصم.
قال ابن معين: صالح.

أبو الزغراء الجشمي عمرو

قد مر.

أبو الزناد المدني

هو عبد الله بن ذكوان قد ذكر.

أبو سهيل بن مالك الأصبحي

هو نافع قد ذكر.

أبو طوالة

هو عبد الله بن عبد الرحمن قد ذكر.

أبو ظلال القسملي البصري (خ) (ن)

الأعمى، اسمه هلال. روى عن أنس.
وعنه حماد بن سلمة وعبد العزيز بن مسلم ويزيد بن هارون.
ضعفه ابن معين وجماعة.

أبو العلاء القصاب

اسمه أيوب، قد ذكر.

أبو غالب الباهلي (د) (ت) (ق)

الخياط. بصري اسمه نافع وقيل رافع. روى عن أنس وغيره.
وعنه سلام بن أبي الصهباء وهمام وعبد الوارث وغيرهم.
قال ابن معين: صالح. وقال أبو حاتم: شيخ.
قلت: الظاهر أنه هو الذي روى عن أبي سعيد، وعنه ثابت بن محمد العبدي فالله أعلم.

أبو فروة الجهني

اسمه مسلم. مر.

أبو فروة الهمداني

عروة بن الحارث. مر.

أبو مسلم الخراساني

صاحب الدعوة [للعباسيين] عبد الرحمن بن مسلم، وقيل عبد الرحمن بن عثمان بن يسار.

ذكر ابن خلكان أنه كان قصيرا أسمر جميلا حلوا نقى البشرة أعور العين عريض الجبهة حسن اللحية طويل الشعر والظهر خافض الصوت فصيحا بالعربى والفارسى حلو المنطق راوية للشعر عالما بالأمور لم ير ضاحكا ولا مزحا إلا فى وقته، ولا يكاد يقطب فى شىء من أحواله، تأتيه الفتوحات العظام فلا يظهر عليه أثر السرور وتنزل به الفادحة فلا يرى مكتئبا وإذا غضب لم يستفزه الغضب ولا يأتى النساء إلا مرة فى السنة.

ولد سنة مائة من الهجرة وأول ظهوره بمرو كان فى سنة تسع وعشرين فظهر فى خمسين رجلا وآل أمره إلى أن هرب منه نصر بن سيار أمير خراسان وصـ... ـها لأبى مسلم فى سنتين وأربعة أشهر.

قال محمد بن أحمد بن القواس فى تاريخه: قدم أبو مسلم وحفص بن سليمان الخلال على إبراهيم الإمام وهو بالحميمة فأمرهما بالمصير إلى خراسان.

وقد روى أبو مسلم عن عكرمة مرسلا وعن ثابت البنانى وأبى الزبير وإسماعيل السدى ومحمد بن على العباسى وجماعة.

روى عنه إبراهيم الصائغ وابن شبرمة وابن المبارك وغيرهم.

روى مصعب بن بشر عن أبيه قال: قام رجل إلى أبى مسلم وهو يخطب فقال: ما هذا السواد؟ قال: حدثنى أبو الزبير عن جابر أن النبى ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء، وهذه ثياب الهيبة وثياب الدولة، يا غلام أضرب عنقه.

ويروى أن سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم ولاهز وقحطبة توجهوا من خراسان إلى الحج سنة أربع وعشرين فدخلوا الكوفة فأتوا عاصم بن يونس وهو فى الحبس فدعاهم إلى ولد العباس ومعه عيسى وإدريس ابنا معقل حبسهم يوسف بن عمر فيمن حبس من عمال خالد القسرى ومع هذين الأخوين أبو مسلم يخدمهما فرأوا فيه العلامات فقالوا: من ذا؟ قالوا: غلام من السراجين يخدمنا، وقد كان أبو مسلم سمع الأخوين يتكلمان فى هذا الرأى فإذا سمعهما بكى فدعوه إلى القيام بالأمر فأجاب.

قال ابن خلكان: كانا قد حبسا على مال الخراج وعيسى هو جد الأمير أبى دلف فكان أبو مسلم يختلف إلى الحبس يتعهدهما فقدم الكوفة جماعة من نقباء الإمام محمد بن على فدخلوا يسلمون على الأخوين فرأوا أبا مسلم فأعجبهم عقله وكلامه ومال هو إليهم ثم عرف أمرهم ودعوتهم وهرب الأخوان من الحبس فصحب هو النقباء إلى مكة ثم أحضروا عشرة آلاف دينار ومائتى ألف درهم إلى إبراهيم بن محمد وقد مات أبوه وأهدوا له أبا مسلم فأعجب به وقال لهم: هذا عضلة من العُضَل، فأقام يخدم إبراهيم الإمام وعاد النقباء إلى خراسان فقال إبراهيم: إنى قد جربت هذا وعرفت ظاهر كلامه وباطنه فوجدته حجر الأرض ثم قلده الأمر ونفذه إلى خراسان.

قال المأمون: أصل الملوك ثلاثة قاموا بنقل الدول: الإسكندر وأزدشير وأبو مسلم من ولد بزرجمهر، ولد بأصبهان ونشأ بالكوفة، أوصى به أبوه إلى عيسى السراج فحمله إلى الكوفة وهو ابن سبع سنين فقال إبراهيم لما عزم على توجهه إلى خراسان: غير اسمك وكان إسمه إبراهيم بن عثمان، فقال: قد سميت نفسى أبا مسلم

عبد الرحمن بن مسلم ، ثم مضى وله ذؤابة وهو على حمار وله تسع عشرة سنة .

وعن بعضهم قال : كنت أطلب العلم فلا آتي موضعا إلا وجدت أبا مسلم قد سبقني إليه فألفته فدعاني إلى منزله ثم لاعبني بالشطرنج وكان يلهج بهذين البيتين :

ذروني ذروني مـا قـررت فإنني * متى مـا أهج حـربـا تضيق بكم أرضي
وأبعث في سـود الحديـد إليكم * كتائب سودا طالما انتظرت نهضي

قال على بن عثَّام : قال إبراهيم الصائغ : لما رأيت العرب وضيعتها خفت أن لا تكون لله فيهم حاجة فلما سلط الله عليهم أبا مسلم رجوت أن تكون لله فيهم حاجة .

وقال حسن بن رشيد : سمعت يزيد النحوى يقول : أتاني إبراهيم الصائغ فقال : أما ترى ما يعمل هذا الطاغية إن الناس معه في سعة غيرنا أهل العلم قلت : لو علمت أنه يصنع بي إحدى الخصلتين لفعلت إن أمرت ونهيت يقبل منا أو يقتلنا ولكني أخاف أن يبسط عليَّ العذاب وأنا شيخ كبير لا صبر لي على السياط ، فقال الصائغ : لكني لا أنتهي عنه فدخل عليه فأمره ونهاه فقتله .

وقيل : كان أبو مسلم يجتمع بإبراهيم الصائغ وهو عالم أهل مرو ويعده بإقامة الحق ، فلما ظهر بسط يده يعني في القتل فدخل عليه فوعظه .

وقد ذكرنا جملة من أخبار أبي مسلم في الحوادث وكيف قتله المنصور ، وكان ذلك في سنة سبع وثلاثين بالمدائن .

أبو نُصَيْرة الواسطى (د) (ت)

مسلم بن عبيد . عن أنس وأبي عسيب وأبي رجاء العطاردي .

وعنه حشرج بن نباتة وسويد بن عبد العزيز وهشيم ويزيد بن هارون .

وثَّقه أحمد بن حنبل . وقال ابن معين : صالح ، ولينه الأزدي .

له في الجامع والسنن هذا الحديث فقط : قال عثمان بن واقد عن أبي نصيرة عن مولى لأبي بكر عن أبي بكر قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يضر من استغفر الله ولو عاد في اليوم سبعين مرة » .

وقال الترمذي : ليس إسناده بالقوي .

أبو هارون العَبْدِيُّ

عمارة بن جوين . قد مر .

آخر الطبقة الرابعة عشرة . والحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا

حدَّث عن: محمد بن المنكدر، وزيد بن أسلم، وحصين بن عبد الرحمن الأشهلي الأسدي، ومسلمة بن أبي مريم.

وعنه: زيد بن الحباب، وعبد الرحمن بن أبي الجون، وأبو ثابت محمد بن عبد الله، وعبد العزيز الأويسي، وغيرهم.

وثَّقه ابن حبان.

محمد بن طلحة بن مصرِّف اليامي، الكوفي (خ) (م) (د) (ت) (ق)

أحد العلماء الثقات.

روى عن: أبيه، والحكم، وسلمة بن كهيل، وزبيد اليامي، وعدة.

وعنه: عبد الرحمن بن مهدي، وأسد بن موسى، وحسان بن حسان البصري، وجبارة بن المغلس، وعون بن سلام، ومحمد بن بكار بن الريان، وآخرون.

قال أبو زرعة: صدوق.

وقال النسائي: ليس بالقوي. وقال ابن معين: ضعيف.

وقال المتروكون ثلاثة: محمد بن طلحة، وأيوب بن عتبة، وفليح. قلت: مات سنة سبع وستين ومائة.

قال أحمد: صالح الحديث، ثقة، لا يكاد يقول: حدَّثنا.

محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير بن قتادة الليثي

ويعرف بمحمد المُحْرِم.

روى عن: أبيه، وعطاء، وابن أبي مليكة، وعمرو بن شعيب.

وعنه: معن بن عيسى، والنفيلي، وسعيد بن أبي مريم، وعبد العزيز بن محمد، وداود بن عمرو الضبي، وآخرون.

ضعَّفه أبو حاتم. وقال أبو زرعة: ليس بقوي.

وقال ابن معين: ليس حديثه بشيء. وقال أبو بشر الدولابي، مكي متروك الحديث.

وقال البخاري: ليس بذاك القوي.

محمد بن عبد الله بن علاثة القاضي (د) (س) (ق)

وعلاثة عن ابن علقمة بن مالك العقيلي الجزري، أبو اليسير، من كبار العلماء.

سمع: عبد الكريم الجزري، وخصيفًا، وعلي بن بذيمة، وعبدة بن أبي لبابة، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، وطائفة.

وعنه: ابن المبارك، ووكيع، وحرمي بن حفص، وعبد العزيز الأويسي، وعمرو بن الحصين، وآخرون.

قال خليفة: ولي القضاء للمهدي.

وقال ابن سعد: كان ثقة إن شاء الله، وكان من أهل حران، قدم بغداد، وولي القضاء بعسكر المهدي، ثم ولي معه عافية القاضي، فأخبرني علي بن الجعد قال: رأيتهما يقضيان في جامع الرصافة جميعًا، وكان عافية أكثرهما دخولاً على المهدي.

وقال البخاري: يكنى أبا اليسير، في حفظه نظر.

وروى عباس، عن ابن معين: ثقة.

وأخوه: سليمان بن علاثة ثقة، يروي عنه معمر.

وأخوهما: أبو سهل بن علاثة ثقة، يروي عنه هاشم بن القاسم.

وروى الدارمي، عن ابن معين: محمد بن علاثة: ثقة.

وقال أبو حاتم: لا يحتج به. وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به.

وقال أبو زرعة: صالح الحديث. وقال ابن حبان: يروي الموضوعات.

وقال أبو الفتح الأزدي: قال البخاري: في قوله نظر، ولي يُقنع بهذا من البخاري، محمد بن علاثة حديثه يدل على كذبه، هو عندي واهٍ.

قال الخطيب عقيبها: أحسب الأزدي وقعت إليه روايات عمرو بن الحصين، عن ابن علاثة، فلأجلها نسبه إلى الكذب، والآفة من ابن الحصين، فإنه كذاب.

عن أبي ميسرة الحداني قال: اختصمت الجن والإنس إلى ابن علاثة في بئر، ولم ير الجن، لكن سمع كلامهم، فحكم أن الإنس يستقون من الفجر إلى المغرب، وحكم للجن أن يستقوا من المغرب إلى الفجر، فكان من استقى بعد المغرب رجم بالحجارة.

وقال علي بن سراج المصري: كان ابن علاثة يقال له: قاضي الجن، ثم ذكر البئر وأنها بئر بين حران وحصن مسلمة.

مات سنة ثمانٍ وستين ومائة.

وقال علي بن الجعد: أظنه مات سنة ثلاث وستين. وقال غيره: ولي قضاء الجانب الشرقي للمهدي.

المهدي

أمير المؤمنين، أبو عبد الله، محمد بن الخليفة أبي جعفر المنصور، عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، العباسي، الخليفة الثالث من بني العباس.

مولده بإيذَج في سنة سبع وعشرين ومائة.

وقال الحطبي : ولد سنة ست وعشرين ومائة في جمادي الآخرة، وأمه، أم موسى بن منصور، الحميرية.

وكان جوادًا ممدحًا مليح الشكل، محببًا إلى الرعية، قصابًا للزنادقة.

روى عن: أبيه، وعن مبارك بن فضالة.

حدَّث عنه: يحيى بن حمزة، وجعفر بن سليمان الضبعي، ومحمد بن عبد الله الرقاشي، وأبو سفيان سعيد ابن يحيى الحميري.

وما علمت قيل فيه جرحًا، ولا توثيقًا.

وقد روى منصور بن أبي مزاحم، ومحمد بن يحيى بن حمزة، عن يحيى بن حمزة قال: صلى بنا المهدي، فجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، فقلت يا أمير المؤمنين: ما هذا؟ قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن جده، عن ابن عباس: أن النبي ﷺ جهر ببسم الله الرحمن الرحيم، فقلت للمهدي: نأثره عنك؟ قال: نعم.

هذا إسناد متصل، لكن ما علمت أحدًا احتج بالمهدي ولا بأبيه في الأحكام.

تفرَّد محمد بن الوليد مولى بني هاشم.

وقال ابن عدي: كان يضع الحديث ـ قال: ثنا أسباط بن محمد، وصلة بن سليمان، عن سليمان التيمي، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن عثمان مرفوعًا: «المهدي من ولد العباس عمي».

وخرَّج أبو داود والترمذي من حديث عاصم بن بهدلة، عن زر، عن ابن مسعود، مرفوعًا: «المهدي يواطيء اسمه اسمي، و اسم أبيه اسم أبي» صححه الترمذي.

ومن المناكير الواهيات خبر فضيل بن مرزوق، عن ميسرة بن حبيب، عن المنهال، عن سعيد، عن ابن عباس، قوله: «منا المنصور، ومنا السفاح والمهدي» إسناده صالح.

- ولما شب المهدي، أمَّره أبوه على طبرستان وما يليها، وعلى الري، وتأدب وجالس العلماء وتميز.

ثم إن أباه غرم أموالاً عظيمة، وتحيل حتى استنزل ولي العهد ولد أخيه عيسى بن موسى عن المنصب، وولاه المهدي، فلما مات المنصور بظاهر مكة قبل الحج قام بأخذ البيعة الربيع بن يونس الحاجب، وأسرع بالخبر إلى المهدي فولاه منارة البربري وهو ببغداد، فكتم الأمر يومين، ثم خطب الناس، ونعى إليهم المنصور.

قال ابن أبي الدنيا: كان أسمر، مضطرب الخلق، على عينه نكتة بياض.

وقال الخطيب: كان أسمر طويلاً جعدًا، فأول من هنأ المهدي بالخلافة وعزاه، أبو دلامة وأجاد:

عيناي واحدة ترى مسرورة * بأميرها جذلي، وأخرى تذرف
تبكي وتضحك تارة، يسوءها * ما أنكرت ويسرها ما تعرف

فيسؤها موت الخليفة مُحْرِمًا * ويسرها أن قام هذا الأرأف
ما إن رأيت كما رأيت ولا أرى * شعرًا أسرحه وآخر ينتف
هلك الخليفة يا لدين محمد * وأتاكم من بعده من يخلف
أهدى لهذا الله فضل خلافة * ولذاك جنات النعيم تزخرف

ومن خطبة المهدي:

إن أمير المؤمنين عبد دعي فأجاب، وأمر فأطاع، واغرورقت عيناه فقال: وقد بكي رسول الله ﷺ عند فراق الأحبة، ، ولقد فارقت عظيمًا، وقُلِّدت جسيمًا، فعند الله أحتسب أمير المؤمنين، وبه أستعين على خلافة المسلمين.

قال الأصمعي: كان نقش خاتم المهدي: «الله ثقة محمد، وبه يؤمن»

وروى أبو العيناء، عن سلمة بن عدي. أن المهدي قال في خطبته.

أيها الناس: أسروا مثل ما تعلنون من طاعتنا نهبكم العافية وتحمدوا العاقبة واخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدلته فيكم وطوى الإصر عنكم، وأهال عليكم السلامة من حيث رآه مقدمًا ذلك، والله لأفنين عمري بين عقوبتكم والإحسان إليكم.

قال منارة: فرأيت وجوه الناس تشرق فرحًا.

قال نفطويه: أخبرني أبو العباس المنصوري قال: لما حصلت الخزائن في يد المهدي، أخذ في رد المظالم، فأخرج أكثر الذخائر ففرقها، وبر أهله ومواليه.

قلت: كان أبوه جمع من الأموال ما لا يُعبَّر عنه، وكان مسيكًا [بخيلا].

فذكر عن الربيع الحاجب أنه قال: مات المنصور وفي بيت المال مائة ألف ألف درهم، وستون ألف ألف درهم، فقسم ذلك المهدي وأنفقه وكانت نفقة المنصور ما يجيئه من مال الشراة نحو ألفي درهم في السنة.

قلت: وزن ذلك المال بالقنطار الدمشقي ألف قنطار وستمائة قنطار وسبعون، وإذا صرف بها ذهب مصري، جاء أزيد من مائة قنطار وسبعين قنطارًا.

وعن صالح المري قال: دخلت على المهدي بالرصافة فقلت:

أجهل قولي يا أمير المؤمنين فإنَّ أولى الناس بالله أحملهم لغلظة النصيحة فيه، وجدير من له قرابة رسول الله ﷺ أن يرث أخلاقه ويأتم بهديه، وقد ورَّثك الله من فهم العلم وإنارة الحجة ميراثًا قطع بعد عذرك، فمهما ادعيت من حجة، أو ركبت من شبهة، لم يصح لك برهان من الله، فيها حل بك من سخط الله بقدر ما تجاهلته من العلم، وأقدمت عليه من شبه الباطل، واعلم أن رسول الله ﷺ خصم من خالفه، وأثبت الناس قدمًا يوم القيامة، آخذهم بالكتاب والسنة، فمثلك لا يكابر بتجريد المعصية، لكن بمثل الإساءة إحسانًا، ويشهد له

عليها خونة العلماء، فهذه الخبالة تصيدت الدنيا نظرتك فأحسن الجهل، فقد أحسن من وعظك الأداء.

قيل: قبّل رجل يد المهدي وقال: يدك يا أمير المؤمنين أحق بالتقبيل لعلوها بالمكارم، وطهارتها من المآثم، وإنك ليوسفي العفو، إسماعيلي الصدق، شعيبي الرفق، فمن أرادك بسوء جعله الله طريد خوفك، حصيد سيفك.

وأثنى عليه بالشجاعة فقال: ومالي لا أكون شجاعًا وما خفت أحدًا إلا الله.

وروى ابن أبي الدنيا: أن المهدي كتب إلى الأمصار يزجر أن يتكلم أحد من أهل الأمراء في شيء منها.

وعن يوسف قال: لما ولي المهدي رفع أهل البدع رؤوسهم وأخذوا في الجدل، فأمر أن يمنع الناس من الكلام، وأن لا تخاض في شيء منه، فانقمعوا. وقال داود بن رشيد: سمعت سلمًا الحاجب يقول: هاجت ريح سوداء، فخفنا أن تكون الساعة، وطلبت المهدي في الإيوان فلم أجده، ثم سمعت حركة في بيت، فإذا هو ساجد على التراب يقول: اللهم لا تشمت بنا أعداءنا من الأمم، ولا تفجع بنا نبينا، اللهم وإن كنت أخذت العامة بذنبي فهذه ناصيتي بيدك، فما أتم كلامه حتى انجلت.

عمر بن شبّة، عن الضحاك: أن المهدي قدم البصرة، فكان يصلي بنا، فقام أعرابي فقال: يا أمير المؤمنين، مُر المؤذن لا يقيم حتى أتوضأ، فأمر به، فتعجبوا من أخلاق المهدي.

قال الأصمعي: سمعت المهدي على المنبر يقول: إن الله أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه، وثنّى بملائكته فقال: ﴿إن آلله وملائكته يصلون على آلنبي﴾.

قال المدائني: دخل رجل على المهدي فقال: إن المنصور شتمني وقذف أمي، فإما أمرتني أن أجلده، وإما عوضتني فاستغفرت له. قال: ولم شتمك؟ قال شتمت عدوه بحضرته فغضب.

قال: ومن عدوه؟ قال: إبراهيم بن عبد الله بن حسن، قال: إن إبراهيم أمس به رحمًا، وأوجب عليه حقًا، فإن كان شتمك كما زعمت فعن رحمه ذبّ، وعن عرضه دفع، وما أساء من انتصر لابن عمه، قال: إنه كان عدوًا له، قال: لم ينتصر للعداوة بل للرحم، فأسكت الرجل، فلما ذهب ليولي قال: لعلك أردت أمرًا فجعلت هذا ذريعة، قال: نعم، فتبسم وأمر له بخمسة آلاف.

قال الأصمعي: دخل على المهدي رجل شريف، فأمر له بمال، فقال: يا أمير المؤمنين، ما أنتهي إلى غاية شكرك إلا وجدت وراءها غاية من معروفك فمات عجز الناس عن بلوغه، فالله من ورائه، في كلام ذكره.

عبد الله بن أحمد، عن أبيه قال: أُخبرت عن الربيع، أن المنصور يومًا فتح خزانة مما قبض من خزائن مروان ابن محمد، قال: فأحصى فيها اثني عشر ألف عدلٍ خز، فأخرج منها ثوبًا فقال لي: اقطع لي جبة، ولمحمد جبة، فقلت لا يجيء منه هذا قال: اقطع لي جبة وقلنسوة، وبخل أن يخرج ثوبًا آخر للمهدي، فلما أفضت الخلافة إلى المهدي، أمر بتلك الخزانة بعينها، ففرقت على الموالي والخدم.

الزبير بن بكار في «النسب» حدثني شيخ من أهل المدينة قال: لما جلس المهدي لأشراف قريش وأجازهم، كان فيمن صار إليه عبد الأعلى بن عبد الله بن محمد بن مروان، فأجازه وكساه فقال: وصلك الله يا أمير المؤمنين، وجعلني فداك، فقد وصلت الرحم، ورددت الظلامة، وعندي بنت عم لي أحب الناس إلي، غدوت اليوم أنا لها مغاضب، فإن رأيت أن تجعل للصلح بيننا موضعًا فافعل، فأعطاه ألف دينار وخمسين ثوبًا فقال: ترى هذا يُصلح ما بينكما؟

قال: نعم، فقال: والله لو قلت لا، ما زلت أزيدك إلى الليل.

أبو زرعة الدمشقي: نا أبي، نا أبو خالد قال: قال مالك: قال لي المهدي: يا أبا عبد الله لك دار؟ قلت: لا والله. فأمر لي بثلاثة آلاف دينار.

الزبير بن بكار: نا عمي قال: كان المهدي أعطى بكارًا الأخيني بداره أربعة آلاف دينار التي عند الجمرة، فأبى وقال: ما كنت لأبيع جوار أمير المؤمنين، فأمر له بالأربعة الآف وقال: دعوه وداره.

وقيل: إن عبد العزيز بن الماجشون لما دخل على المهدي أنشده:

وللناس بدر في السماء يرونه * وأنت لنا بدر على الأرض مقمر
فبالله يا بدر السماء ضوءه * تراك تكافيء عشر مالك أضمر
وما البدر إلا دون وجهك في الدجي * يغيب فتبدو حين غاب فتقمر
وما نظرت عيني إلى البدر طالعًا * وأنت تمشي في الثياب فتحسر

وأنشده مغيرة بن عبد الرحمن المخزومي:

رمى البين من قلبي السواد فأوجعا * وصاح فصيح بالرحيل فأسمعا
وغرد حادي الركب وانشقت العصا * وأصبحت مسلوب الفؤاد مفجعا
كفى حزنًا من حادث الدهر أنني * أرى البين لا أستطيع للبين مدفعا
وقد كنت قبل البين بالبين جاهلاً * فيا لك بين، ما أمر وأفظعا

وأنشده أبو السائب، وغيره، فقال المهدي: لأغنيكم فأجازهم لكل واحد بعشرة آلاف دينار، هذه رواها أبو العباس بن مسروق، عن عبد الرحمن بن هارون العدوي، عن عبد الملك بن الماجشون.

وقال نفطويه: انقطع المهدي عن خاصته في الصيد، فنزل يبول، ودفع إلى أعرابي فرسه، فاقتلع من خيله السرج، ثم تلاحقت الخيل فأحاطت به، فهرب الأعرابي، فأمرهم برده، وخاف الأعرابي فقال: خذوا ما أخذنا ودعونا نذهب إلى خزي الله وناره، فصاح به المهدي: تعال لا بأس عليك، فقال: ما تريد، جعلني الله فداء فرسك، فضحكوا وقالوا: ويلك قل: جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين، فقال: أو هذا أمير المؤمنين؟ قالوا: نعم، قال: والله لئن أرضاه هذا مني ما يرضيني ذلك فيه، ولكن جعل الله جبريل وميكائيل فداءه، وجعلني فداءهما، فضحك المهدي، وطاب له، وأمر له بعشرة آلاف.

وحكى ابن الإخباري، عن أبيه بإسناده أن المهدي أعطى رجلاً مرة مائة ألف دينار، وكان قد شكا أن عليه خمسين ألف دينار.

أبو صوافيه أحمد بن إسماعيل، نا الأصمعي قال: حدثني حسن الوصيف حاجب المهدي قال: كنا بزبالة إذ جاء أعرابي فقال: يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداك، أنا عاشق، فدعا به فقال: ما اسمك؟ قال: أبو مياس، قال من عشيقتك؟ قال: بنت عمي، وقد أبى أن يزوجها، قال لعله أكثر منك مالا، قال: لا أنا أكثر منه مالاً، قال: فما القصة؟ قال: ادن مني رأسك قال: فضحك المهدي وأصغى إليه فقال: إني هجين، قال: ليس يضرك ذاك، إخوة أمير المؤمنين أكثرهم هجن، يعني أولاد إماء، يا غلام عليَّ بعمه، فأُتي به، فإذا أشبه خلق بأبي مياس كأنهما باقلاة فُلقت، فقال: لم لا تزوج أبا مياس وله أدب وأنت عمه؟ قال: إنه هجين، قال: فإخوة أمير المؤمنين وولده أكثرهم هجن، فليس هذا مما ينقصه، زوجه، فقد أصدقتها عنه عشرة آلاف درهم، قال: قد فعلت، فأمر له بعشرين ألفًا فأنشد:

ابتعت ظبية بالغلاء وإنما * يعطى الغلاء بمثلها أمثالي

وتركت أسواق القباح لأهلها * إن القباح وإن رخصن غوالي

قال الزبير، أخبرني يوسف الخياط قال: دخل ابن الخياط المكي الشاعر على المهدي وقد مدحه، فأمر له بخمسين ألفًا، فلما قبضها فرقها على الناس وقال:

أخذت بكفي كفه أبتغي الغنى * ولم أدر أن الجود من كفه يُعدي

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى * أفدت وأعداني، فبدَّدت ما عندي

فنمى الخبر إلى المهدي، فأعطاه بكل درهم دينارًا.

وقيل إن مروان بن أبي حفصة لما أنشد المهدي قصيدته السائرة التي أولها:

* صحا بعد جهلٍ واستراحت عواذله *

قال ويلك، كم بيت هي؟ قال: سبعون بيتًا، قال: لك بها سبعون ألفًا.

وفيها

كفاكم بعباس أبي الفضل والدًا * فما من أبٍ إلا أبو الفضل فاضله

كأن أمير المؤمنين محمدًا * أبو جعفر في كل أمر يحاوله

إليك قصرنا النصف من صلواتنا * مسيرة شهر بعد شهرٍ نواصله

فلا نحن نخشى أن يخيب مسيرنا * إليك ولكن أهنأ البر عاجله

فتبسم وقال: عجِّلوها له.

الزبير بن بكار، عن بعضهم: أن المهدي كان مستهترًا بالخيزران، لا يكاد يفارقها في مجلس يلهو به.

عمر بن شبّة قال: كانت للمهدي جارية يحبها حبًا شديدًا، وكانت شديدة الغيرة عليه، فتغتاظ وتؤذيه فقال فيها:

أرى ماءً وبي عطش شديد * ولكن لا سبيل إلى الورود
أراح الله من بدني فؤادي * وعجل بي إلى دار الخلود
أما يكفيك أنك تملكيني * وأن الناس كلهم عبيدي؟
وأنك لو قطعت يدي ورجلي * لقلت من الرضا: أحسنت زيدي

والمهدي كغيره من عموم الخلائف والملوك، له ما لهم، وعليه ما عليهم، كان منهمكًا في اللذات واللهو والعبيد ولكن مسلم خائف من الله، قد تتبع الزنادقة وأباد خلقًا منهم.

فذكر محمد بن مقدم الواسطي، عن أبيه: أن المهدي قال لأبيه الهادي يومًا - وقد قُدِّم إليه زنديق فاستتابه فلم يتب فضرب عنقه -: يا بني إن وليت فتجرد لهذه العصابة، يعني أصحاب ماني، فإنهم يدعون إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد والعمل للآخرة، ثم بعد ذلك يخرجون الناس إلى تحريم اللحوم، ومس الماء للتطهر، وترك قتل الهوام تحرجًا وتأثمًا، ثم يخرجون من هذا إلى عبادة اثنين، أحدهما النور، والآخر الظلمة، ثم يبيحون نكاح الأخت والبنت، والغُسل بالبول، فجرد فيهم السيف، فإني رأيت جدك العباس في المنام، فقلدني سيفين، وأمرني بقتل أصحاب الاثنين.

قال الزبير، وحدثني يحيى بن محمد قال: قسم المهدي قسمًا سنة أربع وستين ومائة، فأصاب مشيخة بني هاشم، أكثرهم خمسة وستون دينارًا وأقل القسمة من العرب أو من مواليهم أربعة دنانير، كان عدة الذين أخذوا ثمانين ألف إنسان.

علي بن يقطين الأمير قال: خرجنا مع المهدي، فرأى في منامه رؤيا استيقظ باكيًا، رأى كأن شيخًا يقول له:

كأنني بهذا القصر قد باد أهله * وأوحش منه ركنه ومنازله
وصار عميد القوم من بعد بهجة * ومُلك إلى قبر عليه جنادله
فلم يبق إلا ذكره وحديثه * ينادي بليل معولات حلائله
تزود من الدنيا فإنك ميت * وإنك مسؤول فما أنت قائله

قال الفلاس: ملك المهدي عشرين سنة وشهرًا ونصفًا، ومات لثمان بقين من المحرم سنة تسع وستين ومائة.

قالوا: ومات بماسبذان، وعاش ثلاثًا وأربعين سنة، وعقد بالأمر من بعده لابنيه موسى الهادي، ثم هارون الرشيد.

هارون بن أبي عيسى (ن)

روى السيرة النبوية عن ابن إسحاق : قال البخاري : يخطيء عن غير ابن إسحاق .

قلت : حدث عنه ابنه عبد الله ، ومعلى بن أسد .

هارون الرشيد

أمير المؤمنين أبو جعفر بن محمد المهدي ابن المنصور أبى جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس العباسي البغدادي .

استُخلف بعهد من أبيه سنة سبعين ومائة عند موت أخيه الهادي .

حدَّث عن : أبيه ، وجده المنصور ، ومبارك بن فضالة .

روى عنه : ابنه المأمون ، وغيره . وكان من أميز الخلفاء ، وأجل ملوك الدنيا .

وكان كثير الغزو والحج كما قيل فيه :

فمن يطلب لقاك أو يُرِدْهُ * فبالحرمين أو أقصى الثغور

مولده بالري حين كان أبوه أميرًا عليها وعلى خراسان ، في سنة ثمان وأربعين ومائة . وأمه أم ولد اسمها الخيزران .

وكان أبيض طويلاً جميلاً مليحًا ، مسمنًا ، فصيحًا ، له نظر في العلم والآداب ، وقد وخطه الشيب .

أغزاه والده أرض الروم وهو ابن خمس عشرة سنة .

وبلغني أنه كان يصلي في خلافته في اليوم مائة ركعة إلى أن مات ويتصدق كل يوم من صلب ماله بألف درهم ، فالله أعلم .

وكان يحب العلم وأهله ، ويُعظِّم حرمات الإسلام ، ويبغض المراء في الدين ، والكلام في معارضة النص .

وكان يبكي على نفسه وعلى إسرافه وذنوبه ، سيَّما إذا وُعظ .

وكان يحب المديح ويجيز عليه الأموال الجزيلة الجليلة . وله : شعر يروق .

دخل عليه مرة ابن السماك الواعظ ، فبالغ في احترامه ، فقال له ابن السماك : تواضعك في شرفك أشرف من شرفك . ثم وعظه فأبكاه .

وقد وعظه الفضيل بن عياض حتى جعل يشهق بالبكاء . وكان هو أتى بنفسه إلى بيت الفضيل .

ومن محاسنه أنه لما بلغه موت ابن المبارك جلس للعزاء ، وأمر الأعيان أن يعزوه في ابن المبارك .

قال نفطويه في تاريخه : حكى بعض أصحاب الرشيد أن الرشيد كان يصلي في اليوم مائة ركعة ، لم يتركها إلا

لعلة. وكان يقتفي آثار جده أبي جعفر، إلا في الحرص والبخل.

قال أبو معاوية الضرير: ما ذكرت النبيﷺ بين يدي الرشيد إلا قال: صلى الله على سيدي. وحدّثته بحديثهﷺ وددت أني أقاتل في سبيل الله فأُقتل ثم أُحيا ثم أُقتل» فبكى حتى انتحب.

وعن خرزاذ القائد قال: كنت عند الرشيد، فدخل أبو معاوية الضرير، وعنده رجل من وجوه قريش، فذكر أبو معاوية حديث: «احتج آدم وموسى»، فقال القرشي: فأين لقيه؟ فغضب الرشيد وقال: النِّطع والسيف، زنديق يطعن في حديث النبي ﷺ فما زال أبو معاوية يسكّنه ويقول: يا أمير المؤمنين كانت منه بادرة، حتى سكن.

وعن أبي معاوية قال: أكلت مع الرشيد يومًا، ثم صب على يدي رجل لا أعرفه. ثم قال الرشيد: تدري من يصب عليك؟

قلت: لا!. قال: أنا، إجلالاً للعلم.

وقال منصور بن عمار: ما رأيت أغزر دمعًا عن الذكر من ثلاثة: الفضيل بن عياض، والرشيد، وآخر.

وقال عبيد الله القواريري: لما لقى الرشيد فضيلاً قال له: يا حسن الوجه، أنت المسئول عن هذه الأمة.

ثنا ليث، عن مجاهد: ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾ قال: الوُصَلُ التي كانت بينهم في الدنيا. فجعل هارون يبكي ويشهق.

قال الأصمعي: قال لي الرشيد: يا أصمعي، ما أغفلك عنا، وأجفاك لنا؟

قلت: والله يا أمير المؤمنين، ما ألاقتني[1] بلاد بعدك حتى أتيتك فسكت، فلما تفرق الناس قال: اجلس، فلم يبق سوى الغلمان ما ألاقتني.

فقال الأصمعي:

كفَّاك كف ما تليق بدرهم * جودًا وأخرى تعطي بالسيف الدما

فقال: أحسنت، وهكذا فكن، وقرنا في الملأ، وعلمنا في الخلاء. وأمر لي، بخمسة آلاف دينار. رواها أبو حاتم عنه.

قال الثعالبي في كتاب «لطائف المعارف» قال الصولي: خلَّف الرشيد مائة ألف ألف دينار.

قال الثعالبي: وحكى غيره أن الرشيد خلَّف من الأثاث والعين والورق والجواهر والدواب ما قيمته مائة ألف ألف دينار وخمسة وعشرون ألف دينار.

وفي «مروج» المسعودي قال: رام الرشيد أن يوصل ما بين بحر الروم وبحر القلزم مما يلي الفرما، فقال له يحيى بن خالد البرمكي: كان يختطف الروم الناس من المسجد الحرام وتدخل مراكبهم إلى الحجاز، فتركه.

وروي عن إسحاق الموصلي أن الرشيد أجازه مرة بمائتي ألف درهم.

(١) ما استقرت بي بلاد.

وعن العباس بن الأحنف أن الرشيد قال في خطبة له من أشعاره:

أما يكفيك أنك تملكيني * وأن الناس كلهم عبيدي
وأنك لو قطعت يدي ورجلي * لقلت من الهوى أحسنت زيدي

قال عبد الرزاق بن همام: كنت مع الفضيل بمكة، فمر هارون، فقال فضيل: الناس يكرهون هذا، وما في الأرض أعز عليَّ منه، لو مات لرأيت أمورًا عظامًا.

قال الجاحظ: اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره: وزراؤه البرامكة وقاضيه أبو يوسف، [صاحب أبي حنيفة] وشاعره مروان بن أبي حفصة، ونديمه العباس بن محمد عم أبيه، وحاجبه الفضل بن الربيع أتيه الناس وأعظمهم، ومغنيه إبراهيم الموصلي، وزوجته زبيدة.

ويروى أن الرشيد أعطى سفيان بن عيينة مرة مائة ألف. وأخبار الرشيد يطول شرحها، ومحاسنها جمة، وله أخبار في اللهو واللذات المحظورة والغناء، والله يسامحه.

قال أبو محمد بن حزم: أُراه كان لا يشرب النبيذ المختلف فيه إلا الخمر المتفق على تحريمها، ثم جاهر بها جهارًا قبيحًا.

قلت: توفي في الغزو بمدينة طوس من خراسان في ثالث شهر جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة، وصلى عليه ابنه صالح، ودُفن بطوس، رحمه الله.

عاش خمسًا وأربعين سنة.

هاشم بن أبي بكر بن عبد الرحمن القرشي التيمي البكري

أبو بكر المدني الفقيه. وُلِّي قضاء مصر، فقدمها بعد انفصال العمري عنها.

ولاَّه الأمين في سنة أربع وتسعين ومائة.

وكان قد تفقه بالكوفة على مذهب أبي حنيفة، وكان يتناول النبيذ ولم تطل ولايته.

ومات في المحرم سنة ستٍّ وتسعين ومائة.

هاشم بن القاسم التيمي الكوفي

روى عن: الأعمش، وعنه: حميد بن الربيع، والعباس بن يزيد البحراني.

هذيل بن ميمون الجعفي الكوفي

عن: يحيى بن أبي أنيسة، ومطرح الشامي.

وعنه: محمد بن الصباح الجرجرائي، وأحمد بن حنبل.

هشام بن سليمان بن عكرمة بن خالد المخزومي المكي (م) (ق)

عن: هشام بن عروة، وابن جريج، ويونس بن يزيد الأيلي.

وعنه: إبراهيم بن المنذر، وسعيد بن عبد الرحمن المخزومي، وسويد بن سعيد، ومحمد بن العدني.

صدوق فيه أدنى شيء، وله أثر في «البيوع» من البخاري.

هشام بن عبد الله بن عكرمة بن خالد المخزومي المكي

ابن عم الذي قبله من نبلاء الشرفاء.

صحب هشام بن عروة، وكان من خاصته، فأكثر عنه، إلا أنه لم يحدِّث.

وكان جليل القدر يحتسب، ويأمر بالمعروف، وينهي عن المنكر. ذكر هذا ابن سعد، ثم قال: دخل على الشريد، فدعا له، وكلمه بكلام أعجبه، ووعظه، فولاه قضاء المدينة، وأجازه بأربعة آلاف دينار.

وكان سخيًا، وصولاً لرحمه.

قلت: كنيته أبو الوليد. وقد غمزه ابن حبان لأجل الحديث الذي أخبرناه أحمد بن محمد الحافظ، وجماعة قالوا: أنا أبو المنجا عبد الله بن عمر. (ح)[1]، وأنا أحمد بن المؤيد، أنا زكريا العلي قالا: أنا أبو الوقت، أنا بيبي الهرثمية، أنا عبد الرحمن بن أبي شريح، ثنا البغوي، نا مصعب بن عبد الله إملاءً سنة ثمانٍ وعشرين ومائتين: حدَّثني هشام بن عبد الله، عن عكرمة المخزومي، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «التمسوا الرزق في خبايا الأرض». هذا حديث غريب، تفرد به مصعب، عن هشام.

قال عبد الملك بن حبيب الفقيه: قال لي مطرف بن عبد الله: أتي هشام بن عبد الله وهو قاضي المدينة، ومن صالح قضائها برجلٍ خبيثٍ معروف باتباع الصبيان، قد لصق بصبي في زحمةٍ حتى أفضى. فجلده أربعمائة سوط وسجنه، فما لبث أن مات.

(هشام بن يوسف الصنعاني الفقيه). (خ). (٤).

أبو عبد الرحمن قاضي صنعاء وعالمها.

روى عن: ابن جريج، ومعمر، والثوري، والقاسم بن فياض وجماعة.

وعنه: ابن المديني، وإبراهيم بن موسى الفراء، وإسحاق بن راهويه، وابن معين، وعبد الله بن محمد المسندي، وجماعة.

قال ابن معين: هو أثبت من عبد الرزاق في ابن جريج. وقال أبو حاتم: ثقة متقن.

وروى عبد الله بن أحمد، عن أبيه، قال: سمعت بعض أصحابنا قال مرة: قال يحيى بن معين: كتب لي عبد الرزاق إلى هشام قال: إنك تأتي رجلاً إن كان غيَّره السلطان، فإنه لم يغيِّر حديثه.

وقال يحيى: مكثنا على باب هشام بن يوسف خمسين يومًا، لا يحدثنا بحديث، نذهب معه إلى باب الأمير.

وقال أحمد: سمعت عبد الرزاق قال: أتاه، يعني يحيى، فأجزره شاة، وفعل به وفعل.

(١) علامة على تحول سند الحديث إلى سند آخر.

وقال البخاري : أحاديثه معروفة .

وقال الزبير بن بكار: كان المنظور إليه من قريش بالمدينة فى هديه وفقهه وعفافه . وكان قد سرد الصوم وتوفى فى المحرم سنة ست عشرة وهو ابن سبعين سنة . وكذا ورّخ البخارى وفاته .

وأما الصائغ فقد مر .

عبد الله بن هارون بن أبى عيسى

أبو على الشامى ، نزيل البصرة . عن : أبيه ، ويونس بن عبيد ، وسعيد بن أبى عروبة .

وعنه : ابن المدينى ، والفلاس ، والكديمى ، وسليمان بن سيف الحرانى ، وأبو قلابة الرقاشى ، وجماعة .

وكان صدوقا . كان حيا سنة إحدى عشرة .

عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدى بن عبد الله المنصور

أبو العباس الهاشمى .

ولد سنة سبعين ومائة عندما استخلف أبوه الرشيد .

وقرأ العلم فى صغره ، وسمع من : هشيم ، وعباد بن العوام ، ويوسف بن عطية ، وأبى معاوية الضرير ، وطبقتهم .

وبرع فى الفقه والعربية وأيام الناس . ولما كبر عنى بالفلسفة وعلوم الأوائل وشهر فيها ، فجره ذلك إلى القول بخلق القرآن .

روى عنه : ولده الفضل ، ويحيى بن أكثم ، وجعفر بن أبى عثمان الطيالسى ، والأمير عبد الله بن طاهر ، وأحمد بن الحارث الشيعى ، ودعبل الخزاعى ، وآخرون .

وكان من رجال بنى العباس حزما وعزما ، وحلما وعلما ، ورأيا ودهاء ، وهيبة وشجاعة ، وسؤددا وسماحة . وله محاسن وسيرة طويلة .

قال ابن أبى الدنيا : كان أبيض ، ربعة ، حسن الوجه ، تعلوه صفرة ، وقد وخطه الشيب . أعين ، طويل اللحية رقيقها ، ضيق الجبين ، على خده خال .

وقال الجاحظ : كان أبيض فيه صفرة . وكان ساقاه دون جسده صفراوين ، كأنهما طليتا بالزعفران .

وقال ابن أبى الدنيا : قدم الرشيد طوس سنة ثلاث وتسعين ، فوجه ابنه المأمون إلى سمرقند ، فأتته وفاة أبيه وهو بمرو .

وقال غيره : لما خلع الأمين أخاه المأمون من ولاية العهد غضب المأمون ودعا إلى نفسه بخراسان ، فبايعوه فى أول سنة ثمان وتسعين ومائة .

وقال الخطيب : كان يُكنى أبا العباس ، فلما استخلف اكتنى بأبي جعفر . وأمه أم ولد اسمها مراجل ، ماتت أيام نفاسها به .

وقال أيضا : دُعي للمامون بالخلافة والأمين حي في آخر سنة خمس وتسعين ، إلى أن قتل الأمين ، فاجتمع الناس عليه ، وتفرقت عماله في البلاد ، وأقيم الموسم سنة ست وسنة سبع باسمه ، وهو مقيم بخراسان . واجتمع الناس عليه ببغداد في أول سنة ثمان . وأتاه الخبر بمرو ، فولى العراق ، الحسن بن سهل ، وقدمها سنة سبع .

ثم بايع المأمون بالعهد لعلي بن موسى الرضا الحسيني رحمه الله ، ونوه بذكره ، وغيَّر زي آبائه من لبس السواد ، وأبدله بالخضرة . فغضب بنو العباس بالعراق لهذين الأمرين وقطعوه ، وبايعوا إبراهيم عمه ولقبوه «المبارك» .

فحاربه الحسن بن سهل ، فهزمه إبراهيم وألحقه بواسط . وأقام إبراهيم بالمدائن . ثم سار جيش الحسن وعليهم حميد بن الطوسي ، وعلي بن هشام فهزموا إبراهيم ، فاختفى وانقطع خبره إلى أن ظهر في وسط خلافة المأمون ، فعفا عنه .

وكان المأمون فصيحا مفوها . وكان يقول : معاوية بعمره ، وعبد الملك بحجاجه ، وأنا بنفسي . وقد رويت هذه عن المنصور .

وقيل : كان نقش خاتمه : المأمون عبد الله بن عبيد الله .

روى عنه أنه ختم في بعض الرمضانات ثلاثا وثلاثين ختمة .

قال الحسين بن فهم الحافظ : ثنا يحيى بن أكثم قال : قال لي المأمون : أريد أن أحدث .

فقلت : ومن أولى بهذا من أمير المؤمنين ؟

فقال : اصنعوا لي منبرا . ثم صعد ، فأول حديث أورده : حدثنا عن هشيم ، عن أبي الجهم ، عن الزهري ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، رفع الحديث قال : «امرؤ القيس صاحب لواء الشعر إلى النار» .

ثم حدث بنحو من ثلاثين حديثا ثم نزل فقال لي : كيف رأيت يا يحيى مجلسنا .

قلت : أجل مجلس ، تفقه الخاصة والعامة .

فقال : ما رأيت لكم حلاوة . إنما المجلس لأصحاب الخُلقان والمحابر .

وقال السراج : ثنا محمد بن سهل بن عسكر قال : تقدم رجل غريب ، بيده محبرة إلى المأمون فقال : يا أمير المؤمنين صاحب حديث منقطع به .

فقال : ما تحفظ في باب كذا ؟ فلم يذكر فيه شيئا .

قال : فما زال المأمون يقول : ثنا هشيم ، وثنا يحيى ، وثنا حجاج ، حتى ذكر الباب .

ثم سأله عن باب آخر ، فلم يذكر فيه شيئا .

فقال المأمون : ثنا فلان . وثنا فلان ، إلى أن قال لأصحابه : يطلب أحدهم الحديث ثلاثة أيام ثم يقول أنا من أصحاب الحديث ، أعطوه ثلاثة دراهم .

ومع هذا فكان المأمون مسرفا فى الكرم ، جوادا ممدحا .

جاء عنه أنه فرق فى ساعة واحدة ستة وعشرين ألف ألف درهم .

وكان يشرب النبيذ . وقيل بل كان يشرب الخمر ، فيحرر ذلك .

وقيل إنه أجاز أعرابيا مرة لكونه مدحه بثلاثين ألف دينار .

وأما ذكاؤه فمتوقد . روى مسروق بن عبد الرحمن الكندى : حدثنى محمد بن المنذر الكندى جار عبد الله بن إدريس قال : حج الرشيد ، فدخل الكوفة وطلب المحدثين . فلم يتخلف إلا عبد الله بن إدريس ، وعيسى بن يونس . فبعث إليهما الأمين والمأمون . فحدثهما ابن إدريس بمائة حديث ، فقال المأمون : يا عم ، أتأذن أن أعيدها من حفظى ؟

قال : افعل . فأعادها ، فعجب من حفظه .

ومضيا إلى عيسى فحدثهما ، فأمر له المأمون بعشرة آلاف درهم ، فأبى أن يقبلها وقال : ولا شربة ماء على حديث رسول الله ﷺ .

وروى محمد بن عون ، عن ابن عيينة أن المأمون جلس فجاءته امرأة وقالت : يا أمير المؤمنين مات أخى وخلف ستمائة دينار ، فأعطونى دينارا ، وقالوا : هذا نصيبك .

فحسب المأمون وقال : هذا نصيبك . هذا خلف أربع بنات . قالت : نعم .

قال : لهن أربعمائة دينار . وخلف والدة فلها مائة دينار . وخلف زوجة فلها خمسة وسبعون دينارا . بالله ألك اثنا عشر أخا ؟

قالت : نعم . قال : لكل واحد ديناران ولك دينار .

وقال ابن الأعرابى : قال لى المأمون : أخبرنى عن قول هند بنت عتبة :

نحن بنات طارق * نمشى على النمارق

قال : فنظرت فى نسبها فلم أجده ، فقلت : ما أعرف .

قال : إنما أرادت النجم ، انتسبت إليه لحسنها . ثم رمى إلىَّ بعنبرة بعتها بخمسة آلاف درهم .

وقال بعضهم عن المأمون : من أراد كتابا سرا فليكتب بلبن حليب حلب لوقته ، ويرسله إلى من يريد فيعمد إلى قرطاس فيحرقه ويذر رماده على الكتابة ، فتقرأ له .

وقال الصولى : كان المأمون قد اقترح فى الشطرنج أشياء . وكان يحب اللعب بها .

وعن بعضهم قال : استخرج المأمون كتب الفلاسفة واليونان من جزيرة قبرس .

وقدم الشام غير مرة .

وقال أبو معشر المنجم : كان أمارا بالعدل ، محمود السيرة ، ميمون النقيبة ، فقيه النفس ، يعد مع كبار العلماء .

وعن الرشيد قال : إنى لأعرف فى عبد الله حزم المنصور ، ونسك المهدى ، وعزة الهادى ، ولو أشاء أن أنسبه إلى الرابع ، يعنى نفسه ، لنسبته . وقد قدمت محمدا عليه ، وإنى لأعلم أنه منقاد إلى هواه ، مبذر لما حوته يده ، يشارك فى رأيه الإماء والنساء . ولولا أم جعفر وميل بنى هاشم إليه لقدمت عبد الله عليه .

وعن المأمون قال : لو عرف الناس حبى للعفو لتقدموا إلىّ بالجرائم .

وأخاف أن لا أؤجر فيه . يعنى لكونه طبعا له .

وعن يحيى بن أكثم قال : كان المأمون يحلم حتى يغيظنا .

وقيل إن فلاحا مر فقال : أتظنون بأن هذا ينبل فى عينى وقد قتل أخاه الأمين ؟ فسمعها المأمون فتبسم وقال : ما الحيلة حتى أنبل فى عين هذا السيد الجليل ؟

وعن يحيى بن أكثم قال : كان المأمون يجلس للمناظرة فى الفقه يوم الثلاثاء ، فجاء رجل عليه ثياب قد شمرها ونعله فى يده . فوقف على طرف البساط وقال : السلام عليكم . فرد عليه المأمون .

فقال : أتأذن لى فى الدنو ؟ قال : ادن وتكلم .

قال : أخبرنى عن هذا المجلس الذى أنت فيه . جلسته باجتماع الأمة أم بالمغالبة والقهر ؟

قال : لا بهذا ولا بهذا . بل كان يتولى أمر المؤمنين من عقد لى ولأخى . فلما صار الأمر لى علمت أنى محتاج إلى اجتماع كلمة المؤمنين فى الشرق والغرب على الرضى بى . فرأيت أنى متى خليت الأمر اضطرب حبل الإسلام ومرج عهدهم ، وتنازعوا ، وبطل الجهاد والحق ، وانقطعت السبل . فقمت حياطة للمسلمين إلى أن يجمعوا على رجل يرضون به ، فأسلم إليه الأمر . فمتى اتفقوا على رجل خرجت له من الأمر .

فقال : السلام عليكم ورحمة الله .

وذهب ، فوجه المأمون من يكشف خبره . فرجع وقال : يا أمير المؤمنين مضى إلى مسجد فيه خمسة عشر رجلا فى مثل هيئته ، فقالوا له : ألقيت الرجل ؟ قال : نعم . وأخبرهم بما جرى .

قالوا : ما نرى بما قال بأساً . وافترقوا .

فقال المأمون : كفينا مؤونة هؤلاء بأيسر الخطب .

وقيل : أهدى ملك الروم إلى المأمون تحفا سَنية منها مائة رطل مسك ، ومائة حلة سمُّور . فقال المأمون : أضعفوها له ليعلم عز الإسلام وذل الكفر .

وقيل : دخل رجل من الخوارج على المأمون ، فقال : ما حملك على الخلاف ؟

قال : قوله تعالى : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ قال : ألك علم بأنها منزلة ؟ قال : نعم .

قال : ما دليلك؟ قال : إجماع الأمة .

قال : فكما رضيت بإجماعهم في التنزيل ، فارض بإجماعهم في التأويل .

قال : صدقت ، السلام عليك يا أمير المؤمنين .

وقال محمد بن زكريا الغلابي : ثنا مهدي بن سابق قال : دخل المأمون يوما ديوان الخراج ، فمر بغلام جميل على أذنه قلم . فأعجبه حسنه فقال : من أنت ؟

قال : الناشئ في دولتك ، وخريج أدبك ، والمتقلب في نعمتك يا أمير المؤمنين ، الحسن بن رجاء .

فقال : يا غلام ، بالإحسان في البديهة تفاضلت العقول .

ثم أمر برفع مرتبته عن الديوان ، وأمر له بمائة ألف درهم .

وعن إسحاق الموصلي قال : كان المأمون قد سخط على الخليع الشاعر لكونه هجاه عندما قتل الأمين . فبينا أنا ذات يوم عند المأمون إذ دخل الحاجب برقعة ، فاستأذن في إنشادها . فأذن له ، فقال :

أجرني فإني قد ظمئت إلى الوعد * متى تنجز الوعد المؤكد بالعهد
أعيذك من خلف الملوك فقد ترى * تقطع أنفاسي عليك من الوجد
أيبخل فرد الحسن عني بنائل * قليل وقد أفردته بهوى فرد

إلى أن قال :

رأى الله عبد الله خير عباده * فملكه والله أعلم بالعبد
ألا إنما المأمون للناس عصمة * مميزة بين الضلالة والرشد

فقال له : أحسنت .

قال : يا أمير المؤمنين أحسن قائلها . قال : ومن هو؟

قال : عبيدك الحسين بن الضحاك .

فقال : لا حياه الله ولا بياه . أليس هو القائل :

فـــلا تمت الأشيـــاء بعـــد محمـــد * ولا زال شمـل المُلك فيهـــا مبـــددا
ولا فـــرح المأمـــون بـــالملك بعـــده * ولا زال فى الـــدنيـــا طـــريـــداً مشـــردا

هذه بتلك ، ولا شيء له عندنا .

قال الحاجب : فأين عادة عفو أمير المؤمنين . قال : أما هذه فنعم . إئذنوا له .

فدخل ، فقال له : هل عرفت يوم قُتل أخى هاشمية هتكت ؟ قال : لا . قال : فما معنى قولك :

ومـــا شجى قلبى وكفكف عبـــرتى * محـــارم مـــن آل الـــرســـول استحلت
ومهتـــوكة بـــالجلـــد عنهـــا سجوفهـــا * كعـــاب كقـــرن الشمس حين تبـــدت
فـــلا بـــات ليل الشـــامتيـــن بغبطـــة * ولا بلغـــت آمـــــالهم مـــــا تمنـــت

فقـال : يا أمير المؤمنين ، لـوعـة غلبتنى ، وروعة فـاجأتنى ، ونعمة سلبتهـا بعـد أن غمرتنى ، فإن عـاقبت فبحقك ، وإن عفوت فبفضلك . فدمعت عينا المأمون وأمر له بجائزة .

حكى الصولى أن المأمون كان يحب اللعب بالشطرنج ، واقترح فيه أشياء وكان ينهى أن يقال : تعال نلعب ، ويقول : بل نتناقل .

ولم يكن بها حاذقاً فكان يقول : أنا أدبر أمر الدنيا واتسع لها ، وأضيق عن تدبير شبرين . وله فيها شعر :

أرض مـــربعـــة حمـــراء مـــن أدم * مـــا بيـــن إلفين معـــروفين بـــالكـــرم
تـــذاكـــرا الحـــرب فـــاحتـــالا لـــه حيـــلا * من غيـــر أن يأثمـــا فيهـــا بسفك دم
هـــذا يغيـــر على هـــذا وذاك على * هـــذا يغيـــر وعيـــن الحـــزم لـــم تنم
فـــانظـــر إلى فطن جيـــالت بمعـــرفـــة * فـــى عسكـــرين بـــلا طبل ولا علـــم

وقيل : إن المأمون نظر إلى عمه إبراهيم بن المهدى وكان يلقب بالتنين ، فقـال : ما أظنك عشقت قط ، ثم أنشد :

وجـــه الـــذى يعشق معـــروف * لأنـــه أصفـــر منحـــوف
ليـــس كمـــن يـــأتيـــك ذا جثـــة * كأنـــه للـــذبـــح معلـــوف

وعن المأمون قال : أعيانى جواب ثلاثة . صرت إلى أم ذى الرئاستين أعزيها فيه ، فقلت : لا تأسى عليه فإنى عوضه لك .

قالت : يا أمير المؤمنين وكيف لا أحزن على ولد أكسبني مثلك .

وأُتيت بمتنبيء فقلت : من أنت ؟

قال : أنا موسى بن عمران .

قلت : ويحكَ ، موسى كانت له آيات فأتني بها حتى أؤمن بك .

فقال : إنما أتيت بتلك المعجزات فرعون ، إذ قال أنا ربكم الأعلى . فإن قلت كذلك أتيتك بالآيات .

قال : وأتى أهل الكوفة يشكون عاملهم فقال خطيبهم : هو شر عامل . فأما في أول سنة فإنا بعنا الأثاث والعقار ، وفي الثانية بعنا الضياع ، وفي الثالثة نزحنا عن بلدنا وأتيناك نستغيث بك .

فقلت : كذبت ، بل هو رجل قد حمدت مذهبه ، ورضيت دينه ، واخترته معرفة مني بقديم سخطكم على العمال .

قال : صدقت يا أمير المؤمنين وكذبت أنا . فقد خصصتنا به هذه المدة دون باقي البلاد ، فاستعمله على بلد آخر ليشملهم من عدله وإنصافه مثل الذي شملنا .

فقلت : قم في غير حفظ الله ، قد عزلته عنكم .

ومما ينسب إلى المأمون من الشعر قوله :

لساني كتوم لأسراركم * ودمعي نموم لسري مذيع
فلولا دموعي كتمت الهوى * ولولا الهوى لم تكن لي دموع

وكان قدوم المأمون من خراسان إلى بغداد سنة أربع ومائتين . ودخلها في رابع صفر بأبهة عظيمة ، وبحمل زائد .

قال إبراهيم بن محمد بن عرفة النحوي في تاريخه : حكى أبو سليمان داود بن علي ، عن يحيى بن أكثم قال : كنت عند المأمون وعنده جماعة من قواد خراسان ، وقد دعا إلى خلق القرآن حينئذ ، فقال لأولئك القواد : ما تقولون في القرآن؟

فقالوا : كان شيوخنا يقولون : ما كان فيه من ذكر الحمير والجمال والبقر فهو مخلوق ، وما كان من سوى ذلك فهو غير مخلوق . فأما إذا قال أمير المؤمنين هو مخلوق ، فنحن نقول كله مخلوق .

فقلت للمأمون : أتفرح بموافقة هؤلاء ؟

قال ابن عرفة : أمر المأمون مناديا فنادى في الناس ببراءة الذمة ممن ترحم على معاوية أو ذكره بخير

وكان كلامه في القرآن سنة اثنتي عشرة . فكثر المنكر لذلك ، وكاد البلد يفتتن ولم يلتئم له من ذلك ما أراد فكف عنه . يعني كف عنه إلى بعد هذا الوقت .

ومن كلام المأمون : الناس ثلاثة :- فمنهم مثل الغذاء لا بد منه على حال من الأحوال ، ومنهم وكالدواء يحتاج إليه فى حال المرض ، ومنهم كالداء مكروه على كل حال .

وعن المأمون قال : لا نزهة ألذ من النظر فى عقول الرجال .

وقال : غلبة الحجة أحب إلىّ من غلبة القدرة . لأن غلبة الحجة لا تزول ، وغلبة القدرة تزول بزوالها .

وكان المأمون يقول : الملك يغتفر كل شيء إلا القدح فى الملك ، وإفشاء السر ، والتعرض للحرم .

وقال : أعيت الحيلة فى الأمر إذا أقبل أن يدبر ، وإذا أدبر أن يقبل .

وقيل للمأمون : أى المجالس أحسن ؟

قال : ما نظر فيه إلى الناس . فلا منظر أحسن من الناس .

وكان المأمون معروفا بالتشيع ، فروى أبو داود المصاحفى قال : سمعت النضر بن شميل يقول : دخلت على المأمون فقال : إنى قلت اليوم :

أصبح دينى الـــــذى أديـن بـــــه * ولسـت مـن الغــــــداة معتــــــذرا
حـب علـى بعـــــد النبـى ولا * أشـتم صـــديقـــــه ولا عُمـــــرا
وابن عفـــان فى الجنـــان مع الأبـــرار * ذاك القتيـل مصطبــــــــــرا
وعــــائش الأم لسـت أشتمهـــــا * من يفتـــريهـــا فنحـن منـــه بـــــرا

وقد نادى المأمون بإباحة متعة النساء ، ثم لم يزل به يحيى بن أكثم حتى أبطلها ، وروى له حديث الزهرى ، عن ابنى الحنفية ، عن أبيهما محمد ، عن على أن رسول الله ـ ﷺ ـ نهى عن متعة النساء فى خيبر . فلما صحح له الحديث رجع إلى الحق .

وأما مسألة خلق القرآن فلم يرجع عنها وصمم عليها فى سنة ثمان عشرة وامتحن العلماء ، فعوجل ولم يمهل . توجه غازيا إلى أرض الروم فلما وصل إلى البذندون واشتد به الأمر أوصى بالخلافة إلى أخيه المعتصم .

وكان قد افتتح فى غزوته أربعة عشر حصنا . ورد فنزل على عين البذندون ، فأقام هناك واعتل .

قال المسعودى : أعجبه برد ماء العين وصفاؤها ، وطيب الموضع وكثرة الخضرة .

وقد طُرح له درهم فى العين ، فقرأ ما عليه لفرط صفائها . ولم يقدر أحد أن يسبح فيها لشدة بردها . فرأى سمكة نحو الدراع كأنها الفضة . فجعل لمن يخرجها سيفا ، فنزل فراش فاصطادها وطلع ، فاضطربت وفرت إلى الماء فتنضح صدر المأمون ونحره وابتل ثوبه . ثم نزل الفراش ثانية وأخذها . فقال المأمون : تقلى الساعة . ثم أخذته رعدة فغطى باللحف وهو يرتعد ويصيح . فأوقدت حوله نار . ثم أتى بالسمكة فما ذاقها لشغله بحاله .

فسأل المعتصم بختيشوع وابن ماسويه عن مرضه ، فجساه ، فوجدا نبضه خارجا عن الاعتدال ، منذرا بالفناء ، ورأيا عرقا سائلا منه كلعاب اللاغية فأنكراه ولم يجداه فى كتب الطب .

ثم أفاق المأمون من غمرته ، فسأل عن تفسير اسم المكان بالعربى ، فقيل له : «مد رجليك» فتطير به . وسأل عن اسم البقعة ، فقيل الرقة . وكان فيما علم من مولده أنه يموت بالرقة . فكان يتجنب النزول بالرقة . فلما سمع هذا من الروم عرف وأيس ، وقال : يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه .

وأجلس المعتصم عنده من يلقنه الشهادة لما ثقل . فرفع الرجل بها صوته فقال له ابن ماسويه : لا تصيح ، فوالله ما يفرق الآن بين ربه وبين مانى . ففتح عينيه وبهما من عظم التورم والاحمرار أمر شديد ، وأقبل يحاول بيديه البطش بابن ماسويه ، ورام مخاطبته فعجز ، فرمق بطرفه نحو السماء وقد امتلأت عيناه دموعا ، وقال فى الحال : يا من لا يموت ارحم من يموت . ثم قضى ومات فى يوم الخميس لاثنتى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمانى عشرة . فنقله ابنه العباس وأخوه المعتصم لما توفى إلى طرسوس ، فدفن هناك فى دار خاقان خادم أبيه .

عبد الله بن يحيى (ن)

أبو محمد الثقفى البصرى .

عن : بكار بن عبد العزيز بن أبى بكرة ، وعبد الواحد بن زياد ، وأبى عوانة ، وسليم بن أخضر .

وعنه : إبراهيم بن يعقوب الجوزجانى ، وأبو محمد الدارمى ، والكديمى ، ويعقوب الفسوى ، وعبد العزيز ابن معاوية القرشى ، ومحمد بن يحيى الأزدى ، وإبراهيم بن حرب العسكرى .

وقال الجوزجانى : ثقة مأمون .

عبد الله بن يحيى (خ) (د)

أبو يحيى المعافرى المصرى البرلسى .

عن : سعيد بن أبى أيوب ، وموسى بن على ، وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، وحيوة بن شريح ، ومعاوية بن صالح ، والليث ، وجماعة .

وعنه : دُحيم ، والحسن بن عبد العزيز الجروى ، وجعفر بن مسافر ، ووهب الله بن رزق المصرى ، وآخرون .

قال أبو حاتم : لا بأس به . زاد أبو زرعة : أحاديثه مستقيمة .

وقال ابن يونس : توفى بالبرلس سنة اثنتى عشرة ومائتين .

عبد الله بن يزيد (ع)

- مولى آل عمر الفاروق .

أبو عبد الرحمن المقرئ المكى . أصله من ناحية الأهواز مما يلى البصرة .

ولد فى حدود العشرين ومائة .

روى عن : كَهمس بن الحسن ، وأبي حنيفة ، وابن عون ، وموسى بن علي بن رباح ، ويحيى بن أيوب ، وحرملة بن عمران التجيبي ، وحيوة بن شريح ، وسعيد بن أبي أيوب ، وشعبة ، وعبد الرحمن بن دينار بن أنعم الأفريقي ، وخلق .

وعنه (خ) . و (ع) . عن رجل ، عنه ، وأحمد بن حنبل ، وأبو خيثمة ، وابن راهويه ، وابن نمير ، وهارون الحمال ، والحسن بن علي الحلواني ، وعباس الدوري ، ومحمد بن يحيى الذهلي ، ومحمد بن مسلمة الواسطي ، ومحمد بن إسماعيل الصائغ ، وبشر بن موسى ، والحارث بن أبي أسامة ، وروح بن الفرج القطان ، وعمرو بن ملول ، وخلق .

وثّقه النسائي ، وغيره . وهو من أكبر شيوخ البخاري .

قال محمد بن عاصم : سمعته يقول : أنا ما بين التسعين إلى المائة . وأقرأت القرآن بالبصرة ستا وثلاثين سنة . وههنا بمكة خمسا وثلاثين سنة .

قلت : كان قد أخذ الحروف عن نافع بن أبي نُعيم ، وله اختيار في القراءة رواه عنه ابنه محمد . وكان يلقن القرآن ، وكان إماما في القرآن والحديث ، كبير الشأن .

قال البخاري : مات بمكة سنة اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة .

وقال مطين : سنة ثلاث عشرة توفي أبو عبد الرحمن المقرئ رحمه الله .

عبد الأعلى بن القاسم (ق)

أبو بشير الهمداني البصري اللؤلؤي

عن : حماد بن سلمة ، وهمام بن يحيى ، وسوار بن عبد الله بن قدامة ، وشريك .

وعنه : عبده بن عبد الله الصفار ، وأبو حفص الفلاس ، ويعقوب الفسوي ، وأبو حاتم الرازي ، وقال : صدوق .

عبد الأعلى بن مُسهر بن عبد الأعلى بن مسهر (ع)

الإمام أبو مسهر الغساني الدمشقي ، أحد الأعلام . ويُعرف بابن أبي دُرامة ، وهي كنية جده عبد الأعلى .

ولد أبو مسهر سنة أربعين ومائة .

وروى عن : سعيد بن عبد العزيز ، وعبد الله بن العلاء بن زبر ، وسعيد بن بشير ، ومالك بن أنس ، وإسماعيل بن عياش ، وإسماعيل بن عبد الله بن سماعة ، وخالد بن يزيد المري ، وصدقة بن خالد ، ويحيى ابن حمزة ، وخلق .

وأخذ القراءة عن : نافع بن أبي نعيم ، وأيوب بن تميم .

عن: يحيى بن يحيى الليثي، وعيسى بن دينار ورحل إلى ديار مصر فأخذ عن: أشهب بن عبد العزيز، وأصبغ ابن الفرج.

قال ابن الفرضي: كان منقطع القرين في الزهد والعلم، مجاب الدعوة فقيهًا كبير القدر.

يقال امتحنت إجابة دعوته في غير ما شيء، ومات في الكهولة. وكان عليه إخبات وحزن، وكان لا ينام على فراش في رمضان.

حكى إمام مسجد قرطبة أنه رأى هارون بن سالم بالليل سجد، قال: فرأيت شجرة في المسجد سجدت وراءه، فلما قام قامت.

وقال إبراهيم بن هلال: ما رأيت هارون بن سالم يصلي قط إلا وهو يرتعد.

وكان يسكن بيتًا بلا أبواب. وكان مقدمًا في زمانه في الزهد والعبادة قال ابن بشكوال: وقبره يتبرك به، ويعرف بإجابة الدعوة. جربت ذلك مرارًا.

قلت: روى عنه عامر بن معاوية القاضي، وغيره. توفي سنة ثمانٍ وثلاثين.

هارون بن عباد التهدي المصيصي ثم الأنطاكي (د)

عن: جرير بن عبد الحميد، وأبي بكر بن عياش، وجماعة.

وعنه: (د)، ومحمد بن وضاح القرطبي.

هارون بن عبد الله بن محمد بن كثير بن معن بن عبد الرحمن بن عوف الزهري

أبو يحيى المكي القاضي نزيل بغداد. روى عن: عبد الله بن وهب.

وتفقه على أصحاب مالك كأبي مصعب، والهديري. وقيل إنه سمع من مالك.

قال أبو بكر الخطيب: سمع: مالك بن أنس، والدراوردي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وعنه: يحيى بن عبد الله بن بكير، وعبد السلام الهروي، والزبير بن بكار، ويونس بن عبد الأعلى.

وولي قضاء العسكر، ثم ولي قضاء مصر إلى أن عُزل في آخر خلافة المعتصم.

وقال أبو إسحاق الشيرازي: هو أعلم من صنَّف الكتب في مختلف قول مالك.

وقال القاضي عياض: كان من الفقهاء العلماء في مذهب أهل المدينة واسع الأدب.

وقال أبو سعيد بن يونس: توفي بسامراء في شعبان سنة اثنتين وثلاثين.

هارون الواثق بالله

أبو جعفر، وقيل أبو القاسم.

أمير المؤمنين ولد المعتصم بالله أبي إسحاق محمد بن الرشيد هارون بن المهدي محمد بن المنصور الهاشمي العباسي.

وأمه رومية اسمها قراطيس، أدركت دولة ابنها.

ولي الأمر بعهدٍ من أبيه . ونقل إسماعيل الخطبي أنه ولد لعشرٍ بقين من شعبان سنة ستٌ وتسعين ومائة .

قال يحيى بن أكثم : ما أحسن أحد إلى آل أبي طالب ما أحسن إليهم الواثق ما مات وفيهم فقير.

وقال حمدون بن إسماعيل : كان الواثق مليح الشعر ، وكان يحب خادمًا أهدي له من مصر. فأغضبه الواثق يومًا، ثم إنه سمعه يقول لبعض الخدم : والله إنه ليروم أن أكلمه من أمس فما أفعل فقال الواثق :

يا ذا الذي بعذابي ظل مفتخرًا * ما أنت إلا مليك جار، إذ قدرًا

لولا الهدى لتجارينا على قدرٍ * وإن أُفق منه يومًا ما ، فسوف ترى

قال الخطيب : كان أحمد بن أبي دؤاد قد استولى على الواثق وحمله على التشدد في المحنة . ودعا الناس إلى القول بخلق القرآن .

ويقال : إن الواثق رجع عن ذلك القول قبل موته .

وقال عبد الله بن يحيى : نا إبراهيم بن أسباط بن السكن قال : حُمل رجل فيمن حُمل، مكبَّل بالحديد من بلاده، فأُدخل . فقال ابن أبي دؤاد : تقول أو أقول ؟

قال : هذا أول جوركم . أخرجتم الناس من بلادهم ودعوتموهم إلى شيء لا، بل أقول.

قال : قل . والواثق جالس .

فقال : أخبرني عن هذا الرأي الذي دعوتم الناس إليه ، أعلمه رسول الله ﷺ فلم يدع الناس إليه ، أم شيء لم يعلمه ؟

قال : علمه . قال : فكان يسعه أن لا يدعو الناس إليه ، وأنتم لا يسعكم .

قال : فبهتوا . قال : فاستضحك الواثق ، وقام قابضًا على فمه ، ودخل بيتًا ومدَّ رجليه وهو يقول : وسع النبي ﷺ أن يسكت عنا ولا يسعنا . فأمر أن يُعطى ثلاثمائة دينار، وأن يُرد إلى بلده .

وعن طاهر بن خلف : سمعت المهتدي بالله بن الواثق يقول : كان أبي إذا أراد أن يقتل رجلاً أحضرنا . فأتي بشيخ مخضوب مقيد ، وقال أبي : إئذنوا لابن أبي دؤاد وأصحابه . وأُدخل الشيخ فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين .

فقال : لا سلَّم الله عليك .

قال : بئس ما أدبك مؤدِّبك . قال الله تعالى : ﴿وإذا حييتم بتحيةٍ فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ .

قلت : هذه حكاية منكرة ، ورواتها مجاهيل ، لكن نسوقها .

قال : فقال ابن أبي دؤاد : يا أمير المؤمنين الرجل متكلم .

فقال له : كلِّمه . فقال : يا شيخ ما تقول في القرآن؟

قال : لم تنصفني ، ولي السؤال .

قال : سل يا شيخ . قال : ما تقول في القرآن؟ قال : مخلوق .

قال: هذا شيء علمه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر والخلفاء، أم شيء لم يعلموه؟

فقال: شيء لم يعلموه. فقال: سبحان الله، شيء لم يعلموه أعلمته أنت؟

قال: فخجل وقال: أقلني. قال: والمسألة بحالها؟

قال: نعم. قال: ما تقول في القرآن؟

قال: مخلوق. قال شيء علمه رسول الله؟

قال: علمه. قال: علمه ولم يدع الناس إليه؟

قال: نعم. قال: أفلا وسعك ما وسعه ووسع الخلفاء بعده.

فقام أبي الواثق فدخل الخلوة، واستلقى وهو يقول: شيء لم يعلمه النبي ﷺ ولا أبو بكر، ولا عمر، ولا عثمان، ولا علي، علمته أنت؟ سبحان الله. علموه ولم يدعوا الناس إليه، أفلا وسعك ما وسعهم؟ ثم أمر برفع قيود الشيخ، وأمر له بأربعمائة دينار، وسقط ابن أبي دؤاد من عينه، ولم يمتحن بعدها أحدًا.

وروى نحوًا من هذه الواقعة أحمد بن السندي الحداد، عن أحمد بن الممتنع، عن صالح بن علي الهاشمي المنصوري، عن المهتدي بالله، رحمه الله.

قال صالح: حضرته وقد جلس للمتظلمين، فنظرت إلى القصص تقرأ عليه من أولها إلى آخرها، فيأمر بالتوقيع عليها، ويختمها، فيسرني ذلك.

وجعلت أنظر إليه، ففطن، ونظر إليَّ، فغضضت عنه، حتى كان ذلك منه ومني مرارًا. فقال لي: يا صالح في نفسك شيء تحب أن تقوله؟

قلت: نعم. فلما انفضَّ المجلس أُدخلت مجلسه فقال: تقول ما دار في نفسك أو أقول لك؟

فقلت: يا أمير المؤمنين ما ترى.

قال: أقول إنه قد استحسنت ما رأيت منا، فقلت: أي خليفة خليفتنا، إن لم يكن يقول القرآن مخلوق.

فورد على قلبي أمر عظيم، ثم قلت: يا نفس هل تموتين قبل أجلك؟

فقلت: نعم.

فأطرق ثم قال: اسمع مني، فوالله لتسمعن الحق.

فسري عني وقلت: ومن أولى بالحق منك وأنت خليفة رب العالمين، وابن عم سيد المرسلين؟

قال: ما زلت أقول القرآن مخلوق صدرًا من أيام الواثق، حتى أقدم شيخا من أذنه فأُدخل مقيدًا، وهو جميل حسن الشيبة. فرأيت الواثق قد استحيا منه ورق له. فما زال يدنيه حتى قرب منه وجلس، فقال: ناظر ابن أبي دؤاد.

فقال: يا أمير المؤمنين إنه يضعف عن المناظرة.

فغضب وقال: أبو عبد الله يضعف عن مناظرتك أنت؟

قال: هوّن عليك وائذن لي في مناظرته.

فقال: ما دعوناك إلا لهذا.

فقال: احفظ عليّ وعليه؛ ثم قال: يا أحمد أخبرني عن مقالتك هذه، هي مقالة واجبة داخلة في عقد الدين، فلا يكون الدين كاملاً حتى يقال فيه بما قلت؟

قال: نعم. قال: فأخبرني عن رسول الله ﷺ حين بعثه الله، هل ستر شيئًا مما أُمر به؟

قال: لا. قال: فدعا إلى مقالتك هذه؟

فسكت: فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين واحدة.

فقال الواثق: واحدة.

فقال الشيخ: أخبرني عن الله تعالى حين قال: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ أكان الله هو الصادق في إكمال دينه، أو أنت الصادق في نقصانه، حتى قال بمقالتك هذه؟

فسكت. فقال الشيخ: اثنتان.

قال الواثق: نعم. وقال أخبرني عن مقالتك هذه، أعلمها رسول الله ﷺ أم جهلها؟

قال: علمها. قال: فدعا الناس إليها.

فسكت. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين ثلاثة.

قال: فاتسع لرسول الله أن علمها أن يمسك عنها، ولم يطالب أمته بها؟

قال: نعم. قال: واتسع لأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي ذلك؟ قال: نعم. فأعرض الشيخ عنه، وأقبل على الواثق فقال: يا أمير المؤمنين قد قدمت القول أن أحمد يصبو ويضعف عن المناظرة. يا أمير المؤمنين إن لم يتسع لك من الإمساك عن هذه المقالة ما زعم هذا أنه اتسع للنبي ﷺ ولأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، فلا وسّع الله عليك.

قال الواثق: نعم كذا هو. اقطعوا قيد الشيخ.

فلمّا قطعوه ضرب الشيخ بيده إلى القيد فأخذه، فقال الواثق: لمَ أخذته؟

فقال: لأني نويت أن أتقدم إلى من أوصي إليه، إذا مت أن يجعله بيني وبين كفني، حتى أخاصم به هذا عند الله يوم القيامة وأقول: يارب لمَ قيدني وروّع أهلي؟

ثم بكى فبكى الواثق وبكينا. ثم سأله الواثق أن يجعله في حل، وأمر له بصلة فقال: لا حاجة لي بها.

قال المهتدي بالله: فرجعت عن هذه المقالة، وأظن أن الواثق رجع عنها من يومئذ.

وقال إبراهيم نفطويه: حدثني حامد بن العباس، عن رجل، عن المهتدي بالله، أن الواثق مات وقد تاب عن القول بخلق القرآن.

وكان الواثق وافر الأدب. بلغنا أن جارية غنته بشعر العرجيّ:

أظلوم إن مصابكم رجلاً * رد السلام تحية ظلم

فمن الحاضرين من صوب نصب رجلاً، ومنهم من قال: صوابها: رجل.

فقالت: هكذا لقنني المازني.

وطلب المازني، فلما مثل بين يدي الواثق، قال: ممن الرجل؟

قال: من بني مازن. قال: أي الموازن، أمازن تميم، أم مازن قيس، أم مازن ربيعة؟

قلت: مازن ربيعة.

فكلمني حينئذ بلغة قومي فقال: با اسبك. لأنهم يقلبون الميم باء والباء ميم. فكرهت أن أواجهه بمكر، فقلت: بكر يا أمير المؤمنين.

ففطن لها وأعجبته. فقال: ما تقول في هذا البيت.

قلت: الوجه النصب، لأن مصابكم مصدر، بمعنى أصابتكم. فأخذ اليريدي يعارضني، قلت: هو بمنزلة إن ضربك زيدًا ظلم. فالرجل مفعول «مصابكم» والدليل عليه أن الكلام معلّق، إلى أن تقول «ظلم» فيتم. فأعجب الواثق، وأعطاني ألف دينار.

قال ابن أبي الدنيا: كان الواثق أبيض، تعلوه صُفره. حسن اللحية، في عينيه نكتة.

وقال زرقان بن أبي دؤاد: لما احتضر الواثق جعل يردد هذين البيتين:

الموت فيه جميع الخلق مشترك * لا سوقة منهم يبقى ولا ملك

ما ضر أهل عليل في تنافرهم * وليس يغني عن الأملاك ما ملكوا

ثم أمر بالبُسط فطويت وألصق خده بالأرض، وجعل يقول: يا من لا يزول ملكه، ارحم من قد زال ملكه.

روى أحمد بن محمد الواثقي أمير البصرة، عن أبيه قال: كنت أحد من مرّض الواثق في علته، إذ لحقته غشية، فما شككنا أنه مات. فقال بعضنا لبعض تقدموا. فما جسر أحد، فتقدمت أنا، فلما صرت عند رأسه، وأردت أن أضع يدي على أنفه، لحقته إفاقة، ففتح عينيه، فكدت أموت فزعًا، من أن يراني قد مشيت إلى غير رتبتي، فرجعت إلى خلف، فتعلقت قبيعة سيفي بالعتبة، فعثرت على سيفي فاندق، وكاد أن يدخل في لحمي، فسلمت وخرجت، فاستدعيت سيفًا، وجئت فوقفت ساعة، فتلف الواثق تلفًا لم يشك فيه. فشددت لحيته وغمضته وسجيته، وجاء الفراشون، فأخذوا ما تحته يردوه إلى الخزائن، لأنه مثبت عليهم، وتُرك وحده في البيت، فقال لي أحمد بن أبي دؤاد القاضي: إنا نريد أن نتشاغل بعقد البيعة، وأحب أن تحفظه إلى أن يدفن، فأنت من أخصهم به في حياته.

فرددت باب المجلس، وجلست عند الباب، فحسست بعد ساعة بحركة في البيت أفزعتني، فدخلت، فإذا بجرزون قد جاء فاستل عينه فأكلها، فقلت: لا إله إلا الله، هذه العين التي فتحها من ساعة، فاندق سيفي هيبة لها.

قال: وجاءوا فغسلوه، وأخبرت ابن أبي دؤاد الخبر.

قال: والجرزون دابة أكبر من اليربوع.

كانت خلافة الواثق خمس سنين ونصف. ومات بسُرَّ من رأى، يوم الأربعاء، لستٍّ بقين من ذي الحجة، من سنة اثنتين وثلاثين، وبويع بعده المتوكل.

هارون بن معروف (خ) (م) (د)

أبو علي المروزي. نزيل بغداد. كان خزازًا وأضر بأخرة.

روى عن: هُشيم، ويحيى بن أبي زائدة، وابن عيينة، ومروان بن شجاع وعبد العزيز الدراوردي وعبد الله بن وهب، وأبي بكر بن عياش، والوليد بن مسلم، وخلق كثير من العراقيين، والحجازيين، والمصريين، والشاميين، والجزريين.

وعنه: (م)، (د)، و (خ)، عن رجلٍ، عنه: وأحمد بن حنبل، ومحمد بن يحيى الذهلي، وصالح جزرة، وعبد الله بن أحمد، وأحمد بن خيثمة، وموسى بن هارون، وأبو القاسم البغوي، وطائفة.

وثَّقه أبو حاتم، وجماعة.

قال ابن أبي حاتم: سمع منه أبي ببغداد سنة خمس عشرة، بعدما عمي، من حفظه.

وقال أبو داود: سمعت الثقة يقول.

قال هارون بن معروف: رأيت في المنام قيل لي من آثر الحديث على القرآن عُذِّب.

قال: فظننت أن ذهاب بصري من ذلك.

وقال هارون الحمَّال: سمعت هارون بن معروف يقول: من زعم أن القرآن مخلوق فكأنما عبد اللات والعزى.

وروى عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن هارون بن معروف قال: ما زعم أن الله لا يتكلم فهو يعبد الأصنام.

قلت: عاش هارونًا أربعًا وسبعين سنة.

ومات في آخر رمضان سنة إحدى وثلاثين. وكان صدوقًا فاضلًا صاحب سنة.

هارون بن أبي هارون العبدي

حدَّث ببغداد عن: أبي المليح الرقي، وبقية. وعنه: مطين، وعبد الله بن ناجية. وكان صدوقًا

هاشم بن الحارث المروذي نزيل بغداد

عن: أبي المليح، وعبيد الله بن عمرو الرقيين.

وعنه: أبو بكر بن أبي الدنيا، والبغوي، وأحمد بن الحسن الصوفي الكبير، وغيرهم.

وثَّقه الخطيب وقال: توفي سنة أربع وثلاثين. حديثه بعلو في جزءين.

هاشم بن الوليد

أبو طالب الهروي. عن: أبي بكر بن عياش، وحفص بن غياث، ويحيى بن سليم الطائفي.

المصادر والمراجع

العربيـة

لدراسة تاريخ الدولة العباسية

والدول المستقلة

قطاع الشرق من ١ [illegible]

أولاً : المصـادر

قائمة بأهم المصادر
والمراجع العربية

أولاً : المصادر العربية

❖ ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) : الكامل فى التاريخ ـ ١٢ جزءا

❖ الإدريسى (ت ٦٤٩ هـ) : نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان .

❖ البغدادى (ت ٤٦٣ هـ) : تاريخ بغداد ـ ١٤ جزءا .

❖ البكرى (ت٤٨٧ هـ) : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب .

❖ البيرونى (ت ٤٤٠ هـ) : الآثار الباقية عن القرون الخالية .

❖ جب (هاملتون) : دراسات فى حضارة الإسلام " ترجمة احسان عباس ومحمد نجم "

❖ ابن خلدون (ت ٨٠٨-هـ) : العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ مقدمة ابن خلدون.

❖ رشيد الدين (ت ٧١٨ هـ) : جامع التواريخ [عن تاريخ المغول]

❖ ابن سعيد (ت ٦٧٣ هـ) : المغرب فى حلى المغرب .

❖ السيوطى (٩١١ هـ) : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة .

❖ الأصفهانى (٣٥٦ هـ) : كتاب الأغانى .

❖ ابن طباطبا (٧٠٩ هـ) : الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية.

❖ الطبرى (ت ٣١٠ هـ) : تاريخ الأمم والملوك .

❖ الطوسى (ت ٤٦٠ هـ) : فيرست الشيعة .

- أبو الفرج (ت ٦٨٥ هـ) : مختصر تاريخ الدول .
- القلقشندى (ت ٨٢١ هـ) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ١٤ جزءا .
- ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) : البداية والنهاية - ١٤ جزءا .
- الماوردى (ت ٤٥٠ هـ) : الأحكام السلطانية .
- المقدسى (ت ٣٨٧ هـ) : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم .
- أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - ١٢ جزءا .
- المسعودى (ت ٣٤٦ هـ) : مروج الذهب ومعادن الجوهر - جزآن .
- ابن مماتى (ت ٦٠٦ هـ) : قوانين الدواوين .
- النويرى (ت ٧٣٢ هـ) : نهاية الأرب فى فنون الأدب .
- ياقوت الحموى ([illegible]) : معجم البلدان ١٠ أجزاء .

ثانياً : المراجع

ثانيا : المراجع العربية

- إبراهيم على طرخان : المسلمون فى أوربا فى العصور الوسطى .
- أحمد أمين : فجر الإسلام ، ضحى الإسلام ، ظهر الإسلام .
- أحمد شلبى : التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية .
- أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس .
- السيد عبد العزيز سالم : العصر العباسى الأول
- بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية (ترجمة نبيه أمين فارس)
- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى – ٤ أجزاء .
- حسن الباشا : دراسات فى تاريخ الدولة العباسية .
- حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية .
- حسين أمين : تاريخ العراق فى العصر السلجوقى
- زكى محمد حسن : فنون الإسلام .
- سيديو : تاريخ العرب العام (ترجمة عادل زعيتر) .
- عبد الشافى غنيم وأحمد الشامى وحسين عليوه : كتاب التاريخ والحضارة الإسلامية .
- عبد العزيز الدورى : النظم الإسلامية .
- عبد النعيم حسنين : سلاجقة إيران والعراق .
- على إبراهيم حسن : التاريخ الإسلامى العام .
- محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق .
- محمد الخضرى : تاريخ الأمم الإسلامية .

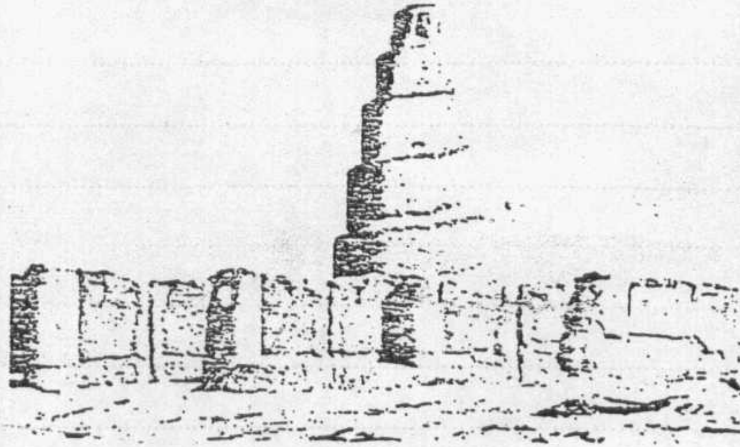
❖ محمد كرد على : الإسلام والحضارة العربية - جزآن .
❖ محمد حلمى أحمد : الخلافة والدولة فى العصر العباسى .

فهرس

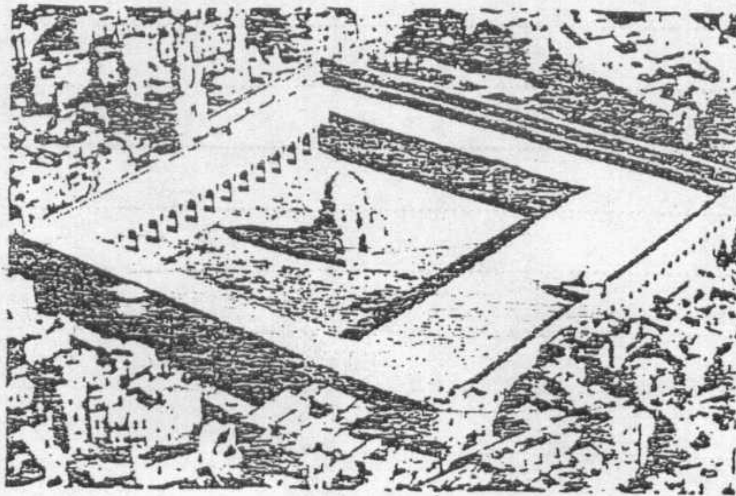
موضوعات المذكرة

فهرس موضوعات المذكرة

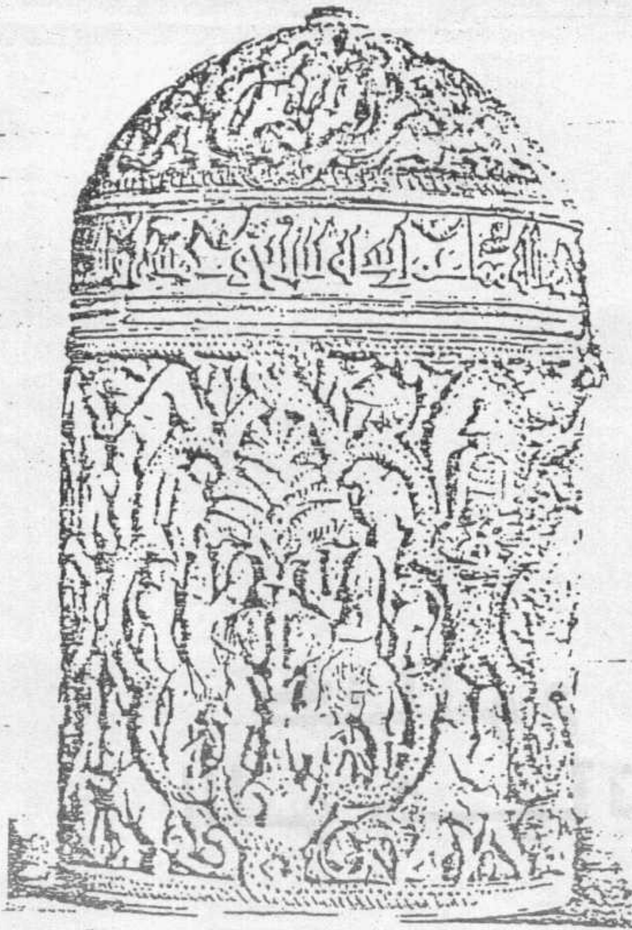
كتالوج اللوحات



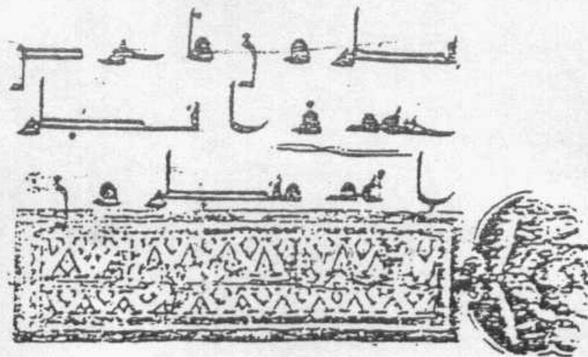
- الجامع الكبير في سامراً



أ - جامع ابن طولون في القاهرة (من فوق)



– علبة من العاج في متحف لوفر باريس



– صفحة من القرآن الكريم بالخط الكوفي

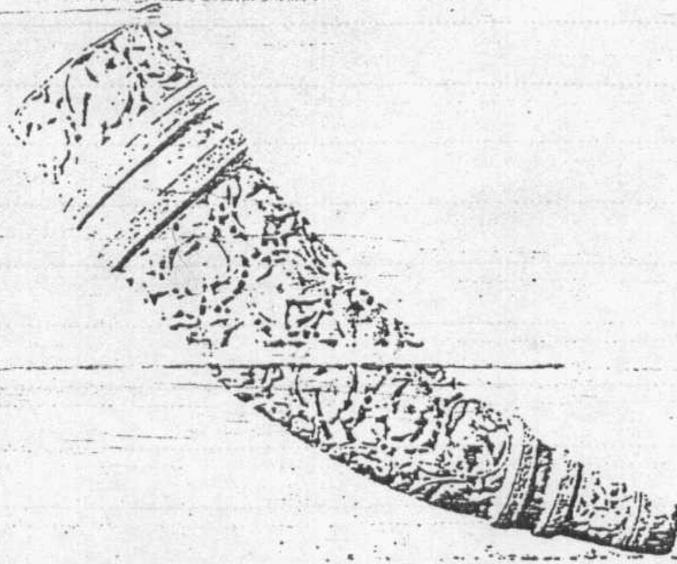


قطعة من البلاط المعروف ببلاط
سامرّا في متحف لوفر باريس



لوحة لراقصات موجودة في
قصر الخليفة بسامرّا

بوق من العاج في متحف الفن الإسلامي ببرلين

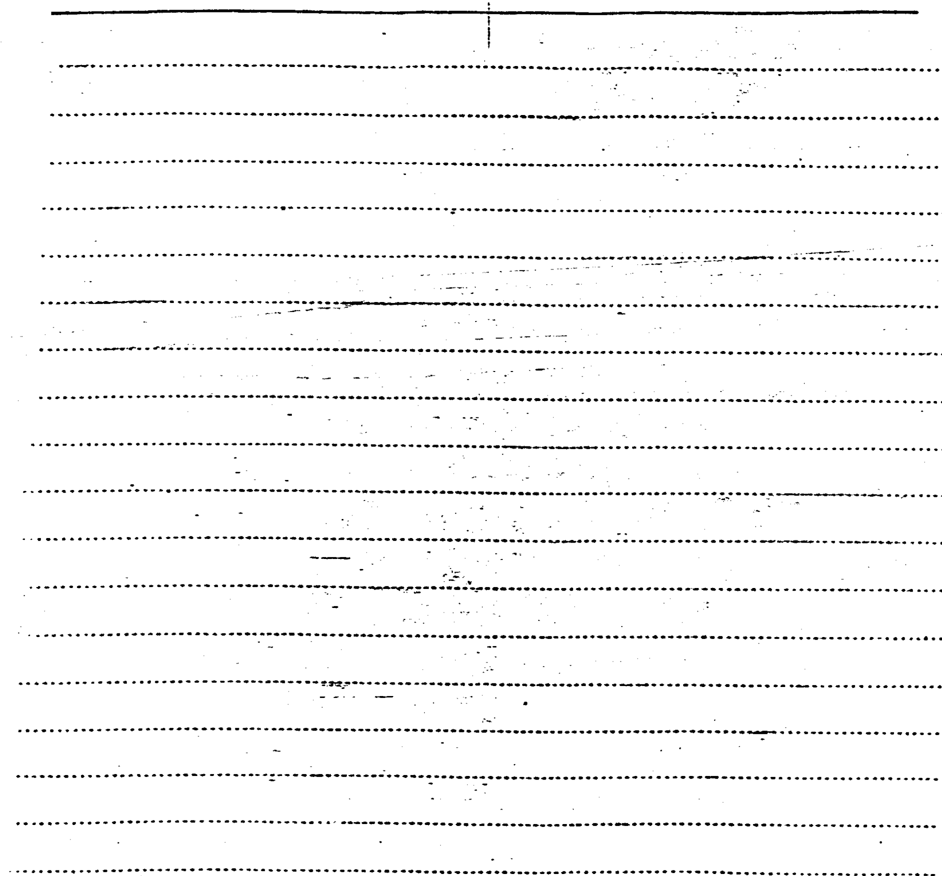


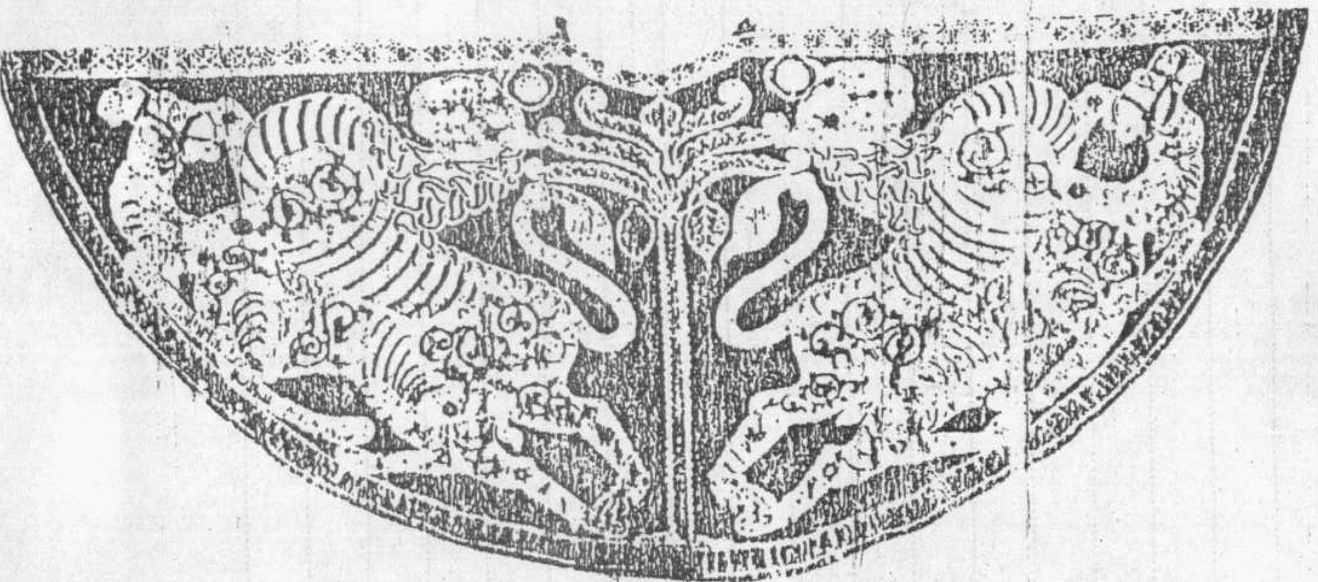


درفة لباب موجودة في مدينة باليرمو

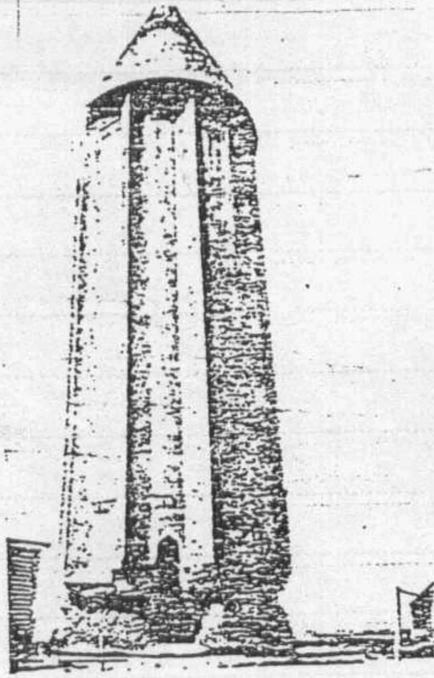


لوحة من العاج في المتحف القومي بفلورانسا

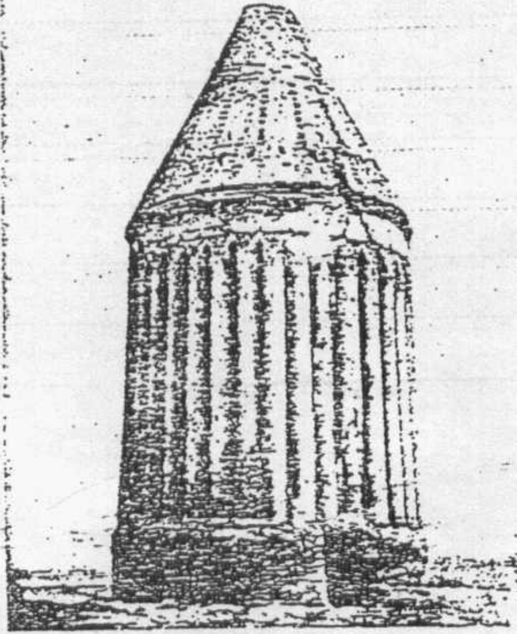




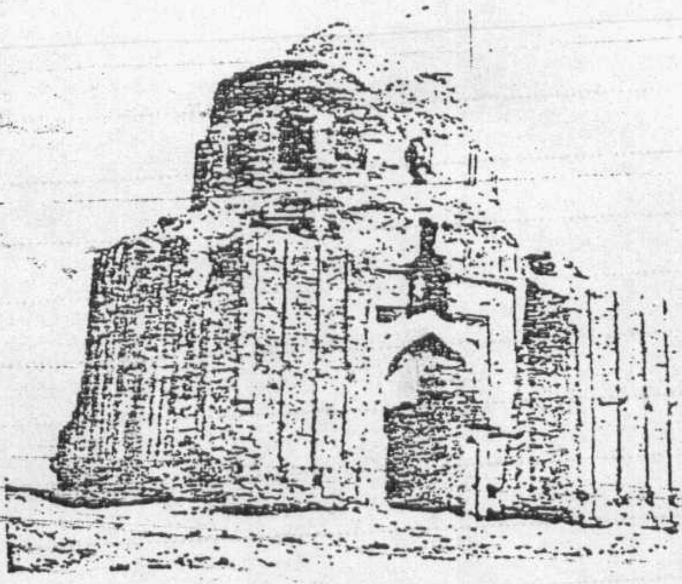
٠- عباءة كانت تُستعمل لتتويج الأمبراطور الألماني موجودة في حجرة الكنوز بفينا



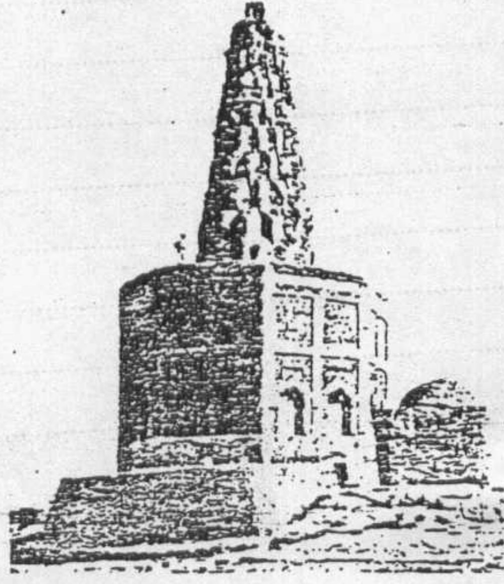
– ضريح بشكل البرج في جرجان



– ضريح بشكل البرج في ردكان قرب طهران

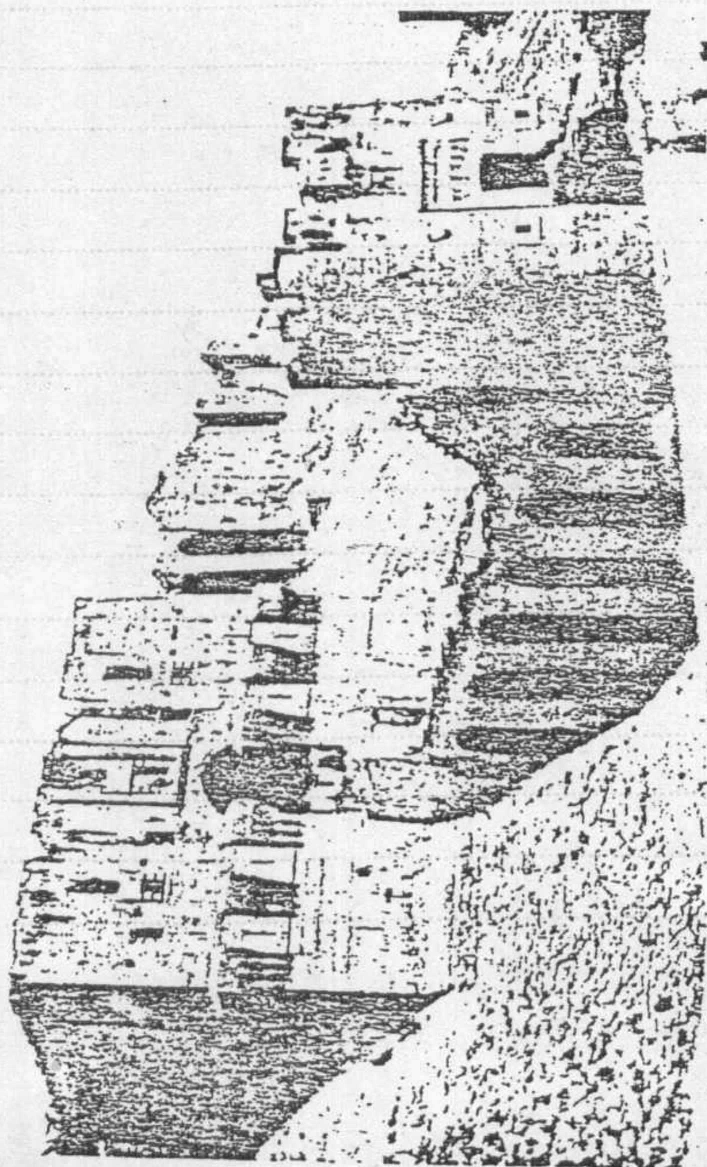


- قبر الغزالي في طوس

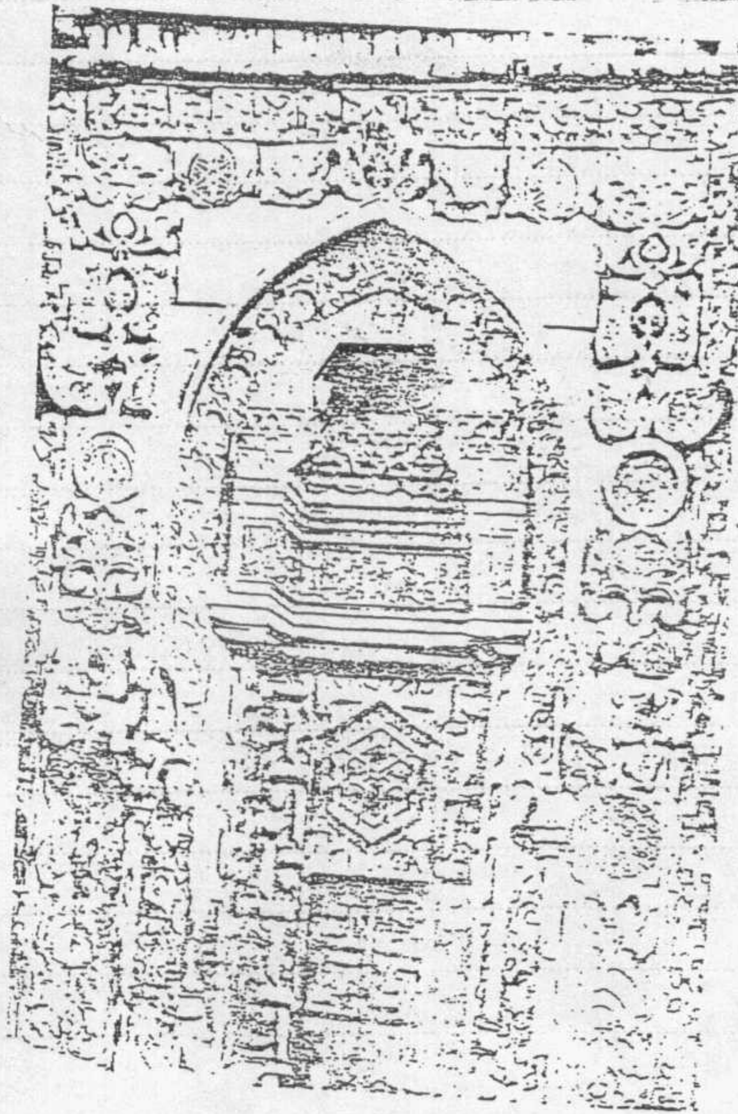


- ضريح الست زبيدة في بغداد

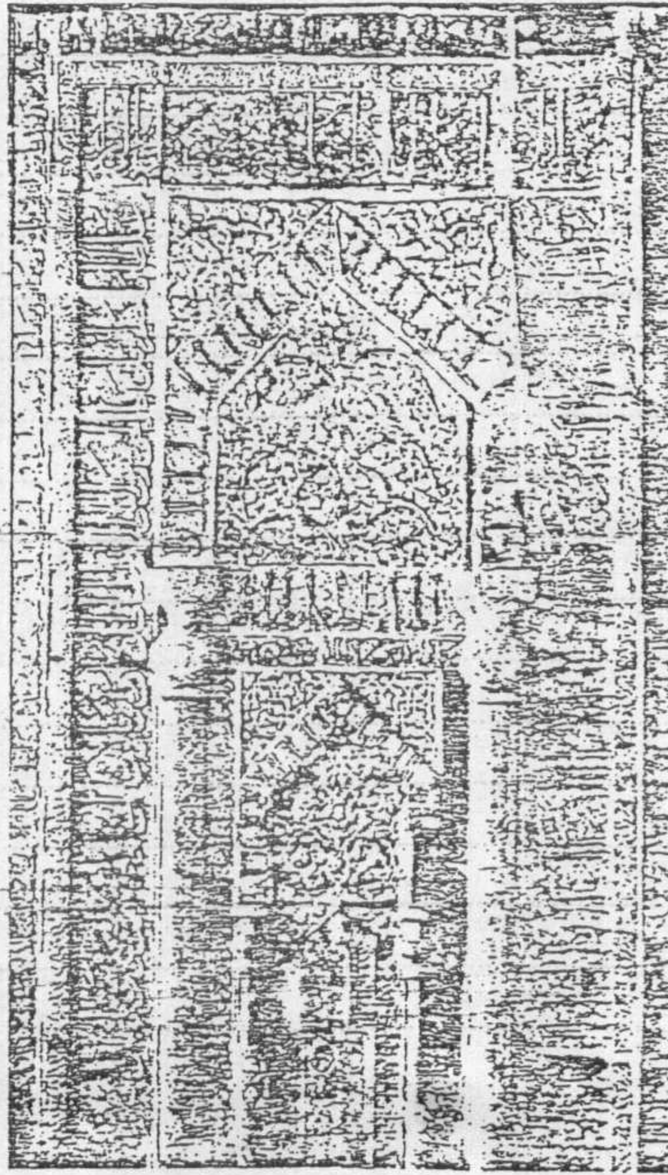
7



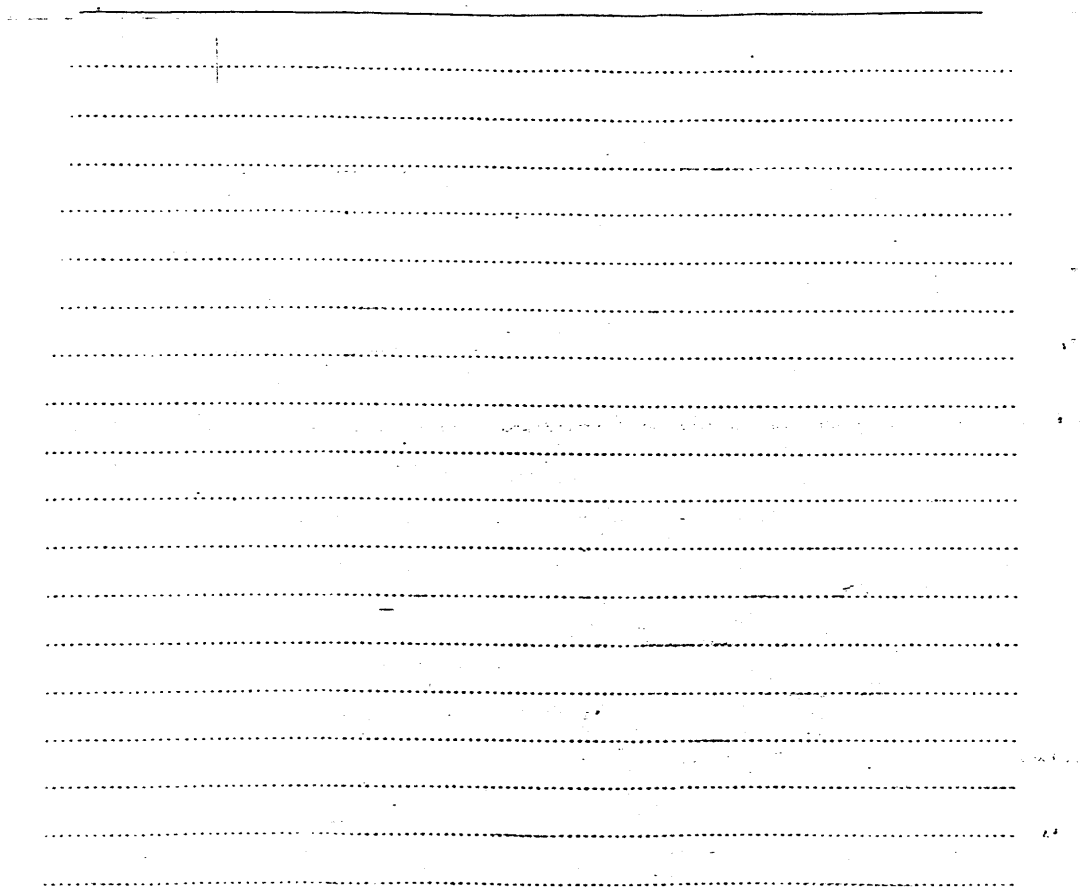
ـ مدخل قلعة حلب

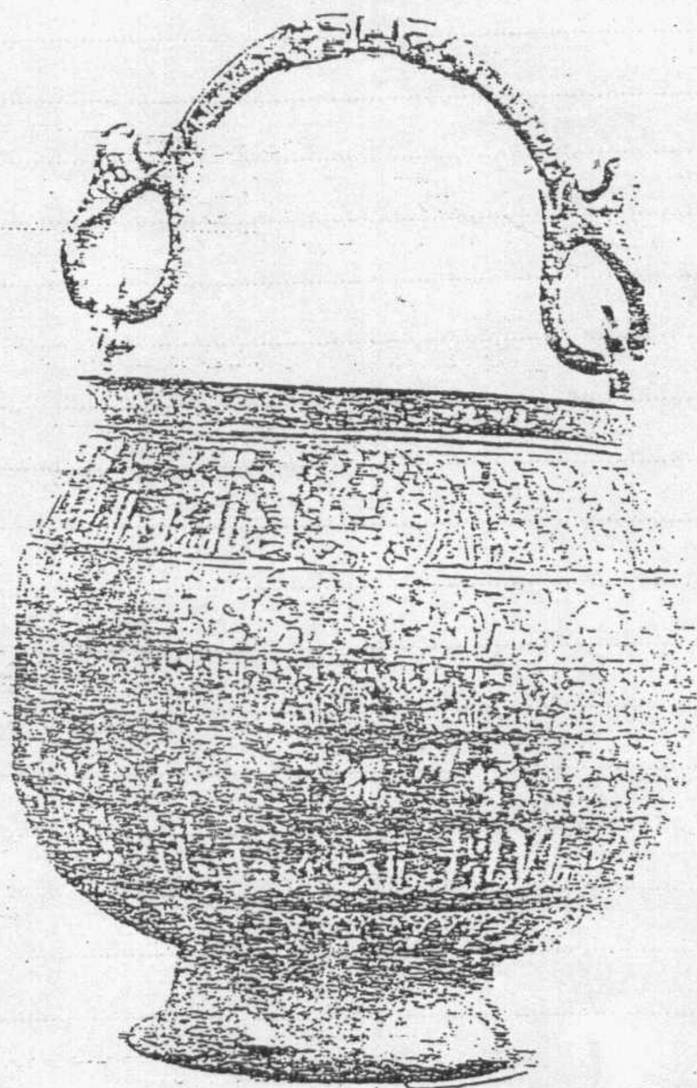


باب جامع في مدينة دفرك في الأناضول .



ـ محراب من البلاط ذي البريق المعدني في جامع الميدان بقاشان

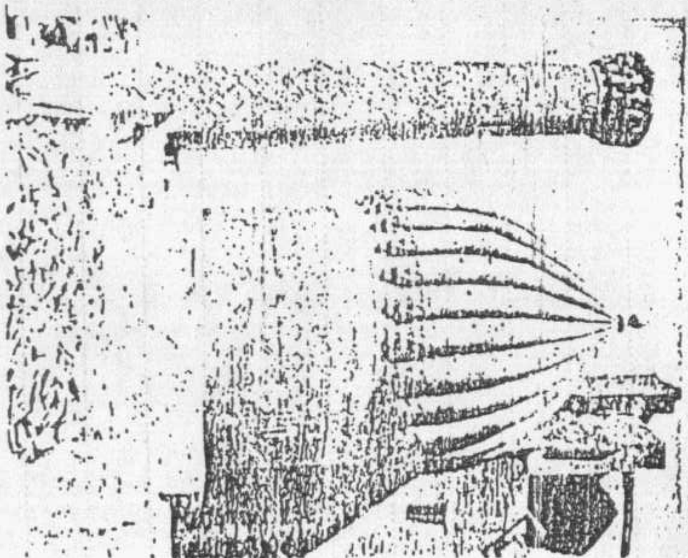




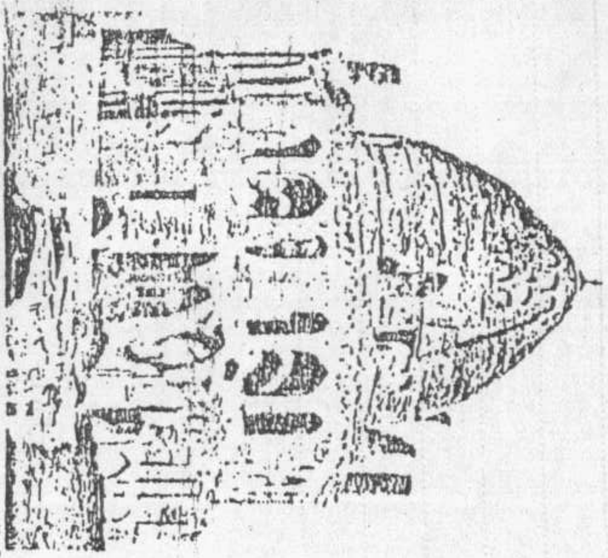
قدر من البرونز مصنوعة سنة ١١٦٣ م وهي محفوظة بلينغراد



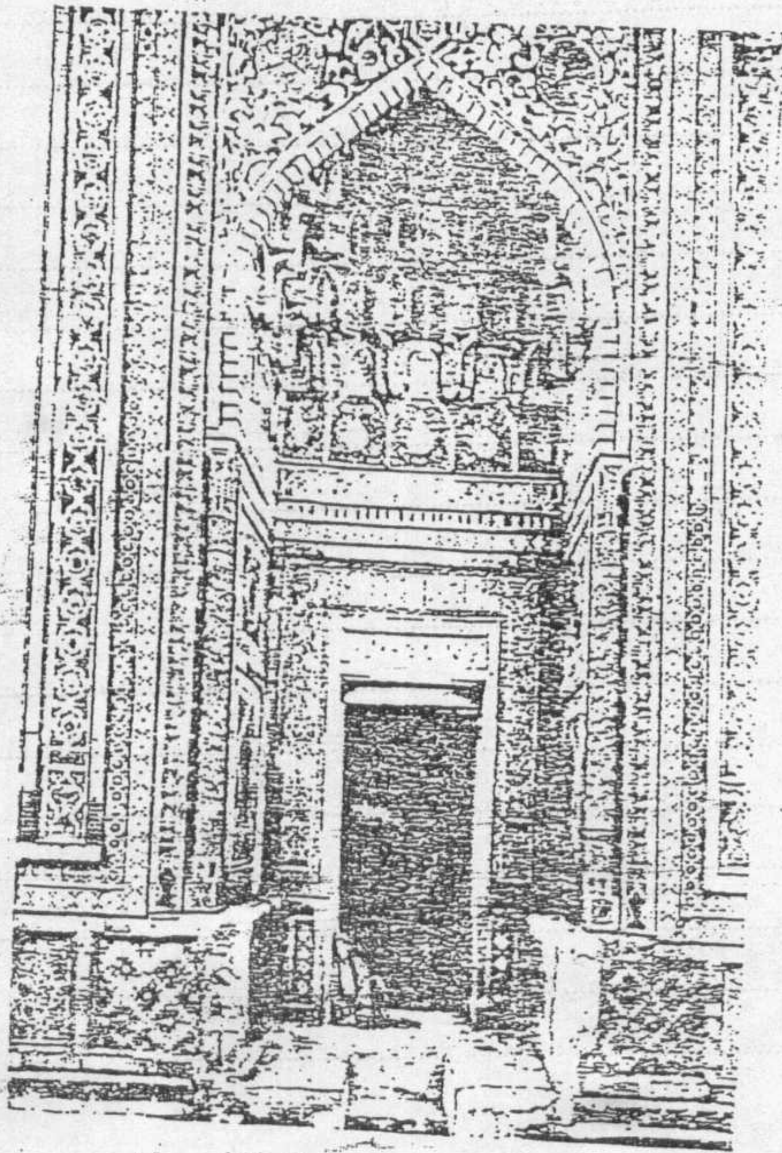




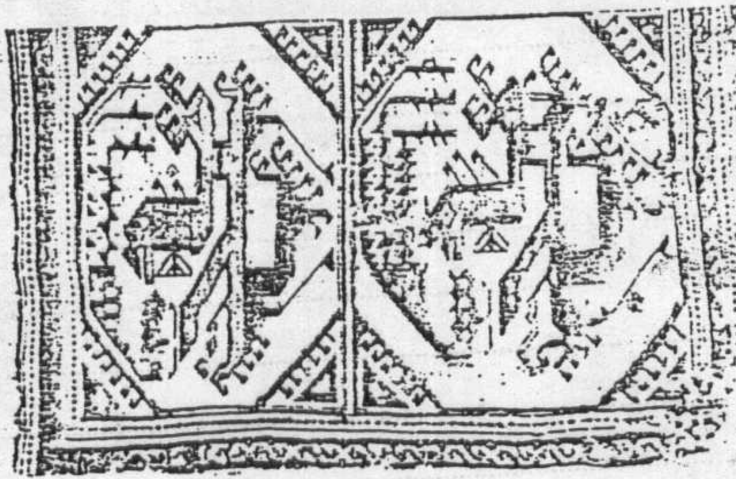
قبة جامع شيردار في سمرقند



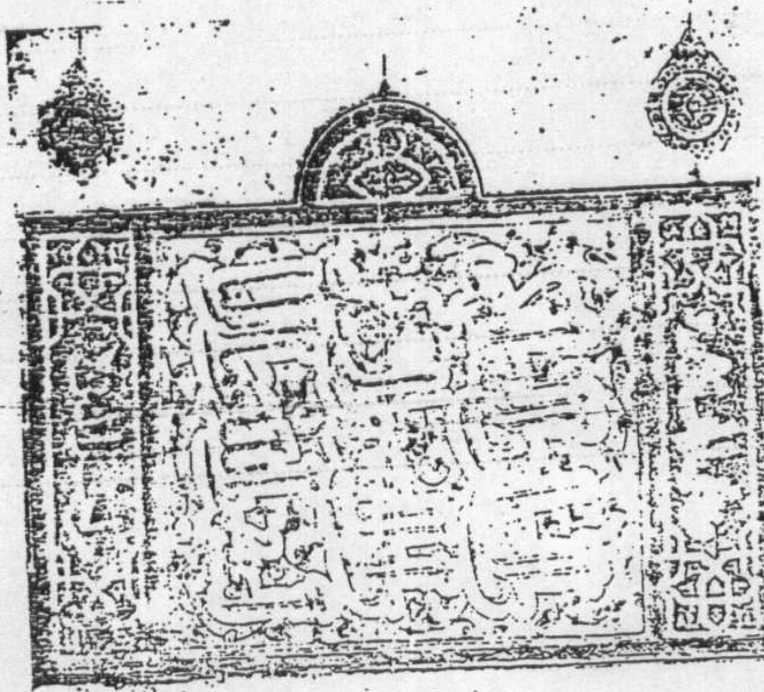
– ضريح أولجايتو خوده بنده الموجود في مدينة سلطانية



باب ضريح جوجوق بيكا في سمرقند



سجادة تتبية موجودة في متحف الفن الإسلامي ببرلين



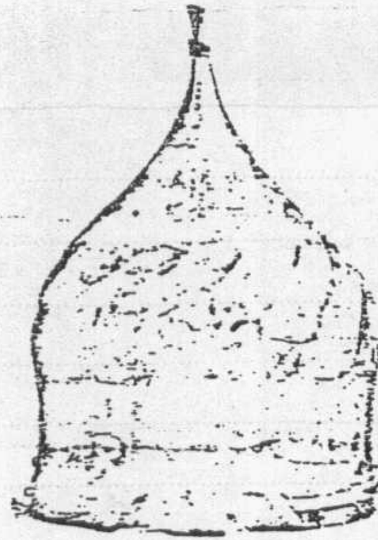
- صفحة من القرآن الكريم المحفوظ في مدينة ليننغ



– صورة مصغرة من كتاب في الحيوان موجود
في مكتبة المورغن بنيويورك



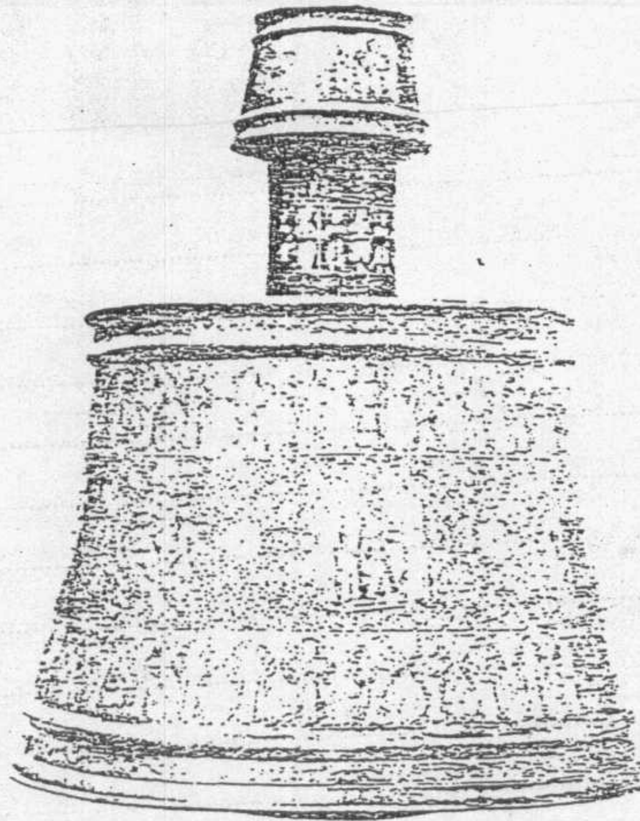
– صورة مصغرة من كتاب رشيد الدين في التأريخ بلندن



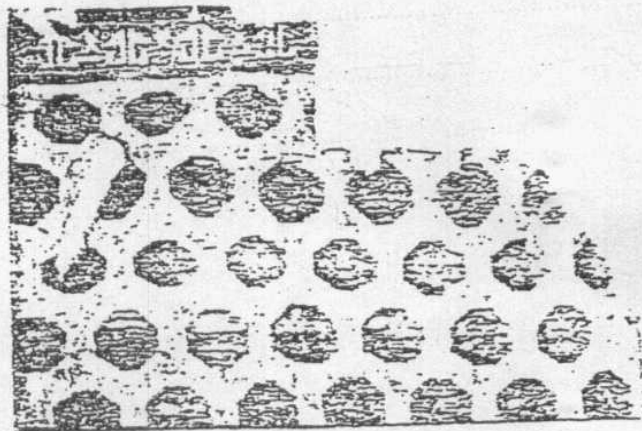
- خوذة مغولي في متحف داليم برلين



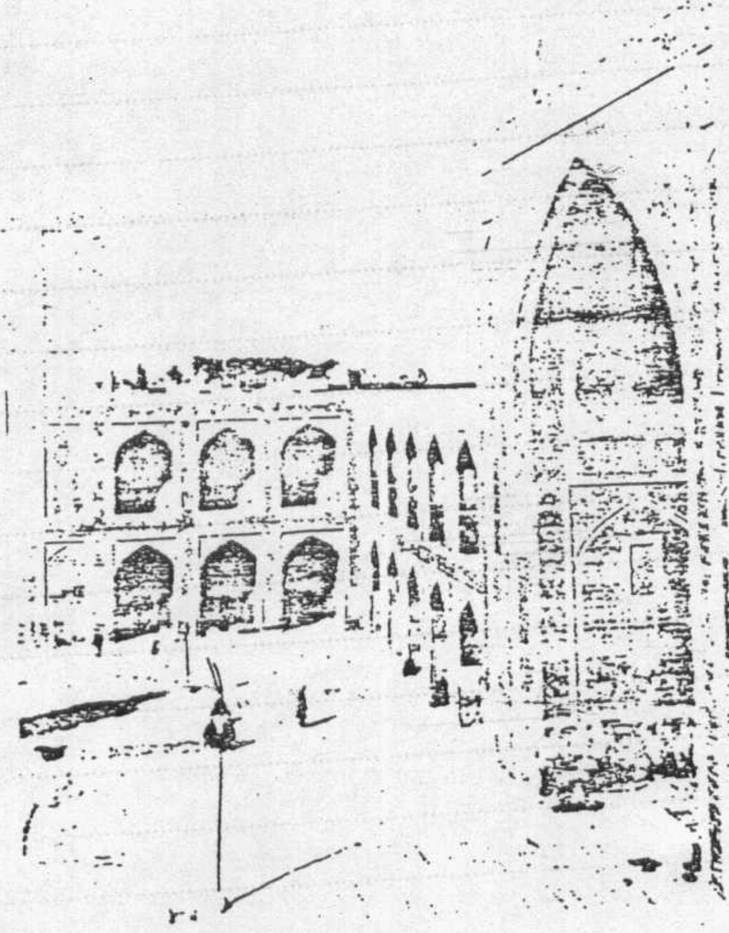
- صورة مصغرة من كتاب شاهنامه



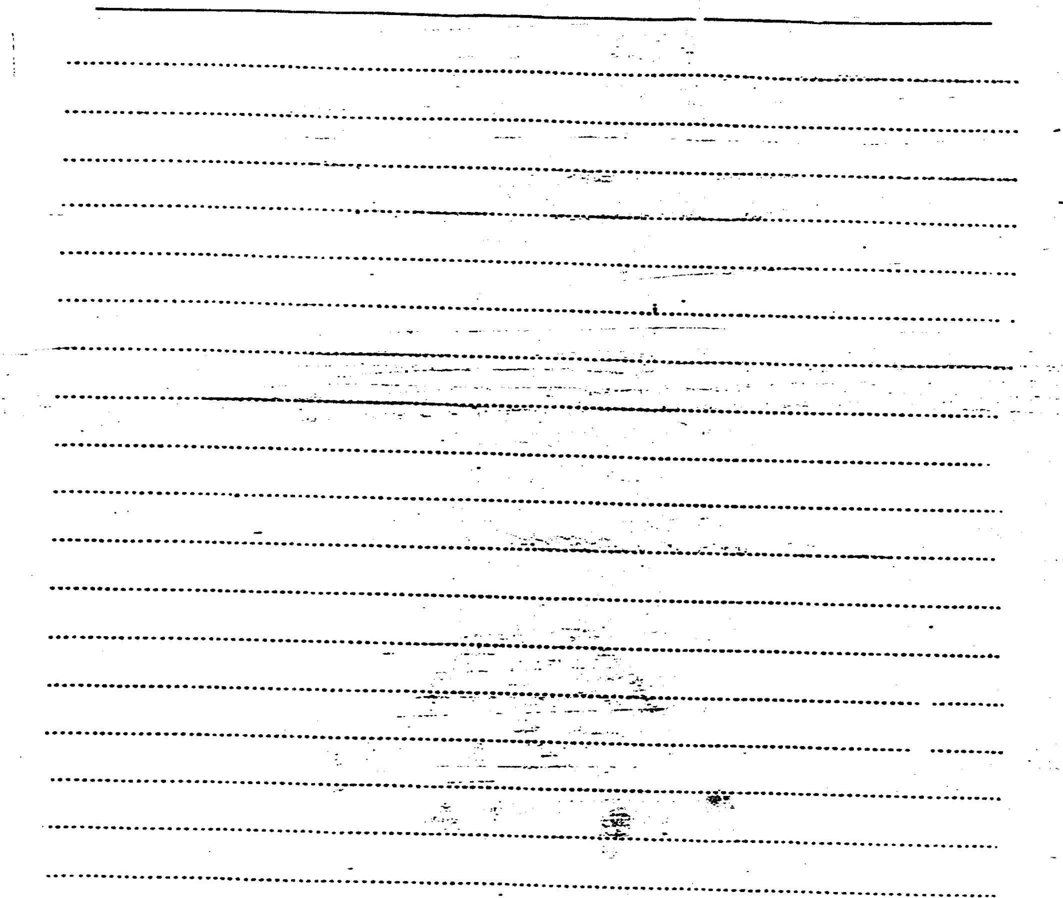
– شمعدان موصلي في متحف لوفر باريس



– سجادة من قونية وهي الآن في متحف الفن
الإسلامي باستانبول

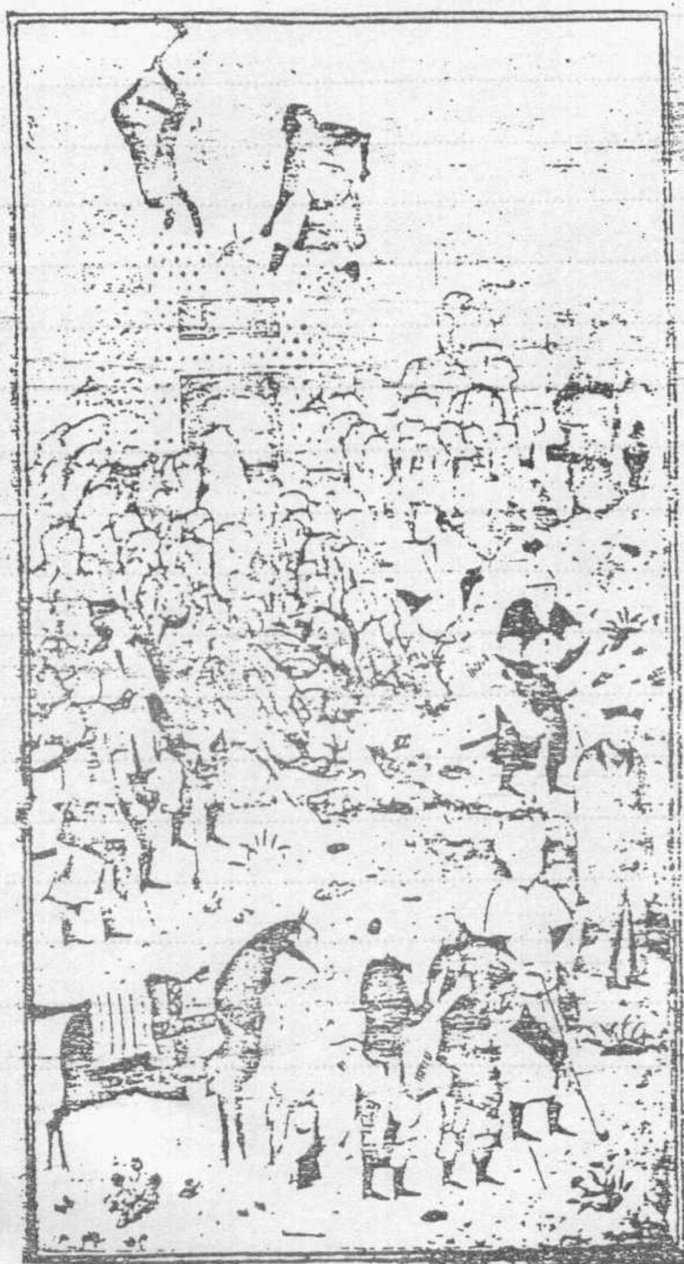


صحن جامع الشاه في أصفهان





جسر فوق نهر زنده رود في أصفهان



صورة مصغرة للرسام الفارسي بهزاد في وقف
غوبكان بلشبون

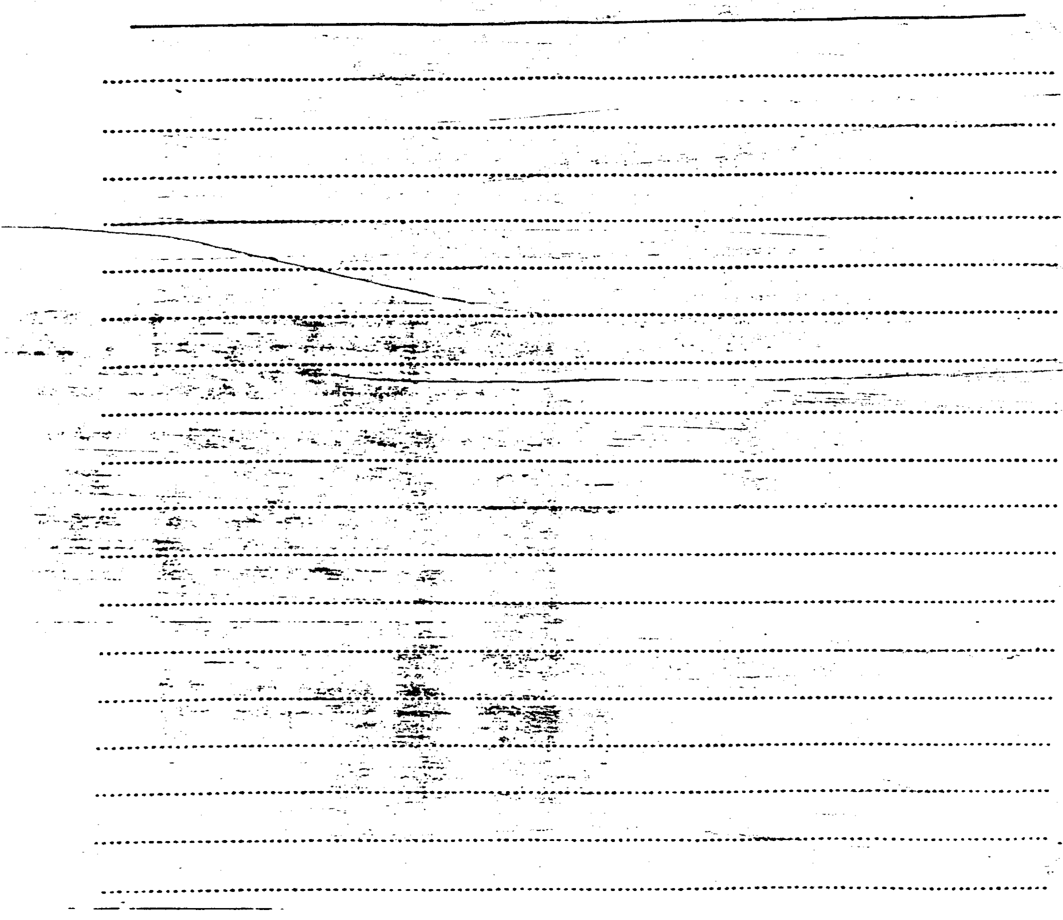


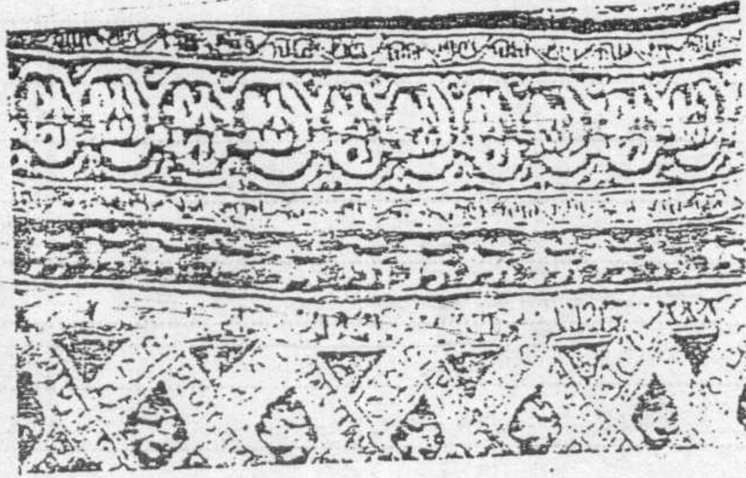
— صورة مصغرة للرسام الفارسي رضى عباسي
وهي موجودة في معهد الشرق بلينينغراد



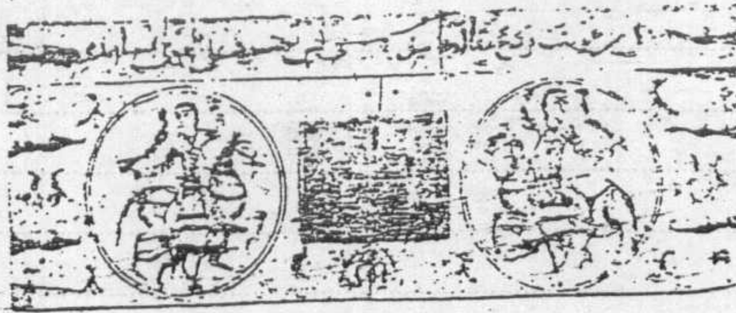
— خط فارسي

م ١

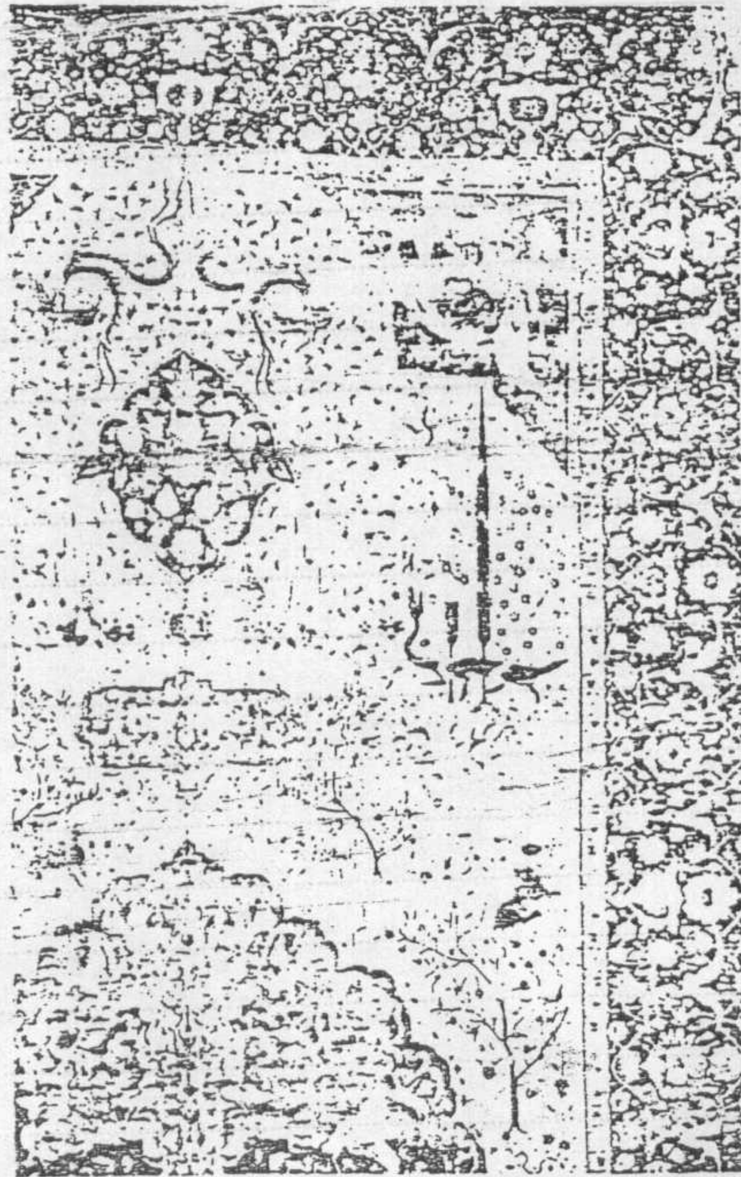




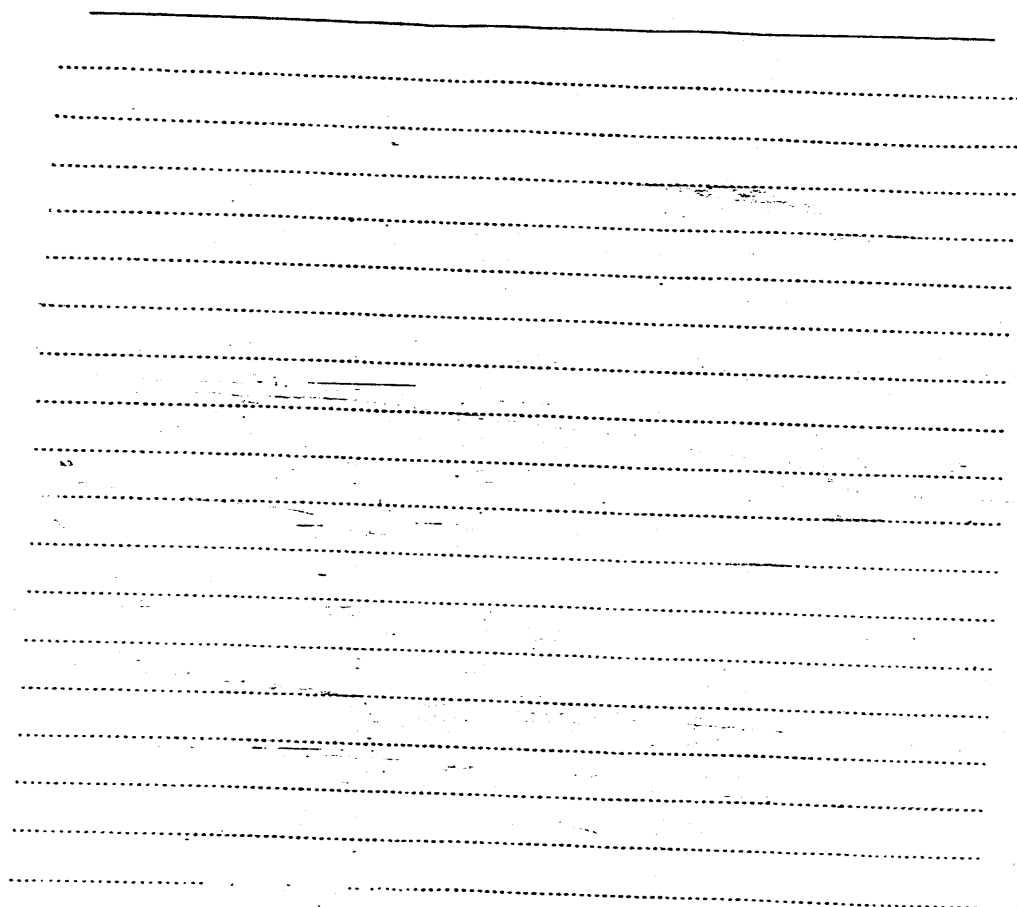
– قطعة من القماش المعروف بقماش الطراز في
متحف الحرف برلين

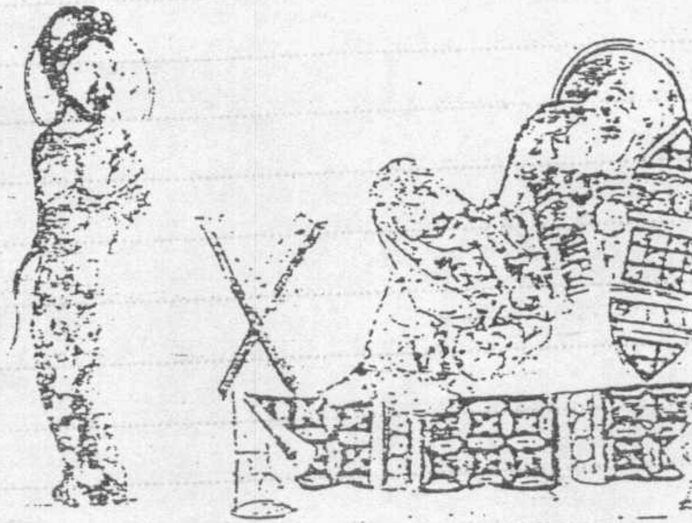


. رسوم على صندوق من العاج موجود في
كاتدرائية ترنت

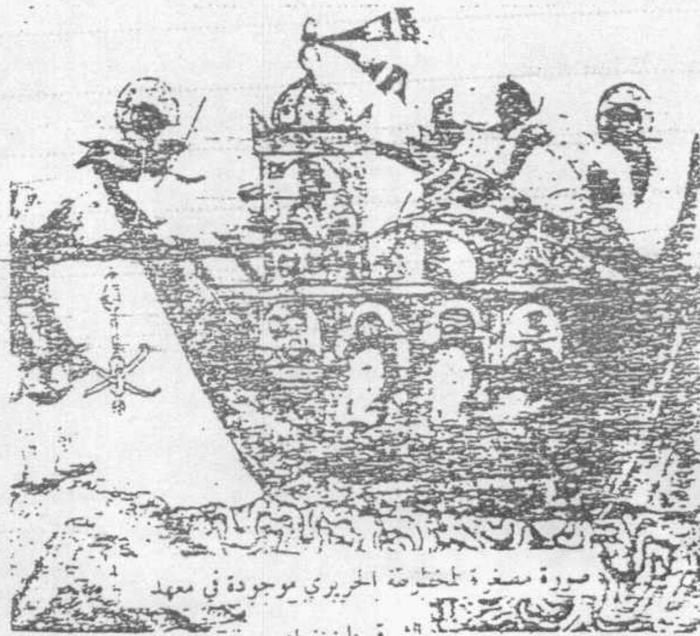


سجادة الحيوان في متحف بمدينة لوس أنجلوس

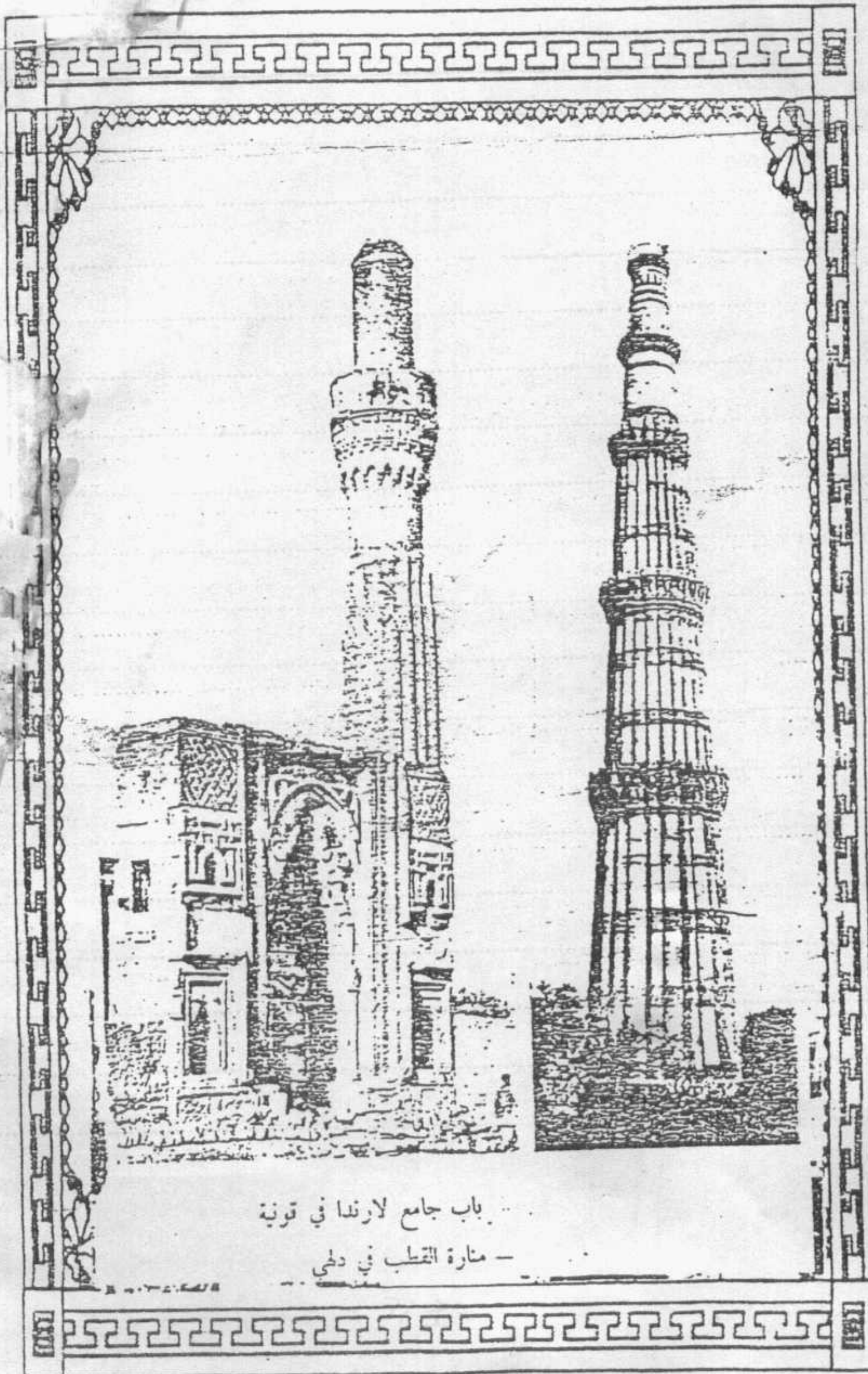




- صورة مصغرة لمخطوطة « ديوسقريديس »



- صورة مصغرة لمخطوطة الحريري موجودة في معهد الشرق بلينغراد



باب جامع لارندا في قونية

— منارة القطب في دلهي